

التَّسْوِيعُ الْمَضْرِيَّ

الْفَاطِمِيَّ

إِشْعَاقُ حَيْثُ وَحَضَارَتُ

مِثْلَانِ وَعَشْرَ سَنَوَاتٍ
مِنَ الْإِبْدَاعِ الْإِنْسَانِيَّ

تَأْلِيفُ : الدِّكْتُورُ حَسَنُ مُحَمَّدٍ صَالِحٍ
أَسْتَاذُ حُضْرٍ فِي الْجَامِعَةِ اللَّبْنَانِيَّةِ

١

المرتكزات الدينية والتاريخية

دارُ المِجْدِ البيضاء

التَّسْوِيعُ الْمَضْرِيّ

الْفَاطِمِيّ

إِشْعَاقُ حَيْثُ وَحَضَارَةُ

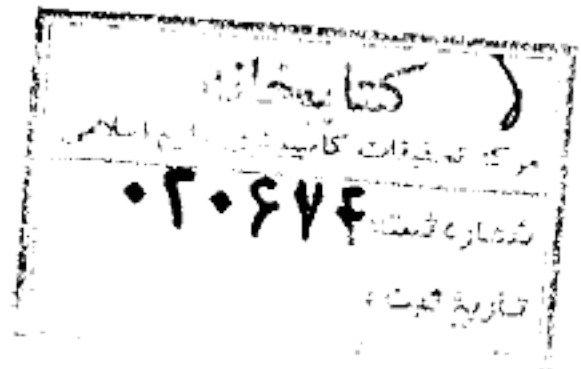
مِثْلَانِ وَعِشْرُونَ سَنَوَاتٍ
مِنَ الْإِبْدَاعِ الْإِنْسَانِيّ

تَأْلِيفُ : الذِّكْرُ حَسَنُ مُحَمَّدٍ صَالِحٍ
أَسْتَاذُ مُحَاضِرَاتِ الْجَامِعَةِ اللَّبْنَانِيَّةِ

٣

مَنَاخُ الْحُرِيَّةِ وَتَجَلِّيَاتِهِ فِي عَمَلِ الْمَوْسِسَاتِ

دارُ المِجْدِ الْبَيْضَاءِ



حقوق الطباعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٦ م



مركز البحوث والدراسات الإسلامية



الرئيس - خلف محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب. ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٢/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com

للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



الكتاب الثالث

مناخ الحرية وتجلياته الحضارية في عمل مؤسسات الدولة ومؤسسات القطاع الخاص

- ١ - الفاطميون وحرية المعتقد.
- ٢ - ظاهرة العفو عند الفاطميين.
- ٣ - الخلفاء الفاطميون يعملون لغذاء الروح وغذاء الجسد.
- ٤ - تخلق الفاطميين بالأخلاق المميزة.
- ٥ - أخلاق الشعب المصري في ظل الإسلام الشيعي.
- ٦ - أعياد الدولة الفاطمية ٢٧٠ يوماً من أصل ٣٥٤ يوماً.
- ٧ - من المظاهر الحضارية عند الفاطميين: التأنق في الملبس.
- ٨ - مظاهر الترف والدعة والغنى الفاحش في كل نواحي الحياة اليومية.
- ٩ - الخلفاء الفاطميون يرشّون الذهب كزخّات المطر.
- ١٠ - غنى القصور وغنى الحاشية، نتيجة حتمية للثراء الذي كان يعيشه المصريون في ظل الخلفاء الفاطميين.
- ١١ - تأنق الفاطميين في الماكل، مظهر حضاري متقدّم.

الفاطميون وحرية المعتقد

لم يعرف التاريخ القديم والوسيط والمعاصر، حكّاماً يؤمنون بحرية معتقد كل إنسان، كالخلفاء الفاطميين. والأخبار التي نقلها لنا المؤرخون الحياديون عن هؤلاء الخلفاء، تعطينا صورة كاملة عن إيمان هؤلاء الخلفاء بضرورة امتلاك كل إنسان حرّيته فيما يعتقد، والأمثلة الحيّة التي سنقدّمها عن تصرّفاتهم - متجاوزين عهد الخليفة الحاكم - باعتبار تصرّفات ونقيضها أمراً شاذاً في تاريخهم، ستظهر لنا عمق هامش الحرية الذي تركه هؤلاء الخلفاء، لكل إنسان تحت ظلّ خلافتهم، كي يمارس فيه معتقداته وأفكاره الدينية حسب ما يرتئي ويريد.

وعلى سبيل المثال، كنّا قد أشرنا إلى هذا المنشور المهمّ الذي عمّمه الحاكم بأمر الله الفاطمي، في مكان آخر من هذا الكتاب ولأهميته نعيد ذكر بعض ما ورد فيه، حيث عمّم الحاكم «على سائر المنابر بأنّه يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ويفطرون. والصلوات الخمس للذين، فيما جاءهم فيها يصلّون. وصلاة الضحى وصلاة التراويح، لا

مانع لهم منها ولا هم عنها يُدفعون، يخمس في التكبير على الجنائز
المخمسون، ولا يمنع من التربيع عليها المرَبعون. يُؤذَن بحَيٍّ على
خير العمل المؤذَنون ولا يُؤذَى من بها لا يؤذَنون. ولا يُسبُّ أحد من
السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف، والحالف بما
حلف لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده، وإلى ربِّه معاده. عنده
كتابه وعليه حسابه»^(١).

وليس هناك أوضح من هذا المنشور في إعطاء الحرية لكل
إنسان، لأن يجتهد في تفسير الأمور كما يراها، وأن يعتقد كما يريد
وقد نسفَ هذا السجَل كل التصرفات الصببانية التي أقدم عليها
الحاكم في بداية حكمه.

وإذا أعدنا قراءة تاريخ الدولة الفاطمية، وحاولنا التعرف على
قضائتها وكتَّابها ووزرائها، نجد أنهم كانوا يختارون من كل المذاهب
والأديان، لا فرق بين مسلم ومسلم، أو مسلم وقبطي، أو يهودي إلا
بحسن خدمته ورعايته لمصالح الشعب المصري ودار الخلافة.

موقف الفاطميين من مذاهب الإسلام السني:

يخبرنا المقرئ في الأخبار والنُتفِ الكثيرة التي أوردها في
معرض تأريخه لهذه الدولة، أنَّ أكثر مذاهب السنة كان لها قضائتها،
يحكمون في كل الناس، وكل المصريين، حسب مذهب كل واحد
منهم دون اعتراض.

(١) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٢٤٢.

ويحدثنا المقرئزي عن «أبو الفرج هبة الله القاضي، خطيب جامع مصر، وهو شافعي المذهب، وذكر لنا أنه خطب في الجامع خطبة عيد الغدير، ثم أصبح بعدها قاضي القضاة في مصر وذلك سنة ٥١٥ للهجرة»^(١).

وفي الحديث عن أخبار سنة ٥٢٥ هـ، قال المقرئزي إن «أبو علي بن الأفضل رتب في الحكم أربع قضاة، فصار كل قاضي يحكم بمذهبه ويورث بمذهبه، فكان قاضي الشافعية سلطان بن إبراهيم بن المسلم، وقاضي المالكية أبو عبدالله محمد بن محمد اللبني المغربي، وقاضي الإسماعيلية أبو الفضائل هبة الله بن عبدالله المعروف بابن الأزرق، وقاضي الإمامية القاضي المفضل، أبو القاسم ابن هبة الله بن محمد بن أبي كامل»، وعقب المقرئزي على هذا القرار بقوله: ولم يسمع بمثله هنا في الملة الإسلامية قبل ذلك^(٢).

ويخبرنا المسبحي في تاريخه أنه لما اختلف الشريف أبو طالب العجمي صاحب دار الصناعة (الأسطول)، مع ابن أبي الرداد (مسؤول مقياس النيل)، أقدم الشريف العجمي على اعتقال ابن أبي الرداد، ووصل الخبر لقاضي القضاة أبي العباس أحمد بن أبي العوام فحكم بينهما وأعطى كل ذي حق حقه، وابن أبي العوام هو حنفي المذهب، ولد في مصر سنة ٣٤٩ هـ ونشأ وتربى على مذهب أبي حنيفة، ولما ولأه الحاكم القضاء بمصر سنة ٤٠٥ هـ،

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٤٥٣.

(٢) اتعاظ الحنفاء، الثالث، ص ١٤٢.

«اعترض على ذلك جماعة وقالوا للحاكم: إنه ليس على مذهبك، فقال: هو ثقة مأمون عارف بالقضاء». وأضاف إليه الحاكم، أحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمين، وجعل له أيضاً النظر في العيار في دار الضرب، والصلاة والمواثيق والمساجد. ولما تولى ولده الظاهر الخلافة، أقره على ما كان عليه^(١).

ويخبرنا أيمن فؤاد السيد عن وزارة رضوان بن ولخشي للخليفة الحافظ أنه أول وزير سني يتولى مركز الوزير الأول في الخلافة الفاطمية. وقد أصدر له الخليفة الحافظ مرسوم التكليف سنة ٥٢١ هجرية^(٢).

وعندما يتحدث المقرئ عن رضوان بن ولخشي يخبرنا بأنه أول ما بدأ وزارته «أخذ يهين حاشية الخليفة إذا حضروا إليه، ويقدر في مذهبه لأنه كان سنياً، وكان أخوه الوحيد، إبراهيم شيعياً إمامياً. فلم كثر ذلك منه انزعج الخليفة ولكنه لم يظهر تغيراً، وأخذ يعمل في الخلاص منه، فتنافر كل منهما من الآخر^(٣)».

ويخبرنا المقرئ أنه عندما حاول الوزير المأمون أخذ بعض الأموال من مصرف الأيتام واستدعى الفقيه المالكي - أبو بكر الطرطوشي - المعروف بابن أبي رندقة، كان الجواب بعد التشاور أن مذهب المواثيق يعمل به على أساس «أن كل من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه» وبعد أن أشار الفقيه المالكي إلى فتوى

(١) راجع: أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ٢٢٩.

(٢) راجع: الدولة الفاطمية في مصر، م.س. ص ٢٦٤.

(٣) راجع: اتعاظ الحنفا، الثالث، ص ١٦٦.

تسمح له بالتهرب من هذا الحكم، لم يقتنع الوزير المأمون وقال له: «أنا نائب الخليفة، ومذهبه ومذهب جميع الشيعة من الزيدي والإمامي والإسماعيلي أن الإرث جميعه للابنة خاصة بلا عصبية ولا بيت مال، ويتمسكون بأنه من كتاب الله، كما يتمسك غيرهم. وأبو حنيفة - رحمه الله - يوافقهم في القضية»^(١).

ومحاولة أخذ فتوى من قاضي سني لإزالة حكم شرعي جعفري، تحت مظلة دولة جعفرية، وعدم اقتناع الوزير بفتوى القاضي، دليل ساطع على اتساع هامش الحرية في ظل هذه الدولة.

أما الأشراف الطالبيون، فكان لهم المحل الأول من الدولة الفاطمية في المراكز والوظائف والأحكام والشورى. ومهما كان انتماءهم وعقيدتهم الإمامية، زيدية كانت، أم إثني عشرية أم إسماعيلية. حتى أن أحكام قضائهم كانت تسري على كل المسلمين الشيعة، ويروي لنا المقرئ كيف أن الوزير الأول، رضوان بن ولخشي، حاول عزل الخليفة الحافظ بفتوى من القاضي الإمامي أو القاضي الإسماعيلي، وكيف رفض القاضيان إعطاء الفتوى بخلعه. رغم التهديد والوعيد والشتائم.

وعندما توفى الوزير الأول، الأفضل بن بدر الجمالي وكان شيعياً إمامياً، «تقدم الخليفة الأمر، بإحضار داعي الدعاة، ولي الدولة، ابن عبد الحقيق، وأمره بغسل الأفضل على ما يقتضيه مذهبه».

(١) اتعاظ الحنفا، الثالث، ص ٨٩.

الحرية والأمن لكل المذاهب والأديان:

وأصدر الأمر بياناً، نعى فيه وزيره الأفضل، وعممه على كافة أنحاء بلاد الخلافة الفاطمية وأمصارها عن طريق الحمام الزاجل جاء فيه:

«ولما كانت همّة أمير المؤمنين مصروفة للاهتمام بكم، والنظر في مصالحكم، والإحسان إليكم، وتأمين سربكم، وإعذاب شربكم، ومدّ رواق العدل عليكم، وإنصاف مظلومكم من ظالمكم، وضعيفكم من قويكم، ومشروفكم من شريفكم، وكفّ عوادي المضار بأسرها عنكم، وتمكينكم من التصرف بأديانكم، على ما يعتقد كل منكم، جارين على رسمكم وعاداتكم، من غير اعتراض عليكم. رأى ما خرج به عالي أمره، من كتابة هذا السجل، وتلاوته على جميعكم، لتثقوا به، وتسكنوا إليه، وتحققوا جميل رأي أمير المؤمنين فيكم، وأنه لا يشغله عن مصالح الكافة شاغل، وأنّ باب رحمته مفتوح لمن قصده، وإحسانه عميم شامل، وله إلى تأمل أحوال الصغير والكبير منكم عينٌ ناظرة، وفي إحسان سياستكم عزيمة حاضرة، وأفعال ظاهرة، والله تعالى، يمدّه بحسن الإرشاد، ويبلغه المراد في مصالح العباد والبلاد، بمنّه وعونه»^(١).

وإذا أعدنا قراءة هذا البيان، نجد فيه أثر الفكر الشيعي الطالبی، وعلوم أهل البيت، الذين لا همّ لهم إلا سعادة الإنسان وصلاح أمره، إضافة إلى الاعتقاد بحرية جميع المذاهب والأديان، وهذا الشريف الرضى عندما رثى أبا إسحق إبراهيم بن هلال الصابي المتوفي سنة ٣٨٤هـ بقصيدة مطلعها:

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ١٨.

أعلمت من حملوا على الأعداء رأيت كيف خبا ضياء النادي!
عاتبه الكثير من أصدقائه على هذه القصيدة، كون أبي إسحق من
الصابئة، ولكن احترام الإنسان لإنسانيته، دون أخذ موقف منه وعليه
من خلال دينه ومذهبه، هو من أساسيات علوم أهل البيت.

حتى أن الفاطميين كانوا يعاملون كل الناس من كل المذاهب
نفس المعاملة طمعاً بإقناع من لم يكن مسلماً بالدين الإسلامي
وجذبه نحو الإسلام.

وعندما يحدثنا ابن المأمون عن ميزانية سنة ٥١٦ للهجرة أيام
ال خليفة الأمر، ولنا عودة إليها في باب الرواتب والأجور، ولكننا
نكتفي بالإشارة إلى «المطلق برسم الصلات والصدقات ومن يهتدي
من غير المسلمين إلى الإسلام»، لُحظ في هذه الميزانية^(١).

ويصف لنا ابن المأمون آخر ليلة إفطار من رمضان على عهد
ال خليفة الأمر، ونحن نعلم أن الفاطميين، كانوا يتبعون الحساب في
تعداد أيام رمضان، ولا يعتمدون على الرؤية. وكان رمضان عندهم،
حكماً ثلاثين يوماً، مما يخلق التباساً في إفطار آخر يوم منه مع بقية
المذاهب. وهذا الالتباس في توقيت يوم العيد أو في توقيت ساعة
الإفطار، لم يكن يفرض الخليفة فتوى الإسماعيلية به على بقية
المذاهب، والنص التالي الذي أورده ابن المأمون وصف به ليلة
التاسع والعشرين من رمضان لسنة ٥١٨ هـ، أيام الخليفة الأمر
فقال:

(١) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٧١.

«ولما كان التاسع والعشرون من شهر رمضان، خرج الأمر بأضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين في كل ليلة برسم السحور، بحكم أنها ليلة ختم الشهر، وخرج الخليفة لوقته وقدمت الرسل، والمقرئون يتلون، والمؤذنون يهللون ويكبرون، وكشفت القوارات الشرب المذهبات بين يدي الخليفة، فبدأ وكبر وأخذ بيده تمر، فأفطر عليها، وناول مثلها الوزير فأظهر الفطر عليها. وأخذ الخليفة يناول أخوة الوزير، فيجعلونه في أكمامهم بعد تقبيله، فمن كان رأيه بالفطور أفطر. ومن لم يكن رأيه أوما، وجعله في كمه، لا ينتقد على فعله أحد»^(١).

وهذا الوصف لآخر ليلة من رمضان الذي قدّمه ابن المأمون للتعرف على طريقة ممارسة السلطة في أكبر دولة إسلامية، يدلّ دلالة واضحة على احترام الفاطميين لمشاعر غيرهم من أبناء ممالكهم.

كما أخبرنا المقرئزي وغيره من المؤرخين عن مقاطعة الفقيه السنّي، الشاعر عمارة اليمني لمجلس الوزير الأول، الملك الصالح طلائع بن رزّيك أبو الغارات عندما أقدم أحد عناصر المجلس على سبّ السلف الصالح. يقول المقرئزي في معرض حديثه عن الصالح طلائع بن رزّيك: «وجرى من بعض الأمراء في مجلس السمر عنده انتقاص بعض السلف، وكان الفقيه عمارة جالساً، فقام وخرج معتذراً بحصاة تعتاده، وانقطع في منزله ثلاثة أيام، ورسول الملك الصالح

(١) أخبار مصر، م.س. ص ٨٥.

يأتي إليه كل يوم بالطبيب. ثم ركب إليه بعد ذلك وهو في بستان مع جلسائه في خلوة، واستوحش من غيبته، فأعلمه عُمارة، أنه لم يكن مريضاً، ولكنه كره ما جرى في حق السلف، فإن أمر السلطان، فمنع ذلك، حضرت، وإلا كان لي في الأرض سعة، وفي الملوك كثرة. فتعجب الصالح من ذلك وقال له: سألتك بالله! ما الذي تعتقده في أبي بكر وعمر؟ فقال الفقيه عُمارة: أعتقد أنه لولاهما لم يكن سبق للإسلام حرمة، ولا علا له راية. وما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه. ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسِهِ﴾^(١). فضحك الصالح، وكان هذا من رياضته فإنه مخالف لمذهبه مخالفة لا يحتملها مثله^(٢).

ويخبرنا المقرئ أن الصالح طلائع بن رزيك كان رطب الصدر، واسع الحلم، تجاه أي معتقد يخالف معتقده رغم أنه كان من متشدي الإمامية.

ويروي لنا المقرئ إقدام الملك الصالح، بعد هذه الحادثة على مداعبة عُمارة شعراً يدعو به إلى الالتحاق بمذهب الشيعة الإمامية مرفقة بثلاثة أكياس من الذهب:

قل للفقيه عُمارة: يا خير من	أضحى يؤلف خطّة وكتابا
اسمع نصيحة من دعاك إلى الهدى	قل: خطّة، وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ولا تجد	إلا لدينا سنّة وكتابا
وعلي أن يعلم محلك في الوري	وإذا شفعت إلي كنت مجابا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

(٢) راجع: انعاظ الحنفا، الثالث، ص ٢٤٩.

وتعجل الآلاف وهي ثلاثة صلاة وحققك لا تعد ثوابا
فاجابه عمارة:

حاشاك من هذا الخطاب خطاباً يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علماؤكم معمر معتقدي وصار خرابا
ودعوتكم فكري إلى أقوالكم من بعد ذاك، أضاعكم وأجابا
فاشد يدك على صفاء محبتي وأمنن علي وسد هذا البابا
لقد تجرأ الشاعر عمارة وأجاب سلطان وقته وفند أقواله واتهم
علماء الشيعة بالفساد والإفساد، وتمنى إقفال باب دعوته إلى الالتحاق
بالمذهب الشيعي الإمامي، وإبقاء العلاقة محصورة في أمرين: صفاء
المحبة - وكرم الصالح، عليه. فلولا هامش الحرية الواسع الذي كان
يتمتع به عمارة اليمني في ظل الدولة الفاطمية، لما تجرأ على إجابة
رأس السلطة التنفيذية فيها بهذا الجواب. وكانت هذه الحرية التي
منحت إياها الدولة الفاطمية سبباً لمقتله على يد صلاح الدين الأيوبي.

هامش الحرية عند النصارى واليهود:

ولم تشر أدبيات ومدونات الفاطميين، قبل دخولهم مصر، إلى
استعمالهم أقباطاً أو يهوداً أو نصارى في الوظائف والدواوين، رغم
أن المغرب العربي، ما يزال حتى الآن يعج باليهود على الأقل. ولكن
بعد دخولهم مصر، بدأت أسماء كثيرة للأقباط النصارى واليهود،
تلمع في سماء العمل السياسي الفاطمي.

وأول أخبار المعاهدين الأقباط واليهود، بدأت تظهر عبر أسماء
بعضهم، عند بدء المقرئ في افتتاح الحديث في أول كل سنة،

كاسم الطبيب موسى بن العازار، من جملة فريق عمل الخليفة المعز في بداية سنتي ٣٦٣ و ٣٦٤هـ.

ثم بدأ نجم يعقوب بن كلّس يلمع في سماء قصر الخلافة، فبدأ رئيساً لأحد الدواوين، ثم انفرد بالنظر في أمور الخليفة المعز في القصر، دون غيره. ويخبرنا المقرئزي، أنّه وُلد ليعقوب بن كلّس «ولّد ذكر، فأرسل إليه العزيز على سبيل الهدية - مهداً من صندل مرصعاً، وثلاثمائة ثوب وعشرة آلاف دينار عزيزية، وخمسة عشر فرساً بسروجها ولجمها، منها اثنان ذهب، وطيب (عطور وبخور) كثير. وقدر ذلك كله بمائة ألف دينار».

واستطاع يعقوب بن كلّس بحنكته أن يوقع بين الخليفة العزيز وولاته وقواده، حتى عزل جوهر الصقلي، ولكنهم استطاعوا الإيقاع بينه وبين العزيز فقبض عليه وصادر أمواله، ولحسن حظّه، وجد في أوراقه ما يدل على أنّه يتصدق على بعض العائلات المستورة برواتب محدّدة تقدّر بالف دينار شهرياً، فعفا عنه الإمام العزيز. وأعادته إلى الوزارة بعد شهرين من العزل.

وقد أخبرنا المقرئزي أيضاً ونقلاً عن ابن الأثير كيف ولّى العزيز عيسى بن نسطورس في مصر وهو مصري قبطي، ومنشأً بن إبراهيم القرّاز اليهودي في دمشق، فاعتزّ بهما النصراني واليهود وأذوا المسلمين. مما دفع المصريين أن يضعوا له دمية في طريقه على شكل امرأة ويبيدها ورقة كتب فيها:

«بالذي أعزّ اليهود بمنشأً والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذلّ المسلمين بك، ألا كشفت ظلامتي، فقبض عليهما وصادر أموالهما.

ويصف لنا المقرئزي عيد الغطاس عند الأقباط، ويخبرنا أنّ الوزير الأول فهد بن إبراهيم القبطي النصراني وزير الحاكم بأمر الله، «جلس مع أهله يشرب إلى أن جاء وقت الغطاس فغطس وانصرف».

ويحدثنا المقرئزي عن إقدام الوزير الأول للخليفة المستنصر أبو منصور الفلاحي على قتل سهل بن هارون التستري اليهودي - أبو سعيد - وأبو سعيد هذا، كان يملك جارية جميلة سوداء وهبها للخليفة الظاهر فأولد منها المستنصر، ولما أصبحت هذه الجارية أم الخليفة، تذكّرت معلّمها السابق أبا سعيد اليهودي وقربته منها، وبدأت تعمل على ترقّيته ورفعته في وظائف الدولة، حتى تولّى «ديوان أم الخليفة» وانبسطت كلمته في الدولة، بحيث لم يبق للوزير الفلاحي أمرٌ ولا نهْيٌ سوى الاسم فقط، فأوغر عليه صدور الجند، فشغبوا وقتلوه».

ومن أحسن ما قيل في هجاء أبي سعيد التستري اليهودي، وكان أذاه للمسلمين وللأقباط، قد ذاع في أنحاء الخلافة الفاطمية، وخاصة أنّه كان يحلف أمام المسلمين والمسيحيين: «وحقّ النعمة على بني إسرائيل»، فهجاه الشريف الرضي من بغداد بقوله:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العزّ فيهم والسمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إنّي قد نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك

وعندما تولّى الأفضل بن بدر الجمالي الوزارة أكثر من توظيف النصارى، فعين الشيخ أبا البركات يوحنا بن أبي الليث القبطي النصراني في ديوان التحقيق. وهو مركز خطير أشبه بالتفتيش المركزي في أيامنا. وابن الأسقف في ديوان النظر وديوان المجلس

وأبا اليمن بن عبد المسيح في ديوان «أسفل الأرض». وأحاط الأفضل نفسه كذلك بجنود من الأرمن وشجعهم على الهجرة إلى مصر^(١).

كما حدثت لنا كتب التاريخ عن خوف الأمر من تعيين وزير، واستبداله مركز الوزارة بصاحبي ديوان، فعين شخصين لهذا المركز، أحدهما مسلم - أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم - والثاني سامري - من الصابئة - أبو يعقوب بن إبراهيم الكاتب - وتفتقت قريحته عن تعيين مراقب لهما، فأتى براهب قبطي اسمه - أبو نجاح بن فنا - ومن كثرة مصادراته لقومه من الأقباط ازداد قربه من الخليفة الأمر، حتى لقبه بـ «الاب القديس الروحاني النفيس، أبي الآباء سيد الرؤساء، مقدم دين النصرانية وسيد البطيركية، ثالث عشر الحواريين»، وقد انتهى أمره لشدة عسفه وظلمه لأهل ملته وللمسلمين، «أن ضُرب بالنعال وسُمِر على لوح عند كرسي الجسر، وطرح في النيل حتى خرج إلى البحر المالح»^(٢).

مركز تحقيق تكملة تاريخ مصر

ونقل المقرئ من المسبّحي في أخبار سنة ٣٩٨ هـ كيف أن الخليفة الحاكم أسر لكتابه ابن سورين، موضوع إعادة تكليف صالح بن علي بكل الأمور التي كانت بيد القائد حسين بن جوهر الصقلي، وأنه «حلفه على الإنجيل» بكتمان هذا السجل. مما يجعلنا نستنتج اعتقاد الخلفاء الفاطميين بالإنجيل وبالتوراة وبكتب الأديان السماوية الأخرى.

(١) راجع: الدولة الفاطمية في مصر. م.س. ص ٢٢٨.

(٢) راجع: الدولة الفاطمية في مصر. م.س. ص ٢٤٠.

وعندما حدثنا النويري عن استقبالات الوزير الأول المأمون البطائحي، الوفود والأعيان التي جاءت لتهنئته بتكليفه بمركز الوزارة نجد أنَّ بطرك النصارى وحاخام اليهود من المهنئين البارزين، يقول النويري: «فدخل المأمون إلى المكان الذي هُيَّء له ودعي لمجلس الوزارة واستفتح المقرؤون، واستدعي المأمون، فحضر بين يدي (ال خليفة)، وسلَّم عليه وعلى أولاده وإخوته. ثم دخل الأمراء وسلَّموا على طبقاتهم، ثم الأشراف ثم قاضي القضاة، والشهود وداعي الدعاة، ثم مقدِّمو الركاب، ثم الأجناد، ثم دخل والي القاهرة، ووالي مصر (الفسطاط)، ثم بطرك النصارى والكتاب منهم (من النصارى). وكذلك رئيس اليهود وكانت هذه عادة السلام على ملوك هذه الدولة»^(١).

ولم يكن النصارى واليهود يتأخرون عن أي مناسبة من مناسبات الدولة الفاطمية، وهي كثيرة ومن هذه المناسبات، الاحتفال بعيد الفطر، ويحدثنا ابن المأمون في أخبار سنة ٥١٨ هـ طريقة الإعلان الرسمي للعيد، ويصف لنا الاحتفالات الرسمية به، ومما جاء في وصفه: «وحضر الشعراء وأسنيت لهم الجوائز وجرى الحال يومئذ في جلوس الخليفة وفي السلام عليه، لجميع الشيوخ والقضاة والشهود (لجنة المحلفين) والأمراء والكتاب ومقدِّمي الركاب وخطباء الجوامع والفقهاء والقاهريين والمصريين واليهود برئيسهم، والنصارى ببطريقهم، على ما جرت به عادتهم. وختم المقرؤون...»^(٢).

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، الجزء ٢٨، ط ١، القاهرة طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سنة ١٩٢٨، ص

(٢) أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٨٩.

ونقل عن ابن سعيد الأنطاكي عن الحاكم بأمر الله أرسل
البطريرك أريسطوس، بطريرك بيت المقدس «ليكون مندوباً للحكومة
الفاطمية في المفاوضات مع البيزنطيين، وأعطاه صلاحيات كاملة
كمفاوض مصري، وقيل للسفير البيزنطي: ما يقرره هذا البطريرك،
فإن مولانا ممض وراض به»^(١).

وعندما أوكل الخليفة الحافظ منصب الوزارة إلى بهرام الأرمني
أصدر له مرسوماً نعتة فيه: «بسياف الإسلام»، رغم أنه على دين
المسيح.

٦ و ٦ مكرر في تعيين مستشاري قصر الخلافة:

إنَّ قانون ٦ و ٦ مكرر من أشهر قوانين الدستور اللبناني وهو
يقضي بتعيين ستة موظفين مسيحيين مقابل كل ستة موظفين
مسلمين، وكان الخلفاء الفاطميون يعملون بهذا التوازن الإجتماعي،
حيث يخبرنا المقرئزي أنه تَمَّ تحنك ستة أستاذين (مستشارين)،
والتحنك يعني رفعهم إلى مرتبة الأستاذية، ونعلم أن المستشارين
النصارى هم: فاتك ورجاء وسرور، والمستشارين المسلمين هم:
معضاد ومناد ورفق^(٢).

ونرى ول ديورانت يتفاجأ عندما يعلم بإقدام التاجر المصري
المسيحي يعقوب بن أبي الليث على إطعام المصريين لمدة خمس

(١) راجع: الدولة الفاطمية في مصر، م.س. ص ٢٦٢.

(٢) راجع أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، سلام شافعي محمود، ط ١،
القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥، ص ٢٦٤.

سنوات من ماله الخاص^(١)، وكانَ يعقوب ابن أبي الليث ليس مصرياً، وقد نسي ول ديورانت ان المسيحية والمسيح منّا ولنا، كما الإسلام، كما دين نبيّ الله موسى الكليم ﷺ.

كما أخبرنا المؤرخون، عن الوزير الأوّل بهرام الأرمني كيف أنّه لما عزّل من وزارته بضغط من الأتراك هرب إلى الصعيد ثم عاد والتجأ إلى قصر الخلافة، وأنّه لما توفي داخل القصر أصدر الخليفة مرسوماً يقضي بإعلان الحداد الرسمي في البلاد ثلاثة أيّام^(٢).

ويرى المقرئ أن النصارى كانوا أكثر حرية أيام الدولة الفاطمية من أي طائفة أخرى - باستثناء عهد الحاكم - حيث يرى «إنّ كتابهم كانوا أوفر حظاً وقد شرعوا في التجبّر، وبالغوا في إظهار الفخر، وتظاهروا بالملابس العظيمة وركبوا البغال الرائعة، (مرسيدس شبح)، والخيول المسوّمة بالسروج المُحَلّات بالذهب، واللّجج الثقيلة، وضايقوا المسلمين في أرزاقهم، واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية، واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات، وصادر بعض كتاب المسلمين، فألجأته الضرورة إلى بيع أولاده وبناته، فيقال أنّه اشتراهم بعض النصارى»^(٣).

(١) راجع: اتعاظ الحنفة، الجزء الثاني، ص ١٦٣.

(٢) راجع: قصة الحضارة، الجزء الرابع، م. س. ص ٢٦٨.

(٣) الخطط المقرئية، الجزء الأول، م. س. ص ٤٠٦.

وقد وصف ابن الخلال الشاعر، عهد الخليفة الحافظ - أبو الميمون عبد المجيد - وتسَلَّط الأقباط على المسلمين بقوله:

إذا حكم النصاري في الفروج وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الإسلام طرّاً وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجّال هذا زمانك إن عزمت على الخروج
ونحن لا نفسر، إعطاء الحرية للكتاب والموظفين الأقباط بأنها
تحكم قبطي بمسلم، فالأقباط، هم أهل مصر الأصليون وأصحابها،
وهم شركاء في بناء الوطن المصري، لهم ما للمسلمين من حقوق،
وعليهم ما على المسلمين من واجبات. ونظرة ابن الخلال الشاعر،
نظرة شاعرية وشعرية ليس أكثر.

شروط دخول المتظلم لمقابلة الخليفة الفاطمي، الإعراف بولاية الإمام
علي(ع):

لم يترك الفاطميون أيّ مجال لأيّ مسؤول أو كاتب أو قائد أو
وزير أو محتسب لمنع الناس عنهم، فالحاكم كان يقضي كلّ وقته
بين الناس، وكان يأمر عناصر حرس المواكبة بترك الناس تصل
إليه. وكان يأخذ رقاعهم (رسائل التظلم) منهم بيده شخصياً. وقد
وضع الحاكم شروطاً لدخول المتظلم إلى القصر ومقابلة الخليفة.
يخبرنا المقرئ عن هذه الشروط فيقول حين وصف القصر
الكبير المخصّص لسكن الخليفة: «وكان من جملة القصر الكبير
موضع يعرف بالسقيفة، يقف عنده المتظلمون. وكانت عادة الخليفة
أن يجلس هناك كل ليلة، لمن يأتيه من المتظلمين. فإذا ظلم أحد،

وقف تحت السقيفة وقال بصوت عالٍ: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليّ وليّ الله، فيسمعه الخليفة ويأمر بإحضاره إليه ويسمعه، ثم يفوض أمره إلى الوزير أو القاضي أو الوالي»^(١).

وقد حدثنا المقرئ عن حالات عدّة متظلمين، وذكر قصصهم وكيف تم رفع الظلم عنهم بمجرد وقوفهم تحت السقيفة واعترافهم بولاية عليّ بن أبي طالب - عليه السلام -.

ولم يميّز الفاطميّون في معاملاتهم ووظائفهم بين مسلم ومسلم، أو مسلم ومسيحي، أو مسلم ويهودي، بل كان لكل إنسان معتقده، وقدره وقيّمته في الدولة، حسب ما كان يقدم لهذه الدولة من خدمات. فكان باستطاعة القبطي أن يكون وزيراً أو قائداً للجيش أو مستشاراً في قصر الحضرة المطهرة (الخليفة)، أما بقية الوظائف الكبيرة والخطيرة. كقاضي القضاة وداعي الدعاة فكانت وقفاً على المسلمين فقط، لأن القاضي عليه أن يحكم حسب الشرع الإسلامي، ولذا إن لم يكن مسلماً لا يستطيع أن يكون متعمقاً منصفاً في أمور الشرع وأحكامه، ولا مرئوساً من قبل رئيس الوزراء، الذي من الممكن أن يكون مسيحياً أو يهودياً. وسنستعرض موقع اليهود والنصارى ودورهم في الحياة اليومية أيام الفاطميين وسنرى إذا كانوا يتمتّعون بقدر من الحرية التي يتمتّعون بها اليوم أم لا!

(١) الخطط المقرئية، الأول، ص ٤٠٥.

أهم الوزراء الأقباط والمسيحيين واليهود في الدولة الفاطمية:

إذا استعرض القارئ تاريخ الدولة الفاطمية بدءاً من دخول جوهر الصقلي إلى مصر، وحتى الانقلاب الأيوبي المدمر، وجد أنَّ الفاطميين في تعاملهم مع رعاياهم، لم يفرقوا بين مسلم ومسلم، أو بين مسيحي ومسلم أو يهودي ومسلم أو بين مسلم عربي ومسلم كردي، أو تركي فتعاملوا مع كل الناس ومع كل الطوائف، وكانت كل طائفة تتمتع بحرية معتقدها ورسومها وحرية ممارسة طقوسها وأعيادها وأيامها المقدسة عندها.

وكان الخلفاء الفاطميون يشاركون الأقباط بعض أعيادهم ويعطلون الدوائر الرسمية فيها، كعيد ميلاد العذراء وعيد ميلاد المسيح، وعيد الغطاس وخميس العدس (الفصح) وعيد الشعانين. ولنا عودة إلى هذه الأعياد وسنصف احتفالات الخلفاء فيها. من هنا: كان وزراء الدولة الفاطمية من الطوائف التالية:

١ - اليهود ومنهم:

- يعقوب بن كلّس.
- صدقة بن يوسف الفلاحي - أبو منصور -
- الحسن بن أبي سعيد التستري - أبو الحسن -
- وكلّهم أسلم أو تستر بالإسلام.

٢ - الأقباط ومنهم:

- عيسى بن نسطورس.
- فهد بن إبراهيم - أبو العلا.

- زرعة بن نسطورس - الشافعي.
- منصور بن أبي اليم - أبو سعيد -.
- ٣ - الأرمن ومنهم:
- بدر الجمالي.
- الأفضل بن بدر الجمالي.
- أحمد بن الأفضل.
- يانس الصقلي.
- بهرام الأرمني.
- الباساك شقيق بهرام.
- طلائع بن رزّيك.
- رزّيك بن طلائع.

وكلهم أسلموا على طريقة الإسلام الشيعي الاثني عشري ما عدا بهرام والباساك استمرا على نصرانيتهما.

أما بقية الوزراء فهم إما من الشيعة الإمامية الإسماعيلية أو الشيعة الإمامية الاثني عشرية، أو من المسلمين السنة.

وهذا نرى أنّ الفاطميين، «لم يتقيدوا بجنسيات الوزراء، فكان من وزرائهم المسلم وغير المسلم حتى أنّ أول وزير عندهم وهو يعقوب بن كلّس كان يهودياً قبل إسلامه»^(١).

(١) الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، محمد حمدي المناوي، ط ١، القاهرة، مصر، دار المعارف، بعض، سنة ١٩٧٠، ص ٣٨.

– أهل الامة قبل الفاطميين:

أخبرنا المقرئزي عن عدة انتفاضات قام بها الأقباط المصريون ضد الأمويين والعباسيين، منها انتفاضتهم سنة ١٠٧ هجرية ضد والي هشام بن عبد الملك على مصر، الحرّ بن يوسف، بسبب رفعه الضريبة على كل دينار متفق عليه قيراطاً زيادة، فذكر المقرئزي أنّ الثورة ضد الأمويين عمت تنوديمي وقربيط وطرابيا وعامة المناطق الشرقية، وقد قتل الحرّ بن يوسف منهم مقتلة عظيمة حتى أحمّد ثورتهم وانتفاضتهم. ولم يخرج من المنطقة الشرقية حتى أقام معسكرات بدمياط جاهزة للإنقضاض عليهم في كل محاولة انتفاض يحاولونها.

ويقول المقرئزي: إنّ النار بقيت تحت الرماد حتى سنة ١٢٧هـ، فعاود الأقباط انتفاضتهم وثورتهم ضد الأمويين، فتصدى لهم حاكم مصر الجديد، حنظلة بن صفوان وقتل من الأقباط «ناساً كثيراً وظفر بهم، وخرج رجل من القبط «بجيش»، من سمنود فبعث إليه بعبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير فقتل بجيش (اسم رجل) وشتت أصحابه»^(١).

وثار الأقباط ضد العباسيين سنة ١٣٢هـ، وأعادوا الثورة ضدهم سنة ١٥٦هـ. في سخا وشبرا.

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٨٠.

ال خليفة المامون يذلّ الأقباط:

ويخبرنا المقرئزي أنّ أهل مصر الأقباط ثاروا على الدولة العباسية أيام الخليفة المأمون سنة ٢١٦هـ، فأرسل لهم القائد العسكري «الإفشين»، فشتتهم واعتقل رجالهم، وأرسل يخبر المأمون ما أوقع بهم، فكانت فتوى المأمون وحكمه: «قتل رجال الأقباط وبيع نسائهم وأطفالهم وسبيهم»، ويقول المقرئزي أنّ الإفشين نفذ حكم المأمون بالأقباط، ومن حين تنفيذ هذا الحكم: «أذل الله القبط في جميع أرض مصر، وخذل شوكتهم ولم يعد يقدر أحد منهم على الخروج على السلطان ولا القيام ضده، وغلب المسلمون على القرى، ولم يعودوا يستطيعون كيد الإسلام، وأهله إلا بإعمال الحيلة واستعمال المكر»^(١).

ونحن إذا قارنا معاملة الخلفاء الفاطميين للأقباط مع معاملة الأمويين والعباسيين والأكراد والمماليك، باستثناء فترة حكم الخليفة الحاكم بأمر الله - نجد أنّ الأقباط، كانوا أحد أهم طبقات المجتمع المصري الفاطمي.

ونحن استثنينا عهد الخليفة الحاكم، لأنّ أحكامه وقراراته طالت كل الطوائف وكل الطبقات فلم يستثن أحداً منها.

الراهب القبطي أبو نجاح يسيطر على المجتمع المصري:

ويخبرنا المقرئزي عن توصل الأقباط في بعض الفترات للتحكم

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٨٠.

بشؤون المجتمع المصري كافة، فمثلاً على عهد الخليفة الأمر، استطاع أحد الرهبان النصارى الأقباط، أن يسيطر على كل مقدرات المجتمع المصري.

وكان ذلك على يد الراهب أبي نجاح ابن فنا حيث أقدم هذا الراهب على إخبار الخليفة الأمر «أن الكتاب النصارى من الأقباط أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها»، وضمن للخليفة أنه قادر على استرجاع هذه الأموال ومما يملأ بيوت مال الخلافة، فقرّبه الخليفة الأمر منه، وسطر له مرسوماً يمكنه من مراجعة كل الدواوين ويساعده على ما يخرج من حساباتها. ولقبه: «بالأب القديس الروحاني، النفيس، أبي الآباء، سيد الرؤساء، مقدّم دين النصرانية، وسيد البطركية وثالث عشر الحواريين»^(١).

يقول المقرئزي، أنه لم يمض على تعيين الراهب أبي نجاح أكثر من ثلاث سنين، حتى علت الضجة وكثر صراخ جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة من الراهب ابن فنا، «أبو نجاح»، فقد أوقع الفناء في كل هؤلاء الناس «بحيث لم يبق أحد إلا وناله مكروه منه، إما من ضرب أو نهب أو أخذ مال وكان يجلس في قاعة الخطابة في جامع عمرو بن العاص، ويستدعي الناس للتحقيق والمصادرة»، حتى أوقعه حظه مع رجل من الشهود والعدول المميزين المبحّلين في الناس، فأهانته وأخرق به، فقام هذا الشاهد العدل، ووقف في صلاة الجمعة في الجامع وصرخ في المصلين: يا أهل مصر: انظروا عدل

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١١٧.

مولانا الأمر في تمكينه النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه، وكادت تكون فتنة ووصل الكلام لأحد مستشاري الخليفة الأمر المتقاعدین داخل القصر، واتفق مرور الأمر عليه لأخذ بركته فأخبره بخبر أبي نجاح بن فنا وكيف يضع أمامه توراة وقرآن، يستعملها تزويراً لسلب الناس أموالهم، فنصب له الأمر كميناً مع أحد السادة الأشراف، وأوقعه متلبساً، ثم حكم عليه بالموت ضرباً بالنعال، فنفذ فيه «وما زال يضرب بالنعال حتى مات، ثم جُرَّ بكعبه إلى عند كرسي الجسر، وسمّر على لوح وطرح في بحر النيل، فكان كلما وصل إلى ساحل من سواحل مصر وهو منحدر، أعيد دفعه إلى البحر (بحر النيل)، فلم يزل، حتى خرج إلى البحر المالح، واشتهر ذكره، وسارت الركبان بهلاكه»^(١).

وبعد أن علم الخليفة الأمر مدى الأذية التي سببها أبو نجاح - فنا - بالناس - صام ثلاثة أشهر تكفيراً عن ذنبه.

سبب سيطرة نساء الأقباط على رجالهم:

ويتهم المقريزي رجال الأقباط بقلّة الغيرة على نسائهم، ويستشهد بذلك بقصة النبي يوسف - عليه السلام -، مع فرعون، من مراودة امرأة العزيز (فرعون) للنبي يوسف عن نفسه، وشهادة شاهد من أهلها عليها، بما بيّن لزوجها منها سوء التصرف، ومع هذا يقول المقريزي إنه: «لم يعاقبها على ذلك سوى قوله استغفري لذنبك

(١) اتعاظ الحنفا الجزء الثالث، ص ٤٩.

إنك كنت من الخاطئين». ونقل عن ابن عبد الحكم أنَّ نساء مصر، بعد أن غرق من غرق من رجالهم مع فرعون، فلم يبق إلا العبيد والأجراء، فلم تصبر النساء عن الرجال، «فطفقت المرأة تعتق عبيدها وتتزوج وتتزوج الأخرى أجيرها، ويشترطن على الرجال أن لا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهنّ، فأجابوهنّ إلى ذلك»^(١)، وهكذا استمر نساء الأقباط يحكمن رجالهنّ إلى اليوم أتباعاً لنسائهنّ، لا يبيع أحد منهم ولا يشتري إلا قال: «أسأل امرأتي».

أسباب هدم كنيسة القيامة:

عندما هدم الخليفة الحاكم كنيسة القيامة، كان له من العمر ثلاث وعشرون سنة، أي أنه كان ما يزال غراً يافعاً يسيره المستشارون وحاشية القصر، فقد ذكر المقرئزي أنه لما «خرج النصارى من مصر إلى القدس لحضور الفصح (سنة ٣٩٨هـ) بقمامة (كنيسة القيامة)، على عادتهم في كل سنة بتجمل عظيم، كما يخرج المسلمون إلى الحج، فسأل الحاكم ختكين الضيف العضدي أحد قواده عن ذلك لمعرفة بامر قمامة، (كان والياً على بر الشام حتى سنة ٣٩٦هـ)، فقال: هذه بيعة تعظمها النصارى، ويحج إليها من جميع البلاد وتأتيها الملوك، وتحمل إليها الأموال العظيمة، والثياب والستور والفرش والقناديل، والصلبان المصوغة من الذهب والفضة والأواني من ذلك. وبها من ذلك شيء عظيم».

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٧٥.

وشرح ختكين الضيف للحاكم الالاعيب السرية التي يقوم بها
الرهبان من أجل إخراج لهب النار بشكل غير معروف السبب من
المذبح، لكي يوهموا الناس بأن النار تخرج من تلقاء نفسها من
المذبح: «يتحيلون في إيصال النار إلى المذبح بدهن البيلسان مع
دهن الزئبق» فيحدث للمذبح ضوء ساطع يظن من يراه أنه نزل من
السماء، «فأنكر الحاكم ذلك» وأرسل إلى واليه في القدس «أن يهدم
قمامة وينهبها الناس حتى يعفى أثرها، ففعل ذلك»^(١).

ثم حنق من وزيره زرعة بن عيسى بن نسطورس وقرّر قتله، لكن
زرعة مات قبل أن يقتل، «فتأسف الحاكم على فقدته من غير قتل وقال:
ما أسفت على شيء قط أسفي على خلاص ابن نسطورس من سيفي،
وكنّت أود ضرب عنقه لأنه أفسد دولتي، وخانني ونافق عليّ وكتب إلى
حسان بن الجراح في المداجاة عليّ، وأنه يبعث له من يهرب به إليه».

ولكن غضب الحاكم على زرعة أفرغه على الأقباط المصريين
فأمرهم سنة ٤٠٣ هـ، «أن يلبسوا العمام السود والطيبالس السود
(ما عدا أحبارهم) وأن يعلّقوا في أعناقهم صلبان الخشب، وأن لا
يركبوا إلا البغال والحمير، وأن تكون سروجهم من خشب وأن يكون
السواد لون السروج واللجم، وهو لون وشعار بني العباس،

وأمرهم بشدّ الزنانير على أوساطهم، وحرّم تشغيل مسلم في
محلاتهم وبيوتهم، وأن لا يشترى عبداً ولا أمة، حتى وصل الأمر به
أن عمّم على المكاريين عدم السماح لهم بركوب خيلهم، كما منعهم

(١) اتعاط الحنفا، الجزء الثاني، ص ٧٥.

من ركوب السفن مشاركة مع المسلمين.

وهذه الحقبة هي الحقبة الوحيدة التي طال النصارى الأقباط أذية من الخلفاء أبناء فاطمة - عليها السلام - ولكنهم كانوا شركاء مع كافة المصريين في عسرهم ويسرهم، فقد ذكرت لنا كتب التاريخ أنه وصل الأمر بكل طبقات المجتمع المصري أن زحفت إلى قصر الحاكم، كل طائفة أو طبقة تريد سجل أمان يحميها من غضبه.

صيغة أمان الحاكم للأقباط:

بسم الله الرحمن الرحيم: «هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور إبي علي، الإمام الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين لأهل (...) أنكم من الآمنين بأمان الله، الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا علي خير الوصيين، وآبائنا، الذرية النبوية المهديين، صلى الله على الرسول ووصيه، وعليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين (الحاكم)، على النفس والحال والدم والمال، لا خوف عليكم، ولا تمتد يد بسوء إليكم، إلا في حد يقام بواجبه، وحق يؤخذ بمستوجه، فليوثق بذلك، وليعول عليه - إن شاء الله تعالى»^(١).

هامش الحرية والأمن أيام المعز:

نقل المقرئ عن تاريخ إبراهيم بن الرقيق يصف احتفال النصارى الأقباط بأعيادهم أيام الخليفة المعز لدين الله فقال: ما رأيت قط أجمل من أيام النوروز والغطاس، والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغير ذلك

(١) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٢١.

من أيام اللهو التي كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة في القصف والعزف، وذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير إلا وخرج إلى بركة الحبش متنزهاً، فيضربون عليها المضارب الجليلة، والسرادات والقباب والشراعات، ويخرجون بالأهل والولد، ومنهم من يخرج بالقيينات المسمعات المملوكات، والمحزرات، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكّهون وينعمون، فإذا جاء الليل، أمر الأمير تميم بن المعزّ مائتي فارس من عبيده بحراستهم والمحافظة عليهم في كل ليلة، إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم فيسكرون، وينامون كما ينام الإنسان في بيته ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة. ويركب الأمير تميم في عشارى (سفينة)، ويتبعه أربعة زوارق مملوؤة فاكهة وطعاماً ومشروبات، فإن كانت الليلة مقمرة، وإلا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهاراً، فإذا مرّ على طائفة منهم، واستحسن غناءهم، أمرهم بإعادته وسألهم عما ينقصهم، فيأمر لهم به، ويأمر لمن يغني منهم. ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه، ولا يزال على هذا الحال، حتى تنقضي هذه الأيام (الأعياد) ويتفرّق الناس^(١).

ألقاب قساوسة النصارى في الدولة الفاطمية:

ذكر القلقشندي في صبح الأعشى القابهم ورتبهم وميزة وصلاحيات كل صاحب لقب فقال: إن المشهور من ألقاب ورتب الأقباط النصارى^(٢):

(١) الخطط المقريرية، الجزء الثاني، ص ١٥٤.

(٢) صبح الأعشى، الجزء الخامس، ص ٤٤٣.

- ١ - البابا: (باء ان موحَّدتان مضخَّمتان في اللفظ - PaPa - وهو لقب القائم على أمور دينهم بمدينة روما، وأظن أنَّ لا علاقة لأقباط مصر ببابا روما، فهم لهم البابا المختص بهم، كالبابا شنودة في أيامنا هذه.
- ويقول القلقشندي: إنَّ البابا عند النصارى قائم مقام الخليفة عند المسلمين، وهو يعني «أبو الآباء»، ويناط به التحريم والتحليل وإليه مرجعهم في أمور دينهم.
- ٢ - البطررك: وهو لقب القائم بأمور دين النصرانية في مصر.
- ٣ - الأسقف: وهو عندهم عبارة عن نائب البطررك.
- ٤ - المطران: وهو عبارة عن القاضي الذي يفصل الخصومات بينهم.
- ٥ - القسّيس: وهو القارئ الذي يقرأ عليهم الإنجيل والمزامير وغيرها في إقامة القداس في الكنيسة.
- ٦ - الجاثليق: وهو عبارة عن صاحب الصلاة.
- ٧ - الشماس: وهو عبارة عن خادم الكنيسة والقيّم على شؤونها.
- ٨ - الراهب: وهو عبارة عن الذي حبس نفسه على العبادة في الخلوة.

الكنيسة القبطية رسول سلام ومحبة بين الفاطميين وبين الدول المسيحية المجاورة:

كانت الكنيسة القبطية في القاهرة هي التي تشرف على كل كنائس الشرق الإسلامي الأرثوذكسي، فمثلاً كان بطريرك القاهرة، يعين الأساقفة في كل كنائس الممالك التابعة للدولة الفاطمية، فعلى سبيل المثال، وفي خلافة المستنصر بالله «أرسل ملك النوبة إلى

الأنبا خريستوذوس، البطريرك السادس والستين للكنيسة القبطية، يطلب منه تعيين أسقف للكنيسة النوبية، التي توفي أسقفها». كما علمنا أنَّ الأنبا خريستوذولس أرسل سنة ٤٤٢هـ، أسقفين من أساقفة القاهرة لمشاركة ملك النوبة باحتفاله بتدشين كنيسة جديدة، ولتمثيل الخليفة المستنصر بهذا الاحتفال^(١).

وكذلك حفلت كتب التاريخ بأخبار العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين مصر الفاطمية وبين الحبشة وسائر أماكن التواجد المسيحي في بلاد الدولة الفاطمية، عدا عن الوساطات الكثيرة التي كان يقوم بها الأقباط المصريون للتخفيف عن كاهل المسلمين المتواجدين تحت ظل الحكومات المسيحية.

موقع الأقباط في الاحتفالات الرسمية أيام الفاطميين:

يحدثنا ابن المأمون عن مراسم احتفالات عيد الفطر ويعدد فيها طبقات المشاركين في هذه الاحتفالات ورتبهم فيقول: وحضر الشعراء وأسنانيت لهم الجوائز وجرى الحال يومئذ (٥١٨هـ) في جلوس الخليفة، وفي السلام، لجميع الشيوخ والقضاة والشهود والأمراء والكتّاب ومقدمي الركاب والمتصدّرين بالجوامع والفقهاء والقاهريين والمصريين واليهود برئيسهم، والنصارى ببطريقهم، على ما جرت به عادتهم^(٢).

(١) راجع: أهل الذمة في مصر، في العصر الفاطمي الأول، سلام شافعي محمود، ط ١، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥، ص ٢٨٢.

(٢) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٨٩.

فإذن جرت العادة أن يشترك بطرك النصارى وحاخام اليهود في كل احتفال من احتفالات الفاطميين. والخطط المقريرية واتعاظ الحنفاء، مليئان بأخبار اشتراكهم في المبايعة بولاية العهد، لدى أكثر الخلفاء، وأخبار الوزير الأول بهرام عن انتظاره الخليفة الحافظ أمام باب الجامع لانتهاؤه من الصلاة والخطبة كل يوم جمعة، مشهورة..

وضع الشيعة في العصر الفاطمي خارج الدولة الفاطمية:

لم يعرف أبناء المذاهب الإسلامية المخالفة لمذهب الشيعة الإمامية تحت ظلّ الحكم الفاطمي أيّ مضايقات أو ظلم أو قتل أو تشريد، باستثناء أول سنتين من عهدا الحاكم بأمر الله، وهاتان السنتان، لا تمثلان شيئاً نسبة لطول الحكم الشيعي الفاطمي الذي استمر أكثر من مائتين وثمانين سنة. والظلم الحاكمي لم يطل أهل السنة فقط، بل طال الأقباط واليهود، والشيعة الإسماعيلية نفسها، حيث استبدل دعائهم وقضائهم بالحنابلة.

أما مسلسل الظلم والتشريد والقهر والقتل الذي طال الشيعة في عصور ما قبل الفاطميين، تحدّث عنه أبو الفرج الأصبهاني في كتابه «مقاتل الطالبين». والظلم الذي أصاب الشيعة إبان الحكم الفاطمي، خارج مناطق حكمهم، سنشير إلى بعض نتف منه لمقابلته بالعدل والحرية التي كان أصحاب هذه المذاهب يتمتعون بها.

في معرض سرد حوادث سنة ٤٠٨ هجرية، يخبرنا ابن الأثير ما نصّه: «وفيهما كانت فتنة بين أهل الكرخ من الشيعة وبين غيرهم من أهل السنة. وفيها استتاب القادر بالله المعتزلة والشيعة وغيرهما من

أرباب المقالات المخالفة لما يعتقد. ونهى عن المناظرة في شيء منها. ومن فعل ذلك، نُكِّل به وعوقب»^(١).

ونحن نشكر القادر بالله، منعه التناظر في الأمور الفلسفية، التي لا يفهمها العامة، لأنها تسبب عند بعضهم المروق عن الدين. ولكنَّ شارح حاشية الكتاب ينقل رأي ابن الأثير، وهو موافق له بالتأكيد في الرأي فقال: وامتلأ محمود بن سبكتكين وأمر أمير المؤمنين واستنَّ سنة (أصدر قانوناً) في كل البلاد التي استخلفه عليها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة وصلبهم وحبسهم، وأمر بلعنهم على المنابر. وأبعد جميع طوائف أهل البدع، ونفاهم من ديارهم. وصار ذلك سنة (قانون) في الإسلام.

ويعقِّب شارح كتاب الكامل في التاريخ بقوله: «ولو فعل حكامنا في عصرنا الحاضر مثل فعلهم لقضوا على الزنادقة والملحدين وغيرهم»^(٢).

فأصحاب دار الفكر و الشيخ خليل الميس، يرون أنَّ وحدة الإسلام والمسلمين في مواجهة إسرائيل وأميركا والعولمة، لا تتم إلا بتطبيق قانون محمود ابن سبكتكين الكردي.

أما وحدة الدِّم التي حقَّقها الداعي الإسلامي الشيعي الإمامي، السيد حسن نصر الله العاملي، والداعي الإسلامي السنِّي، الشيخ عز

(١) راجع: الكامل في التاريخ، الجزء السابع، م.س. ص ٢٩٩.

(٢) راجع: الكامل في التاريخ، ط ١، بيروت دار الفكر، المجلد السابع، سنة ١٩٧٨، هامش صفحة ٣٠٠.

الدين القسام الفلسطيني، بإعلانهما الجهاد على أعداء الله وإرسال الاستشهادي إثر الاستشهادي، يزلزلون أرض عاملة وفلسطين المقدسة تحت أقدام الأرجاس ويظهرونها من الأدناس، فهذه الوحدة، لا يعتبرونها وحدة إسلامية، بل وحده مصالح دنيوية مؤقتة.

وروى ابن خلكان عن الدارقطني أن النسائي صاحب السنن، أنه كان يصلي في أحد جوامع دمشق «فسئل عن معاوية وما روي من فضائله فقال: ما أعرف له فضيلة إلا قوله: «لا أشبع الله بطنك». وكان يتشيع، فما زالوا يدفعون في حضنه، حتى أخرجوه من المسجد. وفي رواية أخرى: يدفعون في خصيتيه وداسوه، ثم حمل إلى الرملة فمات بها»^(١).

ويخبرنا ابن العماد الحنبلي في حوادث سنة ٥٢٣ هجرية، أنه «فيها قتل بدمشق نحو ستة آلاف ممن كان يُرمى بالعقيدة الإسماعيلية»^(٢).

ترى كم قتل من المسلمين السنة في ظل الفاطميين؟ لن نجد جواباً عند أي مؤرخ عن هذا السؤال، إن كان مبغضاً للفاطميين أم محايداً!.

ويخبرنا كذلك ابن العماد عن حوادث سنة ٥٧٤ هـ، فيقول: «فيها أخذ ابن قرايا الرافضي، الذي ينشد في الأسواق ببغداد، فوجدوا في بيته سب الصحابة، فقطعت يده ولسانه، ورجمته العامة، فهرب،

(١) وفيات الأعيان، الجزء الأول، ص ٧٧.

(٢) شذرات الذهب، الرابع، ص ٦٦.

وسبح. فالحوا عليه بالأجر (الحجارة) ففرق، فأخرجوه وحرقوه. ثم وقع التقبّع على الرافضة وأحرقت كتبهم وانقمعوا حتى صاروا في ذلة اليهود»^(١).

وعند الحديث عن حوادث سنة ٤١٥ هجرية، يقول أبو المحاسن ابن تغري بردي: وفيها مُنع الرافضة من النوح في يوم عاشوراء، ومُنِع عيد الغدير، وأيد الله أهل السنة والله الحمد.

ويقول أيضاً: «وفيها توفي عبدالله بن عبدالله بن الحسين أبو القاسم الخفاف». وبعد أن يعدّد مناقبه، يقول: «ومما يدلّ على دينه وحسن اعتقاده، بغضه للشيعة، عليهم الخزي، ولو لم يكن من حسناته إلا ذلك لكفاه عند الله»^(٢).



كربلاء المغرب:

لقد تحدّث التاريخ عن قتل الحسين بن علي وأهله وأزواجه وأبنائه وصحبه - عليهم السلام -، وتحدّث علي ابن الحسين - أبو الفرج الأصبهاني - عن مقاتل الطالبين وأرخّ لهم. أما الجريمة النكراء التي حلّت بطائفة الشيعة بأكملها في المغرب العربي، لم يشر إليها أي مؤرّخ سوى ابن الأثير ومن أتى بعده وأخذ عنه، تجاوزها، وحاول طمسها، لأنها وصمة عار في تاريخ الإسلام والمسلمين. فبأي حق يقتل المسلم أخاه المسلم، وكيف إذا كان المقتول صاحب البيت؟.

(١) م.س. نفسه، ص ٢٤٦.

(٢) النجوم الزاهرة، الرابع، ص ٢٦٢.

يخبرنا ابن الأثير في مجرى حديثه عن حوادث سنة ٤٠٧ للهجرة عن هذه المجزرة التي حلت بالملايين من الشيعة في المغرب العربي فيقول: «في هذه السنة في المحرم، قُتلت الشيعة بجميع بلاد إفريقية. وكان سبب ذلك أنَّ المعزَّ بن باديس، ركب ومشى في القيروان، والناس يسلمون عليه ويدعون له، فاجتاز بجماعة فسأل عنهم فقيل: هؤلاء رافضة يسبون أبابكر وعمر. فقال: رضي الله عن أبي بكر وعمر. فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلَى من القيروان، وهو مكان تجمع الشيعة. فقتلوا منهم وكان ذلك لشهوة العسكر وأتباعهم طمعاً في النهب. وانبسطت أيدي العامة في الشيعة. وأغراهم عامل القيروان وحرّضهم. وسبب ذلك أنه كان قد أصلح أمور البلد، فبلغه أنَّ المعزَّ بن باديس يريد عزله، فأراد إفساده، فقتل من الشيعة الخلق الكثير، وأحرقوا بالنار ونُهبت ديارهم، وقتلوا في جميع إفريقية. واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قريب القيروان، فتحصَّنوا فيه، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم، فاشتدَّ عليهم الجوع، فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم، حتى قتلوا عن آخرهم. ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع فقتلوا كلَّهم. وكانت الشيعة تسمَّى بالمغرب المشاركة - نسبة لأبي عبدالله الشيعي الآتي من المشرق. وأكثر الشعراء ذكر هذه الحادثة. فمن فرح مسرور ومن باك حزين»^(١).

وللأسف لم يذكر لنا ابن الأثير أي مقطوعة أو قصيدة لاي

(١) الكامل في التاريخ، الجزء السابع، م.س. ص ٢٩٥.

شاعر مسرور شامت أو حزين باك. ربمّا لأنّه لا يريد زرع الأحقاد والإحن والبغضاء في صفوف المسلمين.

وإذا رجعنا إلى المؤرّخين المتأخّرين الذين أخذوا عن ابن الأثير، نجد أنّهم تجاوزوا هذه المجزرة الفظيعة في حق أحد أهم جناحي الإسلام، ولم يشيروا إليها بكلمة.

ابن تغري بردي تجاوزها ولم يذكرها، والحافظ ابن كثير قال إنه «في هذه السنة قتلت الشيعة الذين ببلاد إفريقية ونهبت أموالهم، ولم يترك منهم إلا من لا يعرف»^(١).

بسطر واحد فقط، ولم يبد شماتته كعاداته في ذكر وفاة أي شيعي.

كذلك لم يشر ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب وابن أبيك الدواداري في الدرّة المضيّة، إلى هذه المجزرة لا من قريب ولا من بعيد. ولولا ابن الأثير لطمسها التاريخ.

ونقل عمر أبو النصر عن المستشرق إيفانوف «أنّ التشيع في القرن الثالث الهجري، كان في محنة شديدة لم يعرف الشيعة لها مثيلاً في تاريخهم، فأبناء الصادق كانوا بين مشرّد ومسجون، وكلّ من اتّهم بالتشيع، كان يُحمل إلى بغداد أو سر من رأى. ولم يبق للشيعة مركز يجتمعون به ويتبادلون الدرس والرأي، فتفرّقوا. واتخذوا التقيّة على أنفسهم. واتصلوا بأهل السنّة ودرسوا مذاهبهم، بحيث أصبح من الصعب أن تفرّق بين الشيعي والسني. ولا سيما

(١) البداية والنهاية، رقم ١٢، ص ٥.

في رواية الحديث، بل لم يستطع الشيعة أن يضعوا كتباً خاصة تعرف بها خصائصهم. ثم جاءت القرون المتعاقبة، فكتب المتعصبون ضد الشيعة حسب أهوائهم. ومن هنا كان البحث عن الفرق الإسلامية التي ظهرت في القرنين الثاني والثالث للهجرة من أشقّ البحوث وأدقّها^(١).

وإضافة إلى ما ذكره إيفانوف، جاء الأيوبيون والمماليك فأحرقوا الشيعة وكتبهم، فلم نعد نجد مصدراً واحداً يعطينا صورة حقيقية عن الإسماعيلية أو الزيدية أو الاثني عشرية، وإلا ما ندر من كتب، كتبها الشهيد الأول والشهيد الثاني وعلماء القرن الثامن والتاسع الهجريين من شيعة جبل عامل والبحرين.

الفقيه الشيعي الإمامي أبو الفتوح السهروردي، يقنع عليّ صلاح الدين الأيوبي بعصمة الأئمة من أهل البيت وبأفضليتهم:

والسهروردي، هذا هو يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح، أحد فلاسفة الشيعة الإمامية. تعرّف عليه الملك الأفضل عليّ في حلب، وأخذ يغرف من علمه ومن علم الإمامية، فتشيع، فقام علماء السنة وراسلوا والده السلطان صلاح الدين، وأخبروه بما فعل السهروردي بولده من «إفساد عقيدة، وتضليل» فجن جنون صلاح الدين وزجر ولده الأفضل عليّ وهدّده.

(١) قلعة الموت، م.س. ص ٦٢.

صلاح الدين الأيوبي «المحب للعدل» يرمي السهروردي بالزندقة ويحرقه:

كتب أبو المحاسن ابن تغري بردي يصف السلطان صلاح الدين يوسف فقال: «كان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة. ولما بلغه عن السهروردي ما بلغه، أمر ولده الملك الظاهر بقتله، وكان محباً للعدل، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز، وما استغاث إليه أحدٌ إلا أجابه وكشف ظلامته.

ويقول أبو المحاسن ابن تغري بردي إنه أغوى الملك الظاهر والصحيح أنه أقنع الملك الأفضل علي بأحقية علي وبنيه بالخلافة، وقد أعلن الأفضل علي تشييعه فعلاً.

قال أبو المحاسن: «فيها (سنة ٥٨٧هـ)، توفي يحيى السهروردي المقتول بحلب، كان يعاني من علوم الأوائل والمنطق والسيمايا وأبواب النيرنجيات (السحر). فاستمال بذلك خلقاً كثيراً وتبعوه وله تصانيف في العلوم. واجتمع بالملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب. فأعجب الظاهر كلامه ومال إليه. فكتب أهل حلب إلى السلطان صلاح الدين: إدرك ولدك، وإلا تتلف عقيدته، فكتب إليه أبوه، صلاح الدين بإبعاده، فلم يبعده. فكتب بمناظرته فناظر العلماء، فظهر عليهم بعبارته. فقالوا: إنك قلت إن الله قادر على أن يخلق نبياً، وهذا مستحيل! فقال: ما وجه الاستحالة؟ فإن الله هو القادر وهو الذي لا يمتنع عليه شيء. فتعصّبوا عليه. فحبسه صلاح الدين، وجرت بسببه خطوب وشناعات». ووصف أبو المحاسن شكل السهروردي الخارجي، بعد أن عجز عن وصف سيرته وسريره فقال: وكان السهروردي رديء الهيئة، زري الخلقة،

دَنَسَ الثَّيَابَ، وَسَخَّ الْبَدَنَ، لَا يَغْسِلُ لَهُ ثَوْباً وَلَا جَسَماً، وَلَا يَقْصُ ظَفَراً وَلَا شَعِراً، فَكَانَ الْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ مَنْ رَأَاهُ يَهْرَبُ مِنْهُ لِسُوءِ مَنْظَرِهِ وَقُبْحِ زَيْهِ. وَطَالَ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ أَمَرَ السُّلْطَانُ بِقَتْلِهِ، فَقُتِلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ٥٨٧هـ، وَأُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ مَيِّتاً^(١).

وبين وفاة أبي المحاسن ابن تغري بردي ومقتل السهروردي أربعمئة سنة، وقد وصفه وصف مشاهد عيان معاش له، وإلا من أين أخذ هذا الوصف، فلا ابن الأثير المعاصر له وصفه، ولا أي مؤرّخ معاصر آخر. ترى، هل من استطاع إقناع الملك الأفضل علي ابن صلاح الدين بولاية أهل البيت، من الممكن أن يتناثر القمل على وجهه؟

الممالك ينبشون عظام الخلفاء الفاطميين ويرمونها على المزابل:

لم تلق طائفة أو مجموعة بشرية من الظلم والقهر والتشريد والتقتيل، كما لاقى المسلمون الشيعة منذ بيعة السقيفة وحتى بداية الألف الثالث للميلاد. وكنا قد أشرنا في مقالات سابقة إلى مواقف العلماء المسلمين السنة ومؤرخيهم تجاه الإسلام الشيعي، متقدمين، ومعاصرين، علماً أنّ أتباع الإسلام الشيعي، هم أتباع البيت الإسلامي ومالكوه الحقيقيون، وليس أتباع الطارئين والمستجدّين على الإسلام.

(١) النجوم الزاهرة، الجزء السادس، ص ١٠٤.

ويخبرنا أحمد بن علي المقرئ أن المماليك وصل بهم الأمر إلى أن جرفوا قبور الخلفاء الفاطميين وعند حديثه عن خان الخليلى مكان هذه القبور قال: «هذا الخان بخط الزراكشة العتيق. كان موضعه تربة القصر التي فيها قبور الخلفاء الفاطميين المعروفة بتربة الزعفران. أنشأه الأمير جهاركس الخليلى، أمير ياخور الملك الظاهر برقوق. وأخرج منها عظام الأموات في المزابل على الحمير، وألقاها في كيمن (مزابل) البرقية، تهاوناً بها. وكان يلود به شمس الدين محمد بن أحمد القليجي، حيث قال له إن هذه عظام الفاطميين، وكانوا كفاراً رفضة»^(١).

نهاية جهاركس الخليلى بلعنة الخلفاء الفاطميين:

ويخبرنا المقرئ: «أنه اتفق لجهاركس الخليلى في موته أمر فيه عبدة لأولى الألباب. وهو أنه لما ورد الخبر بخروج الأمير يلبغا الناصري نائب حلب، ومجيء منطاش نائب ملطية إليه، ومسيرهما بالعساكر إلى دمشق، أخرج الملك الظاهر برقوق خمسمائة من المماليك، وتقدم لعدة من الأمراء بالمسير بهم. فخرج الأمير جهاركس الخليلى هذا مع عدة أمراء وساروا إلى دمشق، فلقاهم الناصري ظاهر دمشق، فانكسر عسكر السلطان لمؤامرة بين ابن يلبغا وأيتمش، وقتل جهاركس الخليلى، وترك على الأرض عارياً وسواته مكشوفة، وقد انتفخ. وكان طويلاً عريضاً وبقي مطروحاً إلى أن تمرق وبلي»^(٢).

(١) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٤٩.

(٢) م.س. ص ٩٤.

ويعلق المقرئ على هذا الخبر بقوله: «عقوبة من الله تعالى، بما هتك من رمم الأئمة وأبنائهم. ولقد كان عارفاً خبيراً بأمر دنياه. ويحدثنا عن كرمه فيقول إنه كان يفرق على كل فقير في اليوم رغيفين.

فأين عفو الخلفاء الفاطميين من عفو الخليلى؟ وأين كرمهم من كرمه. فهو يفرق على كل فقير يأتي إلى الخان يومياً رغيفين!

ترى هل يستطيع وليّ الفقيه، ووليّ إمام العصر (عج)، السيد علي الخامنئي، بثاقب نظرتة وبامتلاكه لعلوم أهل البيت، وهو سليلهم، إعادة الوحدة بين طرفي الإسلام، وهل سيكون بمقدوره إعادة أصحاب البيت وأهله إلى بيتهم؛ وكشف الزيغ التاريخي والتزوير الرهيب الذي طمس به المزورون الإسلام؟.

الأقباط أيام الدولة الكردية والمملوكية: إما الدخول في الإسلام أو القتل:

قلنا إنَّ الأقباط كانوا وما يزالون من نسيج الشعب المصري الأصلي، وكما أصاب المصريين من عسف وظلم وقهر على يد الأكراد والمماليك، وهم جزء منه، فأصابهم ما أصاب كل المصريين. ولكنهم اضطهدوا أكثر من غيرهم لأسباب طائفية، تنم عن عدم فهم الأكراد والمماليك للإسلام فهماً صحيحاً. فالفهم السليم يجب أن يكون مبنياً على معرفة دقيقة وعميقة باللغة العربية، وبسبب بعد هؤلاء الأقوام عن اللغة العربية السليمة، ابتعدوا عن الفهم الصحيح للإسلام، فطبقوه حسب أهوائهم ومصالحهم لا حسب المفهوم الإسلامي للعلاقة مع أهل الأديان السماوية الأخرى.

يقول المقرئزي: وفي سنة ٦٨٢هـ، كانت واقعة النصارى، ومن خبرها أنَّ الأمير سنجر الشجاعى، كان له حرمة وافرة في أيام الملك المنصور قلاوون، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم، ولا يجسر نصراني أن يحدث مسلماً وهو راكب، وإذا مشى، فبذلة، ولا يقدر أحدهم أن يلبس ثوباً مصقولاً (مذهباً). فلما مات الملك المنصور قلاوون، وتسلم من بعده ابنه الملك الأشرف خليل، خدّم الكتاب النصارى عند الأمراء الخاصكية، وقوّوا نفوسهم على المسلمين، وترفعوا في ملابسهم وهياتهم، وكان منهم كاتب يعرف باسم «عين الغزال». ويخبرنا المقرئزي أنَّ الكاتب القبطي عين الغزال اختلف مع سمسار شونة (مخزن غلال) مسلم، فسبّه وشتمه، رغم أنَّ السمسار اعتذر لعين الغزال وقبّل رجله، ولكن الكاتب زاد تهديداً، وطالبه بما تأخّر عليه من ثمن غلة الأمير الخاصكي، والسمسار يترفّق له ويعتذر، فلا يزيده ذلك إلا غلظة، ثم أمر عين الغزال غلامه فكثّف السمسار، فتجمّع عليه العامة وأطلقوا السمسار رغم أنفه، وانطلقوا إلى قصر السلطان واستغاثوا به، فأرسل السلطان خليل أحد الخدم لكشف الأمر، فاعلموه ما كان من تطاول الكاتب القبطي النصراني على السمسار المسلم.

ويخبرنا المقرئزي، أنَّ الملك الأشرف خليل أمر بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم، ثم هدأت نفسه، فأمر بإعلان الغداء التالي: «ينادي في مصر والقاهرة أن لا يخدم أحد من النصارى واليهود عند أي أمير من الأمراء، وأن يعرض كل أمير على ما عنده من الكتاب النصارى الدخول في الإسلام، فمن امتنع من الإسلام، ضربت عنقه، ومن أسلم

استخدموه عندهم» وبدأ الأمراء تنفيذ أمر السلطان خليل، فاختلفى الأقباط من الشوارع ولزموا بيوتهم، فصارت العامة تتخطفهم من بيوتهم وتنهبها «حتى عم النهب بيوت النصارى واليهود بأجمعهم، وأخرجوا نساءهم مسبيات، وقتلوا جماعة منهم»^(١).

ويقول المقرئىزى إنه أسلم منهم من أسلم بانتظار فرصة مؤاتية للعودة إلى النصرانية.

وأخبار قتل الأقباط من قبل الأيوبيين والمماليك تملأ كتب التاريخ، وبالأخص الخطط المقرئىزية، فمنها هدم كنيسة بومنا فى منطقة الحمراء على رؤوس المصلين و«كنيسة الزهرى فهدموها حتى بقيت كوماً وقتلوا من فيها من النصارى وذلك سنة ٧٢٠ هـ، كما يخبرنا، كيف أنهم هاجموا كنيسة بجوار السبع سقايات «تعرف بكنيسة البنات، لأنه كان يسكنها بنات النصارى (المترهبات) فكسروا أبوابها وسبوا البنات وكن زيادة عن ستين بنتاً (راهبة)»^(٢).

ويخبرنا المقرئىزى أن ركن الدين بيرس الحاجب وصلته وشاية أن رهبان الأقباط عملوا على حرق القاهرة، فكبسهم فى أحد الأديرة وأحرقهم، وشجّع العامة على نهب الكنائس والأديرة وهدمها وحرقها، ونهب بيوتهم وسبى نساؤهم وأولادهم. بينما عندما جاء أحد الوشاة إلى الوزير الفاطمى بدر الجمالى وأخبره. أن ملك النوبة، وبإيعاز من البطريك خريستوذولس - (بطريك الدولة الفاطمية)،

(١) راجع: الخطط المقرئىزية، الجزء الثانى، ص ٤٩٨.

(٢) م.س. نفسه، ص ٥١٢.

قرّر أن يهدم جميع مساجد المسلمين في النوبة، فما كان من الوزير بدر الجمالي إلا أن أرسل مبعوثاً إلى النوبة، ليتحقّق من صحة الوشاية، وبعد رجوع الرسول، اتضح أنّ الأمر أكذوبة، فما كان من الوزير بدر الجمالي إلا أن حكم على صاحب الوشاية بالإعدام^(١).

ولم يكن لليهود تأثير كبير في المجتمع المصري الفاطمي كتأثير الأقباط النصارى، لأنّ الشعب المصري بأكمله، قبل دخول القبائل العربية، كان قبطياً مسيحياً بكامله، ثم بدأت تتوافد القبائل العربية إلى مصر حاملة معها الإسلام، فقاومت الأقباط بلدهم، ثم أصبحت مصر عبر تعاقب الأجيال والقرون، حاملة لواء الإسلام في كل أقطار المعمورة، دون أن تدير ظهرها لأبنائها الأوّل: الأقباط.



(١) راجع: أهل الذمة في مصر، م.س. ص ٢٨٥.

ظاهرة العفو عند الفاطميين

العفو عن العدو والمسيء، كان عند الخلفاء الفاطميين، ظاهرة فريدة من نوعها في تاريخ الحكام العرب والمسلمين، فتاريخ الأمويين والعباسيين والأكراد الأيوبيين والمماليك والأتراك، هو تاريخ القتل والتشريد والتفطير وسمل العيون وقطع اللسان، وزجّ الوجهاء والأمراء في غياهب السجون. ولم نقرأ عفواً واحداً أصدره خليفة أو سلطان واحد من هؤلاء الخلفاء والسلاطين. ولكن إذا تصفحنا تاريخ الخلفاء الفاطميين، نجد أنّ العفو لم يكن طفرة أو تصرف يتيم من خليفة واحد، بل كان ظاهرة وعادة متأصلة في نفوسهم، ربما لشدة حلمهم أو عملاً بنصائح جدّهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أو أنّهم يعرفون طعم العفو حق المعرفة لأنهم حرّموا من مذاقه طيلة القرون الأموية والعباسية، التي كانت سوداء بالنسبة لهم.

وسنرى كيف كان هؤلاء الناس ينظرون إلى عملية العفو عن المسيء وكيف كانوا يطبقونه؟.

يحدثنا داعي الدعاة عماد الدين إدريس القرشي أنّه لما دخل

الخليفة الفاطمي المنصور بالله، أبو الطاهر إسماعيل، إلى مدينة القيروان «وجد فيها جماعة من نساء الخارجي أبي يزيد مخلد بن كيداد وأولاده ونساء أولاده وأولاداً لهم، وحرماً لهم فامر - صلى الله عليه وسلم - بصيانتهم وحفظهم والإحسان إليهم، وأمر بحملهم إلى المهديّة، وأجرى لهم فيها ما يسعهم عطاء ونوالاً، وجازاه بسيء أفعاله إحساناً وأفضالاً»^(١).

أما المقرئ فقد أورد العديد من الأخبار التي تدل على علو قدرهم وشدة حلمهم وكثرة عفوهم، منها، حماية بيوت العساكر الإخشيدية والكافورية الذين نكثوا الإتفاق مع جوهر الصقلي، وتصدوا للعساكر الفاطمية حين دخولها الفسطاط، وإقدام الخليفة المعزّ على العفو عن من أسر منهم، والسماح للهاربين بالعودة إلى بيوتهم. وكانوا أكثر من ستة آلاف جندي. كان أبو جعفر، مسلم بن عبيد الله الحسني، من الأشراف الذين عملوا على إدخال الفاطميين سلماً إلى مصر، وكان من الذين وقعوا على الاتفاق المبرم بين وجهاء وأعيان مصر، وبين جوهر الصقلي لكنّ أخاه عبدالله بن عبيد الله الحسني، عارض دخول جوهر إلى مصر، وحارب هذا الدخول، ثم هرب مع العساكر الإخشيدية والكافورية فصودرت أمواله وضياعه ودوره، وهربت زوجته صفية لأنها لم تكن تعلم شيئاً عن حلم الفاطميين وعفوهم، فما كان منها إلا أن كاتبت ابن عمّها أمير مكة جعفر بن محمد الحسني، تجعله واسطة لها عند

(١) عيون الأخبار وفتون الآثار، السبع الخامس، م.س. ص ٢٣٧.

الخليفة المعزّ لرد ضياعها وأملاكها، فأرسل أمير مكة كتاباً إلى
الخليفة المعزّ بذلك، «فامر الخليفة برّد ضياعها وريعتها، وتسليم ذلك
إليها، فأحضر يعقوب بن كلّس، القاضي أبا طاهر وشهوده (لجنة
المحلّفين)، وأشهدهم في كتاب صادر عن المعزّ أنّه أمره برّد
ضياعها ورباعها إليها، فظهرت وأُمنت بعد أن كانت متخفية»^(١).

وعندما خرج أفتكين والي دمشق عن طاعة الخليفة المعزّ واتصل
بالقرامطة، وحاول مهاجمة مصر مع زعّار دمشق وكبيرهم قسّام،
وهاجمهم العسكر المصري الفاطمي وحاصر دمشق، ولكن الثلوج
والشتاء أهلك منه الكثير، فتراجع جوهر وعاد إلى مصر متهمّاً
الكتاميين بالتخاذل، وكان المعزّ قد توفيّ وجلس ولده العزيز مكانه،
فغضب العزيز من اتهام جوهر للكتاميين بالتخاذل وعزله عن الوزارة
وأعاد يعقوب بن كلّس إليها، وجّهز نفسه للمسير لمقاتلة أفتكين
وقسّام، ووصل إلى الرملة في فلسطين، أوّل طليعة عسكر القرامطة
والزعّار، فما كانت الا ساعة حتّى هزم الخليفة العزيز أفتكين
وعسكره، وأخذهم من كل جانب، فصرخت العساكر: الأمان الأمان،
وهرب أفتكين إلى القدس، فلحقه حسان بن مفرّج بن الجراح فشدّ
عمامته من عنقه وساقه إلى العزيز.

فشهّر به، فطلب الصفح والعفو، فعفا عنه العزيز، بعد أن نكّل وقتل
الآلاف من العسكر المصري. فوصل الخبر إلى مصر بانتصار
الجيوش المصرية على القرامطة والخوارج، ثم وصل خبر عفو العزيز

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، م.س. ص ٢٢٥.

عن أفتكين، فكتب الشريف، أبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد المرسى الحسنى - لما له من دالة النسب والقرابة على العزيز ينصحه بعدم العفو عن أفتكين ويقول له: «يا مولانا: لقد استحق هذا الكافر كل عذاب، والعجب من الإحسان إليه والعفو عنه». فلم يعمل برأيه.

وسار العزيز، ومعه أفتكين من الرملة، وبقيّة الأسرى إلى مصر. فخرج الناس إلى لقائه وفيهم الشريف أبو إسماعيل المرسى الحسنى، فلما رآه العزيز قال له: يا إبراهيم: قرأت كتابك في أمر أفتكين، وفيما ذكرته، وأنا أخبرك: أعلم إنّ وعدناه الإحسان والولاية، فما قبل، وجاء إلينا ولجّ وقاتل، فلما ولّى منهزماً ودخلت فازاته (خيمه)، سجدت لله الكريم شكراً، وسألته أن يفتح لي بالظفر به، فجاء به بعد ساعة أسيراً. تُرى يليق بي غير الوفاء».

ودخل العزيز إلى القاهرة، ومعه أفتكين والأسرى فأنزل أفتكين في داره وأوصله بالعطاء والخلع فقال أفتكين: «لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله، ونظري إليه مما غمرني من فضله وإحسانه». فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمّه حيدرة: يا عمّ: أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضّة والجوهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كلّ من عندي»^(١).

وبعد أن يعدّد لنا المقرئى التكريم الذي أصاب أفتكين من العزيز والأمراء، يقول: وكان الذي أنفق العزيز على أفتكين حتى أسره ألف ألف دينار (مليون).

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٤٤.

أما قسّام رئيس زعّار دمشق فقد هرب واختفى، فنودي في الأسواق: من دلّ على قسّام فله خمسون ألف درهم ومن دلّ على أولاده فله عشرون ألف درهم. فاعتقلوا أولاده، وسلّم قسّام نفسه إلى منشأ بن إبراهيم بن القزاز اليهودي، فعفا العزيز عنه وعن أولاده وأكرمه وخلع عليه.

وعندما خرج أمر العزيز باعتقال الوزير يعقوب بن كلّس ومصادرة أمواله وأوراقه، وجد بين الأوراق جدولاً بأسماء أشخاص مستورين يوزّع عليهم من ماله الخاص شهرياً ألف دينار، «فأمر العزيز بإجرائها على أصحابها، ثم أفرج عنه وأعيد إلى وزارته»^(١).

ويحدّثنا المقرئ عن الشاعر الدمشقي الحسن بن بشر، وقد أشرنا إليه في فصل سابق، أنّه عندما تمكّن الأقباط والنصارى من مؤسّسات الدولة بدعم من الوزير الأول يعقوب بن كلّس، هجاه وهجا الخليفة العزيز حيث قال:

قل لأبي نصر كاتب القصر والمتأثي لنقض ذاك الأمر
انفض عرى الملك والوزير تفز منه بحسن الثنا والذكر
واعطِ وامنع ولا تخف أحداً فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ماذا يراد به وهو إذا درى فما يدري
فشكاه الوزير إلى الخليفة العزيز، فامتعض منه إلّا أنّه قال: إعف عنه. فعفا عنه.

(١) م.س. صفحة ٢٦٢.

ثم دخل الوزير ابن كلّس بعد فترة على العزيز وقال له: «لم يبق للعفو عن هذا معنى، ففيه غضّ من السياسة، ونقص لهيبة الملك فإنّه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن رباح نديمك، وسبّك بقوله^(١)»:

زيارجي نديم وكليسي وزير نَعَمْ، على قدر الكلب يصلح الساجور
فغضب الوزير وأمر بالقبض عليه، فقبض عليه لوقته، ثم بدا للعزيز إطلاقه، فأرسل إليه يستدعيه، وكان للوزير عين في القصر، فأخبره بذلك، فأمر ابن كلّس بقتله قبل وصول أمر إطلاق سراحه، فاغتمّ العزيز له.

ويخبرنا المقرئ أيضاً أنّه عندما خرج ملك النوبة (السودان) من بلاده إلى أسوان يريد زيارة إحدى الكنائس، قبض عليه وأُتي قوص الفاطمي فغضب الوزير الأول أمير الجيوش من هذا العمل وأطلق سراحه بعد أن أكرمه وأفاض عليه النعم وأتحفه بالهدايا الجليلة.

مركز تحقيق التراث
مكتبة محمد بن عبد الوهاب
الرياض

الإمام المستنصر بالله، يابى إراقة دماء أبناء فاطمة رغم خروجهم عن طاعته بمكة:

عند الحديث عن الصليحي حاكم اليمن، أيام الخليفة المستنصر نعلم، أنّ مكة خرجت من طاعة الإمام المستنصر، وقطعت الخطبة له من سنة ٤٥٧هـ، فأرسل الصليحي إلى واليها شكر الحسن بن الطالب، يحذّره من مغبة خروجه على الخليفة المستنصر، وتبذلت

(١) الزيرجي: السكير، والساجور: خشبة تعلق في عنق الكلب.

بين الطرفين مراسلات تنطوي على الكثير من التهديد والوعيد. ولما عيل صبر الصليحي وضاق صدره، أرسل يطلب من الإمام الفاطمي المستنصر بالله، الإذن له بإزالة الشريف شكر الحسن العلووي الطالببي عن حكم مكة. فأجابه المستنصر بكتاب ينهيه عن سفك الدماء بالحرم الشريف قائلاً: «يَاكَ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ بِدَمَاءِ بَنِي فَاطِمَةَ» فالتزم الصليحي أمر إمامه وصبر مكرهاً على ما كان يجري بمكة^(١).

الأدب والتجارة لا يتفقان:

ويتحفنا المقرئزي بإقدام أحد الشعراء على تعاطي التجارة، وهو الشاعر هبة الله ابن عبد المحسن، الذي أقدم على الدخول في مناقصة ضمان بعض الجهات، وبعد أن عرض حسابه، وجد أنه قد انكسر عليه مال في ضمانه، فكتب إلى الوزير الأول رضوان بن ولخشي:

أنا شاعرو صناعتني الأدب وضمان مثلي المال لا يجب
أنا مستمحيكم وليس على من جاء يطلب رفقكم طلب
وإذا... غدا الباقي عليّ فما من حاصل ورق ولا ذهب
فسامحه رضوان بالباقي ولم يطالبه به.

في مقابل هذا العفو الذي لا يصدر إلا عن نفوس عالية، كيف كان أخصام الفاطميين وأعداء الإسلام الشيعي الطالببي يتصرفون؟

(١) أروى بنت اليمن، عارف تامر، ط ١، القاهرة، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠، ص ٦٦.

الظلم العباسي والكردي مقابل العفو الفاطمي:

لا يستطيع أي مهتم بالتاريخ الإسلامي أن ينسى أو يتجاوز كتاب مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني، وهذا الكتاب خصصه مؤلفه لذكر مظالم أهل البيت منذ بيعة السقيفة وحتى سنة ٣١٣ هـ. حيث يقول في خاتمة كتابه: «هذا ما انتهى إلينا من أخبار من قتل من آل أبي طالب رضوان الله عليهم ورحمته، منذ عهد رسول الله (ص) إلى الوقت الذي جمعنا فيه هذا الكتاب وفرغنا منه وذلك في جمادى الأولى من سنة ٣١٣ هـ»^(١).

ويذكر بالمقدمة أنه «ذاكرٌ من قتل من ولد علي بن أبي طالب، ومن احتيل بقتله بسم سقيه وكان سبب وفاته، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات في تواريه ومن ظفر به فحبس حتى هلك في محبسه» فكان جملة الذين ذكرهم وأرخ لقتلهم أكثر من ٣٥٠ طالبياً قتلوا وسجنوا وشردوا حتى سنة ٣١٣ للهجرة.

وهؤلاء الشهداء نقطة في بحر الدم الذي أغرق به الأيوبيون والمماليك، المسلمين الشيعة في جميع أصقاع المعمورة، سجنًا وقتلاً وذبحاً وتشريدًا.

ويروي لنا المسعودي خبر محمد بن الحسن بن سهل المعروف بشميلة كيف اعتقله المعتضد بالله العباسي (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) لعلمه بأنه يدعو لرجل من آل البيت، فاعتقله «طمعاً بأن يدلّه على الطالبين وحاول معه من جميع الجهات أن يدلّه على الطالبين الذي أخذ العهد له

(١) مقاتل الطالبين، أبو الفرج الأصبهاني، ط ١، بيروت، دار العرفة لا تاريخ، ص ٧٢١.

على الرجال، فأبى شميلة، وجرى بينه وبين المعتضد خطب طويل، وقال للمعتضد: لو شويتني على النار ما زدتك على ما سمعت مني. ولن أقر على من دعوت الناس إلى طاعته وأقررت بإمامته، فاصنع ما أنت صانع. فقال له المعتضد: لن نعذبك إلا بما ذكرت، فقل إنه صنع له حديدة طويلة أدخلت في دبره وأخرجت من فمه، وأمسك بأطرافها على نار عظيمة، حتى مات بحضور المعتضد، وهو يسبه ويقول فيه العظائم»^(١).

ويخبرنا ابن الحريري عن عدل هارون الرشيد وعلو همته في العفو: عندما توسل إليه يحيى بن خالد البرمكي طالباً منه العفو والسماح حيث قال له مخاطباً: «فاذكر يا أمير المؤمنين كبر سنّي وضعف قوّتي وقديم حرمتي وحقّ خدمتي وذلّ مسكني، وقلّة حيلتي، وإن كنت أنا المذنب الخاطيء، فأنت المحسن التعاطي، وبالله أستعين على رضاك وأنا مقرّ بأنّي محتاج إلى رحمتك. وقد علمت اتّضاع خدّي وانقطاع جدي، وتقليل عددي، وذهاب مالي وضياع حرمتي وأولادي، وشماتة حسّادي فأرجو منك الإحسان. وذيل طلب الاسترحام والعفو بالأبيات التالية»^(٢):

قل للخليفة ذي الصنائع والعطايا الناشيه

وابن الخلايف من قريش والملوك الهاديه

ابن الملوك وخير من ساس الأمور الماضيه

أين البرامكة الذين رموا لديك بداهيه

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء السابع، م.س. ص ١٥٥.

(٢) كتاب منتخب الزمان، م.س. ص ١٢٢.

عمّتهم لك سخطة لم تبق منهم باقيه
 فكأنهم مما بهم إعجاز نخل خاويه
 صفر الوجود عليهم خلع المذلة بادية
 مستضعفين مشرّدين بكل أرض قاصيه
 ومنازل كانت لهم فترى المنازل خاليه
 أضحوا وجلّ مناهم منك الرضا والعاقيه
 فإذا رضيت فإنّ أنفسهم بحكمك راضيه
 أخليفة الله الرضا لا تشمتنّ أعاديّه
 وانظر إلى الشيخ الكبير فنفسه لك راجيه
 أمّا سمعت مقالتي يا ابن الاصول الزاكيه
 قد كنت أرجو غير ذا فاليوم خاب رجائيّه
 واليوم قد سلب الزمان كرامتي وبنائيّه
 ألقى الزمان جرانه متلاصقاً بفنائيّه
 ورمى صواب مقاتلي فأصاب حين رمانيه
 يا من يريد لي الردى يكفيك ويحك ما بيّه
 يكفيك أني مستباح معشري ونسائيّه
 يكفيك ما أبصرت من ذلي وقبح ثنائيّه
 وذهب مالي كله رفد الخليفة ماليّه
 إن كان لا يرضيك إلا أن أذوق حماميّه
 فلقد أذقت الموت من قبل الممات علانيّه
 وفجعت أعظم فجعة وفنيت قبل فنائيّه
 ولبست أثواب الهوان ولم تكن بلباسيه

وحرمت صفو معيشتي وتغيرت حالاتيه
 وهويت في قعر السجون على رفيع مكانيه
 أنظر بعينك هل ترى إلا قصوراً خاليه
 وعساكراً ومساكناً من بعد أنس خاليه
 ونوادباً تندبنني تحت الدجا ببكائيه
 وبكاؤهن وقد سُمِعْنَ مقلقلاً أحشائيه
 أنكر جعلت لك الفدا كِبَري ورقّة خاليه
 ارحم أخاك الفضل والباقيين من أبنائيه
 أخليفة الرحمن إنك لو رأيت بناتيه
 وبكاء فاطمة الكبيرة والمدامع جاريه
 من لي وقد غدر الزمان بسادتي وحماتيه
 من لي معين بعد ما كسر الزمان قناتيه
 من لي وقد غضب الإمام على جميع رجاليه
 يا لهف نفسي لهفها ما للزمان وماليه
 يا عطفة الملك الرضا عودي علينا ثانيه
 ولقد دعوت وقد دعوتك إن سمعت ندائيه
 وبعث بها السجان إلى الرشيد فلما قرأها قال: وبقي ليحيى عقل
 ينظم الشعر! والله العظيم لأشغلنه بنفسه عن نظم الأشعار بل عن
 الكلام. وكتب إليه:

من عبدالله هارون الرشيد إلى يحيى بن خالد.
 أما بعد فإنني لم أقتل ابنك جعفر وفي عزمي أنني أبقيك ولا لأحد
 من البرامكة، وإنما حبستك لتلاقي البؤس بعد النعيم، وليعلم ذلك كل

من معك في السجون من أهلك، فابشر بقطع أصولك وتبدّد شملك.
وذيل الرد بهذه الأبيات:

يا آل برمك كنتم فينا ملوكاً عاتيه
فكفرتُم وعصيتُم وجحدتُم نعمائيه
فلبستموها هفوة وكذا ترد العاريه
ذوقوا وبال فعالكم حتى تلاقوا الهاويه
هذي عقوبة من عصى رب السما وعصانيه
كنتم كشيء قد مضى أحلام قوم ماضيه

فأين ردّ هارون الرشيد وعتّوه من مواقف الخلفاء الفاطميين؟
إن الحلم الذي اتّصف به الخلفاء الفاطميّون هو حلم بالفطرة،
ورثوه عن الإمام السجاد والباقر والصادق. لم يعرفوا القتل إلا
تطبيقاً لقصاص، دفاعاً عن الإسلام، ولم يسفكوا دماء قط إلا ردّاً
لهجوم في معرض الدفاع، خاضوا الحروب ضد الروم وضد
الفرنجة وضد الخارجين على دولتهم بتحريض من العباسيين.
دخلوا بغداد وأقاموا الخطبة العلوية فيها، دون سفك دماء، كما
دخلوا مصر دون سفك دماء، فأين هم من بني أمية؟ وأين هم من
بني العباس؟

وعن حالة التشيع في القرن الثالث، القرن الذي أقام فيه
الفاطميّون دولتهم يخبرنا الباحث المعاصر، عمر أبو النصر عن هذه
الحالة فيقول: «إن التشيع في القرن الثالث للهجرة، كان في محنة
شديدة، لم يعرف الشيعة لها مثيلاً في تاريخهم، فأبناء الصادق،

كانوا بين مشرد ومسجون، وكل من اتهم بالتشيع، كان يحمل إلى بغداد أو سر من رأى»^(١).

ويقول في مكان آخر: وذكر عماد الدين الهمذاني أن أحد أمراء خراسان قتل في مدة قليلة أكثر من مئة ألف من الباطنية وبنى من رؤوسهم مناراً أذن عليه المؤذنون»^(٢).

هذه هي حال الشيعة بكل فرقها في هذا البحر الهائج من الأفكار والعقائد والمذاهب فجاء الفاطميون وشكلوا رأس حربة أنقذت الطوائف الجعفرية الشيعية في أغلب مناطق العالم الإسلامي من نير وعسف العباسيين خلال مائتين وثمانين سنة من عمر الإسلام، حتى مجيء الأكراد الأيوبيين، والمماليك وفتاوى ابن تيمية فيهم، مما أدخلهم في نفق الظلم والقهر والقتل والتشريد من جديد، بدأه صلاح الدين الأيوبي بأقبح وأسفل وأرذل عملية اعتقال جماعية استمرت أكثر من مئة سنة.

صلاح الدين الأيوبي يعتقل الأجنّة في بطون أمهاتهم ويسجنهم - بعد الولادة - لأكثر من مئة سنة:

يخبرنا المقرئ في اتعاظ الحنفا أنه: «لما مات العاضد، غسله ابنه داود وصلى عليه وجلس على السدة، واستدعى صلاح الدين لبيايه فامتنع وبعث إليه: «أنا نائب أبيك في الخلافة ولم يوص بأنك ولي عهده. وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد وأقاربه في

(١) قلعة الموت، عمر أبو النصر، م.س. ص ٦٢٠.

(٢) م.س. ص ١٨٥.

السادس من شعبان سنة ٥٦٩ هجرية. ونقله هو وجميع أقاربه وأهله إلى سجن المظفر. وأوكل عليهم حراساً وفرّق بين الرجال والنساء حتى لا يحصل منهم نسل، وأسكن أباه نجم الدين أيوب في قصر اللؤلؤة. ونقلوا إلى قلعة الجبل. فمات منهم حتى سنة ٦٢٤هـ، ٢٣ نفرًا. وتولّى وضع القيود في أرجلهم الأمير فخر الدين أبو شعرة بن الدويك.

ونقل المقرئ عن «المهدي» أبو طالب محمد بن علي ابن الخيمي: في سنة ٦٢٣هـ، عوقبت بالقلعة، فوجدت فيها من الأشراف أربعين شريفًا وعددهم المقرئ باسمائهم «ولم يزالوا معتقلين بقلعة الجبل إلى أن حولوا منها سنة ٦٤١هـ»^(١).

أما المقدسي أبو شامة وهو من معارضي الدولة الفاطمية، نقل عن لسان الأمير «أبو الفتوح بن العاضد وقد اجتمع به سنة ٦٢٨هـ، وهو محبوس مقيّد بقلعة الجبل بمصر، أنّ أباه في مرضه استدعى صلاح الدين وأوصاه بأولاده وكانوا صغاراً»^(٢).

ويخبرنا ابن أيك الصفدي عن سليمان بن داود بن العاضد بالله: «إنّه توفي في شوال من سنة ٦٤٥ للهجرة، بسجن قلعة الجبل. ويخبرنا كيف أنّ صلاح الدين الأيوبي ومن بعده أبناءه لم يستطيعوا منع أبناء الخلفاء الفاطميين من التناسل، لأنّ قضية استمرار الإمامة هي شيء أساسي في عقيدتهم الشيعية، حتى أنّ

(١) راجع: اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ٣٤٧.

(٢) كتاب الروضتين الجزء الثاني، ص ٤٩٤.

الإمامة هي أهم ركن من أركان الإسلام عندهم. فيقول الصفدي أن «أمةً أدخلت إلى داود بن العاضد في الحبس أيام صلاح الدين في زي مملوك سرّاً، فوطئها، فحملت به، وترعرع، وأخفي أمره خارج السجن، عند بعض الدعاة فأعلم به الكامل فحبسه فمات ولم يخلف ولداً ذكراً»^(١).

ويصف لنا المقرئ هذا السجن الكبير الذي استمر نزلاؤه فيه أكثر من مئة سنة فيقول: «القصر الكبير، هذا القصر كان دار الخلافة وبه سكن الخلفاء إلى آخر أيامهم، فلما انقرضت الدولة على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، أخذه صلاح الدين وأخرج من كان فيه. وكانت عدتهم اثني عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وأولاده، فأسكنهم دار المظفر بحارة برجوان ولم تزل بقيّتهم معتقلين بالقلعة إلى أن استبدّ السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري»^(٢) فأخرجهم من قصر المظفر، وأخذ منهم توقيعاتهم بالتنازل عن ملكيته.

ويصف المقرئ أطول مدة عقوبة في التاريخ في مكان آخر من خطه فيقول:

«ولما مات العاضد لدين الله في يوم عاشوراء سنة ٥٦٩ هـ احتاط الطواشي قراقوش على أهل العاضد وأولاده، فكانت عدّة الأشراف في القصر مائة وثلاثين والأطفال، خمسة وسبعين

(١) الوافي بالوفيات، ابن أبيك الصفدي، ط ٢، شتوت غارت، ألمانيا، الجزء ١٥، سنة ١٩٩١، ص ٣٧٦.

(٢) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، صفحة ٣٨٤.

وجميع عمومته وعشيرته في إيوان بالقصر واحتزن عليهم، وفرّق بين الرجال والنساء لئلاً يتناسلوا، وليكون ذلك أسرع في انقراضهم».

ونقل المقرئزي عن يوسف اليعموري عن ابن الخيمي عن سديد الدولة ابن منقذ «أنّ القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة، عشرة آلاف شريف وشريفة وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولودة ومربية. ولم يزالوا في الاعتقال بدار الأفضل من حارة برجوان إلى أنّ انتقل الملك الكامل محمد بن العادل إلى قلعة الجبل، فنقل معه أولاد العاضد وأخوته وأولاد عمّه واعتقلهم بالقلعة. واستمر البقية حتى انقرضت الدولة الأيوبية وملك الأتراك، وتسلمن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما كانت سنة ٦٦٠هـ أخرج من بقي منهم في السجن» وأخذ منهم خطوطهم على ما بقي لهم من أوقاف وأملاك^(١).

ونقل المقرئزي عن القاضي الفاضل علي بن عبد الرحيم البيساني، وهو من موظفي الدولة الفاطمية قوله: «وفي يوم الاثنين السادس من شهر رجب من سنة ٥٨٤هـ، ظهر تسحب رجُلين من المعتقلين في القصر، أحدهما من أقارب المستنصر والآخر من أقارب الحافظ وهو أكبرهما سنّاً، كان معتقلاً بالإيوان. وقد حدث له مرض وأُخذ فيه. ففُك حديدته، ونقل إلى القصر الغربي في أوائل سنة ٥٨٣هـ واستمر بما به من المرض، ولم يبرأ منه، وطلب فقُود.

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٩٧.

وكان طفلاً وقت الكائنة بأهله (الكارثة). وأقام بالقصر الغربي مع من أسير، إلى أن كبر وشب^(١).

وإذا أردنا التعمق في خفايا ما بين السطور، نجد أن هؤلاء الذين سجنوا سنة ٥٦٩هـ، وأطلقوا من سجنهم سنة ٦٧١ هجرية، لم يكن الهدف من عملية إطلاقهم الشفقة عليهم، أو لإراحة الضمير، بل كان الهدف طردهم من قصور وأملاك عقارية لهائمن بعد أن تنازلوا عن ملكيتها.

وهذا السجن الذي ضم ثمانية عشر ألف شخص واستمر أكثر من مئة سنة وسنة واحدة، امرأه مكبلون بالأصفاد والأغلال، كم جنيناً كان في بطون الشريقات لحظة إدخالهن إلى السجن، وكيف ولدت هذه الأجنة وترعرعت وعاشت؟ ومن كان يخدمهم إذا كانت أمهاتهم وآباؤهم مكبلين بالأصفاد؟ كلها أسئلة لن نجد الإجابة عليها، لأن الأيوبيين والمماليك طمسوا كل ما يختص بالفاطميين وبالدولة الفاطمية.

كان زج الأمراء الفاطميين سليلي العترة الطاهرة، مكبلين، مثقلين بالحديد والقيود، يعطي ملوك بني أيوب نوعاً من اللذة الروحية والنفسية، فالملك الكامل، عندما قرّر ترك دار الوزارة في القاهرة والانتقال إلى قلعة الجبل، لم يسمح له قلبه الرؤوف وضميره المستيقظ أن يترك العترة النبوية الطاهرة بعيدة عنه. فانتقل من القاهرة إلى قلعة الجبل في المقطم، ونقل الأمراء الفاطميين معه، كي

(١) م.س. ص ٤٩٨.

يستطيع أن ينام بهدوء على أصوات أنينهم. ترى هل عرفت الإنسانية عقوبة سجن أطول من هذه العقوبة!.

فهنيئاً للمسلمين بعفو ملوك بني أيوب وحلم سلاطين الممالك.

صلاح الدين الأيوبي يلتزم بوصية العاضد له: فيحسن معاملة أبناء العاضد بسجنهم مئة سنة:

يخبرنا المقدسي أبو شامة صاحب كتاب الروضتين عن مدى التزام صلاح الدين الأيوبي بوصية العاضد له، بأن يحسن لأولاده. فيقول متباهياً بإكرام صلاح الدين لأولاد العاضد وباحترامه الزائد لهم ولوصية أبيهم العاضد، وكأنه يهزأ من نفسه لا من القارئ العربي، فيقول:

«أخبرني الأمير أبو الفتوح بن العاضد، وقد اجتمعت به سنة ٦٢٨ هـ. وهو محبوس بقلعة الجبل بمصر، أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، وأحضرنا، يعني أولاده وهم جماعة صغار، فأوصاه بنا، فالتزم إكرامنا واحترامنا، رحمه الله»^(١).

فكيف لم يكتشف المقدسي أبو شامة، أن غاية الإكرام، كانت في الأصفاد التي كبّلت أبا الفتوح بن العاضد، فهم كانوا لا يفكّون منها إلا لقضاء حاجة أو تناول طعام. وقد أشار إلى أنه «محبوس مقيد في قلعة الجبل».

ما الذي أعمى هذا المؤرّخ عن هذه القيود وكيف رآها إكراماً وإحساناً؟.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الثاني، ص ٤٩٤.

وصف التكريم الزائد على يد قراقوش: سجن وسرقة ونهب مدة عشر سنوات:

وكتب العماد الاصفهاني يصف التكريم الزائد لأبناء العاضد الذي قام به الطواشي بهاء الدين قراقوش تنفيذاً لأوامر سلطان المسلمين صلاح الدين يوسف فقال:

وأوكل بهم السلطان صلاح الدين بهاء الدين قراقوش وجعله زمام القصر واستنابه مقام نفسه، فما دخل من القصر شيء ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على «صفو مشرع»، فما توفي العاضد، حتى هت المقاعد، وأمر السلطان بالإحتياط على أهله وأولاده، في موضع خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد.

ونقلاً عن أبي الفتوح ابن العاضد، أنَّ قراقوش نقلهم إلى دار برجوان، يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان، بكل إمكان. وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا. وهم إلى الآن محصورون محسورون. وقد نقص عددهم، وقلص مددهم، وأخلى دورهم وأغلق قصورهم، وسلط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولاهله ولأمرائه، ولخواص مماليكه وأوليائه، من أخاير الذخائر وزواهر الجواهر، ونفائس الملابس ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدره اليتيمة والياقوتة العالية، الغالية القيمة، والمصوغات البشرية والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية، والصواني

الصينية، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية والمحوكات
النضارية، والكراشم والتماشم، والعُود والعمائم، والعقود والنقود،
والمنظوم والمنضود، والمحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت،
والدر والياقوت، والحلى والوشى، والعبير والحبير، والوثير والنثير،
والعيني واللجيني، والبسط والفرش، وما لا يُعدُّ إحصاءً، ولا يُمدُّ
استقصاءً. فوقع فيها الفناء، وكشف عنها الغطاء، وأسرف منها العطاء
وأطلق البيع بعد ذلك في كل حديث وعتيق، ولبيس وسحيق، وبال
وأسمال، ورخيص وغال وكل منقول ومحمول، مصوغ ومعمول،
واستمرَّ البيع فيها مدة عشر سنين، وتنقَّلت إلى البلاد بأيدي
المسافرين الواردين والصادرين»^(١).

العماد الأصفهاني يشمت بالفاطميين:

وقد ألف العمد الأصفهاني قصيدة يذكر فيها وفاة العاضد وما حلَّ
بمصر وأهلها على يد الأكراد الأيوبيين ويمدح صلاح الدين الأيوبي
فقال^(٢):

توفي العاضد الدَّعي فما	يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا	يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة وقد	باح من الشرك كل ما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئماً	بها وعقد السداد منتظما

(١) م.س. نفسه، ص ٤٩٥.

(٢) ديوان العمد الأصفهاني، ط ١، الموصل، العراق، طبعة كلية الآداب، سنة ١٩٨٢، ص ٣٧٦.

وظلّ أهل الظلال في ظلل داجية من غياهب وعمى
 واعتلت الدولة التي اضطهدت وانتصر الدين بعدما اهتضما
 عاد حريم الأعداء منتسك الحمى وفيء الطغاة مقتسما
 وقصور أهل القصر أخربها عامرُ بيتٍ من الكمال سما
 أزعج بعد السكون ساكنها ومات ذُلاً وأنفُ رَغما
 وكيف لا يشمت العماد الأصفهاني بالفاطميّين وهو صنيعة
 صلاح الدين وكاتبه والمستأمن على سرّه ولكن ترى هل العاضد
 دعوى مجهول النسب أم أعدائه هم الأدعياء، وهل كان ظالماً
 للمصريين كفرعون، وهل هناك مسلم يتباهى بهتك حريم أهل بيت
 النبي، سوى يزيد بن معاوية ومحبذي يزيد بن معاوية؟.



مركز بحوث التاريخ الإسلامي

الخلفاء الفاطميون يعملون لغذاء الروح وغذاء الجسد

في الوقت الذي بلغ التيار المادي أوجّه، في المناطق الخاضعة للعباسيين، وفي الوقت الذي، دفن فيه الأيوبيون، والمماليك الروح الإسلامية في فروج النساء ومطامع الملك، حافظ الخلفاء الفاطميون، خلال عصور خلافتهم على تأمين الغذاء الروحي والغذاء الجسدي لرعاياهم. وكان الاهتمام بهذين الأمرين يسير بخطّين متوازيين. فبقدر ما كانوا يعملون لإشباع رغباتهم ورغبات شعوبهم من مال وعقار وحب التملك والتباهي والزهو، كانوا في نفس الوقت يشحنون نفوسهم ونفوس رعاياهم بالفكر الإسلامي الروحي الأصيل، وبالعقيدة الإسلامية الصافية، وكان القرآن والأذان وأحاديث العترة النبوية الطاهرة، مرافقة لكل عمل دنيوي أو مادي.

وكان للكسب المادي والقوت اليومي للإنسان المسلم أهمية كبيرة في حياته، ولا يعقل أن يعطي الإنسان ما لربّه من حقوق إذا حرم قوت يومه وقوت عياله. وقد روى الثعالبي عن أحد الشعراء في

بخاري قوله لزوجته^(١):

تلوم على ترك الصلاة حليلتي فقلت اغربي عن ناظري أنت طالق
فوالله لا صلّيت لله مفلساً يصلّي له الشيخ الجليل وفائق
وصاحب المشرقين الذي له سراديب مال حشوها متضايق
لماذا اصلّي أين باعي ومنزلي وأين خيولي والحلى والمناطق
وأين عبيدي كالبدور وجوهم وأين جوارّي الحسان العواتق
اصلّي ولا فتر من الأرض يحتوي عليه يميني إني لمنافق
وكان الخلفاء المصريون يقدرون هذا الأمر ويعلمون أهميته
بالنسبة للرعية، لذلك عملوا على تأمين الغذاء المادي متوازياً مع
تأمين الغذاء الروحي للشعوب التي كانوا يحكمونها.

وسنأخذ عيّنات ميدانية من هذه السلوكيات التي حافظت على
التوازن بين غذاء الروح وغذاء الجسد في حياة الفاطميين اليومية.

أهمية صلاة العيد عند الفاطميين:

كانت المناسبات والأعياد عند الفاطميين، أهم مظهر من مظاهر
حياتهم الاجتماعية التي برزت فيها عملية الاهتمام بالجانبين الروحي
والمادي واضحة لهم ولرعاياهم. وفي هذا المجال يصف لنا
المقريزي طريقة صلاة عيد الفطر فيقول:

«ركب المعزّ لدين الله يوم الفطر لصلاة العيد، وأقبل في زيّه

(١) الدروز في التاريخ، نجلاء أبو عز الدين، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، سنة ١٩٩٠،

ص٢٣٦/ مأخوذة عن يتيمة الدهر للشعالبي، الجزء الرابع ص٨١.

وبنوده (أعلامه) وقبابه. وصلى بالناس صلاة العيد، تامة طويلة، قرأ في الركعة الأولى بأم الكتاب (الفاتحة)، وهل أتاك حديث الغاشية. ثم كبر بعد القراءة وركع فأطال. وسجد فأطال». وعن ابن زولاق، قال: أنا سبّحت خلفه في كل ركعة وفي كل سجدة نيّفاً وثلاثين تسبيحة. وكان القاضي النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير. وقرأ في الركعة الثانية بأم الكتاب وسورة الضحى. ثم كبر أيضاً بعد القراءة. وهي صلاة جدّه علي بن أبي طالب، عليه السلام. وأطال أيضاً في الثانية الركوع والسجود. وأنا (ابن زولاق) سبّحت خلفه نيّفاً وثلاثين تسبيحة في كل ركعة وفي كل سجدة. وجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة».

ويقول المقرئزي: أنّ المعزّ بعد أن ألقى خطبة العيد، عاد إلى القصر «وأحضر الناس فأكلوا، وقُدّمت إليه الأسمطة. ونشّطهم إلى الطعام، وعتب على من تأخّر». ويخبرنا المقرئزي أيضاً عن المسبّحي عن آخر يوم من رمضان لسنة ٢٨٠ هجرية فيقول: «وبقيت مصاطب ما بين القصور والمصلّى بظاهر باب النصر، عليها المؤذّنون حتى يتّصل التكبير من المصلّى إلى القصر. وفيه تقدّم إلى القاضي محمد بن النعمان، بإحضار المتفكّهة والمؤمنين، وأمرهم بالجلوس يوم العيد على هذه المصاطب. ولم يزل يرتب الناس. وكتب رقاعاً فيها أسماء الناس، فكانت تخرج رقعة رقعة (قائمة بأسماء المدعوين) فيجلس الناس على مصطبة مصطبة بالترتيب...»^(١).

ويصف لنا المقرئزي صلاة العيد من قبل الخليفة الأمر، فيقول:

(١) الخطط المقرئزية، المجلد الأول، ص ٤٥١.

«وقصد المحراب والمؤذنون يكبرون قدامه، والقاضي والداعي عن يمينه وشماله، يوصلوا التكبير لجماعة المؤذنين من الجانبين، ويتصل منهم التكبير إلى مؤذني مصلى الرجال والنساء الخارجين عن المصلى الكبير. ولما قضى الخليفة الصلاة وهي ركعتان، قرأ في الأولى بفاتحة الكتاب، وهل أتاك حديث الغاشية. وكبر سبع تكبيرات وركع وسجد، وفي الثانية بالفاتحة وسورة ﴿والشمس وضحاها﴾، وكبر خمس تكبيرات».

ويخبرنا المقرئ عن أسماء أرباب الدولة والوزراء والقواد الذين حضروا وصلوا مع الأمر صلاة العيد، ثم يشرح لنا الخطوة الثانية، للخليفة ومعه كل أركان الدولة فيقول:

«وسار الجميع في ركاب الأمر، ومضى إلى تربة آبائه وهي ستتهم في كل ركوب وفي كل يوم جمعة».

أما الخطوة الثالثة، بعد قراءة الفاتحة على قبور الآباء والأجداد أي بعد الانتهاء من الغذاء الروحي، يأتي غذاء الجسد. أي أسمطة العيد وموائده فيصفها لنا المقرئ بقوله: «فلما أخذ الخليفة راحة بعد مضيه إلى التربة، جلس على السرير (الكرسي) وبين يديه المائدة اللطيفة الذهب، معبأة بالزبادي. واستدعى الوزير، واصطف الناس، من المدورة إلى آخر السماط من الجانبين، على طبقاتهم. ورفعت الستور (أغطية الموائد). واستفتح المقرئون».

وللمسؤول عن موائد الخليفة لقب، فهو، وفي الدولة إسعاف. فلنر كيف يصفه المقرئ: «وفي الدولة إسعاف متولي المائدة مشدود الوسط ومقدم خزانة الشراب بيده شربة في مرفع (كأس) ذهب

وغطاء مرصعين بالجوهر والياقوت. ومتولّي خزائن الإنفاق بيده خريطة (كيس) مملوءة دنانير لمن يقف يطلب الصدقة، فيؤمر بما يدفع.

ولنر من الذي ينال الصدقة!

يقول المقرئزي: «ولعبت المنافقون والتحسارية، وتناوب القراء والمنشدون وأرخت الستور (الشراشف) على السماط ثانياً. ثم رُفعت. وجلس على المدورة والسماط من جرت العادة به أن يجلس. وفُرقت الدنانير على المقرئين والمنشدين والتحسارية والمنافقين، ومن هو معروف بكثرة الأكل. ونهبت الأسمطة من كل القصور. وفُرّق من الأصناف ما جرت به العادة. وحضر الشعراء وأسئلت لهم الجوائز»^(١).



وصف آخر ليلة من رمضان:

وعن احتفال آخر يوم من رمضان سنة ٥١٦ هجرية يصفه المقرئزي فيقول: «وصلت الكسوة المختصة بالعيد في آخر شهر رمضان وهي تشتمل على دون العشرين ألف دينار. وهو عندهم الموسم الكبير، ويُسمى بعيد الحل لأنّ الحل (الثياب) فيه، تعمّ الجميع، وفي غيره للأعيان خاصة. وقد تقدم شرحها. قال: ولما كان التاسع و«العشرين» من شهر رمضان، خرجت الأوامر بأضعاف ما هو مستقرّ للمقرئين والمؤذنين في كل ليلة برسم السحور، بحكم أنها ليلة ختم الشهر. وحضر المأمون (الوزير) إلى القصر ليفطر مع الخليفة. وحضر

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

المقرئون والمؤذنون وجلسوا تحت الروشن (الطاقة)، واستفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمة القرآن، تلاوة وتطريباً. ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع، ودعا فأبلغ. ثم كبر المؤذنون وهللوا، إلى أن نثر عليهم من الروشن دراهم ودنانير ورباعيات. ثم قُدمت جفان (صواني) القطائف مع الحلوى، فجروا على عادتهم، ثم خرج أستاذ من باب القصر بخلع ودراهم تفرق على المقرئين والمؤذنين».

يقرأون لكل حالة سورتها:

ويقول المقرئ: «إنَّ المقرئين كانوا محسنين فيما ينتزعونه من القرآن الكريم مما يوافق الحال مثل الآية من آل عمران «زين للناس حب الشهوات»، إلى آخرها. ثم بعدها: «اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء» إلى آخرها. وحملت الفطرة الخاص التي يفطر عليها الخليفة بأصناف المجروش بالمسك والكافور والزعفران والتمور، التي كان يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره، وتسد وتختم، وتُعَبَّى في مواعين الذهب المكلَّلة بالجواهر. والمقرئون يتلون والمؤذنون يهللون ويكبرون. وكشفت قوارات الشرب المذهبة فكبر الخليفة وأخذ بيده تمر فافطر عليها»^(١).

«البرما» مثل الجبل الشاهق ولكل الناس:

ويصف لنا المقرئ سماط عيد الفطر عند الخليفة الحافظ، أبو الميمون عبد المجيد:

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٥١، ٤٥٢.

بعد أن يشير إلى طريقة الإعلان الرسمي لانتهاء شهر رمضان، ولتحديد يوم عيد الفطر بمرسوم يصدر عن الحضرة، يصف لنا سماط العيد عند الخليفة الحافظ فيقول: «وقد نُصب منه مقدار عشرين قصبه سماط من الخشكان والبسندود (أنواع من الحلويات) والبرما، مثل الجبل الشاهق. وفيه القطعة وزنها ربع قنطار (٦٣ كلغ) إلى رطل. فيدخل ذلك الجمع إليه، ويفطر منه من يفطر، وينقل منه من ينقل. ويباح ولا يحجر عليه. ولا مانع دونه. فيمرّ ذلك بأيدي الناس. وليس ذلك مما يُعتدُّ به، ولا يُعَبَى مما يفرّق للناس، ويحمل إلى دورهم»^(١).

ويخبرنا المقرئ عن الإمام الحاكم أنّه صلّى طوال شهر رمضان «بالناس أجمعين، بعدما خطب، وصلّى صلاة عيد الفطر» وعند وفاة الوزير الأول الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي «ذكر أنّه خُتم على الأفضل في هاتين الليلتين واليوم، نيف وخمسون ختمة قرآن».

حارات القاهرة تتحوّل إلى مصليات في عيد الأضحى:

وفي الحديث عن أخبار سنة ٤١٥هـ، يصف المسبّحي احتفالات عيد الأضحى لهذه السنة فيقول: «وكان عيد النحر يوم الخميس لعشر خلون من ذي الحجة، وفيه ركب مولانا - صلوات الله عليه - إلى ظاهر المصلّى من باب الفتوح، في عبيده وعساكره وخدمه ورجال دولته، بأحسن زيّ وأفخره وأكمله. ووصل إلى مصلّى العيد بعد أن رسم لسائر العرائف (قيادات الجيش) أن يلزم كلّ عريف

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٥٦.

حارته ومكانه. وتكون صلاة العسكرية بأجمعهم في حاراتهم مع أزمّتهم».

وبعد أن يصف لنا مراسم هذا العيد وصلاته وخطبته يقول المسبّحي يقول: ثم دخل مولانا - صلوات الله عليه - إلى قصره ومشى إلى المنحر بصحن القصر، فنحر تسعة رؤوس من النوق ثم انصرف^(١).

في كل صلاة، فرش للجامع وبدلة للخليفة:

ويخبرنا ابن المأمون عن صلاة الخليفة في جوامع مصر سنة ٥١٨هـ، فيقول: «ووصل من الطراز (معمل النسيج)، الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان (أوله)، وجمعتيه (الثانية والثالثة) برسم الخليفة». للغرة بدلة كبيرة موكبية مذهبة، وبرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر، بدلة حرير موكبية، منديلها وطيلسانها أبيض، وبرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية من رمضان، بدلة، منديلها، وطيلسانها شعري، وبرسم الجمعتين الأخيرتين، بدلتان حريريتان^(٢).

وصف ليلة سحور رمضان في قصر الخلافة:

وصف لنا ابن المأمون ليلة من ليالي رمضان في قصر الخلافة، لسنة ٥١٨هـ، فقال: «وقد ذكر أسمطة رمضان وجلوس الخليفة بعد ذلك في الروشن (طاقة) إلى وقت السحور، والمقرئون تحته

(١) راجع: أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ٢٠٢.

(٢) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٨١.

يتلون عشراً ويطرَبون، بحيث يشاهددهم الخليفة، ثم حضر بعدهم المؤذنون، وأخذوا في التكبير وذكر فضائل السحور وختموا بالدعاء. وقُدِّمت المَخَدَّات للوعَّاظ، فذكروا فضائل الشهر. ومُدِّح الخليفة والصوفيَّات (المتصوِّفون). وقام كل من الجماعة (الصوفية) للرقص. ولم يزالوا يرقصون إلى أن انقضى من الليل أكثر من نصفه، فحضر بين يدي الخليفة أستاذ بما أنعم به عليهم وعلى الفرَّاشين. وأحضرت جفان (صواني) القطائف وجرار الجلاب برسَمهم، فأكلوا وملأوا أكمامهم، وفضل عنهم ما تخطَّفه الفرَّاشون. ثم جلس الخليفة، وبين يديه المائدة معبَّاة جميعها من جميع لحوم الحيوان وغيره. وحضر الجلساء. ثم قدمت الصحون الصينيَّة المملوءة قطائف فأخذ منها الجماعة. ثم قام الخليفة وجلس في الباذهنج (الديوان) وبين يديه السحورات المطيَّبات من لبن رطب ومخيض. وعدَّة أنواع من العصير ومجروش بقلوبات وموز. وقُدِّم له صينية ذهب مملوءة سفوفاً. وحضر الجلساء وأخذ كل منهم ما ينعم عليه منه وتناولوه الأستازون والمستخدمون وفرَّقوه، فأخذوه القوم في أكمامهم، ثم سلَّم الجميع وانصرفوا»^(١).

عيد النحر عند الفاطميِّين: اسمه مطابق لفعله:

يصف لنا أبو علي موسى، ابن المأمون البطائحي احتفال عيد النحر لسنة ٥١٦ هـ. ويصف لنا الخليفة الأمر وما نحره هو ووزيره في هذا العيد فيقول:

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٨٢.

«وفي التاسع من ذي الحجة (ليلة العيد) جلس الخليفة الأمر على سرير الملك، وحضر الوزير وأولاده. واستفتح المقرئون وتقدم حامل المظلة، وسلم الأمراء على طبقاتهم. وختم المقرئون فلما أسفر الصبح خرج الخليفة وسلم على من جرت عادته بالسلام عليه، وغير ثيابه ولبس ما يختص بالمنحر، وهي البدلة الحمراء. وفرشت الملاءة الحمراء وثلاث بطائن مصبوغة أحمر ليُتَقَى بها الدم. فكبر المؤذنون ونحر الخليفة أربعاً وثلاثين ناقة. ثم قصد المسجد الذي في آخر صف المنحر، فغسل يديه وركب من فوره.

وجملة ما نحره وذبحه الخليفة خاصة في المنحر وفي باب الساباط، دون الوزير المأمون وأولاده وإخوته في ثلاثة أيام، ما عدته ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأساً من النوق، وثمانية عشر رأساً من البقر، وخمسة عشر رأساً جاموس ومن الكباش ألف وثمان مائة رأس»^(١).

والناس على دين ملوكهم وخلفائهم، فالوزير الأجل المأمون بن فاتك البطائحي، وزير الخليفة الأمر، جعل من عيد الغدير مناسبة «لهجرة الضعفاء والمساكين من جميع البلاد إليه، ومن انضم إليهم من العوالي والأدوان، في طلب الحلال وتزويج الأيتام. وصار عيد الغدير موسماً يرصده كل واحد، ويرتقبه كل غني وفقير».

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٤١.

كل مناسبة تفتتح بقراءة القرآن وتختتم به:

يخبرنا أبو المحاسن ابن تغري بردي في عدة مناسبات أن كل مناسبة يبدأ القراء في قراءة القرآن وينتهون به. ففي مناسبة استعراض الخيل يقول أبو المحاسن: «ويقرأ القراء عند تمام العرض» آيات ملائمة بذلك الحال نصف ساعة، ثم يؤمر بشد لواءي الحمد المختصين بالخليفة. ثم يخرج إحدى وعشرون راية من حرير، ملونة بكتابة في كل واحدة بما يخالف لونها. ونص كتابتها «نصر من الله وفتح قريب».

ثم يخرج السيف الخاص (سيف ذي الفقار) ثم يخرج الرمح، ودرقة حمزة بن عبد المطلب.

ويخبرنا أبو المحاسن كيف يحتفل الفاطميون بوفاء النيل فيقول: «وإذا كان ليالي الوفاء، حُمِلَ إلى المقياس من المطابخ نحو عشرة قناطير خبز، وعشرة خراف مشوية وعشر جامات حلوى، وعشر شمعات. وتوجه القراء وأرباب الجوامع فيقرؤون تلك الليلة بجامع المقياس، حتى يكون الوفاء»^(١).

توزيع المال والهبات ذهاباً وإياباً، عند قصدهم الجوامع:

يقول أبو المحاسن: «ولا ينقطع الركوب من أول العام إلى متى شاء. ويشقّ الخليفة القاهرة إلى جامع أحمد بن طولون إلى المشاهد (مشاهد آل البيت في مصر)، إلى جامع مصر فيجد ببابه الشريف، الخطيب واقفاً على مصطبة فيها محراب مفروش بحصير معلق عليه

(١) النجوم الزاهرة، الرابع، ص ١٠٣.

سجادة، وفي يده مصحف، يقال أنه بخط علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فيناول الشريف (من آل البيت) الخليفة المصحف، فيأخذه ويقبله ويتبارك به، ويعطيه صاحب الخريطة (حامل كيس المال المرافق للخليفة) المقرر للصلاة، ثلاثين ديناراً. وهي رسمه كل ما مر به الخليفة، فيعطيها الشريف إلى المشرف على الجامع، فيأخذ منها أربعة عشر ديناراً ويفرق الباقي على القيمين والمؤذنين.

ثم يسير الخليفة إلى دار الملك مع الوزير. وكلما مر من القصر إلى دار الملك بأحد المساجد، وزع على المشرفين وعليه الدنانير. ثم يصلي الخليفة العصر، ويتجرد إلى العود والناس في الطريق جلوس في انتظاره. فلا يمر بمسجد في طريقه إلا وأمر صاحب الخريطة بالتوزيع على من فيه كما جرى في الرواح.

هؤلاء هم الفاطميون، لا يتركون مجالاً إلا ويعملون من أجل تأمين المزيد من العناصر المادية والروحية للمسلمين، وهم كما يعملون على إشباع ملذات الحواس الخمس، يعملون على إنكاء روح الإسلام الأصيل، في نفوس الناس، إسلام علي بن أبي طالب وإسلام جعفر الصادق، عليهما السلام.

والمسجد في الإسلام، كان ولا يزال منطلق الدعوة الإسلامية وحامل لوائها والحاضن لها ولاهلها، والمسجد يعتبر من بيوت الله، وليس من بيوت العامة أو الدولة. لذا كان للمسجد احترامه وأهميته عند الفاطميين، وقد أخبرنا المقرئزي، كيف كان الفاطميون ينظرون للمساجد وكيف كانوا يعاملون أهلها.

يصف لنا المقرئزي ليلة النصف من شعبان سنة ٣٨٠هـ،

فيقول: «وفي ليلة النصف من شعبان كان الناس جمع عظيم بجامع القاهرة (الأزهر)، مع الفقهاء والقراء والمنشدين والناحية (قراء السيرة الحسينية). وحضر القاضي محمد بن النعمان مع وجوه البلد، فحمل إليهم العزيز بالله الأطعمة والحلوى، والبخور، فكان جمعاً عظيماً».

ميزانية الجامع العتيق:

ويصف لنا المقرئ أيضاً ليلة أول رجب أيام الخليفة الأمر سنة ٥١٨هـ، فيقول: «وأنَّ القومة بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود بمدة إلى أن يكملوا ثمانية عشر ألف فتيلة. وأنَّ المطلق برسمه خاصة في كل ليلة برسم وقوده: أحد عشر قنطاراً ونصف قنطار زيت طيب. ويعبئ الرواق الذي عن يمين خارج الجامع منه، سماط كعك وحلوى، فتنهبه الفقراء والمساكين. ومثله جامع القرافة وغيره من الجوامع. فوجد في رواق جامع القرافة سماطاً مثل سماط الجامع العتيق. ولهذا الجامع أيضاً رسم صدقة للفقراء وأهل الربط (الصوفيون) مما يفرقه القاضي عليهم عشرة دنانير كل ليلة. وتصلي الناس المغرب في الجوامع والمساجد. والمؤذنون في الجوامع يذكرون الله تعالى ويدعون للخليفة والقراء يطربون بالقراءة»^(١).

ونقل المقرئ عن الشريف بن أسعد الجواني قوله عن القضاة في آخر ثلاثة أيام من رمضان في عهد الفاطميين أنهم، «كانوا

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٦٧.

يطوفون على المشاهد والمساجد التي بالقاهرة، لنظر حصر هذه المساجد وقناديلها، وعمارتها، فيزيلون شعثها».

كما يخبرنا المسبّحي، أنّ الحاكم أنزل سنة ٤٠٣هـ، من قصره إلى الجامع العتيق ١٢٩٨ مصحفاً «ما بين ختمات وربعات فيها ما هو مكتوب كلّ بالذهب، ومكّن الناس من القراءة فيها».

وكنا قد أشرنا إلى إصدار ميزانية سنوية لكل جوامع مصر، لشراء زيت الوقود، فكان يصرف لكل جامع في كل شهر ١٢ درهماً لشراء زيت الوقود. وكذلك كان لكل من يتعيش من وراء خدمة الإسلام والمساجد راتب شهري، حيث يخبرنا المقرئ عن توقيع الخليفة الحاكم «لاستمارة فيها أسماء الفقهاء والقراء والمؤذنين، فكانت جملة رواتبهم في كل سنة ٧١٧٣٣ ديناراً».

القراء والمؤذنون أهم عناصر أي حملة عسكرية:

وعندما يصل الخبر إلى قصر الخلافة بهجوم ملك الروم على أي ثغر من ثغور المسلمين، فماذا يكون صدق هذا الخبر على مسامع الخلفاء الفاطميين والشعب المصري؟.

يقول المقرئ: وأخذ الخليفة العزيز، لما بلغه مسير ملك الروم إلى بلاد الشام في التأهب للمسير. وأطلق خمسين ألف دينار لابتياح ما يحتاج إليه. وأخرج للكتاميين أربعة آلاف فرس. وأمر أن يشتري لهم ألف فرس أخرى.

وقرىء سجل في الأسواق بالنفير والجهاد، فاضطربت البلد فاجتمع من الرعية وطوائف الناس بالسلاح للسفر مع الخليفة ألوف

كثيرة. وخرج العزيز بسائر العساكر إلى منية الأصبغ. وأحصيت الخيول التي سارت مع العزيز في إسطبلاته فكانت اثني عشر ألفاً. والجمال ثلاثين ألفاً، سوى ما هو مع وجوه الدولة.

ويخبرنا المقرئ عن إقدام التجار والقواد ووجوه الرعية مرتين إلى العزيز يسألونه البقاء، وأنهم يكفونه أمر ملك الروم ويحفظون الشام وأهلها وكافة بلاد المسلمين من شره فكان جواب العزيز: «إنما أسير لنصرة الإسلام، والذّب عن بلدانه، وصيانة أهله».

ثم أرسل العزيز أعوانه للمناداة في أسواق القاهرة: «من كان من أهل السلاح فليخرج لياخذ الرزق الكبير وأمر الخليفة بتزويد العساكر بالموذنين والمقرئين والأطباء»^(١).

الناس تغربل التراب بحثاً عن الذهب لكثرة نثره عليهم من قبل الخلفاء الفاطميين:

وعند الحديث عن قصر القرافة، يحدثنا المقرئ كيف أن الخليفة الأمر بنى مسرحاً لرقص الصوفيين، أمام هذا القصر تحت المنظرة الخاصة به. فكان الأمر يجلس في طاقة هذه المنظرة بأعلى القصر «ويرقص أهل الطريقة من الصوفيين، والمجامر موضوعة بين أيديهم، والشموع الكبيرة، وقد بُسط تحتهم حصر من فوقها بُسط. ومُدَّت لهم الأسمطة التي عليها كل نوع لذيذ ولون شهّي من الأطعمة والحلوى، أصنافاً مصنّفة». ويخبرنا المقرئ أن أحد مشايخ الصوفية تمرّق ثوبه فأمر له الخليفة من خزائن الكسوات الخاصة بالقصر بألف ثوب

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٨٨.

بذل ثوبه الممزّق «ففرّقها على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ونشر عليهم متولّي بيت المال من طاقة القصر ألف دينار ذهباً فتخاطفها الحاضرون، وتعاهد المغربلون الأرض التي هناك - أمام قصر القرافة - أياماً، لأخذ ما يواريه التراب من الذهب»^(١).

رواتب أبي البركات بن أبي الليث متولّي ديوان المجلس:

يخبرنا موسى بن مأمون البطائحي أنّ متولّي ديوان المجلس في عهد الوزير المأمون البطائحي أبا البركات بن أبي الليث رفع مذكرة يحتج فيها على تدني رواتبه ومخصّصاته، فما كان من الوزير البطائحي إلا أن أعد جردة برواتب أبي البركات ومخصّصاته من كل مؤسسات الدولة، التي تأتيه بانتظام - برسمه، ورسم أولاده وأصهرته. وكانت هذه المخصّصات كالتالي:

- مياومة من بيت المال والخزائن ودار التعبئة والمطابخ

وشؤون الحطب:

- برسم البقولات والتوابل

نصف دينار يومياً

- من الضأن

رأس واحد

- من الطيور

ثلاثة طيور

- من الحطب

حملة واحدة

- من الدقيق

خمسة وعشرون رطلاً

- من الخبز

عشرون وظيفة

- من الفاكهة

ثمرة زهر وشمامة

(١) راجع: الخطط المقرية، الجزء الثاني، ص ٤٨٦.

كل اثنين وخميس:

من سماط قاعة الذهب: طيفور (صدر نحاس) خاص وصحن من
الأوائل وخمسة وعشرون رغيفاً من خبز الموائد. والسميد.

كل أحد وأربعاء:

من أسمطة الدار المأمونية مثل ذلك.

كل سبت وثلاثاء:

من أسمطة الركوبات خروف مشوي وجام حلوى ورباعي عنباً
ويحضر إليه في كل يوم من الإصطبلات بغلة بمركوب مُحلّى وبغلة
برسم النقل، وفرّاشين من الجوق برسم الخدمة وتبيت على بابه.
وإذا خرج في الليل، كان له شمعة من الموكبيات توصله إلى داره
وزنها سبعة عشر رطلاً ولا تعود.

مركز تحقيق مكتبة التراث الإسلامي

مخصّصات ولده:

ولابن أبي البركات كل يوم ثلاثة أرطال لحم وعشرة أرطال
دقيق وفي أيام الركوبات يقبض أبو البركات مشاهرة مائة وعشرين
دينار وولده عشرة دنانير.

موظفون اسمياً ولا وجود لهم، يقبض أبو البركات رواتبهم
ومخصّصاتهم:

ويقول الوزير ابن المأمون البطائحي، أنّ أبا البركات أثبت أسماء
أربعة غلمان نصاري، إنهم انتسبوا للإسلام، وجعلهم في جملة

الموظفين في ديوانه وهم «لا يخدموا لا في الليل ولا في النهار»
بينما رواتبهم ومخصصاتهم تذهب إلى ديوانه يومياً ومشاهدة هذه
الرواتب والمخصصات هي:

– سبعة دنانير يومياً.

– من السكر خمسة عشر رطلاً.

– من عسل النحل عشرة أرطال.

– من قلوبات الفستق ثلاثة أرطال.

– من قلوبات البندق خمسة أرطال.

– من قلوبات اللوز أربعة أرطال.

– من مربى الورد رطلان.

– من زيت الطيب عشرة أرطال.

– من السيرج (زيت السمسم) خمسة أرطال.

– من الزيت الحار (كان) ثلاثون رطلاً.

من الخل ثلاثة جرار

من الارز نصف وية. (أربعون كلغ).

من السماق أربعة أرطال.

من الحصرم والكشك وحب الرمان والقريص بالسوية إثنا عشر
رطلاً:

من كيزان الماء عشرون شربة

من الثلج حمل ثلج

من الشمع ست شمعات

وسنوياً برسم غرة رمضان:

خمسة دنانير وخمس رباعيات وعشرة قراريط ذهب.
ولولده: دينار ورباعي وثلاثة قراريط.
وخراف مقموم (مجفف)، وخمسة رؤوس وربع قنطار خبز
قمح، وصحن أرز بلبن، وسكر.

ويأتيه في يوم غرة رمضان من سماط القصر (مائدة):

خروف مشوي - صحن زبادي - جام حلوى - وخبز مقطّع
ومنفوخ - ثلاثمائة إردب قمح - مائة وخمسون إردب شعير.

مخصّص ليالي الوقود الأربعة:

ويأتيه في كل ليلة من هذه الليالي:
- أربع صواني فطرة.
- كسوة الشتاء برسمه خاصة وهي عبارة عن: عمامة حرير -
شقة حرير - شقة ديباج - رداء أطلس (معطف). شقة ديباج محلى
- شقة سقلاطون - شقة عتابي - شقة سوس - شقة دمياطي
- شقتان إسكندراني - فوطة.

ومن مخصّصات عيد الفطر:

يأتيه صنييتان فطرة ومائة حبة بوري^(١). وبدلة مذهبة مكملة،
ولولده بدلة حرير، وبرسم من عنده حلّة مذهبة.

(١) حبة بوري: حلوى تنسب إلى بوران بنت الحسن بن سهل زوجة المأمون.

وفي عيد النحر، رسم ابن أبي الليث مثل عيد الفطر ويزيد عنه هبة مائة دينار، ولولده مثل عيد الفطر وزيادة عشرة دنانير، ويساق إليه من الغنم ما يطلبه.

مخصّصات فتح الخليج أو الاحتفال ببلوغ النيل الارتفاع المطلوب:

ويخصّص لأبي البركات بمناسبة الاحتفال بفتح الخليج أو مقياس النيل، أربعون ديناراً وصينية فطرة وطيفور خاص من القصر (صدر أكل)، وخروف شواء، وجام حلوى وبرسم ولده خمسة دنانير.

مخصّصات عيد النوروز:

ويصرف لأبي البركات بمناسبة عيد النوروز ثلاثون ديناراً، وشقّة حرير، وشقّة لاذ، ومعجر حرير (ثوب من صنع اليمن). ومنديل كم حرير، وفوطة، ومائة بطيخة وسبعمئة حبة رمان. وأربعة عناقيد موز. وفردة بسر، وثلاثة أقفاص تمر قوصي. وقفصان سفرجل وثلاث طناجر هريسة، واحدة بدجاج والثانية بلحم ضأن والثالثة بلحم بقر. وأربعون رطلاً من خبز القمح، ولولده خمسة دنانير وحوائج النوروز.

مخصّصات عيد الميلاد:

ومن مخصّصات أبي البركات في عيد الميلاد جام حلوى قاهرية (جاط كبير)، ومسرّد سميد (صينية كبيرة) وزلابية وست قرابات جلاب. وعشر حبات بوري.

مخصّصات عيد الغطاس:

ويصرف لأبي البركات بمناسبة عيد الغطاس خمسمائة حبة أترج (كباد) ونارنج وليمون، وخمسة عشر طن قصب وعشر حبّات بوري.

مخصّصات عيد الغدير:

ويصرف لابن أبي الليث بمناسبة عيد الغدير ما يصرف له في عيد النحر، وهي: ثلاثون ديناراً له ولولده خمسة دنانير. ويصرف لأخيه نظير ذلك وكذلك صهره في ديوان الوزارة ولابن أخيه في الديوان التاجي.

وينهى الوزير ابن البطّاحي الرد على احتجاج أبي البركات بن أبي الليث بأنه غير محقّ في اعتراضه، أما المؤلف فينهي هذه الجردة بقوله:

«فانظر - أمرك الله - إلى سعة أحوال الدولة من معلوم رجل واحد من كتاب دواوينها، يتبين لك بما تقدّم ذكره في هذه المرافعة، من عظم الشأن وكثرة العطاء ما يكون دليلاً على باقي أحوال هذه الدولة»^(١).

ولن نطيل السرد وتقديم الأدلة على تفرد الفاطميين من بين كل الدولة المتقدّمة والمعاصرة بالاهتمام برعاياها على الصعيدين الروحي والمادي، واكتفيت بذكر هذه المداخلة الصغيرة للمؤرخ أحمد بن علي المقرئ عنهم.

(١) أخبار مصر، لابن العامون، م.س. ص ٦٨.

الفاطميّون يعملون لتأمين جميع ملذات الحواس الخمس:

يصف لنا المقرئزي واحد من أسمطة (موائد) الفاطميّين فيقول: «ولما تكامل وضع المائدة وانقضى حكمها، فرقت الصواني الخاصة التي تكون بين يدي الخليفة، الجامعة للثروة من كل جهة، والزينة من كلّ معنى، والغربة من كل صنف. وقد جمعت ملذات جميع الحواس»^(١).

القرآن: المصدر الوحيد للتعبئة الروحية عند الفاطميّين:

يجد المطلّع على ما تركه المؤرّخون المعارضون والمؤيّدون للفاطميّين، أنّ الإسلام وتعاليمه كانا المحرّك الأساسي لكل قراراتهم ومراسيمهم، كما أنّ المساجد والجوامع، كانت تملك حيّزاً مهماً من تفكيرهم ونشاطاتهم. فالمسجد هو نقطة الالتقى مع الرعية، ومن منابرهم كانت تذاع قراراتهم ومواقفهم ورؤياهم لكل الأمور، وكانت خطبة الجمعة وخطب بقية الأعياد والمناسبات لها قداستها لا تترك أبداً. فإذا أخذنا أي بلد من بلاد الإسلام التي كانت خارجة عن حكم الفاطميّين، لما وجدنا حاكماً واحداً في أي بلد، صغراً أم كبيراً، يصلي صلاة الجمعة أو يخطب في الناس. فأين الإسلام الشيعي الفاطمي من إسلام اليوم؟

رأي عباس محمود العقاد بالدولة الفاطمية وبسبقها الحضاري:

وتحت عنوان: حضارة متحضرة قال العقاد^(٢):

إذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى في أيام الفراعنة جاز أن

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٧٥.

(٢) راجع: فاطمة الزهراء والفاطميّون، عباس محمود العقاد، ط ١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ص ٢١٩.

يقال أنَّ حضارة مصر في عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد، ولا استثناء لعهد البطالسة، لأنَّه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية، خلافاً للحضارة في أيام الفاطميين، فإنَّ صبغتها المصرية كانت غالبية على كل صبغة، ومن ثم لم تتكرَّر في وطن آخر على هذه الصورة. وبقيت مصر على مذهبها الديني الذي كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها.

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية.

فلم توجد في مكتبة بعد مكتبة الإسكندرية خزائن للمكتب كالخزائن التي وجدت في القصر الشرقي وتفاوتت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للإعارة أو الاطلاع.

وتنافست القصور في اقتناء الكتب النادرة، فكان في كل قصر مكتبة تحتوي عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين إلى حين فيترجل ويخلع نعله، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها في الرفوف. وأنشئت دار الحكمة ودار العلم، هذه للمعلمين وتلك للمتعلمين، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحاضرة، يخصَّص منها قسم للرجال وقسم للنساء، وتنقل المناظرة أحياناً إلى قصر الخليفة

فيشترك فيها أو يشرف عليها، ويأذن لكل ذي رأي أن يدلي برأيه فيها، وإن خالف به إجماع الآراء..

وشاعت بين العامة ثقافتهم التي ترضيهم من ملاحم التاريخ المنثور أو المنظوم، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة، يخلو من القصّاصين أو الشعراء المنشدين، يسمعون جمهرة الناس طرفاً من التاريخ الشعبي والقصص الشعبية، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التي تفتح للقصاد في المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء.

وفي عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الري وأعيدت مساحة الأرض وفكروا في بناء الخزان عند أسوان..

وتقدمت الفنون والصناعات، وتنافس الفنانون والصنّاع في هندسة البناء، وفي النقش على الجدران والحفر على الحجارة الكريمة، وشوهدت رسوم على النسيج تحكي اللوحات الفنية في دقة التصوير وجمال التلوين، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه في عصر من العصور، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناطر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان.

وقد ألف الوصّافون إذا بالغوا في وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور في تلك الحضارة، لولا أن نسخة الحقيقة كانت هي الأعجب والأبدع من نسخة الخيال.

وكانت التجارة مدداً للصناعة لا ينقطع، ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثّها على التوسّع والمزيد: تأتي السفن من بحار المغرب

وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببدائع المصنوعات، أو تأتي ببدائع المصنوعات وتعود بما هو أبعد وأعلى، دوايك في مواسم العام كلها لاتني ذاهبة آتية على مدى الصيف والشتاء.

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية، وحافظت الدولة الجديدة على مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت إليها، فبعد إلغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز إلى القاهرة عادوا إلى الاحتفال به، وأضافوا إليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع، وأحصى من مواسم العام غير رأس السنة، ويوم عاشوراء ومولد النبي ومولد الإمام ومولد آل البيت، وليالي الوقود وهي ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام..

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار، ولا سيما في شهر رمضان وليالي الأعياد. وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسطة ويخرجوا إليه يحيونه ويتلقون منه التحية، وأصبح الوافدون إلى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والأسمار.

ولم يكن قصارى ما في تلك المواكب أنها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتنسى فيه تكاليف المعيشة. بل هي كانت في حقيقتها معارض للفنون والصناعات، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم، ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يترثمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم، ويعلنون عنها ويدلون عليها، ومن هذه المواكب ما بقي إلى اليوم في زفة رمضان وزفة جبر البحر، ومن تلك المحافل ما بقي في طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالي الذكرى للأموات والزيارة للأحياء.

لا جرم كانت مصر أبان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاص،

ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوي السلطان في كل زمان ومكان، وأولهم السياح والشعراء.

فما من رحالة أنجبه العالم الإسلامي لم يتخذ من مصر مقاماً أو مزاراً في تلك الأيام، وما من قصر من قصور الملك في المشرق والمغرب عمر في ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء.

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالإيجاز لازدحام القالة وكثرة المقال، وزادوهم في الجزاء لكيلا يقال إنه قصد في العطاء لا قصد في الثناء، فقال أحدهم ابن مفرج، يخاطب الخليفة الحافظ: أمرتنا أن نصوغ المدح مختصراً لم لا أمرت ندى كفيك يختصر ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمني الذي قال:

مذاهبهم في الجود مذهب سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع
وهو الذي بخر نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملاً في
نصرتهم واستعادة مجدهم، فهو أحق الناس برثائهم، وقصيدته التي
قيل فيها أنها أبلغ ما نظم في رثاء دولة، هي أجمل وأصدق ما قيل
في هذه الدولة^(١).

(١) راجع: م. س. نفسه. ص ٢٢٢.

تخلق الفاطميين بالأخلاق المميزة

روت الأحاديث المنقولة عن نبيِّنا محمد، صلوات الله عليه، أنَّ النبي وأهل بيته هم أشرف الخلق، وأنَّ الإنسانية جمعاء، خلقت من أجلهم، والدنيا كلها سخَّرت لهم ولأجلهم، فمن كانت الدنيا خلقت من أجله فكيف تكون أخلاقه وعلومه وأخلاق ذريته ومريديه ودعاته؟ سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة من خلال تسليط الضوء على بعض ممارسات الخلفاء الفاطميين، تجاه أهلهم وشعبهم وأصدقائهم وحلفائهم وأعدائهم، علَّنا نخرج بمحصلة تفتح لنا المزيد من أفاق هذه الثلة الشريفة من العترة النبوية الطاهرة.

يخبرنا المقرئزي عن الحرب التي شنَّها الخارجي مخلد بن كيداد على الخليفة الثاني المنصور بالله، ويروي لنا دخول العسكر الفاطمي مدينة القيروان وإنقاذ أهلها من حكم الخارجي الجائر، واعتقال زوجة الخارجي وأولاده. فما كان من الخارجي إلا أن «بعث إلى المنصور يسأل حرمه وعياله ليدخل في طاعته، فسير إليه المنصور عياله مكرمين، بعد أن وصلهم وكساهم، فلما وصلوا إليه نكث»^(١).

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٨٣.

الخليفة المعز ينصح بالزوجة الواحدة:

«لما كان في بعض الأيام، استدعى المعز في يوم شاتٍ، عُدة من شيوخ دولته، فدخلوا عليه في مجلس قد فرش في اللبود وحوله كساءً وعليه جبة، وحوله أبواب مفتحة تفضي إلى خزائن كتب، وبين يديه دواة وكتب فقال: يا إخواننا، أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد، فقلت لأمّ الأمراء، وأنها الآن، بحيث تسمع كلامي، أتري إخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم، نأكل ونشرب ونتقلب في المثقل من الديباج والحريير والسمور والمسك والجمر، كما يفعل أرباب الدنيا؟ ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالي إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم، وأني لست أفضلكم إلا بما خصني الله به من إمامتكم، وأني مشغول بكتب ترد عليّ من المشرق والمغرب، أجيب عنها بخطي. وأني لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم، ويعمر بلادكم، ويذلّ أعداءكم ويقمع أضدادكم. فافعلوا يا شيوخ دولتي في خلواتكم ما أفعله. ولا تظهروا التكبر والتجبر، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم وتحننوا على من وراءكم ممن لا يستطيع الوصول إليّ، كتحنني عليكم، ليئصل في الناس الجميل، ويكثر الخير، وينتشر العدل. وأقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الواحدة منها التي تكون لكم. ولا تشرهوا إلى التكثر منهنّ والرغبة فيهنّ، فيتنقص عيشكم وتعود المضرة عليكم، وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم، فحسب الرجل الواحد، الواحدة، فنحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم»^(١).

(١) الخطط المقرية، الجزء الأول، صفحة ٣٥٢.

وهذه النصائح، تدلّ على مدى رجاحة العقل وعمق التجربة عند الخليفة المعزّ لدين الله.

دار الفطرة توزع الحلوى على الناس طيلة شهور رجب وشعبان ورمضان:

ونقل لنا المقرئزي عن ابن أبي طي أن الخليفة المعزّ لدين الله، عملاً بسنة آبائه من أئمة أهل البيت التي تقضي أن يتصدق كلّ إنسان بمناسبة عيد الفطر بما قيمته إطعام مسكين ليوم واحد، «أقام في القاهرة داراً أسماها دار الفطرة، فكان يعمل فيها من الحلويات والكعك والتمر والبندق الشيء الكثير، وتبدأ من أول شهر رجب إلى آخر رمضان، فيفرّق جميع ذلك على جميع الناس الخاص والعام على قدر منازلهم في أوان (طناجر) لا تستعاد، حتى قبل ليلة العيد، ففي هذه الليلة يفرق معها على الأمراء وكبار القواد الخيول بالسروج المذهبة والخلع النفيسة والمطرزة بالذهب، وثياب لنسائهم»^(١).

ويحدثنا المقرئزي عن ميزانية هذه الدار خلال الأشهر الثلاثة فيعدها كالتالي:

- عشرة آلاف دينار ما عدا رواتب المستخدمين.
- ألف حملة طحين = $(1000 \times 750 \text{ كغ} = 750 \text{ طناً})$.
- سبعمائة قنطار سكر = $(17,500 \text{ طن})$.
- ستة قناطير فستق مقشّر = $(1,500 \text{ طن})$.

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، صفحة ٤٢٧.

- ثمانية قناطير لوز مكسّر (٢,٠٠٠ طن).
 - أربعة قناطير بندق (١,٠٠٠ طن).
 - أربعمئة إردب تمر = $(٤٠٠ \times ٤٨٠ \text{ كلغ} = ١٩٢ \text{ طناً})$.
 - ثلاثمئة إردب زبيب = $(٣٠٠ \times ٤٨٠ \text{ كلغ} = ١٤٤ \text{ طناً})$.
 - ثلاثة قناطير خلّ = ٧٥٠ كلغ.
 - خمسة عشر قنطاراً عسلاً = ٣,٧٥٠ طن.
 - الشيرج (الطحينة) مائتا قنطار = طنّ واحد.
 - حطب ألف ومائتا حملة.
 - سمسم إردبان = $(٢ \times ٤٨٠ \text{ كلغ} + ٩٦٠ \text{ كلغ})$.
 - يانسون إردبان = $(٢ \times ٤٨٠ = ٩٦٠ \text{ كلغ})$.
 - زيت طيب برسم الوقود (كان) ثلاثون قنطاراً = ٧,٥٠٠ طناً.
 - ماء الورد خمسون رطلاً (١٢٥ كلغ).
 - مسك خمس نوافج.
 - كافور عشرة مثاقيل.
 - زعفران مطحون مائة وخمسون درهماً.
 - دفعة على الحساب بيد الوكيل ٥٠٠ ديناراً برسم البيض
- والمواعين وغير ذلك من المؤن «مايحاسب عليه».
- زيت طيب لزوم قناديل الدار خمسة عشر قنطاراً.
 - شمع ثلاثون قنطاراً = ٧,٥٠٠ طناً.
 - طيافير جدد برسم السماط ثلاثمئة طيفور (صدر نحاس).
 - رواتب الصنّاع ثلاثمئة دينار.
 - راتب مسؤول حرس دار الفطرة ١٢٠ ديناراً.

ـ راتب المشرف مائة وثمانون ديناراً مع كسوة معتبرة يلبسها
أثناء توزيع الطيافير. «على الأمراء والقواد وأرباب الرسومات وعلى
جميع طبقات الناس حتى يعم الخير، الكبير والصغير، والضعيف
والقوي، ويبدأ بها من أول رجب إلى آخر رمضان»^(١). وإذا حاولنا
تحديد ثمن ميزانية دار الفطرة لوجدنا أنها توازي ميزانية الدولة
اللبنانية إن لم تكن أكثر، وهذا المظهر الحضاري غيض من فيض،
سوف نشير إلى أهم مؤشرات في الصفحات التالية.

كرم الأخلاق في كل المجالات:

يخبرنا المقرئ كيف أن جوهر الصقلي طلب من الشريف
مسلم «بالاحتياط على دور الهاربين من العساكر الأخشيدية
والعساكر الكافورية، إلى أن يرجعوا إلى الطاعة». ومنع أحداً من
مصادرة بيوتهم ووضع أمام كل بيت جنوداً تحرسها. وعندما وصل
الإمام المعز إلى القاهرة، أطلق جميع الأسرى الكافورية والأخشيدية
«الذين اعتقلهم جوهر، وكانوا عدتهم نحو الألف».

وكان جوهر والخليفة المعز يعلمون مدى جلالة العسكر
المغربي، فمنعاهم من نزول أحياء القاهرة والاختلاط بين الناس
«وأمرهم المعز أن يسكنوا أطراف المدينة، وأمر لهم بمال يبنون به
مساكن، كما أن القائد جوهر، لم يكن يسمح لهم بسكن المدينة ولا
المبيت بها، وحظر ذلك عليهم وكان مناديه ينادي كل عشية: لا
يبيتن أحد في المدينة من المغاربة»^(٢).

(١) الخطط المقرئية الجزء الأول، ص ٤٢٦.

(٢) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، م.س. ص ١٢٨.

الفاطميون يفرحون بتحريك عجلة الاقتصاد لا بالمال:

ويخبرنا ابن المأمون في تاريخه من خلال حديثه عن أخبار وحوادث سنة ٥٠١ هـ، أنه في هذه السنة، «فُتِحَ ديوان المجلس، قال، ولما كُثِرَت الأموال عند متوليّه، ابن أبي الليث، رغب في التَّبَجُّحِ على الأفضل ابن أمير الجيوش (الوزير الأول)، يستحثّه ويُنهضه ويسأله أن يشاهده قبل حمله إلى بيت المال (وزارة المالية) وذكر له أنّه سبعمائة ألف دينار، ما عدا نفقات الرجال، وجعل الدنانير في صناديق بجانب، والدراهم في صناديق بجانب آخر. ووقف ابن أبي الليث بين صفّي الصناديق، فلما شاهده الأفضل ابن أمير الجيوش قال له: يا شيخ، تفرحني بالمال؟ وتربة أمير الجيوش (والد الأفضل)، إن بلغني أنّ بئراً معطّلة أو أرضاً بائرة أو بلدة خراباً لا ضربنَ عنقك، فأجابه ابن أبي الليث: وحقّ نعمتك، حاشا الله أيامك أن يكون فيها بلدٌ خراب أو بئرٌ معطّلة أو أرضٌ بور، وأبى الأفضل أن يكشف عن الصناديق»^(١).

ظهور أبناء الخلافة الفاطمية على حساب الدولة:

ويخبرنا المقرئزي عن الخليفة المعزّ الدين الله أنّه عندما قرر إعمار (طهور) أبنائه الثلاثة: عبدالله ونزار وعقيل. و«حين عزم على طهورهم، كاتب عمّاله وولاته من كلّ ما حوته مملكته وما والاها، في حضر وبدو وبحر وبر، وسهل وجبل، بطهور من وُجد من أولاد سائر الخلق،

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٩.

حُرُّهم وعبُدُّهم، وأبيضهم وأسودهم، ودنيئهم وشريفهم ومليئهم وذيئهم، الذين حوتهم مملكته، لمدة شهر، وتوَعَّد على ترك ذلك، وأمرهم بالقيام بجميع نفقاتهم وكسوتهم، وما يصلح أموالهم من مأكَل ومشرب وملبس وطيب وغيره، بمقدار رتبهم وأحوالهم، فكان من جملة ما أنفق في ذلك ممَّا حُمِلَ إلى جزيرة صقلية وحدها من المال - سوى الخلع والثياب - خمسون حملاً من الدنانير، كلَّ حمل عشرة آلاف دينار، ومثل ذلك إلى كلِّ عامل من عمال مملكته، ليفرِّقه على أهل عمله.

وابتدئ بالختان في مستهل ربيع الأول من سنة ٣٥١هـ، فكان المعزُّ، يُطَهَّرُ في اليوم من أيَّام الشهر، بحضرته، إثنا عشر ألف صبي وفوقها ودونها. وُحِّتَ من أهل صقلية وحدها خمسة عشر ألف صبي، وكان وزن خرق الأكياس الفارغة، مما استعمل في هذا الإعذار (الطهور) مائة وسبعين قنطاراً بالبغداد^(١).

فإذا كان وزن الأكياس الفارغة التي استعملت في جمع فضلات الطهور مائة وسبعين قنطاراً أي $250 \times 170 = 42,500$ أي اثنان وأربعون طن ونصف من الأكياس الفارغة، فتخيَّل وقَدِّرْ كلفة هذا العمل على مستوى العالم العربي والإسلامي طيلة شهر كامل. خاصة إذا كانت جزيرة صغيرة كصقلية بالنسبة لامتداد أرجاء الخلافة الفاطمية قد كلفت ٥٠ جملاً $10,000 \times$ دينار = ٥٠٠,٠٠٠ ألف دينار ذهباً في وقت كان فيه الحد الأدنى للأجور يعادل ثلاثة دنانير ذهباً.

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الأول، ص ٩٤.

الخليفة يشتري حاجة القصر من الفواكه بسعر السوق سرّاً:

ويخبرنا المقرئ أن المعزّ حين وصل إلى القاهرة واستقرّ بقصره، حرّر أمراً إلى محمد بن حسين بن مهذب صاحب بيت المال (وزير المالية)، جاء فيه: «تقدّم يا محمد بابتياح لنا ولمولانا عبد الله في كلّ يوم، من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا وكذا، بسعر الناس، ولا تُعرف الرسول لئلاّ تقع محاباة ولا مسامحة. وكذا حوائج المطبخ»^(١).

وإذا قارنا هذا التصرف بتصرف أي زعيم معاصر، نجد أنّ ما يخاف من وقوعه الخليفة المعزّ من محاباة ومسامحة، والشراء بالسعر الذي يشتريه الناس، يبحث عنه مسؤولو اليوم، ويشتررون بأقلّ سعر، هذا إذا دفعوا ثمن حوائجهم أصلاً. فهذه الأخلاق أصبحت نادرة ولم تعد موجودة، بسبب هجوم التيار المادي النفعي على الإنسان العربي وغياب التيار الروحي الأصيل.

ويخبرنا المسبّحي أنّه عندما تفشّت الأمراض بأهل مصر، وكثر الموتى، وعلم الخليفة الظاهر أنّهم لا يغسلون ولا يكفّنون، فأمر بتكفينهم والإنفاق على دفنهم على حساب الدولة.

كما يخبرنا المسبّحي عن محمد بن جيش بن الصمصامة الكتامي، وهو ابن والي دمشق أيام والده الحاكم، وقد ذكرنا قصة توصية والده بما يرث للخليفة الحاكم، حضر «وقد اختلّ عقله وحاله، فوقف تحت القصر، فلما رآه الخدم، رثوا لحاله وقال بعضهم لبعض:

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، م.س. ص ١٢٦.

رجلٌ والله كانت عليه نعمة. دعوه يسأل أمير المؤمنين، فعسى الله يرزقه. فرفع رأسه إلى أعلى القصر وشتّم أقبح شتم، وقذف أعظم قذف، وبالع فِيمَا تكلّم به. ونادى بذكره أعظم نداء وأعلنه، فتبادر إليه الحرس فلطموه حتى سقط إلى الأرض، ثم جرّوه برجله من زقاق الصناديقين إلى زقاق القمّاحين. ثم رفعوه عن الأرض ووضعوا عمامته في عنقه وساقوه إلى سجن الشرطة، فأمر ابن كافي متولّي الشرطة أن يوضع في مكتب السجن لا في السجن، تكريماً لأصله ولما لأبيه من خدمات على الدولة»^(١).

وفي اليوم التالي «صفح أمير المؤمنين - عليه السلام - عن أبي عبدالله محمد بن جيش بن الصمصامة الكتامي، لسالف حرمة أبيه، وأمر بإطلاقه من سجن الشرطة، فأطلق وانصرف إلى منزله».

ولم يكن الفاطميّون يميزون بين مصري مسلم ومصري قبطي، فكلهم سواسية في الحقوق والواجبات والتكريم. حيث أخبرنا المسبّحي وهو من موظفي قصر الخلافة، أنّه «حين توفي صبي نصراني لأبي الفرج الطبيب وكان له من العمر أربع عشرة سنة، نزل لجنازته جماعة من المسلمين والنصارى وخدم القصر، والأساقفة والرهبان وحُفر له بالقصر ودفن هناك»^(٢).

وبعد هذه النتف المتفرقة والعينات المتناثرة عن أخلاق الخلفاء الفاطميّين وسلوكهم تجاه الناس والرعية، لا يسعنا إلا أن نشهد

(١) راجع: أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ط ١، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٨٠، ص ١٩٣.

(٢) راجع: م.س. ص ٢٣٠.

بالمستوى الراقى الذي وصل إليه هؤلاء الصفوة من أهل بيت النبي.

كما وأتينا وإذا حاولنا المقارنة بين أخلاق الحكام الفاطميين مع أخلاق غيرهم من الحكام المعاصرين لهم من عباسيين وزنكيين، وأكراد ومماليك، الذين تولوا بعدهم قيادة دفة الحكم في مصر والعالم الإسلامي، لوجدنا الفرق الشاسع والواسع بينهما حتى كأنهما على طرفي نقيض.

أخلاق خصوم الفاطميين:

في الوقت الذي كان فيه الخليفة الفاطمي ينصح بزوجة واحدة، يخبرنا أبو المحاسن ابن تغري بردي أن الخليفة الراشد العباسي أفتى القضاة بخلعه من الخلافة بموجب محضر سنة ٥٣٦هـ، «فيه أنواع من الكبائر ارتكبها من الفسق والفجور ونكاح أمهات أولاد أبيه وأخذ أموال الناس، وسفك الدماء، وأنه فعل أشياء لا يجوز أن يكون معها إماماً»^(١).

ويخبرنا ابن الحريري عن الخلاف الذي وقع بين الخليفة العباسي المستعصم (سنة ٦٤٨هـ) وبين الملك الناصر داود (الأيوبي)، كيف أن الأخير «أودع الخليفة المستعصم بالله وديعة، وكانت سببة من جواهر وغيرها، فتوقف الخليفة في ردها عليه، وشرهت نفسه إليها واحتج بحجج لا معنى لها، وجرى في ذلك

(١) النجوم الزاهرة، الخامس، م.س. ص ٢٥١.

خطوب. وتوجه الملك الناصر داود إلى بغداد بسببها عند عودته من الحج، ومدح الخليفة المستعصم بالله، وسأله أن يردّ عليه وديعته، وتذلل له في ردّها عليه واستشفع إليه برسول الله (ص) في ردّ وديعته، فلم يردّ من الوديعة إلاّ دون العشر، وانصرف الملك الناصر ساخطاً. وعابت الناس الخليفة على ذلك ورموه بالسنتهم. فما جرى على الخليفة ما جرى من الأمور (قتله هولاءكو)، ظنّوا أنّ ذلك بخطية وديعة الملك الناصر داود»^(١).

ويجدر أن نشير أنّ المستعصم بالله كان محباً للمال، شديد البخل، وكان يجمع المال والذهب والجواهر التي ينتزعها من الناس، في دهاليز تحت القصر، وعندما حاصر هولاءكو بغداد أشار عليه وزيره ابن العلقمي بتفريق هذا المال على الأجناد والعساكر فرفض، وعندما احتلّ هولاءكو بغداد واكتشف ما فيها خزائنه من أموال وعلم بنصيحة ابن العلقمي له، ورفضه النصيحة، حبسه في الخزائن دون طعام أو شراب، فبقي أكثر من عشرين يوماً بين الذهب والفضة والجواهر التي لم تنفعه، حتى مات وقد تكرر المشهد مع صدام حسين.

ويخبرنا ابن الحريري أيضاً عن الملك المسعود مودود (سنة ٦٢٥هـ) أنّه «كان فاسقاً، ووجد في قصره خمسمائة حرّة للفراش من بنات الناس، أخذهنّ قهراً واغتصاباً»^(٢). وعن حالة بغداد سنة ٥١٢ للهجرة أيام الخليفة المستظهر بالله، يحدّثنا ابن الأثير عن

(١) كتاب منتخب الزمان، أحمد بن علي بن الحريري، ط ١، بيروت، دار عشتار، سنة ١٩٩٣، ص ٣٤٦.

(٢) م.س. نفسه، ص ٣٣٣.

سيطرة الأكراد والأتراك على بغداد وأهلها وخليفتها فيذكر لنا منكوبرس مسؤول شحنكية بغداد (قيادة شرطة بغداد) من قبل السلاجقة فقال: «وأقام منكوبرس ببغداد يظلم ويعسف الرعية، ويصادرهم، فاخترق أرباب الأموال، وانتقل جماعة إلى حريم دار الخلافة خوفاً منه. وبطلت معاش الناس، وأكثر أصحاب الفساد، حتى أن بعض أهل بغداد، رُفَّت إليه امرأة تزوجها، فعلم بعض أصحاب منكوبرس، فأتاه وكسر الباب وجرح الزوج عدة جراحات، وابتنى بزوجته. فاستغاث الناس لهذه الحال، وأغلقوا الأسواق فأخذ الجندي إلى دار الخلافة، فاعتقل أياماً ثم أطلق»^(١).

ومنكوبرس كان يحتاج لخليفة فاطمي مثل المعز أو الحاكم، ولشعب كالشعب المصري لا كأهل العراق خاذلي الحسين. وابن فتاوى ابن تيمية؟ وابن الحافظ ابن كثير وابن تغري بردي وابن أبيك الدواداري، يعطونا رأيهم في منكوبرس والسلاجقة.

أما المقرئزي عندما يحدثنا عن المماليك وعن المصريين في عهد المماليك فيقول لنا أنهم كانوا يجبرون الأسرى الأجانب على العمل في السخرة، فإذا لم يوفوا العمل أجبروا الناس تحت نظر وسمع الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي «صار يحضر في كل يوم بنفسه، فنال الناس من هذا العمل عسف وضرر زائد»^(٢).

وعندما حدثنا المقرئزي عن أمير الجيوش الفاطمي، الأفضل بن بدر

(١) الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، ص ٢٨٤.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، صفحة ٢٢٩.

الجمالي، كيف هدد خازن بيت المال إذا كان ماله مجموعاً من بئر معطلة أو طاحونة متوقفة أو أرض بور، نراه يحدثنا عن نقابة الجيوش ووظيفة نقيب الجيوش وأميرها عند الممالك فيقول: لقد انحطت هذه الرتبة اليوم، وصار نقيب الجيوش عبارة عن كبير النقباء المعدّين لترويع خلق الله تعالى وأخذ أموالهم بالباطل، على سبيل القهر، عندما يطلب أحدهم إلى باب الحاجب، حيث يضيفون إلى أكلهم أموال الناس بالباطل، افتراءهم على الله تعالى بالكذب والويل لمن نازعهم في ذلك^(١).

وعن الممالك جملة يقول المقرئ: «وصارت الممالك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً، وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضاً عن الدين. ما فيهم إلا من هو أزنّ من قرد وألصّ من فأرة، وأفسد من ذئب. ولا جرم أن خربت البلاد من النيل إلى الفرات بسبب سوء أحكامهم»^(٢).

ويقول المقرئ أن الممالك أصبحوا أشبه بسارق من سارق، وكلاهما لا يقتنع بما سرقة واغتصبه من سابقه، بل يحاول أن يستزيد من سرقة غيره فلا يجد سوى الفقراء والعامة من الناس.

فأين أخلاق هؤلاء الطارئين على الإسلام والعروبة، من أصحاب الإسلام وأصحاب بيته وعترة نبيه؟ - عليهم صلوات الله أجمعين -

(١) راجع: م.س. ص ٢٢٣.

(٢) م.س. ص ٢١٤.

أخلاق الشعب المصري في ظلّ الإسلام الشيعي

إنّ سيطرة الفضائيات والأفلام والمسلسلات المصرية على عقل وقلب المشاهد العربي، يجعل من كلّ مشاهد كأنّه واحد من الشعب العربي في مصر، يعيش كلّ مشاكله وعاداته ومعتقداته وآماله وآلامه. من هنا يستطيع الباحث، وبسهولة، مقارنة أخلاق وعادات هذا الشعب ومطابقتها على أجداده، وأهله أيام الدولة الفاطمية، فيعرف أنّه ليس هناك كثير فرق بين عادات هذا الشعب أيام الفاطميين، وهذه الأيام. فالدعابة والطيبة والكرم المنقطع النظير، ما زالت مسيطرة على المصريين. ونجدة الإسلام في كلّ ضيقة وإنقاذه، وحبّ أهل البيت وتقديسهم، ما زالت عادات متأصلة في نفوسهم، فدحر المغول في معركة عين جالوت، ودحر اليهود في الجفجافة والامتلاء، وتحطيم خط بارليف، أكبر شاهد على عظمة هذا الشعب وسموّه في عالم الإسلام والعروبة، والمسيحية المشرقية.

يقول المقرئزي عن أخلاق الشعب المصري: «ولهم خبرة في الكيد والمكر، وفيهم بالفطرة قوّة وتلطف فيه، وهداية إليه لما في

أخلاقهم من التملُّق والبشاشة التي ربوا فيها، وخصَّصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم، حتى صار أمرهم في ذلك مشهوراً، والمثل بهم مضروباً^(١).

ويخبرنا المقرئزي عن الخليفة العزيز بالله أنه أول من أقام مطعماً في أحد جوانب جامع القاهرة، وخصَّصه لإطعام الوافدين من خارج القطر المصري إلى مصر والقاهرة، خلال الأشهر الحرم الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان^(٢).

فكانت خيرات الشعب المصري تعم كل الأقطار العربية أيام الفاطميين، ولم يسمع من قبل بمثل هذا العمل أو هذا التصرف.

والمصري يعتبر مصر أم الدنيا ويعشقها ويتباهى بها فالمقرئزي يخبرنا حين دخول المعز لدين الله إلى مصر، أنها أصبحت دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة.

وكان الشعب المصري جزءاً لا يتجزأ من الإمامة والخلافة الفاطمية، يسر ويفرح لانتصاراتها، ويحزن ويتكدر لانكساراتها، فحين ثار أبو ركوته على الدولة، واعتقل وحمل إلى القاهرة، وصف المقرئزي دخوله إليها فقال:

«وَأَدْخَلَ أَبُو رَكُوتَةَ وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ، وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ مَشْهُرٌ، وَفَوْقَ رَأْسِهِ طَرَطُورٌ طَوِيلٌ وَمَعَهُ رَجُلٌ يُمْسِكُهُ، وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَكَانَ جَمْعاً لَمْ يُرَ مِثْلُهُ كَثْرَةً، وَأَقْفَلَتِ الدُّورُ وَالْحَوَانِيتُ. وَبَاتَ

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٩.

(٢) اتعاظ الحنفا، الأول، ص ٢٩٤.

الناس على الطرقات، حتى وصل به إلى القصر، فأوقف ساعة أمام القصر وهو يشير بإصبعه ويطلب العفو، والصفع في قفاه ويقال له: قَبِّل الأرض، فيقبِّل. ثم سير به إلى مسجد تبر، فلما خرج من باب القاهرة، أخذ الناس يرمونه بالحجارة والآجر ويصفعونه وينتفون لحيته. وكان يوماً عظيماً مهولاً لكثرة اجتماع الناس. وأقاموا ليلتين في الحوانيت والشوارع وعلى أبواب الدور يظهرون المسرة والفرح»^(١).

وقبل انتصار الفاطميين على أبي ركوة، كان الناس «يجلسون في الشوارع وعلى أبواب الدور ليلهم كله يبتهلون بالدعاء والنصر للعساكر المصرية» على هذا الخارج فاستجاب الله دعاءهم.

والشعب المصري الذي عانى ما عاناه من الأكراد والمماليك والأتراك، استطاع أن يهزم هذه الأمم جميعاً وأن يطردها من مصر، فكلهم كانوا يعاملون مصر كالبقرة الحلوب.

ويخبرنا المقرئ عن والي تركي للعباسيين في دمشق، حرَّضه أحد الأتراك الهاربين من مصر وأطمعه في مهاجمة مصر وقلب نظام الحكم الفاطمي فيها والاستيلاء عليها - اسم هذا الوالي أطسز والمحرض ابن يلد كوش، وقد قال ابن يلد كوش لأطسز: «لا يهولنك العسكر المصري ولا ما تسمع به من كثرتهم فإنما هم سوقة وأخلاق، لو سمعوا صيحة لفرَّوا عن آخرهم، وإياك والرجوع عن هذا الملك، وقد أشرفت على أخذه، ولم يبق إلا أن تملكه»^(٢).

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، م.س. ص ٦٦.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، م.س. ص ٢١٧.

ويخبرنا المقرئزي كيف أنَّ المصريين هزموا هذا الكردي، وفراره إلى القدس وذبحه المسلمين في المسجد الأقصى، دون خوف أو وازع أو رادع.

وعندما يحدثنا المقرئزي عن شاور وكيف حرّض أسد الدين شيركوه على احتلال مصر بقوله عن الشعب المصري: «لا يهولنك ما تشاهد من هذه الجموع، فأكثرها حاكة وفلاحون، يجمعهم الطبل، وتفرّقهم العصا». ويحدثنا المقرئزي كيف رتب هذا الخائن المؤامرات على مصر والمصريين، مما أوقع بهم الهزيمة التي أدّت إلى احتلال مصر وإنهاء الحكم الفاطمي ووقوع الأمة الإسلامية تحت رحمة تناتش الأيوبيين، الذين أوصلوا البلاد بتناتشهم إلى حالة من الخوف والهلع والدمار التي حوّلت المسلمين إلى شعب ذليل، خاضع، خانع، طائفاً رأسه من أول هجمة لنعال التتار والمغول، باستثناء مصر وشعب مصر.

والمصريون على دين خلفائهم في التدين والكرم الذي لم نعهد مثله إلا أيام حاتم الطائي، وأمثاله.

وعندما يحدثنا المقرئزي عن وزير العزيز بالله يعقوب بن كلّس وعن كرمه يقول: «أقام بداره عدّة مطابخ لنفسه ولجلسائه ولغلمانته وحواشيه، وكان ينصب مائدة لخاصته، يأكل هو وخواصه من أهل العلم ووجوه كتّابه وخواص غلمانته، ومن يستدعيه عليها. وينصب عدّة مواثد لبقية الحجاب والكتّاب والحواشي. وكان إذا جلس يقرأ كتابه في الفقه الذي سمعه من المعزّ والعزيز لا يمنع أحداً من مجلسه فيجتمع عنده الخاص والعام. وكان يقيم في شهر رمضان الأظعمة للفقهاء

ووجوه الناس وأهل الستر والتعفف ولجماعة كثيرة من الفقراء. وكان إذا فرغ الفقهاء والوجوه من الأكل، يطاف عليهم بالطيب»^(١).

وحدثنا المقرئ عن شهاب الدولة المعروف بالصغير المظفر، وكان على مذهب الإمامية وقال إنه كان موسوساً بالطهارة والنجاسة، كان إذا دخل إلى مجلس السلطان أو مجلس الخليفة الحافظ، يضع في رجليه خرائط (جلود)، «ولا يأخذ شيئاً من أحد إلا وفي يديه خريطة (كف جلد)، ويظن أن كل من لمسه نجس، وسوسة منه، فإذا اتفق أن صافح أحداً أو مس رقعة بيده من غير خريطة لا يمس ثوبه بها أبداً حتى يغسلها، فإن لمس ثوبه بها غسل الثوب. وكان الاستاذون المحنكون يرمون له في بساط الخليفة الحافظ العنب، فإذا مشى عليه وانفجر، ويصل مأؤه إلى رجليه، سبهم وحرده، فيعجب الخليفة من ذلك، ويضحك ولا يؤاخذ به بما صدر منه»^(٢).

ونحن إذ نروي هذه الرواية، لأنها صورة حقيقية عن أشخاص موجودين في مجتمعنا، فمنهم من يغسل يديه بأوراق مبللة بالعطّر بعد مصافحته لأي شخص، وهؤلاء الأشخاص هم شواذ وليس ظاهرة اجتماعية.

مضافة لأولو الحاجب النصراني: كرم لا حد له:

ويحدثنا المقرئ عن أولو الحاجب وهو مصري «نصراني من جملة أجناد مصر أيام الخلفاء الفاطميين».

(١) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٦.

(٢) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٨٢.

ويقول إنه بعد أن زوّج بناته الأربعة وأعطاهن ما يكفيهن وأعطى ولديه ما يكفيهما، «شرع يتصدق بما بقي معه على الفقراء، بترتيب لا خلل فيه ودواماً لا سأم معه، وكان يفرّق في كلّ يوم اثني عشر ألف رغيف مع قدور الطعام، وإذا دخل شهر رمضان، أضعف ذلك وتبثّل للتفرقة من الظهر في كلّ يوم إلى نحو صلاة العشاء الآخرة، ويضع ثلاثة مراكب، طول كلّ مركب واحد وعشرون ذراعاً مملوءة طعاماً، ويدخل الفقراء أفواجاً، وهو قائم مشدود الوسط، كأنه راعي غنم وفي يده مغرفة، وفي اليد الأخرى جرّة سمن، وهو يصلح صفوف الفقراء، ويقرب إليهم الطعام والودك (الدسم) ويبدأ بالرجال ثم بالنساء، ثم بالصبيان، ثم بالفقراء، ومع كثرتهم لا يزدهمون، لعلمهم أنّ المعروف يعمّهم كلّهم، فإذا انتهت حاجة الفقراء، بسط سماًطاً للأغنياء، تعجز الملوك عن مثله».

ويطلب المقرئ من المسلمين الترخّم عليه فيقول: «وكان له مع ذلك على الإسلام منّة توجب أن يترخّم عليه المسلمون كلّهم»^(١).

ولؤلؤ الحاجب النصراني المصري يعبر أفضل تعبير عن كرم الخلفاء الفاطميين وولاتهم ورعاياهم.

كرم الأقباط:

ووصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو كرم المصريين على عهد الخليفة المستنصر وقد مر بمصر سنة ٤٤٠هـ، فقال:

(١) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٨٦.

«وقد رأيت هناك نصرانياً من سراة مصر، قيل إن سفنه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعدّ. وحدث في سنة ما أن النيل، كان ناقصاً، وكانت الغلّة عزيزة، فأرسل الوزير إلى هذا النصراني وقال له: ليست السنة سنة رخاء، والخليفة مشفق على الرعية، فاعط ما استطعت من الغلّة، إمّا نقداً وإمّا قرضاً. فأجاب النصراني: «أسعد الله الخليفة والوزير، إن لديّ من الغلّة ما يمكنني من إطعام أهل مصر، الخبز ست سنوات». ولا شك أن سكان مصر، في ذلك الوقت، كانوا كثيرين مع الإسراف في التقدير. وكل من يستطيع الحكم، يدرك كم ينبغي أن يكون لهذا الثري، لتبلغ غلّته هذا المقدار. وأي سلام كانت فيه الرعية، وأي عدل كان للخليفة بحيث تكون أحوال الناس على هذا الوضع، وأموالهم بهذا القدر، ولم يكن الخليفة يظلم أحداً أو يجور على أحد. ولا كان أحد من الرعية يخفي أو ينكر شيئاً ممّا يملك»^(١).

ويحمل هذا النص من الأوصاف والمعاني، التي إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على الدعة والبخوحة واحترام الإنسان التي كان يعيشها الشعب المصري في ظلّ الفكر الإسلامي الشيعي الفاطمي، مسلماً كان أم نصرانياً أم موسوياً.

ويخبرنا المقرئ عن الوزير الأول المأمون البطائحي كيف أمر وكيله بإنشاء جامع القرافة من ماله الخاص لتسهيل الغذاء الروحي لأبناء مصر، وأمره بتعمير طاحونة بجانب الجامع «ويبتاع لها

(١) سفرنامه، ناصر خسرو، تعريب يحيى الخشاب، ط ٢، بيروت دار الكتاب الجديد، سنة

١٩٨٣، ص ١٠٦.

الدواب ويختار لها من الصالحين الساكنين بالقرافة من يجعله أميناً عليها، ويطلق له ما يكفيه مع علف الدواب وجميع المؤن، ويشترط عليه أن يواسي بين الضعفاء، ويحمل عنهم كلفة طحن أقواتهم، ويؤدّي الأمانة فيها»^(١).

كما يعطينا وصفاً جميلاً لأخلاق الوزير أبي علي اليازوري فيقول:

«كان نديّ الوجه كثير الحياء، لا يكاد يرفع طرفاً إلاً لضرورة. ولم يسمع منه قطّ في سؤال، لفظة «لا» كان شريف الأخلاق عالي الهمة، كريم الطباع، وطيب الأكناف، مستحكم الحلم، واسع الصدر، نديّ الوجه، مستقلّ كلّ كثير ويستصغر كلّ كبير. وكان إذا أعطى أهناً، وإذا أنعم على إنسان أسبغ، وإذا اصطنع إنساناً، رفعه إلى ما تقصر الآمال والأمانى عنه، مع عظيم الصدقة، وجزيل البرّ الذي عمّ به أهل البيوتات، مما جعله لهم من الرواتب الشهرية على مقاديرهم. وكذلك الأشراف والفقراء وأهل الستر (العائلات المستورة) بالقرافة. فكان يجري عليهم البرّ والكساء على يد موظف يهودي يدعى ابن عصفورة، كان وكيلاً للسيدة أم المستنصر. ولما زالت أيامه انقطع عنهم ما كان يصل إليهم من البرّ، فطالبوا ابن عصفورة قائلين له: قد جُفينا من مولانا ومولاتنا (ظناً منهم أنّ الخليفة ووالدته هما صاحباً الإحسانات)، فقال لهم، إن ما كان يجيئكم ذاك إلا من الوزير اليازوري فتعجبوا من هذا الأمر، وأكثروا من الترخّم عليه»^(٢).

(١) الخطط المقرّية، الجزء الثاني، ص ٣١٩.

(٢) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٢٤٥.

ترى هل عرفت العصور الإسلامية، أبهى وأجمل وأزهى من العصر الفاطمي؟ وهل عرفت الشعوب الإسلامية أكرم وأتقى وأنقى من أبي علي اليازوري، وهو الوزير الأول العربي الآتي من بلده يازور في فلسطين، وإذا كانت هذه أخلاق هذا الوزير، فكيف تكون أخلاق خليفته وإمامه المستنصر، مَعَد أبي تميم؟.

والناس على دين ملوكهم، والمصريون كانوا في العهد الفاطمي، على دين خلفائهم، في الكرم، وأَيَّ كرم؟ لم ولن تشهد مثله الأمة العربية والإسلامية على مرّ الأيام والدهور والسنين والشهور.

يحدثنا المقرئ عن كرم الخليفة الأمر، ومن جملة الذين ينالون من كرمه، غلامان، أحدهما يدعى بزغش والثاني هزار الملك. يقول عنهما المقرئ: «أنهما كان أسمح خلق الله، وكان الناس في أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو الفقر، لا بمصر ولا بالقاهرة، فإنّ هزار الملك كانت صدقته في كل يوم جمعة أربعة آلاف درهم، وكانت عطاياه من يده، لا تنقص عن عشرة دنانير أبداً، وكان ركوبه إلى القصر والعودة منه، لا يخلو من أحد يقف له ويطلب منه. أما بزغش فكان يعطي العطايا الكبار التي يغنى بها الطالب: من المائة دينار إلى المائتين وأكثر. وكان الأمر قد وهب بزغش ثمانين ألف دينار ثم سأله بعد مدة يسيرة عما فعله فيما وهبه له، فقال بزغش: يا مولانا: تصدّقت ووهبت أكثر مما أعطيتني، فأعجب ذلك الأمر، وفرح، وشكره على فعله»^(١).

(١) انعاظ الحنفا، الثالث، ص ١٢٣.

ويخبرنا المقرئزي عن موظف بصفة كاتب عند سيدة القصر، ابنة الخليفة العزيز وشقيقة الحاكم بأمر الله. أنَّ هذا الموظف الصغير لدى السيدة العزيزية، زوّج أخته إلى أحد موظفي القصر يدعي بلكين التركي. فلنر ما فعل كاتب السيدة العزيزية في عرس أخته!

يقول المقرئزي: «وفي جمادى الآخرة من سنة ٣٨١هـ، زُفّت أخت كاتب السيّد العزيزية إلى زوجها بلكين التركي، فخرجت معها جهاز بمائة ألف دينار، سوى صناديق محمّلة على ثلاثين بغلة (جهاز العروس). وعمل له عرس ذبح فيه عشرون ألف حيوان، ما بين كبش وخروف وجدي وأوزة ودجاجة وفروج. وزُفّت إليه في عشرين قبة (على عشرين جمل)»^(١).

وإذا أردنا أن نأخذ نماذج ونصوص أخرى عن عادات هذا الشعب العظيم، لاستطعنا تحبير مئات بل آلاف الصفحات عن كرمهم وبذخهم الذي لم تعرف الإنسانية مثيلاً له.

وللصدفة عرضت إحدى الفضائيات العربية تحقيقاً مصوراً عن البخل عند الشعب السويدي واعتبرته من العادات الحسنة التي تجعل الإنسان لا يأخذ تعب غيره. وأظهر التقرير أنَّ الكرم الذي يتصف به الشرقيون هو نوع من الخبل والهيل والجنون.

تري من هو المجنون؟ المسلمون والمسيحيون الشرقيون أبناء محمد وعيسى - عليهما السلام - أم أصحاب الشهوات وعبيد المادة والمال والعولمة؟

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٧١.

أعياد الدولة الفاطمية ٢٧٠ يوماً من أصل ٣٥٤

العيد عند المسلمين والعرب هو يوم فرح وسرور وتبسط في العيش، هو يوم يظهر العربي فيه، مسلماً كان أو مسيحياً، بكل معاني الأبهة والزينة والكرم بأقصى حدوده، على عشيرته وعائلته وأولاده وجيرانه.

والمتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية الاجتماعي والحضاري، يكتشف أن أيامهم كانت كلها أعياداً واحتفالات واستعراضات، يعم فيها الخير والأبهة والزينة كل طبقات المجتمع المصري، حتى تصل للبلاد التابعة للخلافة الفاطمية كاليمن والجزيرة العربية (مكة) والشام والمغرب.

وإذا قمنا بعملية إحصاء للأعياد وأيام الاحتفالات التي كان الفاطميون يقيمونها سنوياً ولو على صعيد مصر، لوجدنا أن عدد هذه الأيام والاحتفالات تتجاوز ثلاثة أرباع السنة، مما يعني أن ٧٥٪ من أيامهم، أيام رغد وهناء وفرح وحبور وغبطة وبسطة عيش، الخلفاء والأمراء وعامة الشعب، ومما يعني أن دولة كالدولة الفاطمية، استطاعت أن تحول معظم أيام السنة إلى أيام غنى ورفاهية وحبور وسرور،

للحكام وللعمامة على حد سواء، هي دولة جديرة بالاهتمام، وتاريخها جدير بالدراسة، وحضارتها مثيرة للانتباه، فالأفكار الفلسفية والعقائد والنظريات الاجتماعية، تصب كلها في هدف واحد: رفاهية الإنسان. فإذا كانت هذه الدولة قد حققت الرفاهية ورغد العيش لأبنائها، تكون قد وصلت إلى قمة الحضارة، والتطور الاجتماعي والإنساني.

عدد أيام الأعياد والاحتفالات في الدولة الفاطمية:

يجد المتتبع لأيام الأعياد والخيرات التي تعم كل الناس في الدولة الفاطمية محدّدة بالأيام التالية:

١	عيد ميلاد المسيح (ع)
١	عيد رأس السنة الميلادية
١	عيد النوروز
١	عيد الغطاس
١	عيد خميس الأربعين أو خميس الصعود
١	عيد الصليب
١	عيد الشعانين - (الزيتونة)
٤	ليالي الوقود الأربع
١	عيد فتح الخليج - أخذ مقياس النيل
١	عيد البشارة
١	عيد الفصح
١	عيد الخميس - العنصرة
١	عيد الختان

١	عيد خميس العهد
١	عيد سبت اليهود
١	عيد التجلي
١	عيد الشهيد
<u>١</u>	ذكرى حبس النبي يوسف
٢٥ يوماً	

وقد كان الفاطميون يحتفلون بهذه الأعياد المسيحية بجميع طوائفهم ومذاهبهم، برعاية الخليفة الفاطمي طيلة حكم الفاطميين.

الأعياد الخاصة بالفاطميين:

- عيد مولد النبي (ص) ١
- عيد مولد السيدة فاطمة (ع) ١
- عيد مولد الأئمة من الإمام علي حتى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (عليهم السلام) ٨
- عيد مولد الخلفاء الفاطميين وهي قد وصلت إلى ١٣ خليفة بـ ١٣ عيد ٨
- عيد بيعة غدير خم ١
- أيام حزن عاشوراء ويصل إلى الناس الخير الوفير عن روح الحسين (ع) ١٠
- نزاهات الخلفاء كل يوم أحد تقريباً ٦
- صلاوات الجمع تقريباً وزيارة التربة المعزية ٣٦ يوماً
- أيام الركوبات كل ثلاثاء وخميس تقريباً ٧٢ يوماً
- رجب وشعبان ورمضان وما توزعه دار الفطرة خلال هذه

الأشهر الثلاثة	٨٨ يوماً
- عيد النصر	١
المجموع الإجمالي:	٢٦٢ يوماً

الأعياد الإسلامية الرسمية:

عيد رأس السنة الهجرية - أول العام -	١
عيد الفطر	٣
عيد الأضحى	٤
	٨

ويعني أنّ أيام الأعياد التي كان الخير فيها يعمّ كلّ أبناء مصر والقاهرة على الأقل تصبح:

أيام الأعياد القبطية	٢٥
أيام الأعياد والاحتفالات الفاطمية	٢٦٢
أيام الأعياد الإسلامية	٨
مائتان وستة وتسعون يوماً	٢٩٦ يوماً

من أصل ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً.

ونحن سنبدأ باستعراض كلّ عيد وذكر مراسمه وطريقة الاحتفال به، وما يعمّ الناس من الخير فيه، ولو كان في ذلك إطالة، علّنا نعيد لهذه الفئة من المسلمين بعض حقّها المطموس. وسنجد أنّ أيام الاحتفالات وتوزيع الخير ستكون أكثر من العدد المذكور سابقاً لأنّ هناك على سبيل المثال لا الحصر أيام توزيع الكسوات وهي ثلاثة أيام في السنة، وأيام استعراض الخيل وهي كثيرة. وهذه الأيام يعمّ

فيها الخير، كلّ الموظفين والجنود والعساكر، دون أن يعمّ عامة الناس. لذلك استثنيتها ولم اعتبرها من الأعياد.

التائق والتطيّب بالطيب والعطور بمرسوم صادر عن قصر الحضرة:

جرت العادة واستباقاً لكل عيد، أن يصدر من قصر الخلافة سجلاً أو مرسوماً يطلب من الأمراء والقادة والموظفين والتجار وعامة الناس، أن يتزيّوا بأجمل الأزياء ويتعطّروا بأطيب العطور، فعلى سبيل المثال لا الحصر، ما كتبه علي بن منجب الصيرفي في بيان أو مرسوم صادر عن قصر الحضرة المطهّرة، بمناسبة توزيع كسوة عيد الفطر لسنة ٥٣٥هـ. أيام الخليفة الحافظ جاء فيه:

لم يزل أمير المؤمنين منعماً بالרגائب، مولياً إحسانه لكل حاضر من أوليائه وغائب، مجزلاً جفّهم من منائحه ومواهبه، موصلاً إليهم من الحباء، ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه، ولما أقبل هذا العيد السعيد، والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم، ويأخذوا عند كلّ مسجد زينتهم، ومن وظائف أمير المؤمنين، تشريف أوليائه وخدمه في هذا العيد، وفي المواسم التي تجاريه، بكسوات على حسب منازلهم، تجمع بين الشرف والجمال، ولا يبقى بعدها مطمع للأمال.

ويتوسع ابن منجب الصيرفي في وصف هذه الكسوات وكيفية تفرقتها بمناسبة هذا العيد^(١).

(١) الخطط المقرّية، الجزء الأول، ص ٤١٢.

وهذا النص يظهر أمرين وهدفين أساسيين من أهداف ووظائف عمل الإمام والخليفة الفاطمي تجاه رعيته.

الأول: تشريف الخليفة الفاطمي لأوليائه وخدمه (موظفيه).

الثاني: أن تجمع الثياب المهداة للموظفين بين أمرين: الشرف والجمال (الأناقة). وهذا ما لم تتوصل إليه أي دولة من دول العالم القديم والمعاصر، ونحن على أبواب الألفية الثالثة، بأن يهتم رئيسها بأناقة موظفيه، فالقيادة التي لم يعد همها سوى أناقة موظفيها، يعني هذا الاهتمام بأنها استطاعت حلّ كل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية لشعبها ورعاياها.

ويخبرنا ابن المأمون، في محررات سنة ٥١٦هـ، في عهد الخليفة الأمر، أنه في آخر شهر رمضان من هذه السنة وصلت الكسوة المختصة بالعيد، وهي تشتمل على ثياب وكسوات بقيمة عشرين ألف دينار، وهذا العيد، عندهم هو الموسم الكبير ويسمى بعيد الحل، لأنّ الحل فيه تعمّ الجميع، وفي غيره للأعيان خاصة.

ولم يكن الخليفة يوزّع الكسوات والحل على الناس فقط، بل كان الوزير الأول يوزّع بنفسه ومن ماله الخاص أيضاً، كالوزير المأمون بن البطاحي الذي وزّع سنة ٥١٥هـ بمناسبة عيد الحل ثلاثة آلاف وثلاثمائة دينار ذهباً، ومن الكسوات مائة وسبع قطع للأمراء والاستاذين وكبار الموظفين^(١).

(١) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٢٤ - وص ٢٨.

مراسيم احتفالات الخلفاء الفاطميين بالأعياد المسيحية القبطية:

يقول المقرئزي: إعلم أنَّ نصارى مصر من القبط ينتحلون مذهب اليعقوبية، وأعيادهم التي هي مشهورة أربعة عشر عيداً في السنة القبطية. منها سبعة أعياد يسمونها أعياداً كباراً وسبعة يسمونها أعياداً صغاراً وذكر الأعياد الكبار فقال، هي:

عيد البشارة، عيد الزيتونة، عيد الفصح، عيد خميس الأربعين، عيد الخميس، عيد الميلاد وعيد الغطاس والأعياد الصغار قال إنها:

عيد الختان، عيد الأربعين، عيد خميس العهد، سبت النور.

عيد أحد الحدود، عيد التجلي، وعيد الصليب. أما بقية الأعياد المصرية القبطية فأطلق عليها المقرئزي مصطلح: «مواسم» كالنوروز وليالي الوقود الأربع، وسجن النبي يوسف، وعيد فتح الخليج (أو أخذ مقياس النيل).

يقول المقرئزي: إنَّ كلَّ عيد من الأعياد، كانت تقام فيه الألعاب البهلوانية وألعاب التسلية حيث يقول في وصف أحد الأعياد: فإذا ركب الخليفة، نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب مدهون، وفي أيديهم رايات وخلف كلَّ واحد منهم رديف وتحت رجله آخر معلق بيديه ورجليه ويعملون أعمالاً تذهل العقول، ويركب منهم جماعة في الموكب على خيول، فيركضون وهم يتقلبون عليها، ويخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس وهو يركض ويعود يركب من الجانب الآخر، ويعود وهو على حاله لا يتوقّف ولا يسقط عنه شيء إلى الأرض، ومنهم من يقف على ظهر الحصان، فيركض به وهو واقف^(١).

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، م.س. ص ٤٥٧.

وهم يحتفلون بعيد البشارة بمناسبة تبشير جبريل للسيدة مريم (ع) بولادة المسيح (ع).

ويحتفلون بعيد الزيتون أو عيد الشعنيني باللهجة اللبنانية، ويعني عيد الشيخ بمناسبة ركوب المسيح حماره ودخوله القدس، ويزينون كنائسهم ويضيئونها بالشموع الكبار.

أما عيد الفصح، ويعتبره الأقباط من الأعياد الكبار، حيث تأمر اليهود على المسيح (ع)، وحاولوا قتله وصلبه ولكنه قام بعد صلبه بثلاثة أيام كما يرون.

وكذلك عيد خميس الأربعين، حيث يقول أقباط مصر أنّ المسيح (ع)، قام وخرج مع بعض تلامذته، ورفع يده وبارك الناس ثم صعد إلى السماء.

وعيد الخميس عندهم، يقال له عندنا، خميس البيض، أو خميس العنصرة، وله احتفالات مميزة في الجنوب اللبناني العاملي، يشترك فيه أولاد المسلمين والمسيحيين على السواء.

بروتوكولات احتفال عيد الميلاد:

وصف المقريري الاحتفالات بعيد ميلاد المسيح (ع) سنة ٥١٧هـ أيام الخليفة الأمر بأحكام الله؛ فقال: وفيه كان المولد العيسوي، ففرّق ما جرت به العادة من الجامات (الجاطات) القاهرية، وجامات السמיד وقرب الجلاب، وطيافير الزلابية (الصواني)، والبوري على أصحاب الرسوم، في شهر ربيع الأول، المولد الكريم، وفرّق المال على الرسم المعتاد^(١).

(١) اتعاط الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٠٥.

أما ابن المأمون فقد وصف الاحتفال بهذا العيد فقال: وهو اليوم الذي ولد فيه عبدالله ورسوله، المسيح عيسى ابن مريم (ص). والنصارى تتخذ ليلة يوم الميلاد عيداً وتعمله قبط مصر في التاسع والعشرين من كيهك. وما برح لاهل مصر به اعتناء.

وكان من أعياد الدولة الفاطمية، تُفرّق فيه الجامات المملوءة من الحلوات القاهرية والمتارد التي فيها السمك وقرابات الجلاب، وطيافير الزلابية، والبوري، فيشمل ذلك أرباب الدولة وأصحاب السيوف والأقلام، بمقرّر معلوم^(١).

بروتوكولات احتفال عيد الغطاس:

يعتبر عيد الغطاس من الأعياد المهمة والكبيرة عند أقباط مصر. وليلة الغطاس لها شأن عظيم عندهم، ففيها لا ينام الناس، وقد وصف لنا المسعودي ليلة الغطاس قبل مجيء الدولة الفاطمية بثلاثين سنة فقال: وقد أمر الأخشيدي محمد بن طغج فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع. وقد انطلق على شاطئ النيل مئات الألوف من الناس من المسلمين والنصارى، منهم في الزوارق ومنهم في البنايات القريبة من النيل، ومنهم على الشطوط، وكل منهم يحاول إظهار أفضل ما عنده من المأكّل والمشارب وآلات الذهب والفضة، ويحملون أفضل وأجمل المجوهرات كما يحملون آلات العزف والقصف على أشكالها.

(١) أخبار مصر، ابن المأمون البطائحي، م.س. ص ١٠٤.

ويعتبر المصريون هذه الليلة من أفضل وأجمل ليالي السنة وأشملها سروراً. ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن الغطس في النيل يقيهم ويحفظهم من الأمراض والأسقام.

ونقل المقريري عن المسبّحي وصفاً لمراسم وبروتوكولات احتفال الفاطميين بهذا العيد لسنة ٢٨٨هـ، على عهد الخليفة العزيز وكاتب الوزير الأول، فهد بن إبراهيم فقال:

وفي سنة ٢٨٨هـ، كان غطاس النصارى، فضربت الخيام والمضارب والأشرعة في عدة مواضع على شاطئ النيل، ونُصبت الأسرّة للرئيس فهد بن إبراهيم النصراني كاتب الأستاذ برجوان، فأوقدت الشموع والمشاعل، وحضر المغنّون وأصحاب الملاهي، وجلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف.

ووصف المسبّحي هذه الليلة فقال: وجرى الناس على رسومهم في شراء الفواكه والحملان الضأن. ونزل مولانا - صلوات الله عليه - إلى قصر جده الإمام العزيز بالله - قدس الله روحه الشريفة، بالصناديقين بمصر لنظر الغطاس، بعد أن نزل القائد رفق عُدّة الدولة بالرحل وأصناف الفروش والبسط، ونزل مولانا مبكراً مع الحرم، وضرب نافذ، المعروف ببدر الدولة، الخادم الأسود، خيمته عند الجسر. وله حينئذ الشرطتان العليا في القاهرة والسفلى بمصر. وفرش فيها مرتبة مثقل ومرتبة ديباج ملكي، ونودي في الناس، أن لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في البحر ليلاً. وأمر أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - نافذاً الخادم أن يتّقد وقيد النار والمشاعل في الليل ففعل ذلك وكان وقيداً حسناً طويلاً. وأقام هناك زماناً ثم انصرف، وحضر جماعة

من القسّيسين والشمامسة بالصلبان والنيران، فقسّسوا طويلاً، ثم انصرفوا إلى حيث يغطسون^(١).

أما ابن المأمون فيخبرنا أنّ من رسوم هذا العيد عند الفاطميين، توزيع قصب السكر وسمك البوري بالأطنان.

أما بقية الأعياد والتي يطلق عليها المسيحيون الاقباط الأعياد الصغار، فكان المصريون النصاري يحتفلون بها في كنائسهم وبيوتهم بمشاركة الأهل والأقارب والجيران من المسلمين، دون أن تشارك الدولة فيها.

ولكن هناك أعياد مصرية كانت الدولة تعطل الأسواق والمؤسسات فيها مع مشاركة قوية من قصر الخلافة ورئاسة مجلس الوزراء كأعياد النوروز والمهرجان وعيد النبي يوسف وليالي الوقود الأربع.

ففي عيد المهرجان، كان المصريون يسخون فيه بأموالهم، ولا يبقى كبير ولا صغير إلا ويخرج للاحتفال بهذا العيد في بركة الحبش، حيث يضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والقباب الواسعة ويخرجون بالأهل والأولاد والأصحاب، ومنهم من يخرج بالقينات والمغنيات المملوكات أو الحرائر، فيأكلون ويشربون يُسعمون ويغنون ويتفكّهون حتى يأتي الليل، فيفترشون الأرض سكارى، نياماً وكأنهم في بيوتهم، وتحت سمع الدولة وبصرها. يشعرون بالأمن والأمان المفقود في سائر أنحاء الدنيا إلا في مصر الفاطمية.

(١) أخبار مصر في سنتين المسبّجي، م.س. ص ١٩٠.

بروتوكولات احتفال رأس السنة:

كان الفاطميون يطلقون على هذا العيد اسم غرة العام. وكان لهم شديد الاهتمام به وبمراسمه وبروتوكولاته، يحتفلون به احتفالاً رائعاً رائعاً تمتد فيه الأسمطة والموائد الحافلة بجميع أنواع المأكّل والمرطبات والحلويات، وتوزّع فيه على أمراء الدولة ورجالها وموظفيها وعساكرها وخدمها المخصّصات النقدية المحدّدة لهم سلفاً في ميزانية الدولة وفي ديوان الرواتب، وهي عبارة عن منحة محددة أو علاوة على الراتب، إضافة إلى كسوات الثياب. وقد جرت العادة أن يخرج الخليفة في هذا العيد بتجمل كبير واستعراض مهيب، يعرض فيه الفاطميون قوّتهم العسكرية من خلال استعراضهم فرق الجيش، وكرمهم الزائد الذي لا شبيه ولا نظير له في التاريخ الإسلامي كلّه، إلى جانب إظهار تدينهم وخشوعهم وشدة تعلّقهم بالإسلام الأصيل، وبأهل بيته، من خلال الصلاة والخطبة في الجامع، في كلّ عيد ومناسبة، ومن خلال عدم الإقدام على أي عمل إلا باستفتاح المقرئين. ولا ختمه إلا بقراءة القرآن أيضاً. وكان المقرئون والمؤدّنون وقومة الجوامع وخطباء الجمعة. هم عماد دولتهم ومذهبهم.

مراسم احتفال ليالي الوقود الأربع:

وهذه الليالي هي ليلة الأول من رجب وليلة النصف منه وليلة أول شعبان وليلة النصف منه. وقد كان الفاطميون يقيمون الاحتفالات العظيمة فيها، حيث يركب الخليفة بموكب خاص ثم يجلس بمنظرة عالية داخل قصر الزمرد أمام أحد أبوابه، وبين يديه شمع يوقد في العلو، وزن

الشمعة الواحدة لا يقل عن أربعين كلغ، ويركب قاضي القضاة من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشمع المحمول إليه من خزائن القصر موقوداً، من كل جانب ثلاثون شمعة، وبين الصفين مؤذّنو الجوامع يعلنون بذكر الله تعالى ويدعون للخليفة والوزير. بترتيب مقرر محفوظ. ويحيط بالخليفة ثلاثة من نواب الباب، وعشرة من الحجاب، وخمسة من حجاب الحكم المستقرين من الأمراء. والشهود المعدّلون وراءه على ترتيب جلوسهم بمجلس القضاء. وحول كل منهم ثلاث شمعات. ويجلس الجميع عند باب قصر الزمرد في ساحة رحبة تحت المنظرة، فتفتح إحدى طاقاتها ويطل الخليفة برأسه ووجهه، وحوله الاستاذون المحنكون. ويفتح أستاذ طاقة أخرى يخرج منها رأسه ويده اليمنى ويشير بكمه قائلاً: أمير المؤمنين يرد عليكم السلام. ثم يتقدّم خطيب الجامع الأنور فيخطب كما يخطب فوق منبر الجامع، وينبّه على فضيلة ذلك الشهر (شعبان) وأنّ ذلك الركوب علامة الاعتراف بفضله، ثم يختم كلمته بالدعاء للخليفة. ثم يتحرك الموكب إلى دار الوزير ومعه والي القاهرة، ثم إلى الجامع الطولوني فيخرج منه والي مصر إلى الخدمة، ثم إلى الجامع العتيق فيوقد التّنور الفضة الذي بالجامع وفيه نحو ألف وخمسمائة برّاقة وبأسفله نحو مائة قنديل^(١).

أما مخصّصات ومصاريف كلّ ليلة من هذه الليالي الأربع فقد ذكرها ابن المأمون فقال: إنها خمسون ديناراً ثمن الشمع وأن يطلق للجوامع والمساجد زيادة مقرر الزيت برسم الوقود ويتقدّم إلى متولّي

(١) راجع: نزّهة المقلتين، م.س. ص ٢٢٠.

بيت المال بأن يهتم برسوم هذه الليالي ويزيد من توزيع أصناف الحلوات مما يجب برسم القصور ودار الوزارة خاصة. وأما الجوامع التي تصيبها زيادة النفقات والمقرارات بمناسبة هذه الليالي، فقد ذكرها ابن المأمون وهي: الجامع الأزهر، الجامع الأنور، جامع الأقمر بالقاهرة، والجامع الطولوني والجامع العتيق بمصر وجامع القرافة. إضافة إلى المشاهد التي تضم قبور الخلفاء والأشراف وبعض المساجد التي يكون لأربابها «وجاهة» كجامع راشدة وجامع ساحل الغلة بمصر^(١).

وكان الفاطميون يحتفلون بعيد النوروز وهو عيد فارسي كان يحتفل به الأقباط أيام الدولة العباسية وعندما جاء المعز لدين الله إلى مصر، استمر الاحتفال به من المصريين جميعهم، أقباط ومسلمين إضافة إلى عيد فتح الخليج أو كسر الخليج وهو يوم بلوغ النيل الزيادة المطلوبة أو أخذ مقياس الارتفاع، وله بروتوكول ومراسم خاصة كنا قد أشرنا إليها في صفحات سابقة.

أما بقية الأعياد كذكرى الاحتفال بحبس النبي يوسف (ع) وخميس العدس الذي كانوا يضربون بمناسبة دنائير سياحية يوزعونها على المقرّبين وكبار الموظفين.

أيام الركوبات: وهي كلّ ثلاثاء وسبت من كلّ أسبوع حيث وصفها المقرّبي فقال: أيام الركوبات، وكان الخليفة يركب في كلّ يوم سبت وكل يوم ثلاثاء إلى منتزهاته بالبساتين والتاج وقبة الهواء ومنظرة الخمس وجوه وبستان البعل ودار الملك ومنازل العز

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٦٩.

وجزيرة الروضة، فيعمّ الناس في هذه الأيام من الصدقات أنواع: ما بين ذهب ومأكّل وأشربة وحلاوات.

صلاة الجمع: قال المقرئزي إنّ خلفاء مصر الفاطميين كان واحداهم يركب في كلّ سنة خلال شهر رمضان ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس. في جامع القاهرة الذي يعرف بالجامع الأزهر مرّة، وفي جامع الخطبة المعروف بالجامع الحاكمي مرّة، وفي جامع عمرو بن العاص بمصر آخر يوم فينال الناس منه في هذه الجمع الثلاث رسوم وهبات وصدقات^(١).

وفي وصف أيام الركوبات كتب ابن الطوير فجاء في وصفه: ركوب أول العام، ويبدأ التحضير له في آخر عشرة أيام من شهر ذي الحجة من كلّ سنة، فيذكر ابن الطوير آلات الموكب وجميع الأسلحة التي يحملها صبيان الركاب وطائفة العبيد السودان الأقوياء. ويصف ما يخرج من خزانة التجمّل كلّ أنواع الأسلحة المزيّنة بكل أنواع الزينة. وتخرج الأعلام والبنود الملونة والمزركشة. ويصف لنا النقّارات (الطبول) المحمولة على عشرين بغلاً، كلّ بغل يحمل ثلاثة طبول، يقال لها «طبول حلب» يتسلّمها صنّاعها ويسيرون في المواكب اثنين اثنين، ولها صوت مستحسن، وكانت معدّة لإظهار التشريف بالخليفة وحاشيته. ويخرج من خزانة السروج مائة جنّية مسرّجة تعدادها سبعون حصاناً وثلاثون بغلاً بأبهى السروج المحلّات بالذهب والفضة. ثم يلحق الخليفة ثلاثمائة فرس وبغلة كلّها

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٩٥.

مسرجة بأجمل أنواع السروج الفضة والذهب يركبها العرفاء والمقدمون. ويقول ابن الطوير إن مخصّصات هذا الاحتفال تصل ليد كلّ واحد من المشتركين فيه «سحر يوم الركوب».

ومن أيام الاستعراضات الموكبية في الدولة الفاطمية يوم استعراض الخيل، وهو آخر يوم من أيام السنة أي في التاسع والعشرين من شهر ذي الحجة من كلّ سنة ويقول ابن الطوير إنهم يستفتحون هذا الاحتفال بقراءة القرآن، «قبل كلّ شيء بآيات لاثقة» مقدار نصف ساعة، ثم يسلم الأمراء على الخليفة ويبدأ في استعراض تلك الدواب، دابة دابة وهي تقاد كالعرائس بأيدي شذاذيتها إلى أن يكتمل عرضها فيقرأ القرآن لختم ذلك الاحتفال^(١).

ويذكر المقرئ أن أغلب الناس في مصر الفاطمية كانت تعطل يومي الجمعة والأحد من أجل النزهة والراحة^(٢).

وكان الخلفاء الفاطميون يزورون مقابر أجدادهم في التربة المعزية كلّ يوم جمعة وكانت لهم سنّة في كلّ ركبة بمظلة في كلّ يوم جمعة «مع صدقات ورسوم للتفرقة».

أعياد موالد الخلفاء الفاطميين وأجدادهم:

كان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بأعياد ميلاد المسيح والنبي محمد - صلوات الله عليهما - وعيد مولد الإمام علي وفاطمة، عليها

(١) راجع: نزهة المقلتين، م.س. ص ١٥٥.

(٢) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ١٤٨.

السلام، وأعياد موالد الأئمة السبعة من سبط فاطمة وهم الحسن والحسين وعلي بن الحسين - زين العابدين - ومحمد الباقر بن علي، وجعفر الصادق بن محمد، وإسماعيل بن جعفر الصادق، ومحمد بن إسماعيل - عليهم السلام -.

كما كانوا يحتفلون بأيام ميلاد الخلفاء من ذريتهم، المهدي، والقائم والمنصور والمعزّ والعزیز والحاكم والظاهر إلى آخر خليفة منهم وهو العاضد.

فمن مراسم الاحتفال بعيد مولد النبي (ص) وصفها ابن المأمون فقال: واستهل ربيع الأول من سنة ٥١٧هـ، ونبدأ بما شُرف به الشهر المذكور وهو ذكر مولد سيّد الأولين والآخرين - محمد صلى الله عليه وسلّم - لثلاث عشرة منه، فأطلق ما هو برسم الصدقات من مال النجاوى (التبرعات الحزبية) خاصة، ستة آلاف درهم، ومن أصناف دار الفطرة أربعون صينية فطرة، ومن خزائن الشراب والتعبئة برسم المتولين وسدنة المشاهد الشريفة (قبور الخلفاء)، الموجودة بين الجبل والقرافة، سكر ولوز وعسل وسيرج (طحينة) لكل مشهد، وما يتولّى تفرقة سناء الملك ابن ميسّر أربعمئة رطل حلاوة (٢ طن) وألف رطل خبز (٢,٥ طن)^(١).

أما بروتوكولات ومراسم الاحتفال بعيد ميلاد الخليفة الفاطمي، فقد وصف لنا ابن المأمون أيضاً الاحتفال بعيد ميلاد الخليفة الأمر بأحكام الله وكان ذلك سنة ٥١٧هـ فخرجت الأوامر بإطلاق

(١) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٦٢.

وصرف موازنة هذا العيد: المولد الأمري. وكانت هذه الموازنة والمخصصات تضم:

- برسم المشرفين وخدمة قبور الخلفاء: سكر وعسل ودقيق وسيرج (طحينة).

- برسم المساكين والمجاورين بالجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وبالقرافة خمسة قناطير حلوى (١٢٥٠ كلغ) وألف رطل دقيق (٢,٥ طناً)، وما يعمل بدار الفطرة ويحمل للأعيان والمستخدمين في القصور لكل واحد صينية خشكناج وجلس الخليفة في هذه المناسبة بمنظرة القصر والمقرؤون الخاص جميعهم يرتلون الآيات الكريمة ثم أُختتم الاحتفال بأن خرج متولي بيت المال ومعه صندوق من مال النجاوى ففرقه على الناس^(١).

وجرت العادة في كل احتفال من احتفالات موالد الأئمة الخلفاء أن يعم الخير كل الموظفين والأقارب والأخوة. فكان الموظفون المكلفون بهذا الاحتفال، يعطون كل فقير صحناً مليئاً بالحلوى وأرغفة سميد محشوة بأنواع المأكّل (سندويش). وكانت الصواني التي توزع فيها الحلويات لا تعاد. وكان الأشراف الطالبيون ينالهم من هذه الهدايا والنجاوى والتفرقة ما ينال أقارب الخليفة وأولاده وأبناء عمومته، لأن كلفة هذه الاحتفالات لا تصرف، من خزينة الدولة، بل تصرف من مصدرين ماليين وهما مختصان بالخليفة: الفطرة، وهي التي يتبرع بها المسلم الشيعة بمناسبة كل عيد فطر

(١) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٦٠.

عن نفسه وعن كل فرد من أفراد عائلته وتذهب مباشرة إلى مؤسسة دار الفطرة، والمصدر الثاني: النجوى وهي التبرعات الحزبية التي كان يتبرع بها الإسماعيليون المنتظمون في سلك الدعوة الفاطمية أو حزب الدعوة الفاطمية وهي تصل إلى يد الخليفة مباشرة.

وقد ذكر المقرئ أن احتفالات عيد مولد الخليفة كانت تستمر لأكثر من يوم، وخاصة أيام الخليفة الأمر الذي كان مغرمًا بالأعياد والاستعراضات والاحتفالات.

مراسم الاحتفال بعيد الغدير:

عيد الغدير هو عيد إسلامي شيعي محض يحتفل به المسلمون الشيعة في جميع أنحاء العالم. وقد اختص بالشيعة فقط من دون بقية المذاهب الإسلامية لأن يوم غدير خم، هو يوم نقل الولاية والخلافة والإمامة من النبي (ص) إلى صهره وابن عمه وخليفته ووصيه، أسد الله الغالب، علي بن أبي طالب (ع).

يقول المقرئ عن هذا العيد: أعلم أن عيد الغدير لم يكن عيداً مشروعاً ولا عمله أحد من سالف الأئمة المقتدى بهم. وأول ما عُرف في الإسلام بالعراق، أيام معز الدولة علي بن بويه، فإنه أحدثه في سنة ٣٥٢هـ، فاتخذة الشيعة من حينئذ عيداً. وأصلهم فيه ما خرجه الإمام أحمد في مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب، رضي الله عنه، قال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، في سفر لنا، فنزلنا بغدير خم، ونُودي للصلاة جامعة، وكسح لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، تحت شجرتين، فصلّى الظهر، وأخذ بيد علي بن أبي

طالب، رضي الله عنه، وقال: الستم تعلمون أنني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ قالوا بلى - قال: الستم تعلمون أنني أولى بكل مؤمن من نفسه! قالوا بلى. فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه. قال فلقيه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقال له: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة. ومن سنتهم في هذا العيد، وهو أبدأ يوم الثامن عشر من ذي الحجة، أن يحيوا ليلته بالصلاة، ويصلّوا في صبيحته ركعتين قبل الزوال، ويلبسوا فيه الجديد، ويعتقوا الرقاب، ويكثروا من عمل البر، ومن الذبائح.

ونقل المقرئ عن ابن زولاق، أنه في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٦٠هـ، وهو يوم الغدير، تجمّع خلق من أهل مصر والمغاربة ومن تبعهم، للدعاء، لأنه يوم عيد، لأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عهد إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيه واستخلفه، فأعجب المعز ذلك من فعلهم، وكان هذا أول ما عمل في مصر^(١).

ووصف ابن الطوير هذه الاحتفالات بمناسبة بيعة غدير خم فقال: إذا كان العشر الأوسط من شهر ذي الحجة، اهتم الأمراء والجنود بركوب عيد الغدير، وهو في الثامن عشر منه، وفيه خطبة وركوب الخليفة، ويخرج الخليفة ومواليه الأستاذون (المستشارون) رجالة والأمراء المطوقون واحداً فواحداً بعُددهم وأسلحتهم وجنائبهم، ثم طوائف العسكر، أزمته أمامها وأولادهم مكانهم في

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٣٨٩.

خدمة الخليفة وقوفاً بالباب طائفة طائفة. فيكونون أكثر عدداً من خمسة آلاف فارس، ثم المترجلة (لواء المشاة) الرماة بالقسي وتكون عدتهم قريباً من ألف. ثم الراجل من الطوائف الأخرى. كالجيوشية والريحانية تتكون عدتهم تقريباً من سبعة آلاف، كل منهم بزمَام وبنود ورايات، بترتيب مليح مستحسن.

ثم يقوم الخطيب فيخطب خطبة «كراسة محررة من ديوان الإنشاء تتضمن نص الخلافة من النبي عليه السلام إلى علي بن أبي طالب. وأن هذا هو النص له بالخلافة دون غيره، فإذا فرغ الخطيب ونزل، صلى قاضي القضاة بالناس ركعتين يقرأ فيهما من الآيات ما يقع الاختيار عليه في ذلك المحل، فإذا قضيت الصلاة، قام الوزير إلى الشباك فيخدم الخليفة ويمضي. وينفض الناس بعد التهاني بين الإسماعيلية بعضهم بعضاً. وهو عندهم أعظم من عيد النحر^(١).

بمناسبة عيد الغدير يتم تزويج الأيامي على حساب الدولة:

لقد أعطى الفاطميون أهمية كبيرة لهذا العيد وجعلوه أهم عيد من أعيادهم، فقد أخبرنا ابن المأمون أن الضعفاء والمساكين حتى العوالي والادوان كانوا ينتظرون هذا العيد لكي يتم تزويج بناتهم الأيامي^(٢) على حساب الدولة، حتى صار هذا العيد موسماً ينتظره كل فقير وغني، لكثرة ما يجري فيه من معروف ورسوم وتفرقة

(١) راجع: نزهة المقلتين. م.س. ص ١٨٧.

(٢) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٤٣.

كسوات وهبات وأعطيات. يقول ابن المأمون: ووصلت كسوة العيد المذكور فحمل ما يختص بالخليفة والوزير، وأمر بتفرقة ما يختص بأزمة العساكر (القيادات) فارسها وراجلها، من عين (ذهب) وكسوة.

ومبلغ ما يختص بهم من العين ٧٩٠ ديناراً ومن الكسوات مائة وأربع وأربعون قطعة، ويفرّق من مال الوزير الأجل بعد الخلع عليه ٢٥٨٠ ديناراً، وأمر بالتفرقة على جميع بوابي القصور وتفرقة المؤذنين بالجوامع والمساجد. وتقدّم بأن تكون الاسمطة بقاعة الذهب على حكم سماط أول يوم من عيد النحر.

وفي باكر هذا اليوم (الغدير)، توجه الخليفة إلى الميدان وذبح ما جرت به العادة، وذبح الجزّارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة في عيد النحر (٣٠٠٠ رأس). وأمر بتفرقة ذلك للخصوص دون العموم. وجلس الخليفة في المنظرة وخدمت الرهجية (الموسيقىون) وتقدّم الوزير والأمراء فسلموا. فلما حان وقت الصلاة، والمؤذنون على أبواب القصر يكبرون تكبيرة العيد، فصلوا جماعة صلاة العيد، وخطب الشريف ابن أنس خطبة، ثم عاد الخليفة إلى القصر، فاستفتح المقرؤون. وجرى الرسم على السماط وتفرقة الرسوم والموائد. وحضر الكبراء وبياض البلدين: مصر والقاهرة «للتهنئة». وتقدّم الشعراء فأنشدوا وقبضوا الرسم الجاري به العادة وهو مائة دينار. وحضر متولي بيت المال وصحبته صندوق فيه خمسة آلاف دينار ففرقت على الأمراء المطوّقين والمميزين والضيوف والمستخدمين^(١).

(١) الأياشي: جمع أيم وهي الفتاة التي لا زوج لها.

مرسوم احتفالات عيد الغدير الصادر عن الحضرة المطهرة في القاهرة:

كتب علي بن منجب الصيرفي مرسوم تحديد عيد الغدير جاء فيه:

أما بعد، فالحمد لله الذي رفع منار الشرع وحفظ نظامه ونشر راية هذا الدين، وأوجب إعظامه، وأطلع بخلافة أمير المؤمنين كواكب سعوده. وأظهر للمؤلف والمخالف عزّة أحزابه وقوّة جنوده. وجعل فرعه سامياً نامياً، وأصله ثابتاً راسخاً. وشرفه على الأديان بأسرها. وكان لعراها فاصماً، ولأحكامها ناسخاً، يحمده أمير المؤمنين أنّ الزم طاعته الخليفة، وجعل كراماته الأسباب الجديرة بالإمارة الخليفة. ويرغب إليه في الصلاة على جدّه محمد الذي حاز الفخار أجمع، وضمن الجنة لمن آمن به واتبع النور الذي أنزل معه. وأرسله بالهدى ودين الحق، فزهق الباطل وخمدت ناره واضمحلّ. صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، خير الأئمة وإمامها، وحبر الملة وبدر تمامها، من أقامه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في المباهلة مقام نفسه، وأختصّه بأبعد غاية في سورة براءة، فنادى في الحج بأولها، ولم يكن غيره ينفذ نفاذه ولا يسدّ مكانه^(١).

وقد كتبه ابن الصيرفي بمناسبة عيد غدير سنة ٥٣٦هـ على عهد الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد.

وقال المقرئ تحت عنوان عيد الغدير: فيه تزويج الأيامي وفيه الكسوة وتفرقة الهبات لكبراء الدولة ورؤسائها وشيوخها وأمرائها

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٣٨.

وضيوفها، والاستاذين المحنكين والمميزين وفيه النحر أيضاً، ويتم
تفرقة النحائر على أرباب الرسوم، ويتم فيه عتق الرقاب وغير
ذلك^(١).

موقف بعض المؤرخين من عيد الغدير:

يقول ابن العماد الحنبلي أنّ غدير خمّ كثير الوخم والأمراض
ويسبّب الحمى لمن يجاوره أو يشرب منه «وحتى يقال أنّ أكثر أهل
غدير خم لم يتجاوز الحلم، وقد ماتوا لكثرة الحمى والوخم بها،
وحتى أنّه قل أن يمرّ بها أحد ولا يصاب بالحمى»^(٢).

السنة في بغداد يقيمون عيد دخول أبي بكر الصديق غار حراء مقابل عيد
الغدير:

يقول ابن الأثير: وفيها (سنة ٣٨٩هـ)، عمل أهل البصرة يوم
الحادي والعشرين من ذي الحجة زينة عظيمة وفرحاً كبيراً مثل ما
يعمل الشيعة في عيد الغدير وقالوا: هو يوم دخل النبي (ص) وأبو
بكر (رضي الله عنه) غار حراء.

ويقول ابن العماد الحنبلي في عيد الغار: تمادت الشيعة في هذه
الأعصر في غيهم بعمل عاشوراء وبنصب القباب والزينة وشعار
الأعياد يوم الغدير، فعمدت غالبية السنة وأحدثوا في مقابلة يوم
الغدير، يوم الغار، وجعلوه بعد ثمانية أيام من عيد الغدير وهو

(١) الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ٤٩٢.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء الثالث، ص ٣٨٣.

السادس والعشرون من ذى الحجة. وزعموا أنَّ النبي (ص)، وأبا بكر اختفيا بالغار»، وعلق على هذه الأحداث بقوله: وهذا جهل وغلط، ونعوذ بالله من الهوى والفتن^(١).

ويقول ابن أبيك الدواداري أنَّه في سنة ٣٨٨هـ، اجتمع أهل البصرة وباب الكرخ ومضوا إلى قبر مصعب ابن الزبير، وبدأ منهم في حق آل البيت ما لا يليق ذكره. وكانوا يطبخون فيه كل الأطعمة ويقولون: هذا يوم وافى فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر رضي الله عنه في الغار^(٢).

ويقول المقرئزي: ولما عمل الشيعة هذا العيد بالعراق أردت عوام السنة مضاهاة فعلهم ونكايتهم، فاتخذوا في سنة ٣٨٩هـ، بعيد عيد الغدير بثمانية أيام عيداً أكثروا فيه من السرور واللهم وقالوا: هذا يوم دخول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الغار هو وأبو بكر الصديق، رضي الله عنه، وبالغوا في هذا اليوم في إظهار الزينة ونصب القباب وإيقاد النيران^(٣).

يوم مقتل مصعب مقابل يوم مقتل الحسين أو عاشوراء:

ويقول ابن الأثير أنَّ غلاة السنة أقاموا يوماً للبكاء على مصعب ابن الزبير وحدّوه بيوم الثامن عشر من شهر المحرم أي بعد ثمانية أيام من مقتل الحسين (ع).

(١) م.س. نفسه، ص ١٢٠.

(٢) راجع: الدرة المضية في تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٦٢.

(٣) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٢٨٩.

ويخبرنا ابن الأثير أنه لما حاول أهل الكرخ الاحتفال بعاشوراء سنة ٣٦٣هـ، قام أهل السنة واركبوا امرأة على جمل عظيم الخلقة وسمّوها عائشة وسمّى بعضهم نفسه طلحة وبعضهم الزبير وقاتلوا أهل الكرخ الشيعة، وجعلوا يقولون نقاتل أصحاب عليّ بن أبي طالب وأمثال هذا من الشر^(١).

وقد اعتبر محقق هذا الكتاب أنّ المناسبتين بدعة: عاشوراء وحرب الجمل حيث قال: وهذان باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها ولا يدفع البدعة إلا السنة الصحيحة^(٢).

أما ابن العماد الحنبلي فهو يعطي مبررات لهذا الاحتفال «كون مصعب صبر وقاتل حتى قتل، ولأنّ أباه (الزبير بن العوام) ابن عمه النبي - صلى الله عليه وسلم - وفارس الإسلام»^(٣).

مراسم وبروتوكولات عيد الفطر:

كانت احتفالات عيد الفطر عند الخلفاء الفاطميين تستمرّ لأكثر من تسعين يوماً، تبدأ بأول يوم من رجب ثم شعبان ثم رمضان. وفي شهري رجب وشعبان تتولّى دار الفطرة تعبئة كلّ القصور والدوائر الحكومية والفقراء والجوامع والمساجد بجميع أنواع الحلوى والمشروبات. وكنا قد أشرنا إليها سابقاً، ولا مانع من إعادة ذكر بعض ما يجري في هذه الأشهر الثلاث.

(١) الكامل في التاريخ، الجزء الأول، ص ٥١.

(٢) م.س. ص ٢٠٠.

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء الثالث، ص ١٣٠.

يخبرنا ابن الطوير القيسراني أنَّ مبتدأ العمل في دار الفطرة «يبدأ في النصف الثاني من شهر رجب كل سنة». والعمل فيها يتواصل ليلاً نهاراً. والعاملون بها من صنايعين وحلوانيين وأطباء الرقابة والمستخدمين لا يقلّون عن خمسمائة موظف. أما الحاصل والحلويات المعمولة فيها برسم التفرقة يومياً «مثل الجبال من كل صنف» والصواني التي تفرق يومياً على العالي من الناس والوسط والدون (الفقير) لا تقل عن مائتي طيفور (صينية) يومياً. وهي مختلفة الأحجام حسب حاجة وموقع المرسل إليه. وأقل صينية تحمل مائة حبة خشكاننج (معمول بفستق أو جوز).

ويقول إنَّ الجنود السودان وغيرهم يأخذون حصتهم من دار الفطرة مباشرة وبدون طيافير (صواني)، «كل طائفة يتسلم لها عرفاؤها نصيبها»، ونعرف أنَّ طوائف الجند تأخذ نصيبها بالوزن وليس بالصينية، و«لا يزال الوزن سار في دار الفطرة لعرفاء الجنود من أول بدء الموسم في النصف من رجب حتى نهاية عيد الفطر ويقول ابن الطوير: «ولا يفوت أحداً شيء من ذلك ويتهادوه الناس في جميع أنحاء إقليم مصر. وما ينفق في دار الفطرة، فيما يفرّق على الناس منها، سبعة آلاف دينار»^(١).

(١) نزهة المقلتين، م.س. ص ١٤٦.

مائة رمضان في شوارع القاهرة طولها ٣٠٠ ذراع بعرض عشرة أذرع
على مدار الشهر:

لم يكن الفاطميون يسعون لرؤية الهلال حتى يحدّثوا بدء الصوم
في شهر رمضان، فهم يرون أنّ الرؤية هي من أمور الباطن وليست
من أمور الظاهر. فلذلك كانوا يعتبرون أنّ شهر رمضان ثلاثون يوماً
ومحدّد سلفاً ابتداءً ونهاية الصوم فيه. مع ذلك فكانوا لا يجبرون
غيرهم من أهل المذاهب الأخرى على الالتزام بأرائهم في بدء الشهر
أو في افتتاحه أو في الإفطار والعيد.

كان الفاطميون يعتبرون أنفسهم، صفوة الخلق، وأهل بيت النبي،
وأمن الخليقة كلّها وسعادتها وبؤسها من مسؤوليتهم، لذلك، كان
الهم الاجتماعي والمعيشي أحد أهمّ همومهم اليومية.

كتب ابن الطوير عن مائة رمضان فقال عنها: إنّها تبدأ في اليوم
الرابع منه وتنتهي في السادس والعشرين منه، وهي تختلف عن مائة
العيد (عيد الفطر) التي تستمر على مدى اليوم الأول والثاني من عيد
الفطر ووصف أبو المحاسن ابن تغري بردي أسمطة رمضان (موائد)
فقال: وأما سمات الطعام، فهو يُعَبَّى طوال الليل، وطوله ثلاثمائة ذراع
في عرض سبعة إلى عشرة أذرع، وعليه من أنواع المأكّل أشياء كثيرة،
ويمكّن الناس منه فيحملون وينهبون ما لا يأكلونه. ويبيعونه ويدخرونه،
ويحط في وسط السمات واحد وعشرون طبقاً. في كلّ طبق واحد
وعشرون خروفاً. ومن الدجاج في الطبق ثلاثمائة وخمسون طائراً. ومن
الفراريج مثلها، ومن فراخ الحمام مثلها. وتتنوّع الحلوى أنواعاً. ثم يمدّ
خلال تلك الأطباق صحون خزف، في كلّ صحن تسع دجاجات في

ألوان فائقة. والحلوى والمفتقة بالمسك: مما لا يقل من خمسمائة صحن. كل ذلك مرتب أحسن ترتيب، ثم يأتي بقصرين من حلوى، عمل دار الفطرة وزن كل واحد سبعة عشر قنطاراً (250×17 كلغ = ٤٢٥٠ كلغ حلوى $\times 2 = 8,500$ كلغ أي ثمانية أطنان ونصف من الحلوى ينصبان أول السماط وآخره. وينتظر الجميع الخليفة والوزير، وبعد أن ينتهيا، يتداول الناس السماط، ولا يرد أحد عنه حتى يذهب عن آخره^(١).

أما المقريري فيؤكد أن مائدة رمضان كانت تمتد طيلة شهر رمضان وليس في الرابع منه وتنتهي في السادس والعشرين منه^(٢).

وبعد الانتهاء من رمضان، كان الفاطميون يصدرن مرسوماً خاصاً بتحديد يوم العيد وصلاته وخطبته وسماطه، دون أن يلزموا بقية الطوائف الإسلامية بالإفطار معهم.

إذاعة بيان تحديد يوم عيد الفطر:

كتب ابن الصيرفي بياناً، يحدد فيه يوم عيد الفطر في نهاية شهر رمضان سنة ٥٣١هـ، ومما جاء فيه:

الحمد لله ناشر لوائه في الأقطار، الذي نسخ الإفطار بالصيام ونسخ الصيام بالإفطار، وكلف عباده ما يطيقونه، ووعد عليه جزيل أجره.. وصلى الله على سيدنا محمد نبيه، الذي أعلن بالإيمان وبإباح، وبين المحظور في الشريعة والمباح، وأرشد إلي ما حرّمه الإسلام

(١) النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، ص ١٠٢.

(٢) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ١١٤.

وحلّله، ومهّد سبل الهدى لمن استغواه الشيطان وضلّله، وأوضح مراقب الأوقات ومنازلها، وعرف تفاوت الأيام وتفاضلها. وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، الذي مضت في الله عزّماته وبيّضت وجه الدين الحنيف مواقفه ومقاماته. وعلى الأئمة من ذريتهما الذين تكفلوا أمر الأمة نصّاً، وامتطوا أعلى منارها فلم يألوا جهداً. فالحاضر منهم يوفي على من كان قبله، وأحزاب الحق فرحون بما أتاهم الله من فضله، وسلّم عليهم أجمعين سلاماً لا انقطاع لدوامه، وشرفهم تشريفاً لا انفصام لإبرامه، وأسنى ومجّد، وتابع وجوّد.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليكم، يوم... عيد الفطر من سنة... بعد أن وفى الصيام حقّه. وبعد أن أفطر بحضرته الأولياء، من آله وأسرتّه، ... أعلمك إياه أمير المؤمنين لتذيعه فيمن قبلك، فاعلم هذا واعمل به...^(١).

مركز تحقيقات كميّات علوم إسلاميّة

ويقول الباحث محمد حلمي محمد أحمد في هذا الصدد، أنّ الفاطميّين وأتباعهم لا يتقيّدون عند الصيام والفطر برؤية الهلال، وإنما يحكمون الحساب وحده أو الحساب مع الرؤية. ويقولون إنّ الرؤية والحساب كالظاهر والباطن، فالحلال كالظاهر لأنه مشاهد والحساب كالباطن لأنّه معقول. فيصدر من القصر الفاطمي قراراً يحدّد بدء الشهر^(٢).

(١) نزّهة المقلّتين، م.س. ص ٢٣٤.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٧٨.

وصف ركوب عيد الفطر لصلاة العيد:

وُصف هذا الموكب في إحدى السجلات التي أصدرها المستنصر مخبراً بعيد الفطر لسنة ٤٤٥هـ. ومما جاء فيه: وقد ركب الخليفة إلى المصلّى يوم عيد الفطر لسنة ٤٤٥هـ في عساكر تدك الأرض دكاً بسنابك خيلها، وجيوش تغطي رحب الفضاء بمديد ذيلها، وأزجال بوقات وطبول كانت تشق أفئدة الصدور، وتنوب عن النفخ في الصور، وبنود منشورة صبغت أديم الهواء أحمرها وأصفرها. وورود رايات نصر الله بعذباتها معقود. ومقام الملائكة تحتها مشهود، وبريق سيوف وأسنة تدع عيون البرق قائمة، ومثار نفع ينشئ في الأفق سُحباً متراكمة. فَمَثَل في المحراب تعلوه السكينة والوقار، وقام بواجب الصلاة. فكان أقوم قليلاً. وسبّح نهار الخشوع لربّه - جل جلاله - تسبيحاً طويلاً، ثم ارتقى إلى المنبر ليخطب بالناس وكأَنه جدّه صلّى الله عليه (النبي محمد) أو أبوه (علي بن أبي طالب)^(١).

مركز تحقيق التراث
مكتبة جامعة القاهرة

وهذا السجل أرسل إلى داعي اليمن وملكها علي بن محمد الصليحي. والهدف منه إظهار قوة الجيوش الفاطمية بعددها وعددها، قوة عظيمة بطّاشة، وعلى رأسها أمير إمام خليفة، مؤمن، متواضع لا هم له سوى إعلاء منار الدين وتأمين الأمن والأمان والرغيف لشعبه.

أما المسبّحي فبعد أن وصف الموكب والأبهة والعظمة التي سار فيها الخليفة الظاهر يقول: ثم استحضر الناس للسماط، وأكل الناس

(١) السجلات المستنصرية، م.س. ص ٥٧.

على رسومهم، ثم استدعى رجال الدولة طائفة، فأكلوا ونهبوا
الاطعمة، والحلوى ثم انصرفوا.

ويخبرنا المسبّحي أنّ الناس في مصر على دين ملوكهم فالقواد
والخدم والمستشارون، يعملون كلّ في بيته سماطاً للأهل والجيران
والأقرباء والفقراء^(١).

كما أنّ المقرّيزي يخبرنا أنّ الحاكم بأمر الله أصدر قراراً بإيقاف
ما يصرف خلال الأشهر الحرم من دار الفطرة أي خلال تسعين
يوماً، حيث قال: «وفي شهر رجب سنة ٤٠٢ هـ قطع الرسم الجاري
من الخبز والحلوى الذي يقام في هذه الثلاثة أشهر لمن يبّيت بجامع
القاهرة». وإذا كان الحاكم قد قطع هذه الأرزاق فقد أعيدت مرة ثانية.
وضوعفت أضعافاً على عهد ولده الظاهر وحفيده المستنصر.

بروتوكولات احتفالات عيد الأضحى:

لم تكن مراسم الاحتفال بعيد النحر تقل بعظمتها وأبهتها وكثرة
الإنفاق فيها عن مراسم أي عيد من أعياد الدولة الفاطمية، الوطنية
الخاصة بمصر، والإسلامية الخاصة بالمسلمين، كعيد الأضحى على
سبيل المثال. وقد أكثر المؤرخون من وصف هذا العيد وما يتمّ به من
استعراضات ومواكب احتفالية ومن توزيع الثياب والكسوات
المصنعة في مصانع مدينة تنّيس ودور طرازها على كلّ موظفي
الدولة: القائد والمستشار والوزير والجندي والموظف والكاتب،

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١٨٦.

والفقير منهم قبل الصغير. وكانت الأضاحي التي ينحرونها ويوزعونها على الناس لا تقل عن ثلاثة آلاف رأس بين بقر وجاموس وغنم في كل أضحي، وكانت الاحتفالات تبدأ قبل عيد الأضحي بيوم، أي يوم الوقوف على جبل عرفة.

وقد ذكر المسبّحي في تاريخه أن مجمل ما نحر يوم عيد النحر سنة ٥١٥ هـ، أيام الخليفة الأمر ٢٥٦١ رأساً ما بين ناقة وجاموسة ورأس غنم. ونعلم من المسبّحي، أن النحر والأسمطة والتوزيع يتم طيلة الأيام الأربعة بينما يبدأون بالنحر يوم عرفة.

وعندما نعلم أن الخليفة الأمر وهو المشهور بالترف والدعة والرفاهية العالية، قد نحر بيده شخصياً تبركاً: ١١٧ ناقة، ٢٤ رأس بقر، ٢٠ رأس جاموس، نستنتج أهمية هذا العيد عندهم.

وقال المسبّحي أن كل ما ينحر ويعدّ في أسمطة القصر، «خارجة عن أسمطة القصور عند الحريم وكلها تعباً بما يصنع بدار الفطرة من أهرامات الحلوى وقوالب البرما التي يصل وزن السكر المعد لأجلها ٢٦ قنطاراً = (أي ستة أطنان ونصف الطن)، عدا عن الكسوات الواصلة من دور الطراز»^(١).

أول ناقة منحورة ترسل إلى اليمن:

لما كانت اليمن ولا تزال الرثة التي تتنشق منها مصر عقب العروبة والتاريخ، دأب الخلفاء الفاطميون يرسلون أول ناقة منحورة

(١) راجع: الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ٤٢٦.

بيد الخليفة مقدّدة إلى اليمن، لكي يوزع قديدها ولحمها على الدعاة والحجج والنقباء من حزب الدعوة الإمامية، فقد أخبرنا المقرئ أن «أول نحيرة هي التي تقدّد وتسير إلى داعي اليمن، وهو الملك فيه، فيفرّقها على المعتقدين من وزن نصف درهم إلى ربع درهم للتبرّك».

ويزيدنا ابن الطوير معلومات عن هذا العيد ومراسم تنفيذه. فيعلمنا أن الخلفاء الفاطميين يوزعون فيه على القادة والجنود والعساكر والموظفين إضافة إلى الكسوات من الدنانير «من عشرة دنانير إلى دينار» حسب رتبة كلّ موظف أو جندي، أما لحم الجزور فإنه يوزع في أطباق مع صفار الفراشين، وينال منه طلبة دار العلم والمتصدّرين بجوامع القاهرة ونقباء المؤمنين^(١).

ويتساءل القارئ، من أين يأتي الفاطميون بهذا القدر من الأموال، وكم كانوا يوظفون من الطباخين والطهاة والخدم لتعبئة هذه الموائد وتوزيع لحومها على العامة والخاصة وعلى الفقير والصغير؟ وهل هذه العادة هي من أساسيات الإسلام الشيعي الإمامي أم أنها طفرة ظهرت في سماء مصر والعالم الإسلامي طيلة قرنين ونيف من الزمن ولن تعود؟ وسنجيب عن هذا السؤال في فصل مداخل الدولة الفاطمية.

ووصف ابن تغري بردي هذا العيد فقال إن الخليفة يمشي إلى المنحر، فينحر فيه ما شاء الله أن ينحر ويعطي الرسوم، ويفرّق الأضاحي على مساجد وجوامع القاهرة وغيرها من المساجد.

(١) نزهة المقلتين، م.س. ص ١٨٥.

ووصف كاتب السجلات المستنصرية في السجل رقم ٣٠،
تصرف الخليفة المستنصر في هذا السجل يوم عيد النحر لسنة
٤٧٤هـ، ومما جاء في هذا السجل:

أما بعد: فإن أوفى الأيام شأنًا وخطرًا، وأطيبها عند الإذاعة نشرًا
وخبيرًا، هو اليوم الذي جعله الله تعالى عيداً لأمير المؤمنين، ووفقه
الله لقضاء السنة التي سنّها جده سيّد المرسلين، فقرّت بمنظره عيون
أهل الإيمان، وخضعت لهيبته رقاب أولي الزيغ والعدوان، فغدا وراح
في أفخر عز وأعظم سلطان. وتوجّه إلى مقام صلاته ونسكه،
محفوظاً بأوليائه وأنصار ملكه، في زيّ سويّ وهنّدي علويّ، تخشع
لرائع مشهده لوامح الأبصار، وتتمتع برائق بهجته نواظر النظار...
ودخل أمير المؤمنين إلى مصلاه، وأدّى ما عليه الله سبحانه في خطابه
وصلاه، ثم عدل إلى موضع النحر فنحر بسنان يمضي مضي
الحتف في أعدائه، شاكرًا لرّبه على ما خوّله من جزيل عطائه^(١).

وكانّ الفاطميّين كانوا يتحيّنون الفرص في كلّ مناسبة وعيد
لإظهار قوتهم وعظمتهم بالتلازم مع شدة كرمهم الذي فاق كلّ
تصوّر وحدّ كلّ حدّ.

كل الطوائف تهني بالعيد:

لما كانت الدولة الفاطمية هي الدولة الوحيدة من بين الدول التي
عرفها الشرق الإسلامي تعترف بكل الأديان والمذاهب والطوائف

(١) السجلات المستنصرية، م.س. ص ١٠٠.

وحرية المعتقد. فمن الطبيعي أن تشترك كل طوائف ومذاهب هذه الدولة بالعيد، أي عيد، فقد أخبرنا ابن المأمون في تاريخه أن الذين هناؤا الخليفة الأمر بمناسبة عيد الأضحى هم:

- الوزير الأول المأمون بن البطائحي وأولاده وأخوته.
- الأشراف الطالبين.
- داعي الدعاة ودعائه.
- رؤساء الدواوين في القصر والدوائر الحكومية.
- قاضي القضاة وقضاته في القاهرة والأطراف ولجان الشهود.
- مقدّمو العسكر.
- الجنود بأجمعهم فرد فرداً.
- والي مصر ووالي القاهرة مع مسؤولي الشرطة في كل بلد.
- بطرك النصارى وكتاب النصارى.
- حاخام اليهود أو رئيس اليهود.
- الشعراء.
- عرفاء الأسواق أو نقباء الاسواق.

ويقول ابن المأمون: «وهذه كانت عادة السلام على ملوك هذه الدولة، وإنما أوردنا ذلك ليعلم منه كيف كانت عاداتهم»^(١).

الفاطميون: أيامهم كلها أعياد وأفراح:

نقل المقرئزي عن القرطبي قوله إن «أيام الخليفة العزيز كانت

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٢٧.

كلّها أعياداً وأعراساً». وأخبرنا عنهم أيضاً أنّه كان من عاداتهم إخراج الكسوة في كلّ سنة لجميع أهل الدولة من صغير وكبير مثل كسوة أوّل السنة، كسوة الشتاء، كسوة الصيف، كسوة عيد الفطر، وكسوة عيد النحر، وكسوة عيد الغدير، وكانوا يتأنقون في مآكلهم، حتى وصل الأمر بال خادم أو السائس من غلمانهم أن ينفق في كلّ يوم على طعامه بين العشرة والعشرين ديناراً لسعة أحوالهم، علماً أنّ الحد الأدنى للأجور كانت طيلة أيامهم ثلاثة دنانير شهرياً.

وكانوا يفرقون في أوّل كلّ سنة دنانير سياحية يسمّونها دنانير الغرّة أو غرّة العام، كما أنّ دار الفطرة كانت تتابع توزيع الحلويات على الناس طيلة أشهر رجب وشعبان ورمضان «فلا يبقى أمير ولا مُقدّم إلا ويأتيه طبق لنفسه، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه أنواع الحلوى العجيبة الفاخرة».

أما خلعهم من الثياب التي كانوا يهدونها للموظفين فكانت ثمينة جداً بحيث يبلغ طراز الخلعة (خياطة) خمسمائة دينار ذهباً.

ويتوجه المقرّيزي بالكلام للقارئ العربي محتقراً الأيوبيين والمماليك بقوله:

«وسياتي من إيراد ترتيبهم وحكاية أمور دولتهم، إن شاء الله، ما يعرفك مقدار ما كانوا عليه من أمور الدنيا وحقارة من جاء بعدهم»^(١).

وقال في مكان آخر بعد أن شرح راتب ومخصّص أحد الموظفين الكبار - أبو البركات بن الليث - «فانظر أعزّك الله إلى سعة أحوال

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ٣٤٢.

هذه الدولة من معلوم (مخصّص) رجل واحد من كتاب دواوينها، يتبيّن لك بما تقدّم ذكره في هذه المرافعة عظم الشأن وكثرة العطاء، ما يكون دليلاً على باقي أحوال الدولة».

وفي هذا الصدد وصف الكاتب محمود مصطفى الدولة الإسلامية أيام الفاطميين فعبر عن ارتياحه لعصر هذه الدولة لأنّ أحوالها، حسب قوله كانت مستقرّة في أغلب أيامها، «فقد أمن الناس في أسرابهم، وابتسمت لهم الحياة، فأقبلوا على مباحجها، لا يتركون لذّة إلا استوفوها وشربوا كأسها حتى ثمالتها. وقال أيضاً: وإذا ادّعى مدّع أنّ أيام هذه الدولة كانت كلّها مواسم وأعياداً، لم يكن مبالغاً»^(١).

يوم عاشوراء يوم فرح وسرور في الدولة الأيوبية:

يخبرنا الكاتب أسد حيدر أنّ ملوك بني أيّوب في مصر الذين وسمهم المسلمون وما يزالون بكلّ مديح وإطراء وكلّ جميل ثناء، اتخذوا يوم عاشوراء يوم سرور، يوسعون فيه على عيالهم ويتبسّطون في المأكّل والمشروبات، ويصنعون الحلويات، ويتخذون الثياب الجديدة ولا يأكلون إلا في الأواني الجديدة. ويتكّلون بهذه المناسبة ويدخلون الحمامات للاستحمام، جرياً على عادة أهل الشام في مضايقة شيعة علي بن أبي طالب الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي (ع). المقتول ظلماً في كربلاء^(٢).

(١) الأدب العربي في مصر، محمود مصطفى، م.س. ص ٢١٢.

(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، الجزء الثاني، ص ٢٢٦.

الممالك يستغلون كل المناسبات لنهب أموال المصريين:

عندما أنهى المقرئزي كتابه اتعاظ الحنفاء، أشار إلى حضارة الدول التي أتت بعد الفاطميين، ومن أسباب نظرتة لدولة الممالك نظرة احتقار نورد هذا النص عن حالة المصريين أيام الملك الأشرف شعبان سنة ٧٧٨هـ - حيث يخبرنا أنواع الضرائب التي أبطلها السلطان قلاوون: «لما ولي الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي مملكة مصر أبطل:

- ١ - زكاة الدولة، وهو ما كان يؤخذ من الرجل سنوياً عن زكاة ماله أبداً ولو عدم منه، وإذا مات يؤخذ من الورثة.
- ٢ - أبطل ما كان يجبي من أهل إقليم مصر كله إذا حضر مبشر بفتح حصن أو نحوه، فيؤخذ من الناس في كل الإقليم على قدر طبقاتهم.
- ٣ - أبطل ما كان يجبي من أهل الزمة وهو دينار برسم نفقة الجنود في كل سفرة.
- ٤ - أبطل مقرر جباية الدينار الواحد من التجار المصريين عند سفر العسكر للغزو.
- ٥ - أبطل ما كان يجبي عند وفاء النيل مما يعمل به شواء وحلوى وفاكهة في المقياس.
- ٦ - أبطل ما كان يجبي من بيوت البغايا والأغاني.
- ٧ - أبطل ما كان يجبي من روك الأراضي (المساحة).
- ٨ - أبطل ما كان يؤخذ على كل أرض تباع من مال الكهان القديم للمالك الجديد.

- ٩ - أبطل ما كان يؤخذ من الفقراء على بيع وشراء القمح.
- ١٠ - أبطل ما كان يؤخذ على بيع الفراريج.
- ١١ - أبطل ما كان يؤخذ على بيع الخيل والجمال والغنم.
- ١٢ - أبطل ما كان يؤخذ على بيع علوفات الحيوانات من دريس وحلفاء وبرسيم.
- ١٣ - وأبطل ما كان يؤخذ من أصحاب أكواخ غسّالي الثياب.
- ١٤ - أبطل ما كان يؤخذ من ضرائب على المسقفات من بيوت وحارات ورباع.
- ١٥ - أبطل ما كان يؤخذ من معاصر قصب السكر ومعاصر الطحينة (السيرج) والزيت والمصابن».
- وإذا قارنا هذه الضرائب التي فرضها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك على المصريين، بما كان يوزّعه الفاطميون من ثياب وملابس ومأكّل ومشارب وحلويات وذهب وفضّة، وغذاء روعي إسلامي، إلى جانب الغذاء الجسدي، لعرفنا السبب الذي دفع المقرّبي لاحتقار كلّ الدول التي أتت بعد الدولة الفاطمية.

من المظاهر الحضارية عند الفاطميين التأنق في الملبس

لقد أثبت لنا التاريخ المصري ومنذ القدم، اهتمام المصريين بالأناقة والتأنق في الملبس، وفي تصفيف الشعر وتزجيج العينين. والصور التي تركها الفراعنة على جدران قبورهم ومنحوتاتهم وأغطية نواوسيتهم والمومياءات الكثيرة التي تركوها، تدل على مدى اهتمام الإنسان المصري بالملبس والمظهر الأنيق.

وهذا التأنق الزائد. والاهتمام الملفت للأناقة في اللبس، لم نعرفها عند الفاطميين الشيعة إلا بعد دخولهم مصر. فحين وجودهم في تونس والمغرب، لم يترك لنا المؤرخون أي إشارة أو دليل، يدل على اهتمامهم بالمظهر الأنيق. بينما عندما بنوا القاهرة وسكنوها، بدأ المؤرخون يسطرون لنا الروايات ويدبجون المقالات في وصف هذا المظهر الراقى والمتحضر لهذه الفئة المسلمة.

يصف لنا المقرئ في إحدى الحفلات أو الأعياد التي يظهر فيها الخليفة والأمراء والعسكر بأبهى زينتهم، وأناقتهم، وأيامهم كلها

أعياد واحتفالات، فنأخذ على سبيل المثال آخر يوم من السنة الهجرية وهو يوم التاسع والعشرين من شهر ذي الحجة. وقد جعله الفاطميون عيداً لاستعراض الخيل فيقول:

العمامة عليها الجوهرة اليتيمة:

يبدأ القرّاء بقراءة القرآن حتى بداية الاستعراض، أي بعد صلاة الخليفة الظهر. فيجلس الخليفة ليستعرض ما يلبسه في عيد تلك الليلة في خزائن الكسوات الخاص. ويكون لباسه فيه البياض غير الموشح فيأخذ بدلة ومنديلاً (عمامة) خاصاً، فأما المنديل (العمامة) فيعطيه لشاذ التاج الشريف، فيشدها شدة الوقار وهي شدة غريبة، لا يعرفها سواه. ثم يحضر إليه اليتيمة، وهي جوهرة عظيمة لا يعرف لها قيمة. فيخيطها شاذ التاج بخياطة خفيفة، فتكون بأعلى جبهة الخليفة. ويقال إن زنة الجوهرة سبعة دراهم. وإطارها وهو بشكل هلال من ياقوت أحمر ليس له مثال في الدنيا، فتنظم هي وحواليها وما دونها من الجواهر في هذا الهلال، وبدائرها قسبة زمرد لها قدر عظيم.

المظلة المشنّشلة بالذهب من لون البدلة:

ويتابع المقريري واصفاً الخليفة: فيقول: ثم يؤمر بشدّ المظلة التي تشابهها تلك البدلة. وهي مناسبة للثياب. ولها عندهم جلالة لكونها تعلو رأس الخليفة الشريف، وهي مؤلفة من اثني عشر شوركاً (مضلعاً) عرض أسفل كلّ شورك شبر، وطوله ثلاثة أذرع

(٢١٧ سم). وتنتهي رؤوس الشوارك في رأس عود بشكل دائري مصنوع من خشب الزان وملبس بأنابيب من الذهب. وتشد الشوارك بحلقة من الذهب. ولها أضلاع من الخشب الخنج مربعات مكسوة بالذهب. وفيها خطاطيف لطاف وحلقات يمسك بعضها بعضاً. وهي تنضم وتفتح ولها رأس شبه الرمانة ويعلوها رمانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر يظهر للعيان.

وصف سيف الخليفة:

ثم يخرج السيف الخاص وهو مصنوع من صاعقة وقعت على ما يقال. وقبضته من ذهب مرصعة بالجواهر. كما أن غمده (خريطة) مرقومة بالذهب. لا يظهر إلا رأسه ليسلم إلى حامله، وهو أمير عظيم القدر. ورتبة حامل سيف الخليفة رتبة جليلة القدر.

وصف رمح الخليفة ودرقة حمزة بن عبد المطلب:

ثم يخرج الرمح وهو رمح لطيف في غلاف منظوم من اللؤلؤ وله سنان، مختصر بحلّة من ذهب ودرقة بكوامخ ذهب واسعة، منسوبة إلى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ملفوفة بغشاء من حرير، فتخرج إلى حاملها.

وصف قضيب الملك:

بعد كل هذه الإجراءات، يخرج الخليفة بقضيب الملك وهو طول شبر ونصف، من عود مكسو بالذهب المرصع بالدرّ والجواهر. ويخبرنا المقرئ أن من عناصر المواكبة أيضاً

خادمان صقليان يحمل كل واحد منهما مذبة، مرفوعة فوق رأس الخليفة كالنخلة لتذهب عنه الحشرات ولتؤمن له الهواء العليل. كما يخبرنا في مكان آخر أنَّ هناك لكل أمير من أبناء الخليفة وأخوته مظلة تظلّل رأسه.

وصف لباس الوزراء:

يصف لنا المقرئ لباس الوزراء فيقول: وكان من زي هؤلاء الوزراء أنَّهم يلبسون المناديل (العمائم) الطبقيات التي يلفونها تحت حلوقهم. وينفردون بلبس ثياب قصار يقال لها الذرايع واحدها ذراع. وهي عبارة عن ثوب مشقوق أمام وجهه إلى قريب من رأس القلب، بأزرار وعرى. ومنهم من تكون أزراره ذهب مشبك. ومنهم من تكون أزراره لؤلؤ.

كما أنَّ الخليفة كان يلبس لكل حفلة أو مناسبة أو عيد، لباس خاص يختلف عن لباس المناسبة السابقة. فركوبة أيام الأحد، «في ركب وزيه أنَّه يلبس الثياب المذهبة البياض والملونة، أما المنديل (العمامة) فيكون مشدوداً شدة مفردة ومختلفة عن شدات الناس، وذؤابته مرخاة من جانبه الأيسر ويسير بغير مظلة و«يتيمة».

الخليفة يلبس للمناسبة الواحدة: بدلة زهاباً وبدلة إياباً:

يصف لنا ابن المأمون مناسبة الاحتفال ببلوغ النيل المنسوب المطلوب فيقول: وفي سنة ٥١٨هـ، وصلت الكسوة المختصة بفتح

الخليج، وهي برسم الخليفة، تختان ضمنهما بدلتان: إحداهما منديل وثوب برسم المضي (الروح)، والأخرى جميعها من حرير برسم العود (الرجوع). وكذلك ما يخص إخوته وجهاته بدلتان مذهبتان. وبرسم الوزير بدلة موكبية، وبرسم أولاد الوزير الثلاث ثلاث بدلات مذهبة.

ويخبرنا ابن المأمون أنَّ البدل والثياب والكسوات الخاصة بهذه المناسبة أتت لكل من يشارك في هذا الاحتفال ولابن أبي الرِّداد رئيس ديوان المقياس. وصرف مبلغ ٤,٥٠٠ دينار ذهباً و ١٥,٠٠٠ ألف درهم فضة «برسم ما يفرَّق ويفصل من الخلع لغلمان الخاص ولرؤساء العشائر (السفن). فوقَّع الخليفة بإطلاق ذلك. وذكر تفصيل هذه الكسوات بأسماء أصحابها»^(١).

وعن لباس عيد النحر، نعلم أنَّ الخليفة أول ما يلبس فهو يلبس لباس الجزارين «ما يختص بالنحر وهي البدلة الحمراء بالشدة التي تسمَّى شدة الوقار، فيدخل المنحر بعد أن تكون فرشت الملاء الحمراء مع ثلاث بطانيات مصبوغة أحمر ليتقي بها الدم، بكر المؤذنون، فنحر الخليفة أربعاً وثلاثين ناقة. وقصد المسجد الموجود في آخر صف المنحر، وهو مغلق بالشروب والفاكهة المعبأة فيه بمقدار ما غسل يديه ثم ركب من فوره. ويخبرنا المقرئ أنَّ جملة ما نحره الخليفة والوزير المأمون وأولاده وإخوته في ثلاثة أيام ١٩٤٦ رأساً. وكلها ورَّعت على الناس.

(١) أخبار مصر، م.س. ص ٧٤.

التائق بمرسوم صادر عن الخليفة:

عندما يحدثنا المقريري عن أيام القرف والدعة التي مرت بها الدولة الفاطمية على عهد الخليفة الظاهر يقول: وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة. وكان مشغولاً باللهو محباً للغناء. فتائق الناس في أيامه بمصر. واتخذوا المغنيات والراقصات. وبلغوا في ذلك مبلغاً عظيماً. واتخذ الظاهر حجراً (غرفاً) لماليكه. وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب. واتخذ من خزانة البنود مشغلاً، فأقام فيها ثلاثة آلاف صانع. واستكثر من شراء الجواهر. وكانت مملكته إفريقية ومصر والشام والحجاز واليمن.

وكانت كلما وزعت الدولة ثياباً على الناس بالمجان ترفق الكسوة بمرسوم صادر عن الخليفة يطلب فيه من الناس الاهتمام بالمظهر وزيادة التائق وهذا نص المرسوم أو البيان وهو مؤرخ بآخر يوم من رمضان لسنة ٥٣٥هـ.

«ولم يزل أمير المؤمنين منعماً بالرخائب، مولياً إحسانه لكل حاضر من أوليائه وغائب. مجزلاً حظهم من منائحه ومواهبه، موصلاً إليهم من الحباء، ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه.

... ولما أقبل هذا العيد السعيد والعادة فيه أن «يحسن الناس هيأتهم»، وياخذوا عند كل مسجد زينتهم. ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه، وفي المواسم التي تجاريه، بكسوات على حسب منازلهم، «تجمع بين الشرف والجمال»، ولا يبقى بعدها مطمح للأمال.

ويخبرنا ابن المأمون كيف أن من بين هذه البدل التي وصلت

للخليفة: بدلة لخطبة الجمعة في أول رمضان، وبدلة لخطبة الجمعة الثانية التي يخطبها في الجامع الأزهر، والثالثة لخطبة جامع الأنور. وقد جرت العادة أن يرتاح الخلفاء الفاطميون من خطابة الجمعة، جمعة واحدة في رمضان.

٣٦٠ بدلة لـ ٣٦٠ يوماً:

وهذا الترف الزائد والغنى الفاحش لم يبلغه حتى دخولنا الألفية الثالثة أي شعب أو زعيم أو ملك على وجه الأرض، تبلغ به الأمور أن يعتمد لكل يوم بدلة على مدار السنة فهكذا إنسان، إمّا مهووس بالأناقة واللبس وحب المظهر، أو أنه لشدة فراغه وكثرة غناه يجد إضاعة الوقت في تفصيل هذه الثياب.

يخبرنا المقرئ عن أحد صبيان أو ممالك الخليفة الحافظ «وجد له ثلاثمائة وستون بذلة مذهب، وعلى مثالها ثلاثمائة وستون منديلاً مذهباً: فكان يلبس كل يوم بذلة وكل يوم منديلاً، وهي العمامة، وكانت تعلق كل بذلة وعمامة على مسمار فضة».

كما أخبرنا القلقشندي أنه كان للأفضل بن بدر الجمالي مائة بدلة معلقة على أوتاد من ذهب، وعلى كل بدلة منها، منديل من لونها^(١).

لقب المسؤولية عن أناقة الخليفة:

قال ابن الطوير عن الخدمة في خزانة الكسوات أو الثياب الخاصة

(١) راجع: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المجلد الثاني، م.س. ص ١٢٢.

بالخليفة، أنها وظيفة عظيمة من الوظائف المباشرة. ويصف لنا موجودات هذه الخزائن فيقول «إنه فيها من الحواصل ما يدل على إسباغ الله تعالى على من شاء من خلقه، من الملابس المشربة والملونة: رجالية ونسائية. ويحدثنا عن أهم الموظفين في هذه الخزائن: صاحب المقصّ أو ما نسميه في أيامنا: المقصّ دار وهو «مقدم الخياطين» في هذه الخزائن. ومسؤولة خزانة ثياب الخليفة. وتلقّب بـ: «زين الخزان». وكانت هذه رومية، (في عصرنا شقراء طليانية). وبين يديها ثلاثون جارية، فلا يغيّر الخليفة أبداً ثيابه إلا عندها^(١).

لزوم القائق: بستان نسرين وياسمين:

كما يقول لنا ابن الطوير إنه كان من مستلزمات الأناقة الزائدة وجود بستان ملحق بقصر الخلافة ومن أملاكه «يعني فيه أبداً بالنسرين والياسمين، فيحمل في كل يوم منه شيء في الصيف وفي الشتاء لا ينقطع البتة»، وكان الفاطميون عرفوا زراعة البيوت البلاستيكية وإلا كيف استطاعوا تأمين الياسمين والنسرين صيفاً شتاءً.

وهذا غيض من فيض، فهؤلاء الناس الذين كانوا إذا ظهرُوا من قصورهم مُدّ لهم الحرير بساطاً^(٢)، قد وصلوا مواسل وبلغوا مبالغ في سلم الحضارة الإنسانية ما لم يصله أي شعب أو أمة أو فئة أو طائفة من قبل.

(١) نزهة المقلتين، ابن الطوير، م.س. ص ١٢٨.

(٢) راجع: الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ٤٧٣.

وقد بلغ بهم الأمر إلى أن بدأوا يلبسون الدواب الحرير والديباح والذهب.

وبالعودة إلى ما ذكره المقرئزي عما أخرجه الأتراك من قصر المستنصر من هدايا وتحف وأدوات زينة تبهر العقول، تستطيع الحكم على أهمية الأناقة والتأنق في كل مجالات الحياة اليومية عند الفاطميين.

الخليفة يبهر الأبصار بأناقته ولبسه:

وعندما يصف لنا ابن المأمون مراسم الاحتفال بأخذ مقياس النيل لسنة ٥١٨هـ، وصف لنا أناقة الخليفة الأمر فقال: «وقد خرج الخليفة بزي الخلافة ووقارها وناموسها من الثياب التي تذهل الأبصار، وبالمنديل بالشدة العربية التي ينفرد بلبسها في الأعياد والمواسم الخاصة على الدوام. وكانت تسمى هذه الشدة شدة الوقار، مرصعة بغالي الياقوت والزمرد والجوهر. وعند لباسها تخفق لها الأعلام. ويُتجنب الكلام ويُهاب. ولا يكون سلام قريب منه أو خليل غير الوزير الذي يقبل الأرض من بعيد من غير دنو»^(١).

تمثال من العنبر لتعليق الثياب:

عندما سألنا بعض تجّار الطيب والبخور والأحجار الكريمة عن سعر الغرام الواحد من العنبر، قيل لنا، أنّ أجوده وهو يدعى «كبد الحوت» يساوي عشرة دولارات أميركية وكذلك سعر غرام الكافور

(١) أخبار مصر، المأمون البطائحي، م.س. ص ٧٥.

فكيف لو علمنا أنَّ الأفضل بن بدر الجمالي وجد في خزانته «خمسمائة صندوق ثياب برسم كسوة بدنه» ترى كم ثوباً كان يضم كل صندوق، وهل كان الأفضل يغيّر لباسه أكثر من مرة في اليوم الواحد!

ويخبرنا المقرئزي أنَّه «أقام لعبة (تمثال) من عنبر على قدر جسده برسم تعليق ثيابه عليها لتكتسب رائحة العنبر قبل ارتدائها.

ثمانية تماثيل من العنبر والكافور برسم الاستقبالات:

كنّا قد تحدّثنا عن هذه التماثيل الآلية الحركة، ولكن ترى ما وزن كل تمثال؟ ولا أستطيع تقدير وزنه لأنّي لا أعلم كثافة العنبر أو الكافور. وعلى الأقل يجب أن يزن التمثال ما لا يقل عن ثلاثين كيلوغرام مما يعني أنَّ التماثيل الثمانية يناهز وزنها:

$8 \times 30 = 240$ كلغ $\times 1000 = 240,000$ / مائتان وأربعون ألف غرام سعر الغرام عشرة دولارات، فيصبح ثمن هذه التماثيل تقريباً: $240,000 \times 10 = 2,400,000$ مليونان وأربعمائة ألف دولار. ويخبرنا المقرئزي أنَّ سعره تدنّى بعد زوال الدولة الفاطمية لأنه «قلّ ترفّه أهل مصر وقلّ استعمالهم للعنبر»^(١).

ويخبرنا المقرئزي أنَّه كان هناك سوق للعرسان أيام الدولة الفاطمية يشتررون منه كل ما يخص العروس من ثياب وأدوات زينة. كما يحدثنا عن سوق الخراطين الذي كان مختصاً بأسرة ومهود

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ١٠٢.

الأطفال على أنواعها، وسوق الخيشة المختص ببيع الكوفيات والطواقي التي يلبسها الصبيان والبنات.

ولم نسمع بسوق الثياب القديمة عند كل من أرخوا للدولة الفاطمية، ولكن بعد سيطرة الأكراد على مقدرات مصر والشعب المصري وإفقار هذا الشعب، ظهر في مصر «سوق الخلعيين والخلعي هو الذي يتعاطى بيع الثياب المخلوعة وهي التي قد لبست من قبل»^(١).

أما سوق الأخفافيين (نسبة للخف)، يقول المقرئزي إنه كان مخصصاً لبيع الأحذية النسائية فقط.

رأي المقرئزي بأناقة الممالك: أسمح ما راه

يقول المقرئزي إن أمراء الدولة الجركسية، أكثروا من لبس الطواقي بغير عمامة، ويمزجون كذلك في الشوارع والأسواق وأكثروا بها الألوان ما بين أخضر وأحمر وأزرق وغيره من الألوان، وكانت ترتفع فوق الرأس سدس ذراع (١١ سم). ويعمل أعلاها مدوراً مسطحاً، فغيروها أيام الملك الناصر فرج، فأصبح ارتفاعها ثلثي ذراع (٤٥ سم). وأعلاها مدور مقبب، وبالغوا في تبطين الطاقية بالورق، وهم على استعمالها إلى اليوم وهي أسمح ما لبسوه^(٢).

(١) م.س. ص ١٠٤.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ١٠٤.

البغلة المجلّة بالذهب أو المرسيدس النملة:

التباهي بالتفرد بامتلاك الأشياء وإظهار أجمل وأثمن ما يملك الإنسان، لإظهار تمايزه وعلو شأنه عن غيره، هي صفة ملازمة للإنسان، فحبّ الظهور هو من حب الذات، والمصريون كانوا على دين خلفائهم. فكما كان الخليفة وحاشيته يتباهون بامتلاك الثمين والنادر من كلّ شيء، كان أفراد الشعب المصري يتباهون بامتلاك الثمين والنادر. وقد طالت مباهاتهم وتباهيهم بامتلاك أجود الخيل وأعرقها أصالة، مع أجمل البغال والبغلات. كما كان واحد منهم يخجل من ركب الحمير. فكانّ الحصان هو المرسيدس الشبح أو النملة والفيل والناقة والجمل تأتي بعد الخيل ثم تأتي البغال وفي آخر سلّم عالم النقل الفاطمي، تأتي الحمير.

الجوخ لبس البغال أيام الفاطميين ولبس السلاطين أيام المماليك:

يخبرنا المقرئزي فصلاً طريفاً حين يقارن بين لبس الناس أيام المماليك ولبسهم أيام الفاطميين فيقول: «ولما كانت هذه الحوادث (أيام المماليك)، وغلت الملابس، دعت الضرورة أهل مصر إلى ترك مما كانوا عليه من الترفّ، وصار معظم الناس يلبسون الجوخ، فتجد الأمير والوزير والقاضي يلبسون الجوخ، ولقد كان الملك الناصر فرج ينزل أحياناً إلى الإصطبل وعليه ثوب من الجوخ. ويخبرنا المقرئزي في نفس الصفحة رواية عن القاضي الفاضل وهو أحد قضاة الخليفة العاضد، آخر خليفة فاطمي، أنّه دخل يوماً على قاض كلّفه أن ينوب عنه وهو لابس جوخاً، ففوجئ هذا القاضي وقال

للقاضي الفاضل: كيف ترضى أن تلبس الجوخ وهل الجوخ إلا لأجل البغلة. ثم أقسم عليه أن يخلعها^(١).

ثياب للفيلة: ألفا عدل ثياب مرقمة بالتدريج:

وينقل المقرئ عن ابن عبد العزيز الأنماطي، وهو واحد من موظفي خزانة الثياب والامتعة الخاصة بالخليفة المستنصر قال: دخل الفرّاشون إلى بعض خزائن الفرش المعروفة بخزانة الرفوف، وسميت بذلك لكثرة رفوفها، ولكل رف منها سلم مفرد. فأنزلوا منها ألفي عدل شقق ثياب بهديها، لم تستعمل بعد. وجميع ما فيها مذهب مطرز بسائر الأشكال والصور. و أنهم فتحوا عدلاً منها فوجدوا فيه أجلة (جلالات) معمولة للفيلة من قماش خسرواني مذهب كأحسن ما يكون. ويصف لنا هذه الثياب فيقول: وموضع نزول أفخاذ الفيل ورجليه ساذجة بدون ذهب.

ويخبرنا المقرئ أن هذه الأعدال كانت كلها مرقمة ترقيماً تدريجياً ومختومة بختم أمين الخزائن.

قيمة الدابة وسرجها ألف دينار ذهباً:

عندما يصف لنا المقرئ مراسم احتفالات يوم فتح الخليج أو يوم بلوغ النيل الحد المطلوب، يخبرنا كيف يقوم صاحب خزانة السروج بإخراج مائة سرج، سبعون للخيل وثلاثون للبغال وكل

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٩٧.

سرج مصوغ من ذهب، أو من ذهب وفضة. أو من ذهب منزّل فيه المينا. أو من فضة منزلة بالمينا، وروادفها وقرابيسها منها ما هو مرصّع بالجواهر الفائقة، وفي أعناقها الأطواق الذهب وقلائد العنبر، قيمة كلّ دابة وما عليها من العدة ألف دينار ذهباً. ونحن نعلم أنّ الحد الأدنى للأجور، كان أيام الفاطميين ثلاثة دنانير ذهباً، مما يعني أنّ البغلة وما عليها كانت تساوي دخل الفرد لثلاثين سنة.

الدابة تمشي على السجاد:

ويصف لنا المقرئ طريقة خروج الخليفة من القصر فيقول: ويقف الوزير قبالة باب القصر، فيخرج الخليفة وحواليه الأستاذون ودابته ماشية على بسط مفروشة خيفة من انزلاقها على الرخام.

سوق لقطع الزينة:

كان يطلق على هذا السوق اسم سوق اللّجَمين. وكان يباع فيه آلات اللجم ونحوها مما يتّخذ من الجلد. وكان فيه أيضاً عدّة وافرة من الصنایعيين الذين يصنعون اللجم والركب والمهاميز والسروج. وكان العلماء والقضاة فقط يشترون السروج السانجة والغير مطلية ورعاً وتعقفاً، أما بقية الناس فكانوا يتفنّنون في صناعتها وتزيينها وتذهيبها. وخاصة بجلدها. وكانت الجلود المستوردة من بلغاريا هي الأكثر طلباً لصناعة السروج. وكانت المخلاة الخاصة بالدابة، فرساً كانت أم بغلة، تصنع من الديباج، بينما اضطرّ المصريون لللبس الجوخ من شدة الفقر أيام المماليك.

ركب الحمار معيب:

ويخبرنا المقرئ بنقله عن ابن سعيد أنه عندما أراد أن يستأجر دابة تنقله من باب زويلة إلى الفسطاط، اضطر أن يركب حماراً، فركبه خجلاً ثم علم أن الفقهاء والسادة الأشراف والقضاة لا يركبون إلا الحمير تواضعاً وتعقفاً، «فركب، فلما استوى عليه، أشار المكارى على الحمار فطار به وأثار الغبار الأسود ما أعمى عينيه ودنس ثيابه» ولقلة معرفة ابن سعيد بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم يعهده من قبل، هجا ركوب الحمير والحمير ومكارية الحمير فقال^(١):

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مكارى فوق الريا ح لا يعرف الرفق بهمى انتظار
أنادي به مهلاً فلا يرعوى إلى أن سجدت سجود العثار
وقدمد فوقى رواق الثرى والحد فيه ضياء النهار

المراسيم والسجلات ترسل إلى أصحابها مضمخة بالعطر:

عندما وصف لنا أبو المحاسن ابن تغري بردي مراسم احتفالات عيد رأس السنة الهجرية قال «إنه إذا ركب الخليفة في أول العام يكتب إلى ولاية الأعمال والنواب سجلات مخلقة»، أي مطيبة بالطيب كالزعفران والمسك والعنبر.

ويؤكد ابن تغري بردي أنها عادة متبعة في كل الأعياد^(٢).

(١) م.س. الجزء الأول، ص ٢٤١.

(٢) راجع: النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، ص ٩٨.

مظاهر الترف والدعة والغنى الفاحش في كل نواحي الحياة اليومية

الترف والدعة والغنى الفاحش، وخاصة إذا كانت الدعة تطال كل أبناء المجتمع، ليست إلا دليلاً واضحاً على مدى القفزة الحضارية التي حققها الفاطميون في مجال العلاقات الإنسانية، فالدولة التي تؤمن الرفاهية ودعة العيش لحكامها ولأبنائها على السواء، هي دولة ذات مستوى حضاري متقدم.

الذهب والفضة كالخبز:

عندما يجد المواطن المصري العادي، الذهب والفضة مطروحين أينما حلّ وكيفما اتجه، نستطيع أن نقول إن هذين المعدنين النفيسين أصبحا في حياة المواطن المصري كالخبز، وربما الخبز أغلى منهما لأنه لا غنى عنه.

فقد حدثنا المقرئ عن «الجوهرة اليتيمة التي لا يعرف لها قيمة» وحدثنا عن المظلة المقسمة إلى اثني عشر ضلعاً وكل أضلاعها من

الذهب والفضة والمذبتين وألوية الحمد المصنوعة من الذهب والفضة
«والدواة التي كانت من أعاجيب الزمان، وهي نفسها من الذهب
وحليتها مرجان». والأبواق المصنوعة كلها من الذهب^(١). ومباخر
العنبر والمهاميز المصنوعة من الذهب الخالص وحصيرة بوران بنت
الحسن بن سهل المصنوعة من ٤٠ كلغ ذهب وبستان الفضة الذي
أهدته ست القصور إلى المستنصر.

وعندما يتحدث ابن إيبك الصفدي عن الوزير الأفضل بن بدر
الجمالي، يخبرنا أن الخليفة الأمر لأحكام الله أخذ من خزائنه من
ضمن ما صدره «صندوقين كبيرين فيهما إبر ذهب برسم النساء
والجواني»^(٢).

أماكن النزهة ورش الدنانير ذهباً وإياباً:

كان الفاطميون يقضون أكثر أيامهم بين المساجد وأمكنة
الاحتفالات وفي وقت الراحة، كان لهم أماكن نزهاتهم. وفي كل مكان
من هذه الأماكن كانوا يبنون منظرية. والمنظرية هي عبارة عن شرفة
عالية في نصف المكان الذي يقضون فيه نزهتهم، ينظرون منها، في
أوقات الجلوس فيها، إلى كل أمكنة النزهة، ويجمعونها على منظر.
ويقول المقرئزي، أنه «كان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة في
القاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش، وخارج القاهرة».

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٢) الوافي بالوفيات، الجزء ١٦، ابن إيبك الصفدي، ط ٢، المانيا، شتوتغارت، طبعة جمعية
المستشرقين الألمانية، سنة ١٩٩١، ص ٩٣.

وعلى سبيل المثال كانوا قد أقاموا منظره فى الجامع الأزهر يرتاحون بها ويطلّون منها على الناس فى صحن الجامع وفى أسواق القاهرة. وكانوا قد أقاموا منظره فى وسط بستان أجمل قصر من قصورهم وهو قصر اللؤلؤة. وكانوا عندما يقرّرون إقامة مراسم أخذ مقياس النيل أو ما يسمّونه - فتح الخليج - تتجمّع الناس للفرجة على هذه العملية، لذلك أقاموا هناك فى مكان أخذ المقياس أو خليج المقياس منظره يجلسون فيها ويطلّون منها على مراسم أخذ المقياس أو - فتح الخليج - والمناظر التى أقاموها كثيرة منها: منظره الدكة، منظره المقس، منظره باب الفتوح، منظره البعل، منظره التاج، منظره الخمس وجوه، منظره الصناعة، ومناظر دار الملك ومنازل العز، والهودج، والروضة وبركة الحبش، ومنظره الأندلس، والقرافة، ومنظره قبة الهواء وغيرها من أماكن النزهة.

وكانت كلّ منظره لها يومها من الشهر أو السنة ومعدّة للاحتفال بأحد الأعياد الكثيرة التى بلغت أكثر من مائتى يوم فى السنة. ولكل منظره أبهتها، ولبسها ومراسم مائدتها، وتوزيع الأعطيات والذهب خلال الوصول إليها والعودة منها، على الناس.

وكانت منظره فتح الخليج الموجودة على شاطئ النيل، تتّصل بمنظره ثانية موجودة داخل إحدى السفن. يصفها المقرئى بقوله: «هى عبارة عن بيت بشكل عرائس من الجانبين بقائمة مخروطية من أخف الخشب، وهى مدهونة مذهبة، وعليها من جانبيها ستائر معمولة برسمها وعلى قدرها».

ويقول المقرئى: إنه كان لكل منظره منها فرش معلوم للصيف

وللشَّاء، كما كانت كلَّ منظرَة مخصَّصة لاحتفال معين في السنة كما
أشرنا^(١).

رَشُّ الدنانير ذهاب وإياباً:

ويصف لنا المقرِيزي نقلاً عن ابن المأمون مراسم خروج الخليفة
للنزْهة فيقول: وتفرَّق الرسوم ويسلَّم لمقدِّمي الركاب اليمين
والشمال لكلِّ واحد عشرون ديناراً وخمسون رباعياً. ولمقدم ركاب
اليمين مائة كاغدة (مغلَّف) في كلِّ كاغدة ثلاثة دراهم، ومائة كاغدة،
في كلِّ كاغدة درهمان. ولمقدِّم الشمال مثل ذلك. فأما الدنانير، فلكلِّ
باب يخرج منه الخليفة دينار ولكلِّ باب يدخل منه دينار. ولكلِّ جامع
يجتاز عليه، دينار، ما خلا جامع مصر فإن رسمه خمسة دنانير.
ولكلِّ مسجد يجتاز عليه رباعي. ولكلِّ من يقف ويتلو القرآن كاغدة
ولكلِّ من يقف من الفقراء والمساكين من الرجال والنساء لطلب
الصدقة كاغدة. ولكلِّ من يساعد الخليفة في الركوب ديناران. ويحمل
كلُّ هذه الأموال متولِّي صناديق الإنفاق، حيث يمشي وراء الخليفة
حاملاً خريطة (صندوق) ديباج، لماعاً، يؤمر به. وإذا جُلِس في إحدى
المناظر المذكورة، فرَّق متولِّي الصناديق للحواشي (الحاشية)
وللأستاذين وأصحاب الدواوين والشعراء والمؤدِّنين والمقرئين
والمنجِّمين وغيرهم من الذهب، ما مبلغه سبعة وخمسون ديناراً.
ومن الدنانير الرباعية، ما مبلغه مائة وست ثمانون ديناراً، ومن
الخراف برسم الشَّاء خمسون رأساً، إضافة لما يرسل إلى المنظرَة

(١) راجع: الخطط المقرِيزية، الجزء الأول، ص ٤٨١.

من موائد الخاص في القصور ومن الحلوات، كلّ طبق باسم صاحبه، ورأسين من البقر برسم الهريسة.

وعند عودة الخليفة من النزهة إلى القصر، يحاسب متولّي الدفتر، (وهو غير متولّي صناديق الإنفاق) مقدّمي الركاب على ما أنفقوه مسافة الطريق، من جامع ومسجد وباب. ويخبرنا المقرّيزي «أنّ تفرقة الصدقات هم فيها على حكم الأمانة». ولا ضابط لهم إلا أمانتهم.

ويخبرنا أبو المحاسن ابن تغري بردي أنّ خطيب كلّ جامع وبالأغلب يكون من السادة الهاشميين ويطلق عليه لقب لشريف، له مقرّر قدره ثلاثون ديناراً ذهباً «وهي رسمه كلّما مرّ به الخليفة».

فتخيّل أيها القارئ كم مرّة يمر الخليفة بخطيب الجامع في الشهر أو السنة، وكم تصبح حجم مخصّصاته من خلال إعطائه القرآن للخليفة كلّما صلّى بجامعه؟ ويقول لنا أبو المحاسن أيضاً أنّ الخليفة يوزع الدنانير ذهباً وإياباً «فلا يمر بمسجد إلا ويعطي قيمه ديناراً كما جرى في الرواح»^(١).

صدقات زيارة قبور أهل البيت والخلفاء:

وجرت العادة كما يخبرنا المقرّيزي أنّ الخليفة كلّما ركب بمظلة وعاد إلى القصر، لا بد أن يدخل إلى زيارة قبور آبائه بالتربة المعزّية. وكذلك لا بد أن يزورها كلّ يوم جمعة، وفي عيدي الفطر والأضحى مع رسوم وصدقات تفرّق على الناس. ذكرها ابن المأمون

(١) راجع: النجوم الزاهرة، الرابع، ص ٩٦.

بأنها تبلغ عشرة آلاف درهم، تؤخذ من صناديق مال النجوى، وتفرّق «في الجوامع الثلاثة: الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وجامع القرافة (التربة المعزية)، وعلى فقراء المسلمين على أبواب القصور. ويطلق من الأهرات ألفا إردب قمحاً، وتعق عدة جوار^(١).

وكانت الصدقات تعمّ كلّ أنحاء بلاد الدولة الفاطمية فقد أشرنا سابقاً إلى إرسال الخليفة الظاهر، بمناسبة نجاته من كبوة فرس، أربعين ألف دينار إلى مكة والمدينة، وعشرين ألف دينار إلى فقراء الشام، وعشرين ألف إلى فقراء المغرب، وعشرين ألف وُزعت على فقراء مصر.

منظرة وسط جزيرة ومحمية فيها سبع عشرة مليون شجرة:

يصف لنا المقرئزي البحيرة الاصطناعية التي استحدثها الأفضل بن بدر الجمالي وكيف بني في وسطها «منظرة محمولة على أربعة عواميد من أحسن الرخام»، وقال إنّه أحاط هذه البحيرة بشجر النارج، وسلط عليها أربع سواق من نهر النيل.

ثم أقام بجانب هذه البحيرة محمية، زرع فيها سبع عشرة ألف ألف ومائتي ألف شجرة / ١٧,٢٠٠,٠٠٠ / وعمل له سوراً مثل سور القاهرة. وجلب إليها من الطيور المسموعة شيئاً كثيراً. واستخدم للحمام الذي كان به، عدّة مطيرين. وعمر به أبراجاً عدّة للحمام وللطيور المسموعة، وسرح فيه كثيراً من الطاووس، وكان عدد العمال الذين يتولون حراسة وخدمة هذه المحمية ألف رجل^(٢).

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٠٨.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٧٧.

ميزانية سنوية للطرش والدهان:

ويخبرنا المقرئ أن «الخلفاء المصريين» اهتموا كثيراً ببناء القصور وصيانتها، ويقول إنهم كانوا «يجددون بياضها كل سنة».

وعندما سقطت بغداد بيد الحارث البساسيري، وأصبحت جوامع بغداد ومساجدها تخطب باسم الخليفة الفاطمي المستنصر وتنادي «بحي على خير العمل»، قرّر المستنصر استدعاء الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) من بغداد إلى القاهرة، وتعيينه نقيباً للأشراف العباسيين، وجعل له مكان إقامته القصر الغربي، وقد وصفه المسبّحي بقوله: «لم يبن مثله في شرق ولا في غرب». وكلفه مليوني دينار ذهباً. «وكان سبب بنائه أن المستنصر عزم أن يجعله منزلاً للخليفة القائم بأمر الله صاحب بغداد» ويجمع فيه بني العباس، ويجعله كالمجلس لهم فخانه أمله.

الخليفة يعايد أهل الحكم بالفي باقة نرجس:

كانت الورود والأزهار والرياحين على أنواعها ولم تنزل رمزاً للإحساس المرهف والشفافية المفرطة.

وعندما يقوم أحد الخلفاء بإرسال الفي باقة من النرجس إلى الأولياء والأمراء وأرباب الحكم فهذا دليل ساطع على مدى شفافية إحساس هذا الخليفة.

وقد أخبرنا المقرئ أن الخليفة الحاكم قد «جمع نحو ألفي باقة نرجس وأتحف بها الأولياء»^(١) وكان ذلك في منتصف ربيع الأول

(١) اتعاط الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٦٧.

من سنة ٣٩٦ للهجرة، وكان الحاكم في مقتبل العمر وميعة الشباب
- ٢١ سنة -

وكنا قد أشرنا إلى إقامة قصر من الورد الذي عمل للخليفة الأمر
سنة ٥٢٢ للهجرة.

وقد ذكر لنا المقرئ أيضاً أنَّ جنائن الزهور والورود التي
يعني فيها دائماً بالنسرين والياسمين «يحمل منها إلى قصور الخلافة
في كل يوم شيء صيفاً شتاءً»^(١) وخاصة أننا كنا قد أشرنا أنَّ ما
استخرج من قصر المستنصر أربعة آلاف نرجسية، يوضَّب فيها
النرجس، وألغا بنفسجية لتوضيب الورد والرياحين أيضاً.

مسبح للنساء:

لم تكن حالة الرفاهية والدعة تشمل الذكور فقط، بل كانت تشمل
كل المجتمع الإسلامي الفاطمي رجالاً ونساءً. فقد وصف المقرئ
أنَّ النساء المصريات كنَّ يسبحن في خليج أبي المنجا. وقد وصفهن
الشاعر ابن ممتي بقوله:

خليج كالحسام له صقال ولكن فيه للرأثي مسرة
رايت به الملاح تجود عوماً كأنهم نجوم في مجرة

كل الشوارع مضاءة وحنفية أمام كل محل:

عندما نعلم أنَّ الخليفة الفاطمي العزيز بالله أمر كل صاحب دكان

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤١٣.

أن يضع أمام دكانه زيراً مملوءاً بالماء، لأصحاب الحاجة من المارة ولاستعماله في إطفاء أي حريق في حالة الطوارئ، نعلم مدى تقدّم الدولة التي يحكمها هذا الخليفة. وقد أخبرنا المقرئ عن أوامر الخليفة العزيز لكل أصحاب الدكاكين بوضع أزيار الماء المملوءة أمام حوانيتهم، كما أنّه عمّم على أصحاب البيوت والدور والمحلات «وقود المصابيح» ليلاً أمام بيوتهم ومحلاتهم^(١).

وكيف ولو علمنا أنّهم كانوا يملكون برادات لتبريد الطعام والشراب، ولكن كيف كانت تشتغل هذه البرادات؟ فلنا عودة لمناقشة طريقة تشغيل هذه البرادات في الفصول اللاحقة. فقد أخبرنا المقرئ أنّه حين توفيت «بنت أبي عبدالله بن نصر، امرأة أبي جعفر بن الحسين بن جوهر الصقلي سنة ٤١٥ للهجرة، لم يكن لها وريث، فأثبتوا تركتها و «وجد فيها برادات مكلّلة بالجواهر، وأمر جليل من المال والجواهر، لأنّ الخليفة له منها الثلث»^(٢).

بدايات السينما والمسرح أو خيال الظل:

كنّا نظن أنّ تمثيليات ومسرحيات خيال الظل، والتي تعتبر من بدايات الفن المسرحي والسينمائي أنّها من أيام أواخر العصر المملوكي وبداية العهد التركي. ولكننا فوجئنا أيضاً بإشارات يتيمة للمقرئ تفيد أنّ الخليفة الحاكم بأمر الله منع أصحاب هذه الآلات والدمى من ممارسة ألعابهم في عيد الأضحى من سنة ٣٩٩ للهجرة

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٧٧.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٤٢.

حيث يخبرنا المقرئ، «أنه حُمل سماط عيد النحر يوم التاسع من ذى الحجة (٣٩٩هـ) على عادته، غير أنه أبطل منه الملاهي والخيال واللعب الذي كان يعمل في كل سنة»^(١). ولنا عودة لبحث هذا الموضوع مطوّلاً في باب الأدب والشعر.

تماثيل من العنبر والكافور لثمانى جوار يستقبلن ويودعن الضيوف
بشكل أوتوماتيكي (آلي):

كنا قد أشرنا إلى ضخامة ثروة الأفضل بن بدر الجمالي وهذه التماثيل التي أقامها، وضعها على مدخل مجلس الشرب الخاص به. وقد وصف لنا المقرئ هذا المجلس وما يحتويه بقوله: وكان الأفضل في أوقات الشرب يصفّ في مجلسه صواني الذهب وبينها البراني (جمع برنية) المملوءة بالجواهر، فإذا أحب أفرغ البرنية في الصينية فتكون ملؤها.

ووجد له من أصناف الثياب، من ديباج وما يجري مجراه، تسعون ألف ثوب كلّها حرير عمل تنيس ودمياط في صناديق، على كلّ صندوق شرح ما فيه من ثياب وجنسه، وخزانة الطيب مملوءة أسفاطاً (قف)، مكتوب على كلّ سبط وزنه وجنسه، وبراني المسك والكافور والعنبر الشيء الكثير. ووجد على مدخل مجلس الشرب ثمان جوارٍ متقابلات، أربع منهنّ بيض من كافور، وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهنّ أفخر الثياب وأثمن الحلى. وبأيديهنّ

(١) م.س. نفسه، ص ٧٩.

مذاب (مروحة) من أعظم الجواهر، فإذا الأفضل أو الضيف دخل من باب المجلس، ووطىء العتبة، نكس رؤوسهن احتراماً له بحركات قد «أحكمت، وإذا جلس في صدر المجلس: استوين قائمات»^(١).

وليس أصدق من وصف المشاهدات الميدانية، والمشاهد العيان عندما يصف، فمهما ضخّم أوصافه فهي تبقي أصدق وأقرب للواقع من وصف المؤرخ الذي يؤرّخ حسب أهوائه.

وقد أخبرنا الرحالة الإيراني ناصر خسرو بعض الوقائع الميدانية ووصفها لنا بأسلوب بسيط يعرفنا عظمة مصر والمصريين أيام الدولة الفاطمية.

ومما نقله لنا ناصر خسرو في مشاهدته:

وصف التجار: «وتجار مصر يصدقون في كلّ ما يبيعونه، وإذا كذب أحدهم على مشتري، فإنه يوضع على جمل ويُعطى جرساً بيده ويُطوّف به في المدينة، وهو «يدقّ الجرس وينادي قائلاً: أنا قد كذبت وما أنا أعاقب. وكلّ من يقول الكذب فجزاؤه العقاب».

صحون وصواني وأكياس شنطة لا تعاد:

ويقول ناصر خسرو: ويعطي التجار في مصر، من بقالين وعطارين وبائعي خردوات، الأوعية اللازمة لما يبيعون، من زجاج أو خزف أو ورق، حتى لا يحتاج المشتري أن يحمل معه وعاء.

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٧١.

خمسون ألف دابة للإيجار:

ويصف لنا عمليات الانتقال ضمن القاهرة بقوله: ويركب أهل السوق والدكاكين الحمير المسرّجة في ذهابهم وإيابهم من البيوت إلى السوق. وعلى ناحية كلّ شارع من الحيّ حمير كثيرة عليها برانذع مزينة، يركبها من يريد، نظير أجر زهيد. وقيل إنه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرّجة تُزين كلّ يوم وتكرى. والخيّل لا يركبها إلاّ الجند والعسكر، أما التجار والقرويون وأصحاب الحرف والعلماء، فلا يركبون إلاّ الحمير.

لا متسع لجلوس الناس في الأسواق من كثرة الذهب والجواهر:

ويحدثنا عن تزيين أسواق القاهرة سنة ٤٣٩ هـ للهجرة بمناسبة ولادة ولد للخليفة المستنصر فيقول:

وفي سنة ٤٣٩ هـ، ولد للخليفة ولد، فأمر الناس بإقامة الأفراح، فزينت المدينة والأسواق زينة لو وصفتها لما صدّق بعض الناس صحّة ما أقول. ولما صدّقوني، فقد كانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والنقود والأمتعة المختلفة والملابس المذهّبة والمقصّبة، بحيث لا يوجد في هذه الدكاكين وأمامها متسع لمن يريد أن يجلس،

الطمع والظلم مفقودان في مصر الفاطمية:

ويصف ناصر خسرو حرية الحركة عند المصريين فيقول: وكان الناس جميعاً يثقون بالخليفة، فلا يخشون الجواسيس ولا الغمازين،

مقتنعين أنَّ السطان لا يظلم أحداً ولا يطمع بمال أحد. ويقول أيضاً: ورأيت أموالاً يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها، لما صدّقني أحد من الناس في إيران. فإني لا أستطيع أنَّ أحدد أموالهم أو أحصرها. أما الأمن الذي رأيتُه هناك، فإني لم أره في بلد من قبل. وقد بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حدٍّ أنَّ البرّازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلّقون أبواب دكاكينهم. بل يسدلون عليها الستائر. ولم يكن أحد يجروُّ أو بحاجة لأن يمدَّ يده إلى شيء منها^(١).

أنّه لمن دواعي فخرنا كمسلمين وكعرب أن يعرف التاريخ العربي والإسلامي دولة كدولة الفاطميين الشيعة، لأننا بعد دولة الخلفاء الراشدين والدولة الفاطمية، لم يمرَّ عهد أو عصر، يذكّرنا بهاتين الدولتين.

رأي الباحث محمد أبو الفضل إبراهيم في الدولة الفاطمية وفي سبقها الحضاري:

يقول هذا الباحث: «كانت الدولة الفاطمية من أعظم الدول التي عاشت في مصر أكثر من قرنين من الزمان؛ وكان لها تاريخ حافل، ولخلفائها في الحضارة الإسلامية أثر بعيد؛ فهم الذين أسسوا القاهرة المَعْرِية؛ فكانت قبة الإسلام، وحاضرة الأنام، وغرّة جبين الزمان، وأنشأوا الجامع الأزهر؛ فكان منبعاً للعلوم الإسلامية ومنازة

(١) راجع: سفرنامه، ناصر خسرو، م.س. ص ١٠٨.

للمعارف والآداب على مر الزمان، كما أقاموا دور الكتب والخزائن، وجلبوا إليها الكتب والأسفار، وأرصدوا لها الأموال، وأعدوا لطلاب المعرفة القوَامَ والنُّسَاحَ، وهوت إليها أفئدة العلماء من شتى الجهات، ينهلون العلم من أعذب مورد وأصفاه؛ هذا إلى ما كان لهم من أثر في بناء المساجد والقصور والبساتين في جنابات القاهرة وعلى ضفاف النيل، وما تجردت له همَّتْهم من إعداد الجيوش وإنشاء الأساطيل تجوب المياه، فضلاً عما كان لهم من عادات في المواسم والأعياد، تميّزت بها دولتهم، وما زالت تتصل بحياتنا الاجتماعية إلى اليوم^(١).

زخات دنانير الذهب كزخات المطر:

مهما تحدّثنا عن كرم الفاطميين والمصريين إبان الحكم الفاطمي ومهما حَبَرْنَا الصفحات، فلن نفهم حقّهم، فالكرم الفاطمي نابع من كرم الأصل وكرم العقيدة، فأصلهم كريم وهل هناك أكرم من الدوحة النبوية الطاهرة، وعقيدتهم كريمة هي عقيدة عليّ وفاطمة عليهما أفضل الصلوات، تلك العقيدة التي جدّد أسسها أثمتنا المعصومون، تلك العقيدة القائمة على احترام الإنسان وحمايته من الأدران الماديّة تلك العقيدة، المشحونة صباح مساء بعلوم، أهل البيت وبأدعية الإمام السجاد، وخطب أمير المؤمنين التي تحت كلّها على الكرم والبذل والعطاء وتذمّ الشح والبخل.

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، المقدمة، ص ٥.

عندما يصف لنا المقرئزي احتفالات أخذ مقياس النيل والتي
يسمىها احتفالات فتح الخليج جاء فيها: وسار بجملته موكبه على
ترتيب أوضاعه بين حصنين مانعين من طوارق عساكره، فارسها
وراجلها، كل طائفة يتقدمها زمامها، وقد ازدحموا في الطرقات
بالعدد المذهبة الحربية والآلات المانعة المضيفة، وليس بينهم
طريق لسالك. وقد زين لهم جميع ما يكون أمامهم من الطرق
جميعها: حوانيتها ودورها وجميع مساكنها وأبواب حاراتها بأنواع
من الستائر والديباج على اختلاف أجناسها وأجناس السلاح.
وملات النظارة الفجاج والبطاح والوهاد والروابي، والصدقات
والرسوم توزع على أهل الجانبين من أرباب الجوامع والمساجد
وبوابي أبواب الحارات، والسقائين والفقراء والمساكين في طول
الطريق.

وكنا قد أشرنا إلى إقدام الحاكم على منح المستمنحين الدراهم
والثياب والضياع والبيوت، وكيف أنه سدّد ديون نقيب الأشراف
الزيد بن علي بن أحمد، والبالغة عشرون ألف دينار وبعث له بثلاثة
آلاف دينار أخرى^(١).

ويخبرنا المقرئزي عن كرم الحاكم الذي خرج عن الحد بقوله:
وفي رمضان سنة ٤٠٥ للهجرة كثرت صلات الحاكم وإقطاعاته
وما وهبه للناس، حتى خرج في ذلك عن الحد حتى أقطع النواتية
(البخارة) الذين يجدفون به في العشارى (المراكب الصغيرة)، وأقطع

(١) راجع: اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ١٠١.

المشاعلية، وكثيراً من الوجوه والأقارب، وبني قرّة، فكان مما أقطعهم الإسكندرية والبحيرة ونواحيها.

فإذا كان كلّ من يحمل مشعلاً أمام الخليفة يقطع إقطاعاً، وكلّ من جدّف بمجداف يصبح من كبار الملاكين. فانظر أصل هذا الكرم ومعدنه، وسببه ومصدره، تعلم أنّه لا يصدر إلا من بشر وليس ببشر ومن آلهة وليس بآلهة. ولم يحمل هاتين الصفتين إلا الصفوة من خلق الله، أهل بيته وعترته، الأئمة المعصومون، عليهم صلوات الله.

يسرق السارق دون أن يشعر به أحد لكثرة الأعمال والزحام:

يقال: إنّ الارزاق تكون عند تزاحم الأقدام. وقد وصف لنا المقرئ سعة رزق المصريين أيام الدولة الفاطمية بأسلوب شيق مدقّق بكلّ صغيرة وكبيرة. فكان في وصفه نكهات حضارية، ووصفات إنسانية حتى في وصف السرقة. فالسرقة التي يصفها لنا لم يقم بها فقراء أو محتاجون، لأنّه لم يكن هناك فقير أو محتاج في المجتمع الإسلامي الشيعي المصري، بل قام بها ولدان متهوران، قاما بها من باب «الشقاوة والولدنة». ووصف المقرئ عملية هذه السرقة فقال:

إنه كان هناك بحارة برجوان شخص يتعاطى الجندي ويركب الخيل، فبلغه عن غلامه أنّه خرج في ليلة من ليالي رمضان، وكان رمضان إذ ذاك في فصل الصيف، ومعه رفيق له من غلمان الخيل، وعلم أنهما سرقا من شارع بين القصرين وما قرب منه بين الشوارع بضعاً وعشرين بطيحة خضراء وبضعاً وثلاثين شقفة

جبن. والشقفة وزنها من نصف رطل إلى رطل، فتعجب الرجل من ذلك وكيف استطاع لهذين الولدين فعل هذا، وحمل هذا القدر الذي يحتاج إلى دابتين لحمله. ثم قَدَّرَ له واجتمع مع هذين الولدين وسألهما عن ذلك فاعترفا له بالسرقه. ووصف أحدهما كيف تمت فقال: إنهما كان يقفان على باب حانوت الجبَّان أو مقعد بائع البطيخ. وكان البطيخ يعمل مرصّات كثيرة جداً في كلّ مرصّ ما شاء الله من البطيخ. قال: فإذا وقفنا، قلب أحدهما بطيخة وقلب الآخر الأخرى، ولشدة الزحام يتناول أحدهما بطيخة بخفة يد وصناعة، ويقوم، فلا يظن به أحد، أو يقلّب أحدهما بطيخة ورفيقه قائم من ورائه والبياع مشغول لكثرة ما عليه من المشتريين وما في ذلك الشارع من غزير الناس فيحذفها من تحته، وهو جالس القرفصاء، فإذا وصلت ليد رفيقه تناولها وذهب بها. وكذلك كان فعلهم مع الجبّانين. ويختم المقرّيزي وصف عملية السرقة بقوله: «فانظر اعزّك الله إلى بضاعة يسرق منها مثل هذا القدر ولا يظنّ له من كثرة ما هنالك من البضائع وعظيم الخلق»^(١).

الذهب مثل التراب لكثرتة:

ويخبرنا المقرّيزي أنّه عندما وُلد للخليفة الأمر ولد، وهو الطيب - أبو القاسم - رُيِّنت القاهرة ومصر وكُسيَت العساكر وجيء بالمولود واجتمع الناس فمَدَّت الأسمطة العظيمة ومُلِيَ القصر

(١) راجع: الخطط المقرّيزية، الجزء الثاني، ص ٢٩.

بالفواكه وجميع ملذات النفوس وبُخْرُ بالعنبر وأعواد الند، ثم «نُثرت صناديق دنانير الذهب على رؤوس الناس»^(١).

وقد وصف المقرئزي موجودات قصر العاضد التي استولى عليها صلاح الدين الأيوبي «أنه وجد من الفرش والسلاح والذخائر والتحف ما يخرج عن الإحصاء، ووجد فيه من الأغلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله، ومن الجواهر ما لا يوجد عند غيرهم مثله»^(٢).

وعندما أخذ الخليفة الظاهر البيعة لولده المستنصر، خلع على كافة أهل الدولة. وعمل من الطعام ما يكفي أهل القاهرة ومصر والطارئين من البلاد، ويقول لنا المقرئزي «إن الناس تجمهرت خارج القصر وصرخت طالبة التشرف برؤية أمير المؤمنين وولي عهده، فخرج الخدم، ونثروا عليهم من دنانير الذهب كزخات المطر».

وكان إذا ركب المستنصر وهو ولي عهده، تخرج معه قافلة محملة بصناديق الذهب، تنثر على العامة في كل الطرقات التي يمر بها^(٣).

جوذر يشتري بركة الخليفة بعشرين ديناراً:

عندما تكون العلاقة بين الحاكم والرعية علاقة احترام متبادل واهتمام متبادل، تزول كل الفروقات وكل الطبقات وكل الأطماع

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٢٨.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٢٣٠.

(٣) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٨١.

والمشاكل. والعلاقة بين الخلفاء الفاطميين وأتباعهم ليست علاقة احترام فقط، بل علاقة تقديس، تصل عند بعض الغلاة إلى تشبيههم بالآلهة أو أنصاف الآلهة. فالخليفة الفاطمي هو إمام معصوم من نسل أئمة معصومين، رتبته، رتبةً تعلو على البشر وتتصل بأطراف النبوة، فلا فرق بين النبي والإمام إلا اختصاص النبي بالوحي الإلهي، من هنا يخبرنا أبو علي المنصوري الجؤذري جامع سيرة الأستاذ جؤذر، أنه جرى بين بعض الكتاميين مشاجرات واختلاف بسبب اقتسامهم لبعض السواقي التي أقطعهم إياها الخليفة المعز، فترافعوا بالشكوى أمام الخليفة، فكلف الخليفة أحد خدمه الصقالبة لأن يقصد كل ساقية ويتأكد بنفسه من قدرتها وسعتها ويعود لكي يحكم الخليفة بين المتخاصمين. فذهب الصقلبي وتجشم تعب الطريق وعاد بمعلوم الأمر عن كل ساقية ورفع تقريره للخليفة فحكم بينهم حسبما سمع من الصقلبي، وألزمهم الحكم وانصرفوا وقد حسم الشر بينهم. ثم عطف المعز على الصقلبي المكلف بالكشف عن السواقي، وبدل أن يعطيه أجره شيئاً من المال، قال له: «قد أديت أمانتك فأنصرف بارك الله فيك»، فخرج الصقلبي وهو متزمت متملئ فالتقى بالأستاذ جؤذر، وهو على هذه الحالة، وسأله عن حاله والتضجر بآثني في كلامه فعلم سبب التضجر فقال له جؤذر: ما لي أراك خرجت متمللاً وقد بارك الإمام فيك؟ فقال الصقلبي: كنت أحب أن يجعل لي عوضاً من هذه البركة شيئاً أنعم به نفسي عند عودتي إلى بيتي.

فقال له الأستاذ جؤذر: إن بركة مولانا عليه السلام، خير لك من

الدنيا وما عليها، وشرح له أهمية بركة الأئمة، فلم يقتنع. فقال له جؤذر:

«هل لك في بيع هذه البركة مني على صحة اعتقاد منك في بيعك إياها، وعلى صحة اعتقاد مني في ابتياعها منك». فقال الصقليبي: وكيف يكون ذلك؟ فقال له جؤذر: أنا أدفع لك ما تنعم به نفسك على أن ما كان اعتقده الإمام من البركة عليك هو لي دونك. فقال له الصقليبي: هات عشرة دنانير وبارك الله لك في نيته لي في هذه البركة. ويخبرنا جامع السيرة أن جؤذر دفع له ثمن بركة الخليفة المعزّ عشرين ديناراً وصرفه.

ولما كان بعد ذلك بثلاثة أيام، اتصل خبره بالخليفة، فاستدعى الأستاذ جؤذر وسأله:

يا جؤذر، أحق ما بلغني عمّا دار بينك وبين الصقليبي في ابتياعك بركتنا عليه لنفسك، إذ لم يقتنع بها وأثر حطام الدنيا عليها، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

فأجابه جؤذر: الأمر كما بلغ مولانا وسيدنا صلى الله عليك فقال عليه السلام:

أسأل الله بديع السموات والأرض أن يبارك لك فيما ابتعته، ويبارك عليك وفيك إلى أن تلقى الله عز وجلّ على ولايتنا. وأمر لي بمائة دينار وخلعة نفيسة^(١).

(١) راجع: سيرة الأستاذ جؤذر، أبو علي منصور العزيمي الجؤذري، ط ١، القاهرة، دار الفكرة العربي، لا تاريخ، ص ٣٩ - ٤٠.

وقد ذكر لنا المقرئزي رأيه عند حديثه عن كثرة الصحن والكؤوس والعلب التي تباع فيها الأجبان والألبان والأطعمة والحلويات ثم «تَكَبَّ على المزابل» حيث يقول: وأمعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة والترف ولا تستكثر ما ذكرناه.

المال والذهب عند المصريين كالتراب في عهد الدولة الفاطمية:

عندما يحدثنا أحمد بن علي الحريري عن الخلفاء الفاطميين وعن الشعب المصري في ظلّ خلافتهم يقول لنا: «إن المال والجواهر عندهم كالتراب ليس له قيمة».

ترى من كان لا يطمع بامتلاك المال والذهب الجواهر، فبماذا يطمع في دنياه، فالمال والذهب، يملّكانه جميع ملذّات الدنيا، ولا بديل أو مطمع لهذه الأشياء إلا الجنة. والجنة والدار الآخرة لن تكون إلا ببركة أهل بيت رسول الله وعترته نبيه.

مقارنة بين كرم الأيوبيين والمماليك وبخل الفاطميين:

يخبرنا المقرئزي أنّه بعد أن قضى صلاح الدين الأيوبي على الخلافة الفاطمية وأذلّ أعيان مصر ووجهاؤها وأمرائها، وسلّط الأكراد عليهم، «غلت الأشربة والسكر وعقاقير العطارة، وبيعت البطيخة بأربع وعشرين درهماً وصار الفروج لا يقدر عليه، وعدم القوت وكثر التسوّل، وخُطف الخبز متى ظهر، وشوهد من يسفّ التراب، ومن يأكل الزبل وشوهد من يبحث في المزابل القديمة على قشور الترمس»^(١).

(١) راجع: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، قسم ١، م.س. ص ١٦١.

ويخبرنا المقرئزي أنَّ السلطان كلف الطواشي بهاء الدين قراقوش بمحاربة هذا الغلاء.

القاهرة بعد الفاطميين: مزبلة يأويها البوم:

ويخبرنا المقرئزي عن أنَّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون بسبب فرضه بعض البضائع التي يتاجر بها بالسعر الذي يريده، على التجار المصريين، أدَّى ذلك «إلى ارتفاع الأسعار وكثرة الغلاء وتلاف النقود المتعامل بها وفسادها»، وأدَّت كثرة الحروب والفتن بين أهل الدولة إلى خراب الصعيد وجلاء أهله عنه وخراب مصر الشرقية ومصر الغربية وساءت حال الرعية واستولى الفقر والحاجة والمسكنة على الناس من كثرة تنوع المظالم التي يسببها أرباب الدولة، من مصادرة أموال الناس وتتبع أرباب الأموال، مما يدفعهم إلى تهريب ما بأيديهم من أموال بدل تشغيلها، لكثرة القهر والغلبة وطرح البضائع التي يتاجر فيها السلطان (محمد بن قلاوون)، وأصحابه على التجار والباعة، بأعلى الأثمان، إلى غير ذلك من أساليب مما لا يتسع لأحد ضبطها ولا تتسع الأوراق لكتابتها، مما حوّل مصر والقاهرة إلى كيماي (مزبلة) وخرائب موحشة مقفرة يأويها البوم والرخم، أو متهذمة واقعة أو آيلة إلى السقوط^(١).

كرم بهادر مملوك الأمير يلبغا:

يحدثنا المقرئزي عن كرم القائد بهادر المملوكي فيقول: كان ليّن

(١) الخطط المقرئزية، المجلد الأول، ص ٣٦٥.

الجانب، حلو الكلام، جميل المعشر، إلا أنه كان مقتراً على نفسه في مأكله وسائر أحواله لكثرة شحّه.

ويخبرنا المقرئزي أنه «اعتقل مرّة فجمع من راتبه الذي كان يجري عليه وهو في السجن مبلغ اثني عشر ألف درهم نقرة (نحاس)، فأخرجها معه من الاعتقال.

كرم الملك الظاهر بيبرس:

ويخبرنا المقرئزي عن كرم الظاهر بيبرس، فيقول أنه أمر بجمع فقراء مصر والقاهرة في جامع أحمد ابن طولون «ففرّق في كلّ منهم نصف درهم ليتقوّت به في يومه ويستمرّ له ما تقرّر في الغد فأنفق فيهم جملة مال»^(١).

وكما أعطى المقرئزي رأيه في الفاطميين وصف الممالك بقوله: «وصارت الممالك أرذل الناس وأدناهم وأخسّهم قدراً وأشحّهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرها إغراضاً عن الدين، ما فيهم إلا من هو أزنّى من قرد وألصّ من فأرة وأفسد من ذئب، فلا جرم أن خربت أرض مصر والشام على أيديهم»^(٢).

الوالد يبيع ولده على أنه مملوك من شدة الفقر:

وبعد أن يتوسّع المقرئزي في وصف الممالك وخسّتهم وغدرهم وما جرى لمصر والشام من الخراب على أيديهم، ولكثرة

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢٠٧.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢١٤.

ما أفحشوا في شراء الأولاد المخطوفين من بلاد الروم وجورجيا وأرمينيا وبلاد الترك القريبة منها، ولشدة الفقر والغلاء وخراب الديار «كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه إلى مصر ويبيعه بمئة ألف درهم»^(١).

طريقة استخراج الزكاة بعد زوال الدولة الفاطمية: بالنبوت

يقول المقرئزي: «منذ عهد السلطان صلاح الدين ابن أيوب وفي عهد الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر، أصبح إخراج الزكاة على سهمين: سهم للفقراء وسهم للمساكين، وأوكل ضمانين لتحصيل هذه الزكاة، فعاد الأمر فيما كان عليه من العسف والجور. وكان أعوان متولّي الزكاة يخرجون إلى مداخل القاهرة لكشف أحوال المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم، فيبحثون عن جميع ما معهم، ويدخلون أيديهم في أوساط الرجال خشية أن يكون معهم مال، ويحلفون الجميع بالأيمان الحرجة على ما بأيديهم، وما عندهم غير ما وجدوه. وتقوم طائفة من هؤلاء الأعوان وبأيديهم المسلات الطوال ذوات الأنصبة، فيصعدون المراكب ويجسّون بمسلاتهم جميع ما فيها من الأحمال والغرائر، (غرامة وهي خيشة كبيرة)، مخافة أن يكون فيها شيء من بضاعة أو أموال. ويبالغون في البحث والاستقصاء بحيث يستقبح ويستشنع فعلهم، ويقف الحجاج بين يدي هؤلاء الأعوان، محصلي الزكاة، مواقف خزي ومهانة لما يصدر منهم عند تفتيش أوساطهم وغرائر أزوادهم، ويحلّ بهم من العسف

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢١٤.

وسوء المعاملة ما لا يوصف. وكذلك يفعل في جميع أرض مصر
والشام، منذ عهد السلطان صلاح الدين ابن أيوب»^(١).

وإذا وضعنا هذا النص أمام النص الذي أوردناه سابقاً عن دار
الفطرة، وكيف يستمر التوزيع على القصور والموظفين وسائر
طبقات الناس في مصر والقاهرة طوال الأشهر الحرام: رجب
وشعبان ورمضان، من جميع أنواع الحلوى بصحونها وصوانيها،
ولا تعاد هذه الصحون والصواني. أو قابلنا هذا الموقف مع سماط
عاشوراء أو سماط عيد الفطر أو سماط عيد النحر أو سماط الغدير
نتساءل، كيف استطاع الشعب المصري تحمّل هؤلاء الغرباء؟.



(١) الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ١٠٩.

غنى القصور وغنى العاشية نتيجة حتمية للثراء الذي كان يعيشه المصريون في ظلّ الخلفاء الفاطميين

الغنى في المجتمعات وخاصة غنى الفئة الحاكمة لا يكون إلا من شيئين: من شح أو من حرام.

والشح، لم يكن لهذه الكلمة وجود في قاموس الدولة الفاطمية، لا في القصور ولا في صفوف الشعب المصري، فالبخل والشح والسحت، كانوا مفقودين طيلة حكم الفاطميين الشيعة لمصر.

أما الحرام، فيتمثل في نهب ثروات الحكام للبلد الذي يحكمونه ونهب أقوات الناس، وسلب عرقهم وفرض الضرائب والمكوس عليهم. وهذا لم يعرفه الفاطميون أيضاً.

إذاً من أين هذا الغنى كله؟ لن نجيب على هذا السؤال في هذا الفصل، وسنتركه للفصل الذي سنتحدث فيه عن مصادر تمويل الدولة الفاطمية. وسنكتفي الآن بتسليط الضوء على الغنى الفاحش والثراء الذي لم تعرفه المجتمعات، اللذين كانا صفتين أساسيتين من صفات أهل الحكم وأهل القصور من أبناء العائلة الحاكمة ومن وزراء

وقوَاد وخدم وحشم، وكلّ من كانت له صلة قرابة أو وظيفة بالخلفاء الفاطميين.

كنا قد اشرنا إلى إقدام الخليفة المعزّ لدين الله، حين عزم على طهور أولاده، عبدالله ونزار وعقيل، كيف عمّم على جميع أنحاء الخلافة في المغرب العربي كلّه حتى جزيرة صقلية وكتب إلى ولاته في هذه البلاد «بطهور من وجد من أولاد سائر الخلق، حرّهم وعبدتهم، وأبيضهم وأسودهم، وفقيرهم وشريفهم ومليهم وذمّهم، الذين حوتهم مملكته لمدة شهر». وقد عمّم هذا الأمر تحت طائلة معاقبة من لا ينفذ، ويقول المقرئزي إنّ كلفة طهور أبناء الخلافة الإسلامية الفاطمية كان «خمسون حملاً من الدنانير، كلّ حمل عشرة آلاف دينار ذهباً لجزيرة صقلية فقط، وأرسل مثل ذلك إلى كلّ عامل من عمّال مملكته ليفرّقه على أهل عمله».

ويذكر لنا المقرئزي أنّه كان يتم ختان أو طهور خمسة عشر ألف صبي يومياً مما يعني أنّ الأولاد الذين ختنوا على حساب المعز ربما بلغوا الخمسمائة ألف ولد، فتصوّر ضخامة الكلفة وضخامة العمل الذي يدلّ عن أنّ هذه الثلّة من الناس المتحدّرة من العترة النبوية الطاهرة، تقارب الأنبياء في أعمالها، وتعلو عن الناس في أفعالها.

الخليفة المعزّ يحوّل من حسابه الخاص إلى حساب بيت المال ٢٤ مليون دينار ذهباً:

في الفصل الذي سنتحدث فيه عن مصادر تمويل الدولة الفاطمية سوف نشير إلى مصدرين مهمّين، وهذان المصدران لا يختصّان

ببيت مال الدولة أو بوزارة المالية، بل هما من الأموال الخاصة التي يقدمها رعايا الخليفة له شخصياً، وليس كخليفة حاكم بل كونه إمام. وهذان المصدران هما: الفطرة والنجوى.

ويخبرنا المقرئ أن المعز استدعى وزير المالية أو صاحب بيت المال جعفر بن مهذب، فجاء جعفر ودخل على الخليفة فوجده «في وسط القصر جالساً على صندوق، وبين يديه ألوف الصناديق المبددة في صحن القصر، فقال المعز: «هذه صناديق مال، وقد شذ عني ترتيبها، فانظرها ورتبها».

وأخبرنا ابن مهذب فقال: فأخذت أجمعها وأرتبها وبين يدي جماعة من خدام (موظفي) بيت المال، والفراشين، فأنفذت إلى الخليفة وأعلمته بأنني انتهيت من ضبطها وترتيبها، فأمر برفعها إلى خزائن بيت المال على ترتيبها، وأن يغلق عليها وتختم بخاتم (ابن مهذب) وقال له: لقد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك.

ويخبرنا ابن مهذب أيضاً أن جملة ما حوّل الخليفة المعز من أموال الفطرة والنجوى إلى خزائن بيت المال كانت جملتها أربعة وعشرين مليون دينار^(١).

عقد القران بالف دينار:

ويخبرنا المقرئ عن حوادث سنة ٣٦٩ للهجرة ويقول لنا أن الخليفة العزيز عقد قرانه على امرأة، فأمهرها مقدماً مائتي ألف دينار

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٩٧.

ذهباً، وأعطى الذي كتب الكتاب ألف دينار، ووزّع الخلع والهدايا على القاضي والشهود وعلى كل من حضر عقد القران.

وعندما ولد لوزيره الأول يعقوب بن كلّس ولد نَقَط الولد بسرير (مهد) من خشب الصندل مرصّع بالجواهر والياقوت وثلاثمائة ثوب، وعشرة آلاف دينار ذهباً، وخمسة عشر فرساً بسروجها ولجمها، منها سرجان ولجامان ذهباً، وطيب كثير، فكان مقدار النقوط مائة ألف دينار ذهباً.

غنى أميرات القصر الفاطمي:

يحدثنا المقرئزي عن ست الملك ابنة العزيز بالله وشقيقة الحاكم ويذكر لنا إحدى هداياها لأخيها الحاكم فيذكرها بقوله: وفي التاسع من شعبان سنة ٢٨٧ للهجرة، أهدت السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها (سرج ولجام) ذهباً. منها مركب واحد مرصّع بالجواهر، ومركب من حجر البللور، وعشرون بغلة بسروجها ولجمها، وخمسون خادماً، منهم عشرة صقالبة (أوروبيون). ومائة تخت من أنواع الثياب الفاخرة. وتاج مرصّع بنفيس الجواهر وبديعه. وأسفاط (قفف) كثيرة من طيب (بخور) من سائر أنواعه. وبستان من الفضة فيه من جميع أنواع الشجر.

ويخبرنا المقرئزي عن ورثة رشيدة بنت المعز فيقول إنه وجد لها حين ماتت سنة ٤٤٢ للهجرة، مما يعني أنها عاشت ثمانين سنة بعد موت أبيها، مليون وسبعمائة ألف دينار ذهباً واثنًا عشر

ألفاً من الثياب الموشَّاه ومائة قاطرميز مملوءة كافوراً. ومعصمات من أيام والدها المعزّ ومن أيام هارون الرشيد. وكان الخلفاء ينتظرون وفاتها، لمعرفة حجم ثروتها، ولكنها لم تمت إلا أيام المستنصر بالله، فحوّل كلّ إرثها إلى خزانته لأنها لم تتزوج. ولم يكن لها وريث غيره.

المطلوب مئة كلغ شمع لتصفية تركة العبدّة بنت المعز وختمها بالشمع الأحمر:

ويخبرنا المقرئزي أيضاً نقلاً عن كتاب الذخائر والتحف أنّ العبدّة بنت المعزّ، ماتت أيضاً في نفس السنة التي ماتت فيها أختها رشيدة، (٤٤٢هـ)، ويقول المقرئزي «حدّثني بعض خزّان القصر، أنّ خزائن السيدة عبدة ومقاصيرها (غرفها) وصناديقها وما يجب أن يختم عليه، صرف على ختمه من الشمع وعلى الصّحّة والمشاهدة أربعون رطلاً بالمصري (٤٠ × ٢,٥٠٠ = ١٠٠ كلغ) وأنّ بطاقات الامتعة الموجودة بعد إحصائها، كتبت في ثلاثين رزمة ورق. ومما وجد لها أيضاً أربعمئة قُمْطَرَة (مرتبة كتب) وألف وثلاثمئة مينا فضة (صحن) محرّقة وزن كلّ مينا عشرة آلاف درهم. وأربعمئة سيف محلّى بالذهب وثلاثون ألف شقة ثياب صقلية. ومن الجواهر ما لا يُحدّ كثرة وزمرد، كيله أردب^(١)، ووجد مدهن (علبة حمرة) ياقوت أحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالاً (٢٧ × ٧ × ٣,١٢٥ = ٦٠ غ). وأخرج أيضاً تسعون طستاً وتسعون إبريقاً من

(١) الأردب وحدة حجم تساوي: ٩٦٠ كلغ.

البلّور الصافي. ووجد في خزائنها من سائر أنواع الصيني (لوازم المطبخ)، منها أجاجين (إجانة = لكن غسيل) صيني كبار محلاة كلّ إجانة منها على ثلاثة أرجل، على صورة الوحوش والسباع، قيمة كلّ قطعة منها ألف دينار، معمولة لغسل الثياب. ووجد فيها عدة أقفاص مملوءة ببيض صيني أبيض، معمول على هيئة البيض وفي شكله وبياضه وخلقته. ووجد حصيرة ذهب وزنها ثمانية عشر رطلاً، ذكر أنّها الحصيرة التي جلبت عليها بوران بنت الحسن بن سهل إلى المامون، وأخرج من خزائنها أيضاً ثمان وعشرون صينيّة مينا مُحلاة بالذهب بكعوب، قومت كلّ صينيّة منها بثلاثة آلاف دينار ذهباً. ووجد عدّة صناديق مملوءة مرايا حديد، ومن صيني من زجاج المينا (الصافي) لا يحصى.

ولن نتابع ذكر ورثة العبيد، لأنّ المقرئ يثبتهما بأكثر من صفحتين في خطه^(١) بل اكتفينا بذكر أثمن وأغلى موجودات هذه التركة.

ست الملك تملك ثمانية آلاف جارية. وجارية تموت عن أربعمئة ألف دينار ذهباً:

يخبرنا أحمد بن علي المقرئ أنّ ست الملك ماتت سنة ٤٢٥ للهجرة «فوجد لها بعد وفاتها ثمانية آلاف جارية منها بنات بكرات ألف وخمسمئة»^(٢).

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤١٥.

(٢) م.س. ص ٤٥٨.

كما يخبرنا في مكان آخر أنَّ أباهما العزيز كان له من الجواري عشرة آلاف جارية.

ويخبرنا المقرئزي عن وفاة عائشة، جارية الأمير عبدالله بن المعز لدين الله سنة ٤١٥ للهجرة، «وكانت من وجوه عجائز القصر، وخلّفت أربعمئة ألف دينار»^(١).

فإذا كان قصر الخلافة يضم من الجواري ثمانى عشرة ألف جارية ومن الحرس والعسكر والخدم والموظفين مثلهم، فأصبح قصر الخلافة أشبه بمدينة أو قرية مكتظة السكان. وإذا كانت الجارية الواحدة تموت وتترك ثروة قدرها أربعمئة ألف دينار، فما هي المبالغ التي يكتنّزها سكان هذا القصر!

الله وحده قادر على إحصاء موجودات قصر الخليفة العاضد:

وبعد أن قضى صلاح الدين الأيوبي مدة عشر سنوات في بيع موجودات قصر الخليفة العاضد، يقول المقرئزي: «ومقدار ما يُخدس (يُظَن) أنّه خرج من القصر، ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وطبوس (جمع طبسه = صحن صغير) وأثاث وقماش وسلاح، ما لا يفي به مُلكُ الأكاسرة، ولا تتصوّره الخواطر، ولا تشتمل على نيله الممالك، ولا يقدر على حسابه إلاّ من يقدر على حساب الخلق في الآخرة»^(٢).

(١) اتعاظ الحنفا، الثاني، ١٧٣.

(٢) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، المقرئزي، الجزء الأول، القسم الأول، ص ٦٨.

قصور الوزراء تماثل قصور الخلفاء في الغنى والثراء الفاحش:

لن نتحدث عن تركة أو ثروة كل وزير من وزراء الدولة الفاطمية أو القضاة أو قيادات الجيش، وإلا سيأخذ منا هذا الفصل والعنوان الصفحات الكثيرة، بل سنكتفي ببعض الأسماء والشخصيات التي كان لها أهميتها في تاريخ الدولة الفاطمية.

عندما يحدثنا المقرئ عن أول وزير للخليفة الحاكم، ابن عمار، يذكر لنا راتبه ومخصصات قصره فنعرف أن مخصصات «اللحم والتوابل والفاكهة خمسمائة دينار في كل شهر»، والجميل في الموضوع أنها قابلة للارتفاع والانخفاض «على قدر الأسعار» إضافة إلى عشرة أرطال شمع في كل يوم وحمل ثلج عن يومين.

الوزير بدر الجمالي يملك سبعمائة غلام وكل غلام يملك مائة ألف دينار: ما عدا تركته الخاصة:

يقول المقرئ: ولما مات أمير الجيوش بدر الجمالي، خلف سبعمائة غلام، وكل غلام له من المال ما ينيف عن المائة ألف دينار، وخلف من المال ستة ملايين دينار ذهباً وأربعمائة مليون درهم فضة، في دار الوزارة، ومن الجواهر والياقوت أربعة صناديق ومن قضبان الفضة والذهب ومن المراتب، ومن السروج المحلاة ما يعجز عن عدّه ووصفه. وخلف ألف قصبه زمرد، لأنه كان له به غرام عظيم، جمعت له من جميع الأقطار^(١).

(١) راجع: اتعاظ الحنفاء الجزء الثاني، ص ٣٣١.

وإذا كان قد ترك سبعمائة غلام وكلّ غلام يملك ما يزيد عن
المائة ألف دينار ذهباً يعني أنّ مجموع ما يملك هؤلاء الغلمان =
 $700 \times 100,000 = 70,000,000$ / سبعون مليون دينار ذهباً.

وزن ثروة بدر الجمالي خمسمائة طن ذهباً:

نحن نعلم أنّ كلّ درهم يزن 3,125 غرام وأنّ الدينار الذهب
قيّمته 16 درهماً فضة. مما يعني أنّ الدينار الذهب قيمته:
 $16 \times 3,125 = 50$ غرام فضة.

وقد علمنا أنّ من بعض تركة بدر الجمالي:

أولاً - ثروة غلمانه (عبيده) $700 \times 100,000$ (ألف) ×
 $16 \times 3,125 = 350,000,000 \div 1000 = 350,000$ كلغ فضة

$350,000 \div 1000 = 350$ / ثلاثة آلاف وخمسمائة طن من

الفضة

ثانياً - ستة ملايين دينار ذهباً:

$6,000,000 \times 16 \times 3,125 = 300,000,000$ أي ثلاثمائة
مليون غرام ذهباً.

$300,000,000 \div 1000 = 300,000$ / ثلاثمائة ألف كلغ ذهباً

$300,000 \div 1000 = 300$ / ثلاثمائة طن ذهباً

ثالثاً - أربعمائة مليون درهم فضة:

$400,000,000 \times 3,125 = 1,250,000,000$ غرام

$1,250,000,000 \div 1000 = 1,250,000$ ألف ومائتان

وخمسون طن فضة

وتصبح بعض ثروته كالتالي:

١ - ثروة الغلمان وهو يملكهم ويملك ما يملكون: ٣٥٠٠ طن فضة

٢ - قيمة الذهب وزناً بالفضة: ٣٠٠ طن فضة

٣ - وزن تركة الفضة: ١٢٥٠ طن فضة ويصبح المجموع ٥٠٥٠ طن فضة

خمسة آلاف وخمسون طناً من الفضة أو:

$٥٠٥٠ \div ١٠ = ٥٠٥$ خمسمائة وخمسة أطنان ذهباً، لأنَّ سعر الفضة هي عشر سعر الذهب. وهذه ليست كلَّ ثروة بدر الجمالي، فلم ندخل العقارات والقصور والأراضي وموجودات القصور من تحف ورياش وزمرد وعاج وياقوت وجواهر، وأثاث ومصاغ ودواب، ونحن نسمع دائماً مناقشات النواب اللبنانيين مع الحكومة ومع حاكم مصرف لبنان عن محاولات الحكومة لبيع مخزون الذهب البالغ قيمته ثمانية ملايين أونصة ذهباً. ولمَّا كان وزن الأونصة إثنين وثلاثين غراماً، يعني أنَّ وزن الذهب الموجود في المصرف المركزي يكون:

$$٢٥٦,٠٠٠ = \frac{٣٢ \times ٨٠٠٠٠٠٠}{١٠٠٠}$$

وبالطن يكون وزن الذهب $٢٥٦ = ١٠٠٠ \div ٢٥٦,٠٠٠$ طناً مائتان وست وخمسون طناً، مما يعني أنَّ بعض ثروة بدر الجمالي هي ضعف موجودات مصرف لبنان من الذهب.

ناصر خسرو يقول: غنى أهل مصر لا يصدق:

يحدثنا المقرئ عن مصروف أي موظف من موظفي الدوائر الحكومية الفاطمية لأجل طعامه اليومي فقط ويقول إنه لا يقل عن عشرين دينار ذهباً يومياً. ونحن نعلم أن الحد الأدنى للأجور كان أيام هذه الدولة لا يقل عن ثلاثة دنانير في الشهر، فتصور غنى أهل مصر ومن له تعامل مع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقيادات عساكرهم.

كما أن ناصر خسرو، عندما مرّ في رحلته، بمصر روى لنا عدة روايات تدل على غنى أهل مصر الفاحش الذي لم ولن تعرفه دولة لا قبل الفاطميين ولا بعدهم، ومن جميع طوائف الشعب المصري: مسلمين وأقباطاً ويهوداً، ويحدثنا عن أحد تجّار الجواهر والصيارفة - أبو سعيد اليهودي - وقال إنه مُقَرَّب من السلطان (ال خليفة المستنصر)، وكان يعتمد عليه في شراء ما يريد من الجواهر الكريمة. ويصف لنا غنى هذا التاجر اليهودي فيقول: وقيل إنه لا يعرف مدى غناه إلا الله فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة، زرع في كلّ منها شجرة، كأنها حديقة. وكلّها أشجار مثمرة^(١).

ويصف لنا ناصر خسرو أحد موظفي الدولة الأقباط فيقول: «وقد رأيت هناك نصرانياً من سراة مصر، قيل إن سفنه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد». وكنا قد أشرنا إليه في مكان آخر.

(١) راجع: سفرنامه، م.س. ص ١٠٩.

تأثّق الفاطميين في المأكّل مظهر حضاري متقدّم

منذ وجد الإنسان على وجه البسيطة، كان العامل الاقتصادي، من مأكّل أو مشرب أو ملبس، يشكل أحد أهم العوامل والمحرّكة لنشاطه اليومي. وكلّ ما تطوّرت الإنسانية، كلّ ما طوّر الناس مأكّلهم وملبسهم. ففي السابق كانت أنواع الحلويات تعدّ على الأصابع، خاصة أيام الأمويين والعباسيين، وعندما دخل الإسلام مصر أيام العصر الفاطمي، تطوّرت المأكّل والحلويات وتعدّدت بشكل مذهل، وما زلنا حتى يومنا هذا نتعلّم منهم ونأخذ عنهم. وكانت معظم أيامهم أعياداً ومناسبات، وفي الأعياد والمناسبات تقدّم الأسمطة والموائد المعبّاة بجميع أنواع البقول والنقول واللحوم والحلويات. فتأنّقوا في رصفها، وتأنّقوا في صنعها ووصفها. وكلّما ازداد الإنسان تطوراً حضارياً وثراءً، اتجه لإشباع ملذّات حواسه الخمس، وأهم هذه الحواس: حاستا الذوق والشمّ، ولا يلبي هاتين الحاستين إلا الطعام على جميع أنواعه.

الموائد في الأعياد والمناسبات، الأسمطة:

إطعام الضيف وإكرامه هي عادة متأصلة في نفوس العرب، والكرم عادة عربية قبل أن يصبح عادة إسلامية. فأحاديث حاتم الطائي ومعن بن زائدة، ملأت أمهات كتب التاريخ العربية والإسلامية. وأصبح الكرم محترماً بين أهله وناسه، ولو لم يكن محترماً لما تناقلت كتب التاريخ أخباره. بينما الكرم في الغرب يعتبر مسّاً من الجنون، وبالأمس القريب حكمت محكمة ألمانية على رجل بإيداعه مستشفى المجانين بسبب إعطائه شخصاً مبلغ إحدى عشر ألف دولار أميركي. فالبخل هو المشهور لدى الشعوب الأوروبية والأميركية وهو السواء، بينما الكرم لدى العرب والمسلمين يعتبر مرضاً. فكيف ولو كانت الدولة بكامل أجهزتها تتصرف تصرف حاتم الطائي ومعن بن زائدة، فكيف ينعكس هذا التصرف على الشعب والمؤسسات والقواد والأفراد! والدولة التي كانت تتصرف بمرض الكرم هي الدولة الفاطمية، دولة «علي وبنوه» (ع). فلنر نتائج وآثار هذا الكرم ميدانياً.

عادة مدّ الموائد والأسمطة في كل مناسبة ولكل الناس:

يحدثنا المقرئزي عن المائدة التي أقامها الخليفة الظاهر بمناسبة مبايعة الناس لولده المستنصر بولاية العهد فيقول: «وخلع الظاهر على أهل الدولة، وعُمل من الطعام ما كفى أهل القاهرة ومصر والطارئين من البلاد. ونُثر مالٌ عظيم. فلم يبق أحدٌ حتى وصل إليه من خير هذه البيعة».

أما عن سماط جده الحاكم في رمضان فيصفه أبو المحاسن بقوله: طوله ثلاثمائة ذراع وعرضه سبعة. ويعبى بأنواع المأكّل في الليل. ويحطّ وسط السماط واحد وعشرون خروفاً، ومن الدجاج ثلاثمائة وخمسون طائراً. وعن الفراريج مثلها. ومن فراخ الحمام مثلها. ويُمكّن الناس منه، فيحتملون وينتهبون ما لا يأكلونه. ويبيعونه ويدخرونه^(١).

كل موظف يقيم سماط في داره ولكل الناس:

يقول المسبّحي في وصف أسمطة عيد الفطر لسنة ٤١٥هـ:

«وكان يوم السبت عيد الفطر. وركب مولانا - صلوات الله عليه - في عساكره ورجال دولته وبين يديه فيل والزرافات والبنود ومشينا بين يديه إلى المصلّى. ودخل وصلى أحسن صلاة وأتمّها وأكملها. وخطب أبلغ خطبة. ثم ركب وعاد إلى قصره سالماً - والحمد لله - ثم استحضر الناس للسماط. ولم يحضر مولانا - صلوات الله عليه - السماط. بل بقي جالساً في الطاقة ينظر الناس كيف يأكلون. وأكل الناس على رسومهم. ثم استدعى رجال الدولة طائفة طائفة، فأكلوا ونهبوا الأطعمة والحلوى. وانصرف الناس. وكان كلّ واحد من الخدم المقوّدين (القوّاد) قد عمل في داره سماطاً حضره الناس، بعد حضور سماط مولانا - صلوات الله عليه - وانقضى هذا اليوم بأكمل سلامة، والحمد لله كثيراً»^(٢).

(١) النجوم الزاهرة، الرابع، ص ٩٧.

(٢) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ١٨٦.

ويتساءل المرء من قول المسبّحي عن حضور سائر رجالات الدولة على مائدة الخليفة، مما يعني العساكر والقواد وكلّ الموظّفين وهم لا يقلّوا عن المئة ألف إنسان. ترى هل هناك مؤسسة معاصرة قادرة على تنظيم هكذا مائدة، دون تقصير أو تأخير أو شغب، لأنّ المسبّحي قال إنّ السماط انتهى «بأكمل السلامة». أما الانتهاب وحمل الأطعمة إلى بيوت العسكر، فهذا بطلب ورضى الخليفة.

كلّفة مائدة الخليفة الأمر: خمسة آلاف رأس غنم شهرياً:

يقول المقرئزي وفي معرض حديثه عن أيام الأمر: وكان المنفق في مطابخه وأسمطته شيء كثير. فكان عدّة ما يذبح له في كلّ شهر خمسة آلاف رأس من الضأن خاصة، سوى ما يذبح مما ساوى ذلك. وثمن الرأس منها ثلاثة دنانير.

كيفية ترتيب سماط عيد الفطر، تغطية صواني الأكل بالزهور:

نقل المقرئزي عن المسبّحي وصفاً لمائدة عيد الفطر لسنة ٢٨٠هـ. وهي أيام العزيز فقال: وفي آخر يوم منه يعني شهر رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة، حمل يانس الصقلي صاحب الشرطة السفلى إلى السماط قصور السكر والتماثيل، وأطباقاً فيها حلوى. وقال ابن الطوير: أما السماط الذي يحضره الخليفة فمقداره ثلاثمائة ذراع في عرض سبعة أذرع من الخشكنان والفانيذ والبسندود، المعمول بدار الفطرة. فإذا صلّى الخليفة الفجر، مكّن الناس من ذلك الممدود، فأخذ وحمل ونهب، فيأخذه من يأكله في يومه، ومن يدخره

لغده، ومن لا حاجة له به فيبيعه. ويتسلط عليه أيضاً حواشي القصر المقيمون حتى بزوغ الفجر، فيخرج من باب الملك في القصر إلى باب العيد إلى المصلّى، وبعد الصلاة والخطبة يعود الخليفة إلى سماط ممدود في قاعة اسمها قاعة الذهب وهي مائدة من فضة ويقال لها المدورة وعليها أواني الفضيّات والذهبيّات والصينيّ الحاوية للأطعمة الخاصة، الفائحة الطيب، الشهيّة، من غير خضراوات، سوى الدجاج الفائق المسمّن المعمول بالأمزجة الطيّبة النافعة، فيفرش فوقها الأزهار، ويرصّ الخبز على حافتيه من الخبز السميد، كلّ واحد ثلاثة أرطال من نقيّ الدقيق، ويدهن وجهها عند خبزها بالماء، فيحصل لها بريق ويحسن منظرها. ويعمر داخل ذلك السماط على طوله بواحد وعشرين طبقاً، كلّ طبق واحد وعشرين ثنياً سميناً مشوياً. وفيه كلّ من الدجاج والفراريج وفراخ الحمام ثلاث مائة وخمسون طائراً. فيبقى هذا السماط طائلاً مستطيلاً، ويكون كقامة الرجل الطويل، ويسور بشرائح الحلويات اليابسة، ويزين باللوانها المصبّغة ثم يُسدّ خلال تلك الأطباق بصحون خزفيه في كلّ واحد منها سبع دجاجات. وهي مترعة بالألوان الفائقة من الحلويات المائعة والمشققة. والطيب غالب على ذلك كلّ.

قال الحلوى بحاجة إلى عتالين لنقله:

ويتابع المقرّيزي واصفاً فيقول: وتناهز الصحون المستعملة في هذا السماط خمسمائة صحن. ويرتب ذلك أحسن ترتيب ابتداء من نصف الليل بالقاعة حتى عودة الخليفة من المصلّى. يضاف إلى هذا

كله قصران من الحلوى، في كل واحد سبعة عشر قنطاراً، يحملهما العتالون فيئُصَبان أول السماط وآخره. وهما على شكل مليح مدهونان بأوراق الذهب وفيهما شخصان ناتئة كأنها مسبوكة في قوالب، لوحاً لوحاً.

ويخبرنا المقرئ «أن من لا يعتقد الفطر في ذلك اليوم غير ملزم بالإفطار» أما المائدة «فلا يبقى منها إلا السماط» ويعم أهل مصر والقاهرة من ذلك نصيب وافر.

سماط لكل جامع ثلاثة أشهر متواصلة في السنة:

وبعد وفاة الخليفة العزيز بالله، يوجز المقرئ نتفاً من سيرته السياسية والعسكرية والدينية ومن ضمنها يعلمنا أن العزيز هو أول من أقام مائدة للسجناء طيلة شهر رمضان من كل سنة. وأقام سماطاً لفقراء كل جامع طيلة شهر رمضان أيضاً. وترك جامع القاهرة مخصصاً للضيوف والطارئين والغرباء فكانت مدة سماط جامع القاهرة طيلة الأشهر الحرم: أي رجب وشعبان ورمضان. كما قال إن الخليفة العزيز هو أول من قرّر تحويل ما يتبرّع به المؤمنون من فطرة العيد إلى إقامة مؤسسة دار الفطرة، وقرّر فيها ما يحمل إلى الناس في عيد الفطر^(١).

نثرات عيد الغدير: ٢٥٦١ رأساً

لن نتحدث عن عيد الغدير ومراسم تطبيقه، فله مجال آخر، ولكننا

(١) راجع: انعاظ الحنفاء، الجزء الأول، صفحة ٢٩٤.

سوف نشير إلى ما كان ينحر به الخليفة ويمد على سماطه: يقول المقرئزي نقلاً عن ابن أبي طي: وعدة ما يذبح في هذا العيد ألفان وخمسمائة وواحد وستون رأساً، وفصلها كالتالي:

١١٧	ناقة
٢٤	بقرة
٢٠	جاموسة

وهذا ما ينحره الخليفة ويذبحه بيده، ويذبح الجزارون بين يديه ألفاً وأربعمائة رأس، ومائة وثلاثة عشر ناقة والباقي بقر وغنم.

ويصف الخليفة فيقول: كان الخليفة ينحر بالمنحر مائة رأس ويعود إلى خزانة الكسوة فيغير قماشه ويعود إلى المنحر للنحر والذبح ويعود بعد ذلك إلى الحمام ويغير ثيابه للجلوس على الأسبطة. وعدة ما يذبحه الخليفة بيده في عيد الغدير ١٧٤٦ رأساً، منها مائة وثلاث عشرة ناقة والباقي بقر وغنم.

ميزانية ٢٩ مائدة رمضان:

يخبرنا المقرئزي عن ما صرف في عيد الفطر لسنة ٥١٦ هجرية أيام الخليفة الأمر فقال: ووصلت كسوة عيد الفطر وتشتمل على ٤٣٠٥ قطعة ثياب ونحو عشرين ألف دينار. وكان عندهم هذا الموسم الموسم الكبير ويُسمى بعيد الحلل (الثياب). لأن الحلل فيه تعم الجميع، وفي غيره تعم الأعيان خاصة.

وعمل ختم القرآن في آخر شهر رمضان بالقصر وعُبيء سماط الفطرة في مجلس الملك بقاعة الذهب من القصر. فكان سماطاً جميعه

من حلاوة الموسم. وصلى الخليفة الأمر بالناس صلاة العيد في المصلى ظاهر باب النصر وخطب.

وكان الذي أنفق في أسمطة شهر رمضان عن تسع وعشرين ليلة خارجاً عن التوسعة المطلقة أصنافاً برسم الخليفة والوزير وجهاتهم، وخارجاً عن العطية، وخارجاً عن رسم القراء والمؤذنين والمسحّرين، وخارجاً عن الأشربة والحلاوات، ستة عشر ألف دينار وأربعمائة وستة وثلاثين ديناراً. وجملة ما قدر على المنفق في شهر رمضان، باستثناء التوسعة والصدقات والفطرة وكسوة غرة العيد، مائة ألف دينار عيناً^(١).

وإذا حاولنا احتساب قيمة الفطرة، وكنا قد أشرنا إلى ما توزّعه دار الفطرة في كل سنة خلال ثلاثة أشهر متتالية، والتوسعة والصدقات وكسوة غرة العيد مع ما رافقها من الدنانير، وكانت ميزانية مواعيد رمضان تتجاوز المليون دينار ذهباً، تصرف كلّها على الشعب المصري، علماً أنّ هذا الشعب كان على شيء من الكرم لا يقلّ أبداً عن كرم خلفائه وأئمة.

وظيفة دار التعبئة:

ينقل المقرئ عن ابن المأمون المهمات التي كانت تنفذها دار التعبئة فيحصرها بالإشراف على البساتين العائدة للحضرة المقدسة وما تحتاجه منها من زهور النرجس والنيلوفر الأصفر والأحمر والنخيل. ومن جملة وظيفتها تأمين قصور الخلافة والسيدات

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٨٢.

الشريفات ودار الوزارة ومناظر الخليفة (جمع منظرة) في ركوباته أيام شهر رمضان من زهور وورود، وكذلك تأمين الأزهار والورود لخزانة الكسوة، وما تطلبه الموائد منها لتغطيتها من الذبان، وعليه كذلك أن يؤمن حاجة هذه القصور من الأثمار الصيفية في كل سنة ولقصور الأمراء وكبار القواد ولقصر الضيافة.

دار الشراب بإشراف الأطباء:

ويخبرنا المقرئ بنقله عن ابن المأمون عن ميزانية خزانة الشراب فيذكر أنه كان يطلق لها سنوياً ١١٥ قنطاراً من السكر (١١٥ × ٢٥٠ كلغ) = ٢٨,٧٥٠ كلغ أي ما يقارب الثلاثين طناً من السكر ومن مربى الورد خمسة عشر قنطاراً وستة آلاف دينار ذهباً لشراء مستلزمات صناعة الأشربة. ويخبرنا ابن المأمون أن هناك موظفاً ذواقاً، وظيفته تذوق أي نوع من الشراب والموافقة عليه قبل إرساله لقصر الخلافة وبقية الجهات، وبعد تذوقها والموافقة عليها تحال إلى الأطباء لإعطاء الموافقة أيضاً.

وتختص هذه الدار أيضاً بتصنيع بعض الأدوية المستخرجة من الورد والبنفسج والنسرين ومن الرند الصيني وما يجري مجراه. وكذلك تهتم هذه الدار بصناعة بعض العطور وكله تحت إشراف الأطباء.

ميزانية مخزن التوابل:

قال ابن المأمون إنه اجتمع بأحد موظفي مخزن التوابل فسأله عن ميزانيتها ووظيفتها وما يحمل منها وإليها فأكد له أن الميزانية

السنوية لهذه الخزانة هو خمسون ألف دينار ذهباً، وذلك خارج عما يحمل إليها من البقولات وأنواع الطيب (البخور).

وحَدّد ابن المأمون المصاريف النثرية العائدة لهذا المخزن خارجاً عن الميزانية السنوية كالتالي:

٦٣٤٢ ديناراً رسم منديل الكم الخاص بالقصر.

٤٠٠٠ دينار لأربعة أيام جُمع لمباخر الحمامات.

٢٩٤٢ ديناراً برسم الأمراء والسيدات الشريقات.

وهذه المبالغ فصلّها ابن المأمون والمقرّيزي، موزّعة على العنبر والكافور والزعفران والماء ورد والمسك بالوزن والدرهم والمثقال وأظهر حصّة كلّ جهة من هذه التوابل^(١).

ميزانية خزانة التفرقة:

لم يذكر لنا المقرّيزي خزانة التفرقة بعنوان محدّد كما أشار إلى بقية المخازن والمستودعات، ولكن بمعرض حديثه عن مخزن التوابل، أشار إلى خزانة أو مخزن التفرقة وأشار إلى المهمات التي كانت تنفذها هذه الخزانة فقال:

«وما قُرّر من خزانة التفرقة في كلّ يوم اثنا عشر مجمعاً. ولكلّ مجمع ثلاثة أرطال جبن قريش وفاكهة بنصف درهم، ومن اللبن في كلّ يوم خمسة وثمانون رطلاً. ومن الحلوى اثنا عشر جاماً (صحناً) رطبة ويابسّة نصفين. وزن كلّ جام من الرطب عشرة أرطال (٢٥ كلغ) ومن اليابس ثمانية أرطال (٢٠ كلغ). ومقرر الخاشكنج

(١) راجع: الخطط المقرّيزية، الجزء الأول، ص ٤٢٠.

والبسندود (نوعان من الحلوى)، في كل ليلة على الاستمرار قنطار واحد سكر ومثقالان مسك وديناران برسم عمل قصبات وسلال».

ونحن نتساءل من يأخذ الجبنة القريش وجامات الحلوى والألبان والأثمار، فيجيبنا المقريري بقوله: «ويحمل ثلثا ذلك إلى قصر الخليفة والثلث الباقي إلى دار الوزارة»، ويخبرنا المقريري أن مسؤول خزانة التفرقة احتج لدى صاحب بيت المال أن الميزانية لم تعد تؤدي بالمطلوب «بسبب تزايد الأسعار». فتم الاتفاق على صرف الميزانية مشاهرة سلفاً وليس مسانهة، حتى يتم تحديد الأسعار شهراً بشهر. وكان قلب الفستق وبالتأكيد الفستق الحلبي لأن فستق العبيد يطلق عليه اسم الفول السوداني، كانت هذه السلعة أكثر السلع تعرضاً للغلاء، فحدد صاحب بيت المال حاجة متولّي دار التفرقة منها شهرياً وقدرت هذه الحاجة بـ ٥٨٥ رطلاً من الفستق أي ما يقارب طن ونصف الطن من الفستق الحلبي المقشّر، عن كل يوم تسعة عشر رطلاً ونصف الرطل. أما جامات الحلوى أو كما يقول العامة - جامات الحلوى - التي كانت تتولاه المعلمة برسم المائدة الشريفة فقد كانت اثني عشر جاماً (جاماً) حلوى خاصة، يومياً، وزنها مائة وثمانية أرطال (٢٧٠ كلغ). برسم المائدتين ولا يحضرهما إلا من كبرت منزلته وعظمت وجاهته.

ويستمر عمل دار التفرقة عدا خدمة مستلزمات القصور بشكل دائم، خدمة موائد الأشهر الثلاث باستمرار «عن مدة أولها مستهل رجب وآخرها سلخ رمضان عن تسعة وثمانين يوماً»^(١).

(١) راجع: الخطط المقريرية، الجزء الأول، ص ٤٢٢.

يعرف غنى الحي من رائحة مطابخه:

يحدثنا المقرئزي عن أحد أحياء موظفي الدولة الفاطمية (الكتاب) وهو الحي المعروف «ببركة قرموط» فيقول: أدركنا بها دياراً جليلاً، تنهى أربابها في إحكام بنائها وتحسين سقوفها، وبالغوا في زخرفتها بالرخام والدهان. وغرسوا بها الأشجار. وجروا إليها المياه من الآبار، فكانت تعدّ من المساكن البديعة. وأكثر من كان يسكنها، الكتاب المسلمون والنصارى. وهم في الحقيقة المترفون أولو النعمة.

ويحدثنا عن روائح مقالي المطابخ أو عبير بخور العود والندّ أو نفحات الخمر وصوت الغناء، أو دقّ الهاون، ونحو ذلك مما يبين عن ترف سكان هذا الحي ورفاهة عيشهم وفضارة نعمهم. ويتأسف على أيامها لأنها أصبحت «موحشة خراب، قد هدمت منازلها وبيعت أنقاضها»^(١).

كما يخبرنا المقرئزي أنّ أسواق القاهرة كان فيها «من أرباب المعاش المعدّين لبيع المأكولات من الشواء والطعام المطبوخ وأنواع الأجبان والألبان والمبرّدات والخبز والفواكه، عدة كثيرة».

التأنق في صناعة الحلويات:

إنّ أغلب أسماء الحلويات العربية المتداولة حالياً على السنة الناس كانت متداولة في صفوف الشعب المصري أيام الفاطميين. أما ما استجدّ منها من حلويات أجنبية بموادها وأسمائها، فكلّها حلويات

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ١٦٤.

مزيفة، معدة بالكمياويات والألوان التي تغش النظر. ولا يستبعد أن تصنع من العظام المحللة بالأسيدات ويضاف إليها نكهة معينة محببة لدى الناس.

أما الحلويات العربية فهي معروفة أنها مؤلفة من الأثمار والسكر والزبيب والقلوبات وماء الورد والزهر وزيت السيرج (السمسم) ومربيات الأثمار المجففة والزيت والسمن البلدي، والدقيق والعسل. وقد حدثنا المقرئ مطولاً عن صناعة هذه الحلويات وعن شدة الاهتمام بها وبشكلها وقوابلها.

حلويات على شكل الخيار والموز:

وقد تفنن المصريون في صناعة الحلويات والنقولات ومما عملوا الملبس المحشو بالفستق. ويقال أنهم تفننوا فيه وحشوا مكان الفستق قطعة ذهب بقيمة خمسة دنانير.

وقال المقرئ إنه كان في أيام الدولة الفاطمية سوق خاص بالحلويين (الحلاوانيين)، كانت تعرض فيها جميع أنواع الحلويات «وفي بعضها أنواع الأجبان ومنها ما هو كشقف الخيار والموز. وكل ذلك من السكر. وكانت لهم قوالب وأعمال من هذا النوع يحير الناظر حسنهما. وكان هذا السوق ابتداء من شهر رجب من أحسن الأسواق، فإنه كان يصنع فيه من الحلويات على أشكال الخيول والسباع والقطط وتسمى العلاليق واحداً علاقة. ترفع بخيوط على أبواب الدكاكين، ومنها ما وزنه عشرة أرطال إلى ربع رطل (٦٢٥ غرام). وتشترى الأطفال منه، فلا يبقى فقير ولا حقيير ولا جليل، حتى

يشترى منها لأولاده ولاهله». ويخبرنا المقرئ أن هذا السوق قد اندثر أيام المماليك «فسبحان محيل الأحوال لا إله إلا هو»^(١).

شراء الفروج أيام المماليك:

وبينما كانت الحلوى على أنواعها توزع بالهبل ومجاناً وكذلك الأطعمة، من قبل دار الفطرة ودار التعبئة ودار التفرقة ومن قصور الخليفة والأمراء والوزراء، ومن بيوت كبار الموظفين على كافة أبناء مصر والقاهرة، أيام الفاطميين. كان المماليك يحتكرون بيع وتجارة الفروج حيث يلتزم بيعها متعهد يسمّى مقرر طرح الفروج «فيمر بضغفاء الناس من ذلك بلاء عظيم، وتقاسي الأراذل من العسف والظلم شيئاً كثيراً حيث لا يمكن لأحد من الناس في جميع الأقاليم أن يشتري فروجاً أو أكثر إلا من الضامن ومن عُرِف أنه اشترى أو باع فروجاً من غير الضامن، جاءه الموت من كل مكان، وما هو بميت»^(٢).

مركز بحوث الدراسات الإسلامية

سماط السلطان برقوق وسماط المكتفي العباسي:

إنّ الجواهر لا تعرف قيمتها من نفسها، بل تعرف بمقارنتها بغيرها، فحين يميّز الصيرفي بين جوهرة وجوهرة، يستطيع تقييم الجوهرة الأصلية من الجوهرة الرديئة أو المزيفة والحديث عن الكرم المصري الفاطمي لن تحدد قيمته ومناحيه إلا إذا قارناه بالكرم العباسي والمملوكي.

(١) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ١٠٠.

(٢) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٨٩.

عندما يتحدث المسعودي عن الخليفة العباسي المكتفي بالله يقول: مات المكتفي وقد خلف في بيوت الاموال من الذهب ثمانية آلاف ألف (مليون) دينار ومن الورق (الفضة) خمسة وعشرين ألف ألف (مليون) درهم. ومن الدواب والبغال تسعة آلاف رأس. وكان مع ذلك بخيلاً ضيقاً.

ويضيف المسعودي فيصف لنا سماطه أو مائدته فيقول: وكانت مائدة المكتفي بالله عشرة أصناف في كل يوم. وجدّي في كل يوم جمعة وثلاث جامات حلوى. وأوكل على مائدته بعض خدمه. وأمره أن يحصي ما فضل من الخبز، فما كان من المكسر عزله للثريد (اللحم المطبوخ). وما كان من الصحيح، رُدَّ إلى المائدة في الغد. وكذلك كان يفعل بالمبردات والحلوى^(١).

ويخبرنا المقرئ عن سماط الملك الظاهر برقوق ويؤكد أن جملة ما كان يطبخ له في يوم العيد خمسة آلاف رطل من اللحم أي ما يقارب العشرين بقرة أو ناقة مذبوحة فأين الثلاثة آلاف رأس من العشرين؟ وأين الكرم المملوكي من البخل الفاطمي!

صحون كرتون وصحون خشب:

لم يكن هناك أمر يدور في البال من حياتنا اليومية المتجاوزة عتبة الألفية الثالثة للميلاد إلا وقد سبقنا إليه المصريون أيام الدولة الفاطمية. فعندما نمر بمحلات لبيع الأطعمة ذات الخدمة السريعة، والتي تبيعنا المأكولات والمخللات والمشروبات بصحون وأوانٍ من

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الرابع، ص ١٩١.

الكرتون أو البلاستيك الذي يرمى به على المزابل بعد الانتهاء من الأكل، نظن أنّ هذه الصحن والكاسات هي من مظاهر العولمة والحضارة الغربية، لكننا إذا عدنا إلى أدبيات ومدونات الفاطميين وحضارة مصر في هذه الحقبة نجد أنّ المصريين قد سبقوا العالم كلّه بأشواط حضارية لم تستطع الحضارة الغربية حتى الآن، أن تؤمّن من الخدمات المادية والفكرية ما أمّنه الفكر الإسلامي الشيعي الفاطمي لمصر وللشعوب الإسلامية.

يقول أحمد بن علي المقرئزي واصفاً أحد أسواق القاهرة: وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر على سائر البلاد، ويقولون إنّّه كان يُرمى بمصر كلّ يوم ألف دينار ذهباً، على المزابل والكيما، وهم يعنون بذلك ما يستعمله اللبّانون والجبّانون والطبّاخون من الشقف الحمر (الخشب) التي يوضع فيها اللبن والتي يوضع فيها الجبن، والتي يأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطبّاخين، وما يستعمل بيّاعو الأجبان من الخيوط والحصر التي توضع تحت الجبن في الشقف، وما يستعمله العطّارون من القراطيس (الورق) والورق المقوّى (الكرتون) والخيوط التي تشدّ بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاوية وغيرها. فإنّ هذه الأصناف المذكورة، إذا حُمِلت من الأسواق وأخذ ما فيها وألقيت إلى المزابل، ومن أدرك الناس قبل هذه المحن (أيام المماليك)، وأمّعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة والتّرف، لم يستكثروا ما ذكرناه»^(١).

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٩٥.

وكأنني بالمقريزي يعيش اليوم بين ظهرانينا ويراقب ما يرمى به الناس من أطباق الكرتون وقناني البلاستيك والألمنيوم على المزابل. وإن كان قدرها بألف دينار ذهباً يومياً، ففقراء اليوم، يعودون ويجمعون هذه القمامات ويبيعونها من جديد. وكأنهم يعملون بنصيحة المقريزي.

وكما كان العامة يأكلون في الأسواق بصحون من كرتون أو خشب، كان الخليفة وحاشيته وقواده يأكلون ويتألقون، وقد ذكر المقريزي بكامل لفظه «أنهم كانوا يتألقون في المأكّل، حتى أنّ الخادم أو السائس من غلمانهم ينفق في كلّ يوم على طعامه العشرة دنانير والعشرين ديناراً لسعة أحوالهم»^(١).

الأغنياء لا يشربون من نهر النيل:

ولم يكن التألق في المأكّل والمشرب ومراعاة النواحي الصحيّة والبيئية هاجس الخلفاء والوزراء والقيادات في الدولة الفاطمية، بل أصبح الاعتناء بالأكل والشرب، هاجس كلّ الناس وخاصة الطبقة الحاكمة، وطبقة التجار والأغنياء من أبناء الشعب المصري.

وعندما يحدثنا المقريزي عن صرف أبي الفضائل يونس عن القضاء، نعلم أنّه «كان من الأعيان النزيهي الأنفس، الكبيرين الهمم، العظيمين القدر، لم يشرب قط من ماء النيل، بل من ماء الآبار»^(٢).

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ٣٤٣.

(٢) م.س.ن: ص ٢٠٣.

كما يعلمنا أنَّ قيادات الجيش والوزراء وكبار المسؤولين، كانوا
أيضا سافروا، اصطحبوا معهم مساكب الخضار المعدة في صناديق
تحمل على الجمال.

فعندما خرج خطير الملك محمد بن الوزير اليازوري قاصداً
بغداد لدعم البساسيري: «خرج بتجمل عظيم حتى أخذ أحواض
الخشب وفيها الطين المزروع فيه سائر البقول، برسم مائته»^(١).

الدجاج يباع: «أفخاذ وصدوره»:

عندما يصف لنا المقرئ مائدة الوزير اليازوري يقول إنه كان لا
يبتاع لمطبخه من الطير ما هو معرق (أفخاذ وجوانح) ولا مصدر
(صدور). وكان سعر المعرق ستة أرطال بدينار وسعر المصدر أربعة
أرطال بدينار. وكان اليازوري لا يشتري إلا الدجاج الفائق (المسحب)
وسعر الفائق رطلان بدينار في مواعين الذهب المكلفة بالجواهر»^(٢).

الخوخ يصل من الشام إلى مصر بيوم واحد:

يخبرنا المقرئ أنَّ الخليفة العزيز بالله، طلب من وزيره
يعقوب بن كلّس القراصيا (الخوخ الشامي). وأخبره أنَّه سيسافر
بنفسه لشراء القراصيا، فتمهله الوزير ابن كلّس برهة على سبيل
تأهيل القافلة وفاجأه بعد ثلاثة أيام بصحن من ذهب مملوء قراصيا،
فتعجب العزيز من وصول القراصيا بهذه السرعة من الشام وسأله عن

(١) اتعاظ الحنفاء، الثاني، ص ٢٢٤.

(٢) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٥٣.

كيفية الوصول. ونقل لنا المقريري طريقة إيصال الخوج من الشام إلى مصر خلال ثلاثة أيام فقال: «وأراد العزيز بالله أن يسافر إلى الشام، في زمن ابتداء الفاكهة، وأمر وزيره ابن كلّس لأخذ الأهبة لذلك، فقال الوزير: يا مولاي، لكلّ سفر أهبة على مقداره. فما الغرض من السفر؟ فقال الخليفة: إنّي أريد التفرّج بدمشق لأكل القراصيا. فقال له: السمع والطاعة. ثم خرج واستدعى جميع أرباب أبراج الحمام وسألهم عن عدد الحمام المصري وأسماء مسؤولي الأبراج الموجودة عندهم، فكانت مائة ونيّفاً وعشرين طائراً. ثم أخذ طائراً من طيور دمشق وكتب إلى نائبه بدمشق يقول له: إنّ بدمشق كذا وكذا طائراً وعرفه أسماء من هي عنده. وأمره بإحضارها إليه جميعها، وأن يصيب من القراصيا في كلّ ورقة يربطها في رجل كلّ طائر منها، ويسرّحها في يوم واحد. فلم يمض إلا ثلاثة أيام حتى وصلت الحمامات كلّها. وعلى جناحها القراصيا. فاستخرجها الوزير من الكواغد (الأوراق) وجعلها في طبق من ذهب، وغطّاها وبعث بها إلى العزيز بالله مع خادم، وركب إليه وقدم له ذلك الطبق وقال له: يا أمير المؤمنين، قد أحضرنا قبالك القراصيا ههنا. فإن أغناك هذا القدر! وإلاّ استدعينا شيئاً آخر. فتعجّب العزيز من الوزير»^(١).

استيراد التفاح والثلج من جبال لبنان:

لم يكن هناك أي أمر أو تصرّف يؤدي إلى تأمين أطيب المأكّل وأجودها إلا وكان الفاطميّون المصريون يتّخذونه، قد أخبرنا

(١) الخطط المقريرية، الجزء الثاني، ص ٧.

المؤرخون وخاصة المسبّحي أنّ ابن شعبان والي حلب من قبل الخليفة الظاهر ابن الحاكم، قد أرسل إلى قصر الخلافة «عشرة أحمال تفاح من لبنان» ولكن، للأسف، لم تصل هذه الأحمال إلى قصر الخلافة في القاهرة بسبب سيطرة حسان بن الجراح عليها ومصادرتها.

وكانت من مهمّات دار التعبئة: توزيع ألواح الثلج على قصور الخلافة ودار الوزارة وبيوت كبار القوّاد والقضاة.

فكان مقرر الوزير على سبيل المثال حملين من الثلج في الأسبوع. ويتبادر لذهننا السؤال التالي: من أين كان يؤتى بهذا الثلج؟ إذا كان يؤتى به من لبنان فكيف كان يحافظ عليه حتى يصل إلى مصر؟ وإذا كان يؤتى به من جزر إيطاليا بالسفن، فكيف كان يصل إلى القاهرة وبشكل منتظم؟ كلّها أسئلة محيرة، سنحاول الإجابة عليها في الفصول اللاحقة، لأنّ التدمير الذي لحق بكتب الفاطميين وكتب الذين أرخوا لهم على يد الأكراد الأيوبيين، يجعلنا في حيرة من أمرنا أمام واتجاه العديد من الأمور الحياتية والمستجدات الحضارية التي كانوا يمارسونها، دون تفسير أو جواب.

مؤسسات الدولة الفاطمية في القطاعين العام والخاص

يرى المتتبع للنصوص التي اهتمت بحياة المصريين أيام الدولة الفاطمية وبحضارتهم، أن مؤسسات هذه الدولة كانت تتمتع بتقدم ظاهر في جميع نواحي نشاطات المجتمع المصري، وكانت إدارتها تتراوح بين سيطرة الدولة على بعضها، وبين سيطرة القطاع الخاص عليها.

وسوف نستعرض أهم هذه المؤسسات ومدى تطورها ورقية في مدارج الحضارة، ومدى قدرتها على تأمين أفضل الخدمات بأسهل الطرق للناس.

كانت مؤسسات الدولة الفاطمية الرسمية نوعين: مؤسسات إدارية ومؤسسات ميدانية: خزائن أو مخازن. والمؤسسات الإدارية هي الدواوين وكل أعمالها إدارية مكتبية، تشرف على المؤسسات العملانية الميدانية: الخزائن أو المخازن والمستودعات والمعامل والمصانع ودور الطراز أو معامل النسيج.

أما مؤسسات القطاع الخاص فهي عبارة عن الأسواق والوكالات والفنادق والسفن التجارية والمطابخ والمطاعم الخاصة بقصورهم وبيوتهم.

المؤسسات الإدارية:

كانت المؤسسات الإدارية في الدولة الفاطمية تدار عبر مؤسسة الوزارة ومنها كان لا يتبع الوزير الأول، بل تدار مباشرة من قصر الخلافة، كمؤسسة الدعوة الفاطمية، ومؤسسة القضاء، ومؤسسة نقابة الاشراف الطالبين.

وإذا كان الوزير من الوزراء الأقوياء المتسلطين على الخليفة وقصر الخلافة، يستولي الوزير على إدارة كل المؤسسات حتى على القضاء والدعوة، فيخضع تعيين داعي الدعوة وقاضي القضاة ونقيب الاشراف إلى سلطته، كوزارة بدر الجمالي الأرمني وولده الأفضل.

ومن هذه المؤسسات الإدارية أيضاً: ديوان الحسبة، ديوان الخظر - ديوان الأحباس - ديوان التحقيق - ديوان العطايا - ديوان الجيش - ديوان المجلس - ديوان الرواتب.

مؤسسات قصر الخلافة:

كان قصر الخلافة الفاطمية، يدار بواسطة أساتذة محنكين، منهم من يقول إنه أطلق عليهم وصف «محنكون» لأنهم كانوا يلفون العمامة تحت أحناكهم، ومنهم من يرى أن واحدهم أصبح أستاذاً محنكاً لذكائه، وسرعة تدرجه في السلك الوظيفي. وقد جرت العادة

أن يتدرّج واحد منهم من فراش وخدام عادي في سلك الوظيفة حتى يصل لرتبة الأستاذية في الخدمة فيُحَنِّك.

ويصف المقرئزي الأستاذين العاملين في قصر الحضرة ب أنهم أصحاب الأُنس للخلفاء، ولهم من الخدم ما لا يصل إليه سواهم، ومنهم زِمَام القصر وشاد التاج الشريف وصاحب بيت المال وصاحب الدفتر وزِمَام الأشراف الأقارب. وهم المطلعون على أسرار الخليفة. وكانت لهم طريقة محمودة في معاملة بعضهم البعض، منها أنه متى ترشّح أستاذ للتحنيك، وحَنَّك، حمل إليه كل واحد منهم بدلة من ثياب ومنديلاً وفرشاً وسيفاً، فيصبح واحداً منهم. وله ما لهم وفي أيديه ما في أيديهم^(١).

وكان الواحد يدير ما لا يقل عن ثلاثمائة خدام وفراش في قصر الحضرة.

وليس من الضروري أن يكون الموظف المراد ترفيعه إلى رتبة أستاذ أو مستشار من المسلمين الشيعة الإمامية، فمن الممكن أن يكون مسلماً سنيّاً أو نصرانياً أو يهودياً، فعلى سبيل المثال، في سنة ٤٢٥هـ، أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، ثم ترقية بعض الخدم من خدم مقوّدين إلى أستاذين محنّكين، فكان منهم معضاد ومناد ورفق، وهم من الطائفة الإسلامية، وفاتك ورجاء وسرور. ونامق وهم من النصاري.

وكان من دوائر قصر الخلافة مديرية العلاقات العامة وكنا قد

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٢٨٧.

أشرفنا إلى وظيفتها التي كانت محصورة باستقبال السفراء الأجانب،
وسفراء ولاية وحكام الأطراف، والسهر على راحتهم وإكرامهم،
وتحديد أوقات مقابلتهم للخليفة. وكان مدير المراسم بقصر الحضرة
يطلق عليه لقب زمام القصر. وكان لا يدخل أحد على الخليفة إلا
بإذنه وعن طريقه، حتى الوزير الأول.

وعندما يحدثنا المقرئ عن أسباب القضاء على الراهب ابن أبي
نجاح، نرى أن أحد الاستاذين المتقاعدين هو الذي أوصل أمر تسلطه
على الناس إلى الخليفة الحافظ، مما يعني أن الموظف حين يحال
على التقاعد لا تنسى خدماته، ويبقى مكرماً مبعجلاً داخل قصر
الخلافة مع كل مخصصاته ورواتبه.

أما جليس الخليفة فهو أقرب المقربين إليه يعظه ويذكره
بالأحاديث النبوية الشريفة، وما نقل من أحاديث عن الأئمة من أهل
البيت وعن أجداده الخلفاء، ويجتمع إليه في أغلب أيام الأسبوع،
ويوضع تحت تصرفه أستاذ محنك، وكان له راتب شهري
ومخصص على كل جلسة مذاكرة عشرة دنانير إضافة إلى البخور
لكي يتطيب به قبل دخوله على الخليفة، وله حق التوقيع على
المعاملات التي ترد إلى الخليفة، كما أن له فرّاشين خصوصيين ولا
يدخل أحد إلى مكتبه إلا بإذن.

ووصف ناصر خسرو قصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي،
وصفاً دقيقاً وقال إن مساحته مساوية لمساحة مدينة ميفارقين
ويحرسه كل ليلة ألف رجل: خمسمائة فارس وخمسمائة راجل
يدورون حول القصر حتى الصباح، ويبدو كأنه جبل من خارج

القاهرة لكثير ما فيه من الابنية المرتفعة وبه اثنا عشر ألف خادم
مأجور، ولا أحد يعرف كم فيه من النساء والجواري، إلا أنه يقال إن
به ثلاثين ألف آدمي.

وفي الحقيقة كان هذا القصر عبارة عن عدة قصور أو جواسق
متلاصقة مفتوحة على بعضها وهي عشرة قصور: القصر الغربي -
القصر اليافعي - قصر الذهب - قصر الأفيال - قصر الظفر - قصر
الشجرة قصر الشوك - قصر الزمرد - قصر الحريم - قصر البحر
- كانت كلها مفتوحة على بعضها فوق الأرض تشرف على ساحة
بين القصرين وتحت الأرض عبر سراديب وأنفاق تمر بها الفيلة
والبغال بكل سهولة دون أن ينكشف المارة لمن يمر خارج هذه
القصور^(١).

التفتيش المركزي أو ديوان التحقيق:

كما أن قضية مكافحة الغش وحماية المستهلك في أيامنا هي من
صلاحيات دائرة حماية المستهلك، أي تعتبر هذه القضايا من الأمور
الصغيرة التي تحول إلى دائرة صغيرة، أو ديوان المحاسبة، حيث
أطلق عليه الفاطميون ديوان المحتسب أو ديوان الحسبة، فجاء
التفتيش المركزي لكي يكون موازياً في مصطلحاتهم، ديوان التحقيق
أو ديوان النظر. فما هو هذا الديوان وما هي وظيفته؟.

وقد قال المقرئ أن أصل اللفظة فارسية نقلاً عن أبي الحسن

(١) راجع: سفرنامه، م.س. ص ٨٩.

الماوردي، وهو يعني بالفارسية إما مجانيين أو شياطين، وعلى موظفي الديوان، أن يكونوا أبرع من الشياطين في كشف التلاعب في الدفاتر والحسابات. وقال إنه مكتب يحفظ فيه كل ما يتعلق بحقوق دار الخلافة من الأعمال والأموال، وحقوق من يقوم بها من الجيش والعمال والخدم والموظفين.

وقد ذكر النويري أن من شروط موظفي الديوان الوجاهة والنباهة والنبيل والفصاحة والصباحة والنزاهة والسماحة والأمانة والديانة، والصيانة، لأن وجودهم في الدواوين يعطيهم السيادة والصدارة، وعليهم كتم أسرار دواوينهم لأنها من أسرار الدولة.

ونفهم من شروحات ابن الطوير والمقرئزي، أن ديوان التحقيق هو أعلى ديوان، وله سلطة على كل الدواوين ويرسل المفتشين من قبله للتفتيش على كل الحسابات «لا يعترض فيما يريده أحد من أرباب الدولة»، وديوان النظر هو الديوان الذي يتابع الأمور بين كل الدواوين ويرتبط مباشرة بديوان التحقيق، وهما ديوانان في ديوان واحد.

ومن وظائفه أيضاً الإشراف على وصول مخصصات كبار الموظفين وصغارهم من ذوي الأقاليم أي الموظفين المدنيين، دون العسكريين، حيث يتأكد من قبضهم رواتبهم الشهرية والمنح السنوية التي كانت تصرف لهم بمناسبة الأعياد، ويتأكد من صرف كسوات الثياب الدورية لهم ولأولادهم، وما يصرف لهم من خزائن الشراب والتعبئة والتوابل، من سكر وشمع وزيت، وما يصلهم من دار الفطرة خلال الأشهر الحرم.

وكان كل معترض يرفع اعتراضه لديوان النظر. لأن هذه الأمور لا تدخل في باب المحاكمات القضائية، بل تدرج تحت باب التقصير الإداري والوظيفي.

كما أطلق المقريري مصطلح ديوان المجلس على ديوان التحقيق وقال إنه أصل الدواوين وفيه أرشيف كل الدواوين، وهو أحد الدواوين الملحقة بديوان النظر.

وعندما يتحدث عن كبار الموظفين في الدولة الفاطمية يقول: «أولهم متولي ديوان النظر، وراتبه في الشهر سبعون ديناراً ولمتولي ديوان التحقيق خمسون ديناراً ولمتولي ديوان المجلس أربعون ديناراً ولصاحب الدفتر خمسة وثلاثون ديناراً وللكاتب خمسة دنانير»^(١). مما يعني أن الديوان هو بالأصل ديوان النظر أو التفتيش المركزي، أما ديوانا التحقيق والمجلس فهما من المديريات الرئيسية التابعة لديوان النظر. وكلها ينحصر عملها في التفتيش على الدواوين والسجلات والدفاتر في إدارات الدولة.

ديوان الجيش:

يعتبر ديوان الجيش من أهم دواوين الدولة الفاطمية لكثرة عساكرهم وتعدد الفرق. وكان من شروط رئيس هذا الديوان أن يكون مسلماً وكان من الموظفين المسموح لهم بالدخول على الخليفة، كما كان له مكتباً داخل القصر، يقف بين يديه الحجاب.

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٣٤٠.

وكانت ترد إليه أمور العساكر والجنود، وله مخصصات من
الفضة والحلى والثياب، سنوياً في كل المناسبات.

وكان الجنود المتطوعون الجدد يُعرضون عليه، فإذا أعجب
بأحدهم وأدخله سلك الجندية، سمح له بفرس جيد. وكان بعد إدراج
اسمه في سلك الخدمة، يرفع اسمه إلى قصر الحاضرة فيثبت
بمرسوم صادر عن الخليفة، ولا يستطيع فصله من الخدمة إلا
بمرسوم خليفته أيضاً.

وكان من موظفي ديوان الجيش، نقباء لامراء الفرق العسكرية،
يشكلون صلة وصل بين قائد كل فرقة من فرق الجيش، وبين رئيس
الديوان، ومهمة هذا النقيب إبلاغ قائد الفرقة بأسماء المتطوعين
الجدد وإلحاقهم بقطعته، ومعرفة «متجددات الجنود من حياة وموت
ومرض وصحة». ورئيس ديوان الجيش هو نفسه رئيس ديوان
الرواتب في الدولة كلها، ولن نتحدث عن الرواتب في هذا الفصل، بل
سنتركها ونتحدث عنها في فصل الرواتب والأجور في الدولة
الفاطمية.

١٥

ومن الدواوين التي كانت تعد من أساسيات الجهاز الإداري
الفاطمي، ديوان العطايا، وكانت اختصاصاته توزيع العطايا والهبات
على الفقراء والمحتاجين وديوان الإقطاع، وهو مختص بتضمين
الإقطاعات والأرض القابلة للزراعة العائدة ملكيتها للدولة إلى
الضمانين بأجرة معينة.

١٦

أما ديوان الإنشاء والمكاتبات، فكان مختصاً بكتابة المراسيم
والسجلات والرسائل الصادرة عن قصر الخلافة ومجلس الوزير

الأول، «ولا سبيل لأن يدخل أحد إلى ديوانه، وله حاجب، وله في مجلسه المرتبة العظيمة ولا يتولاه إلا أجلُّ الكُتَّاب بلاغة».

ديوان الصعيد الأعلى:

وهو الديوان المخصَّص باستيفاء الرسوم والجبايات والخراج من منطقة الصعيد الأعلى أو من الأعمال القبلية.

ديوان أسفل الأرض:

وهذا الديوان مخصَّص بمتابعة استيفاء رسوم وجبايات المناطق الممتدة إلى حدود النيل الأعلى ومنطقة دنقلة على حدود الحبشة والسودان وكلِّ المناطق المحاذية للبحر الأحمر أو كما يطلق عليها المصريون: مناطق بحري.



ديوان الخراج والديوان الهلالي:

وهو يهتم بتحصيل الضرائب والمكوس ورسوم المرور في الموانئ الفاطمية.

ديوان الكُراع:

وكانت من أهم الدواوين وأكثرها حركة وكلفة لأنها تختص بمعاملات الدواب التابعة للدولة من خيول وبغال وجمال وبراذين، وما يختص بسروجها وأجلَّتْها والأهراءات التي تعباً بالاتبان والشعير والدريس والعلوفات.

ويتبع لهذا الديوان كلُّ الزرافات والفيلة الخاصة بقصور الخلافة وكلِّ وحوش الزينة العائدة لحدائق القصور من نمور وسباع.

ويضمّ إلى سائر الخدم والمستوفين، السيّاس والأطباء
البيطريين، وخزانة الأدوية البيطرية.

ديوان الجهاد:

كانت من مهمّات ووظائف هذا الديوان ضبط السفن العسكرية
والمدنية العائدة للدولة، وترميمها بشكل دائم. أما المدنية فكانوا
يطلقون على واحدتها: ديماس. والديماس هي السفينة الصغيرة التي
يركبها الخليفة في نزّهاته أو في احتفالات فتح الخليج، وأخذ مقياس
ارتفاع النيل.

وكان يطلق على المرفأ الذي تلجأ إليه السفن دار الصناعة، لأنها
مصنّع للسفن ومرفأ في آن واحد.

وكان من أهم أمور ديوان الجهاد، «الاحتفال بالأساطيل
واستعراض الجنود، ومواصلة إنشاء المراكب بمصر والإسكندرية
ودمياط» وكانت السفن المصنّعة في هذه المرافئ على أنواع منها:

١ - الشلّنديّات جمع شلّندي.

٢ - الشواني جمع شيني.

٣ - المُسطّح.

٤ - الديماس.

٥ - العُشارى.

وسنّحدث عن صفة كلّ سفينة منها لاحقاً وكان على متولّي هذا
الديوان أن يشرف على إرسال السفن العسكرية للجهاد ضد الروم،
ثم الصليبيين في صور وعكا وعسقلان.

أما ديوان الأحباس: فهو الديوان المسؤول عن أوقاف المسلمين من جوامع ومدارس ومدافن، حيث أنَّ الفاطميين كانوا يقيمون لكل جامع أو مدفن أو مدرسة دكاكين ومحلات وأراض وقفاً، وتحبس إيجاراتهم عليه لكي لا يصل الوقت الذي يحتاج هذا الجامع إلى ترميم ولا يرمم.

ويقول ابن الطوير، إنه لا يسمح للخدمة في هذا الديوان إلا لأعيان الكتّاب من المسلمين، ومن الشهود العدول «بحكم أنها معاملة دينية».

أما قراء القرآن فلم يكونوا يتبعون ديوان الأحباس في رواتبهم عكس قومة الجوامع وخدمه. فالقراء كانوا يقبضون رواتبهم من قصر الخلافة مباشرة وكان يطلق عليهم اسم: «قراء الحضرة». وقد وصفهم ابن الطوير بقوله: «كانوا يقرأون بحضرة الخليفة في مجالسه وركوبه وفي المواكب والأعياد وغير ذلك. وكانوا يأتون في قراءتهم بآيات مناسبة للحال بأدنى ملامسة، وقد ألفوا ذلك وصار سهل الاستحضار عليهم. وكان ذلك يقع منهم موقع الاستحسان عند الخليفة والحاضرين»^(١).

الموظفون المهمون في الدولة الفاطمية:

– الاستاذون المحنكون أو المستشارون.

– صاحب الباب، وكان يلي الوزير الأول في أهميته.

(١) نزهة المقلتين، ص ١١٩.

- النائب: وهو الذي ينوب عن صاحب الباب وأهم اختصاصاته: استقبال السفراء وتوديعهم بعد قضاء حاجاتهم، والاهتمام بهم وكان ينعت بـ(غذي الملك).

- الإسفهلار: ضابط الارتباط بين مقدمي الجيوش وقصر الخلافة.

- حامل المظلة: ولا يتجاوز عدد حاملي المظلة أكثر من أربعة، وهم الذين يحملون المظلة على رأس الخليفة في الموكب.

- حامل سيف الخليفة.

- حامل رمح الخليفة.

- حامل المذبة أو المروحة.

- الولاة وهم حكام الأفضية والنواحي والأقاليم والمدن الكبيرة كوالي مصر ووالي القاهرة ووالي صور أو قوص أو عسقلان.

- أمناء الخزائن أو المستودعات.

المحتسب وهو أخطر وأهم موقع داخل المجتمع المدني الفاطمي.

١٤

طريقة تسلسل المعاملة في الدوائر الرسمية:

وصف المقريري طريقة تسلسل المعاملة في دوائر قصر الخلافة أو الدواوين، فقال إنَّ المعاملة تعرض على الخليفة فيوقع عليها ويحيلها للدرس، فتخرج إلى صاحب ديوان مجلس الخليفة فيوقع عليها ويعيدها إلى الخليفة بعد إبداء شرحه ورأيه في حل المعاملة، فيوقع عليها الخليفة ثانية بالموافقة أو الرفض، وتعاد إلى

صاحب الديوان فتسجل في سجل الصادر والوارد أو «الدواوين». وكان توقيع الخليفة - قد أنعمنا بذلك - أو - أمضينا ذلك - ويعلم على المعاملة بخطه وتوقيعه: الحمد لله رب العالمين.

وإذا كانت المعاملة من المعاملات العظيمة الأثر والشأن، ويختص تنفيذها بالوزير الأول، كان الخليفة يحولها إليه بعد توقيعها بالنص التالي: وزيرنا السيد الأجل، أمتعنا الله ببقائه، ليتقدم بإنجاز ذلك إن شاء الله، فيأخذ الوزير المعاملة ويذيلها بالأمر التالي: يمثل أمر مولانا أمير المؤمنين، صلوات الله عليه. ثم تسجل المعاملة في الدواوين بعد تنفيذها.

ويخبرنا المقرئ أن جعفر بن فلاح كان يتعالى على جوهر ويرى نفسه أعظم منه، فكتب الخليفة المعز في شؤون يريدتها لنفسه، فأعادها له الخليفة المعز مخاطباً: «قد أخطأت الرأي لنفسك. نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر، فكتب إليه، فما يصل منك إلينا على يده قرأناه، ولا تتجاوز به بعد». وتفاجأ جعفر بن فلاح من أن كتبه ورسائله عادت إليه مختومة كما هي ولم يفتحها الخليفة المعز.

وكانت كل المعاملات وأوامر الصرف أو حوالات الدفع، لا تصرف إلا بتوقيع المسؤولين عنها^(١)، وكانت كل هذه المعاملات تحال على دائرة الارشيف حيث تحفظ بعد تسجيل رقم صادرها أو واردها، وكان يُسمى أمين الارشيف: كاتب الدفتر^(٢).

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٧٢.

(٢) م.س.ن. ص ٤٥٠.

وكان لكل مؤسسة أو منشأة دفتر صادرها وأرشيدها فالقصر له أرشيفه، والمسجد الجامع العتيق يجلّد فيه البيانات التي تذاغ على الناس من منبره^(١).

طريقة تعيين كبار الموظفين:

عندما أصدر الخليفة الأمر سنة ٥١٧ هـ مرسوماً يقضي بتعيين أبي تراب حيدرة بن البطايحي والياً على الإسكندرية، «خلع عليه بدلة مذهبة خاصة من بدل الخليفة، وطوق ذهب، وسيف ذهب، كما شُرّف بتقبيل يد الخليفة في مجلسه، وسُلّم إليه التقليد، (المرسوم) في لفافة مذهبة، وشدّت له الأعلام القصب والفضة والعماريات (جمال ذات هودج) وحمل بين يديه أكياس الذهب برسم التفرقة، براتب خمسمائة دينار شهرياً.

وكان كبار الموظفين يحلفون اليمين أمام الخليفة بعد تسلّمهم مرسوم التعيين، كان المسلم يحلف اليمين على القرآن والمسيحي يحلف اليمين على الإنجيل^(٢).

وكانت كلّ معاملة يعطى لها رقم صادر أو وارد وقد عرفنا ذلك من خلال ترقيم الصناديق والأعدال وإجراء نشرة بكل رقم لكل صندوق أو كيس يشير إلى موجودات الصندوق والعدل. وكانت الصناديق والأعدال تختم من قبل رئيس الديوان بعد التأكد من صحة موجوداتها بالشمع الأحمر، ولا تفكّ إلا بوجوده أو وجود مفتشين

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ١٠٤.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ١١٦.

من قبله، فقد أخبرنا المقرئ أن الخليفة الحافظ لدين الله، «عرضت له حاجة من خزانة السروج، فجاء مع الحامي إليها، فوجد الموظف المسؤول غير موجود وختمه عليها بالشمع الأحمر، فعاد إلى القصر وقال: لا يفكّ ختم العدل (الكيس) إلا وهو موجود، ونحن نعود في وقت حضوره»^(١).

أمناء وموظفو مخازن الدولة ومحطات الوقود:

لما كانت سياسة الخلفاء الفاطميين تقوم على تأمين كل متطلبات الجسد الروحية والحسية لأبناء شعبهم، لذلك كانوا يهتمون ببناء الجوامع والمساجد والمدارس، ويعطون الاهتمام الكبير للأعياد الدينية وللمناسبات والمكاثبات الدينية، كأعياد الميلاد والأنبياء والأئمة والخلفاء. وكانوا يهتمون بالجهاد ضد الروم والفرنجة كما كانوا يعطون للجانب المادي الأهمية الكبيرة من حياتهم وحياة شعوبهم ورعاياهم في مصر وخارج مصر.

لذلك كانت مخازن الأطعمة والمشروبات، والتوابل والثياب والتجهيزات العسكرية وفرش البيوت، وأدوات الزينة والأهراء والخيول والدواب، من الأمور العظيمة الشأن في حياتهم اليومية.

ومن أهم هذه المخازن والمستودعات:

١ - خزانة الكتب أو المكتبة العامة.

٢ - خزانة الكسوات أو مخزن الثياب.

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤١٨.

- ٣ - خزانة الطيب أو مخزن العطور.
 - ٤ - خزانة الجواهر أو مخزن المجوهرات.
 - ٥ - مخزن الهدايا والتحف والطرائف.
 - ٦ - مخزن الفرش والأمتعة.
 - ٧ - مخازن السلاح.
 - ٨ - مخازن السروج.
 - ٩ - مخازن الخيم.
 - ١٠ - مخازن الشراب.
 - ١١ - مخازن التوابل.
 - ١٢ - مخزن التعبئة أو مخزن صناعة الحلويات.
 - ١٣ - مخزن الأدم أو الجلود.
 - ١٤ - مخزن البنود - الأعلام والرايات.
 - ١٥ - دار الفطرة وهي المكلفة بتصنيع الحلويات وتوزيعها على أرباب الدولة والناس خلال الأشهر الحرم.
- أما مؤسسات القطاع الخاص فقد كنا أشرنا إليها وهي أصحاب الدكاكين في الأسواق من خبازين وفرنانيين وتجار طروش وقصابين وأصحاب فنادق ووكالات. وقد قال المقرئزي أنه كان في مصر والقاهرة اثنان وخمسون سوقاً لا تقل السوق الواحدة عن اثنتي عشرة ألف دكان.

قطاع الصناعة في مصر الفاطمية

لما كانت لقمة العيش وتأمين الحياة الكريمة لكل رعايا دول الخلافة الفاطمية، هي الهدف الأول والآخر للخلفاء. يجد متتبع أخبار هذه الدولة أنها قد أعطت الاهتمام الزائد لقطاع الصناعة. وسنجد أن طريقة التصنيع والمصانع التي كانوا يديرونها تؤمن دورة صناعية حياتية كاملة لشعوب هذه الدولة المترامية الأطراف.

صناعة الأساطيل البحرية العسكرية والتجارية:

جرت العادة أن يطلق مؤرخو الدولة الفاطمية مصطلح صناعة ودار الصناعة على مصانع الأساطيل البحرية والتجارية فقط، علماً أن كلمة صناعة أو قطاع الصناعة في الوقت المعاصر، يندرج تحتها كل ما يصنع في مصانع أو معامل أو مشاغل. لذلك سوف نتحدث في هذا الفصل عن صناعة السفن والأساطيل في مصر الفاطمية لأهميتها في حياة الإنسان المصري في ذلك العهد.

كانت مصانع السفن في القاهرة، موجودة في ساحل المقس وكانت السفن التي تعتمد تصنيعها نوعين: سفن تجارية وسياحية وسفن عسكرية.

ودار الصناعة حسب ما وردت في كتب التاريخ الإسلامي الفاطمي «هي المكان المخصص لإنشاء وتعمير جميع السفن والمراكب الخاصة بأعمال الدولة، سواء أكانت حربية، أم خاصة بركوب الخليفة، أو من المراكب التي تقلّ الغلات السلطانية والأحطاب والعلوفات وغيرها. وأول دار للصناعة أنشئت في مصر كانت بجزيرة الروضة. وفي أول حكم الدولة الفاطمية، نقلت دار الصناعة إلى المقس، حيث كان النيل يجري في ميدان محطة مصر وبجوار جامع أولاد عنان»^(١).

ويؤكد لنا ابن سعيد الأنطاكي في تاريخه اهتمام الفاطميين بصناعة الأساطيل، حيث يخبرنا أنّ الخليفة العزيز «بعد خروج ملك الروم باسيل إلى الشام، أظهر قوة العزم على غزو بلاد الروم، وتقدّم إلى عيسى بن نسطورس (الوزير)، بإنشاء أسطول يسير معه بمسيره في البحر إلى طرابلس، فجمع ابن نسطورس الأخشاب من سائر النواحي، وأنشأ أسطولاً في دار الصناعة بمصر، وحمل إليه جميع الآلات والسلاح والغدّد»^(٢).

أما المسبّحي فهو يطلق عليها «صناعة الجسر» وأنها كانت في شارع الحمراء.

ويخبرنا المقرئزي أنّه كان لدار الصناعة ميزانية خاصة به، مأخوذة من الضرائب التي يحصلها صاحب دار الصناعة من السفن

(١) النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، م.س. ص ١٠٤ - هامش -

(٢) صلة تاريخ أوتيك، م.س. ص ٢٣٣.

التجارية «فإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه، استدعي له من بيت المال ما يكفيه»^(١).

أنواع السفن:

جرت العادة حين ورود أي خبر عن الأساطيل البحرية التجارية أو العسكرية، لدى المؤرخين أن ترد كلمات وأسماء لا نستطيع تأكيد أصلها العربي، حيث أن أكثرها الفاظه غريبة. وإذا أعدناها إلى الجذر المنشقة منه، نجد أن لا تقارب بين معنى الجذر ومعناها. أما المقرئ فقد جعلها: نيلية وحربية. ومن هذه السفن:

العشارى:

العشارى وتسمى أيضاً العُشيري بضم العين والالف المقصورة في آخرها. «وهو نوع من السفن، طويل حسن الشكل، مسطح بالأواح من خشب ثخينة محكمة. أخرج منها أفاريز نحو ذراعين. وبنى فوق السطح بيت من خشب، وعقد عليه قُبَّة. وفتح له طاقات ورواشن بأبواب إلى البحر من سائر جهاته. ثم تعمل في هذا البيت خزانة مفردة، ومرحاض. ثم يزوق بأصناف الأصباغ وهذا، يُتخذ للملوك والرؤساء، بحيث يكون الرئيس جالساً في وسادته وخواصه حوله، والغلمان والمماليك قيام بالمناطق (الحزام) والسيوف على تلك الأفاريز، وأطعمتهم وحوائجهم في قعر المركب. والملاحون تحت السطح أيضاً، لا يعلمون من أحوال الركاب، ولا الركاب تشتغل خواطرهم بهم»^(٢).

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٦٣.

(٢) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ٣٠.

ويجمعها المؤرّخون على عشاريات. وهي نوعان العشاريات اللطاف أي الصغيرة، والعشاريات الكبار وهي الكبيرة. أما عشاريات الخليفة فيطلق عليها اسم العشارى الذهبي.

ويخبرنا ابن تغري بردي أنّه كان لبعض الأمراء من العائلة الفاطمية عشاريات يركبونها في نزهااتهم في النيل، وخاصة عند احتفالات فتح الخليج.

البطسة:

ومنهم من يلفظها بالشين المعجمة وهي سفينة حربية كبيرة، كانت تستخدم في نقل المهمات الحربية وذخائرها وميرة الجنود، وقد تحمل من ٣٠٠ إلى ٧٠٠ مقاتل.

الشيني:

وتجمع على شواني وتسمى أيضاً الغراب وهي عبارة عن مركب حربي له مائة وأربعون مجدافاً وفيه المقاتلون والجدافون. وكان بها برج لمراقبة سفن الأعداء.

الجلبة:

وتجمع على جلاب بكسر الجيم (فِعال) وهذه السفينة تجارية مخصّصة بالتجار وينقل البضائع وهي من أكبر السفن التجارية.

الديماس:

وهي سفينة نزهة ونقل ركاب صغيرة، أو بالأحرى سفينة سياحية.

الشلندي:

بالآلف المقصورة في آخره، تجمع على شلنديات وهو مركب مسقوف يقاتل الجنود من على ظهر سقفه، وتحتهم الجذافون يقومون بعملهم. وفي نفس الوقت يستخدم سطحه لنقل الجنود وأمتعتهم في حالات السلم.

الطراد:

وهو السفينة المخصصة لنقل الخيل أو البغال الخاصة بالجيش، ويستطيع كل طراد نقل أربعين رأساً من الدواب مع علوفاتها.

وقد أشار المقرئ إلى الحد الأدنى للأجور في سلاح البحرية الفاطمية، وقال إنَّ العناية بالأساطيل البحرية قد قويت في مصر منذ قدوم المعز لدين الله، فأنشأ المراكب واقتدى به بنوه، وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد وكانت تسير إلى البلاد الساحلية مثل صور وعكا وعسقلان وكانت كل جريدة (كتيبة) تزيد على الخمسة آلاف مقاتل، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد واحد منهم قائد وتصل جامكية (راتب) كل واحد منهم إلى عشرين ديناراً. ومنهم من يقبض خمسة عشر ديناراً. ويصل الحد الأدنى للجندي في البحرية الفاطمية إلى دينارين، وكانت متحصلات غزواتهم توزع عليهم ولا ينال الخليفة أو الدولة منها شيئاً، وكنا قد أشرنا إلى المراكب المفصلة (قطع غيار) التي أعطاه الخليفة العاضد لصالح الدين الأيوبي وحملها الأخير مفصلة قطعاً على الجمال إلى إيلات وجمعها هناك في أرض المعركة «وطرحها في البحر وشحنها بالمقاتلة والأسلحة

وقاتل الفرنجة برأً وبحراً حتى فتح القلعة»^(١).

ولم يسبق أن سمعنا أنَّ هناك دولاً سبقت مصر الفاطمية على هذه الإنجازات في مجال الصناعات البحرية.

صناعة الدبابات والمنجنقات:

الدبابة الحالية معروفة وهي تدبّ دباً على الأرض بواسطة جنازيرها، أما الدبابة الفاطمية فهي عبارة عن برج من خشب يتحرك بواسطة عجلات، فيتكوّن أحياناً من عدة طوابق من الخشب والرصاص والحديد والنحاس، يستقر الجنود بداخله في الطوابق السفلى ويحاولون من خلاله فتح ثغرة بالأسوار أو يتسلقون الأسوار من خلال أعلى طابق. وكان الفاطميّون يلبسون الدبابة أو البرج جلوداً منقوعة بالخل لوقايته من الاحتراق.

أما بالنسبة لصناعة السيوف والرماح والأسلحة الصغيرة، فلم يكن لدى الدولة مصانع خاصة بهذه الصناعات، بل تركت صناعتها للقطاع الخاص. وقد علمنا أنَّ الخليفة العزيز، عندما أراد غزو الروم كان يشتري السلاح من صانعي السلاح بثمنه ومن حساب الدولة.

معامل النسيج أو دار الطراز:

كان المؤرّخون يطلقون على مصانع النسيج اسم دار الطراز، حيث يتم فيها تفصيل وتطريز وخياطة كلّ أنواع الثياب والأعلام

(١) الخطط المقرّية، الجزء الأول، ص ١٨٥.

والبنود والخيم والمظلات والفرش والمخدّات والمساند لزوم قصور
الخلافة والأمراء والقوادر والموظفين وألوية الجيش.

ودور الطراز العائدة للدولة كانت متناثرة في جميع أنحاء
الممالك الإسلامية التابعة لقصر الخلافة المصرية الفاطمية في
القاهرة، وكان أهم دور للطراز والتفصيل والخياطة، هي دور دمياط
والإسكندرية وتنيس.

أشار ابن حوقل يصف معامل النسيج والثياب في تنيس ودمياط
فقال: (١)

«ومن جليل مدنها وفاخر خواصّها ما خُصّت به تنيس ودمياط
وهما جزيرتان بين الماء المالح والعذب أكثر السنة في وجه النيل، لا
زرع فيهما ولا ضرع بهما، وفيهما يُتخذ ويُعمل رفيع الكتان وثياب
الشرب والدبيقي، والمصبّغات من الحُلل التنيسية التي ليس في
جميع الأرض ما يدانيها في القيمة والحسن والنعمة والترّف والرقّة
والدقة، وربّما بلغت الحُلّة من ثيابها مائتين من الدنانير إذا كان فيها
ذهب، وقد يبلغ ما لا ذهب فيه منها مائة دينار وزائداً وناقصاً.
وجميع ما يُعمل بها من الكتان فربما بلغ مثقال غزلٍ من غزولها
دنانير، وإن كانت شطا ودبيق ودميره وتونه وما قاربهم بتلك
الجزائر يُعمل بها الرفيع من هذه الأجناس، فليس ذلك بمقارب
للتنيسي والدمياطي والشطوي مما كان الحمل على عهدنا يبلغ من
عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق، فانقطع

(١) كتاب صورة الأرض، ابن حوقل، ط ١، بيروت، دار مكتبة الحياة، سنة ١٩٩٢، ص ١٤٢.

بالمغاربة وخصّ بقطعه اللعين أبو الفرج بن كلّس وزير العزيز، فإنّه استأصل ذلك بالنواثب والكُف والمغرم والسُخر الدائمة للصنّاع، حتى جعل جزية على جميع الداخلين والخارجين إلى تنيس. وبمصر غير طراز رفيع وسأتي على ذكره».

ودار طراز تنيس كانت متخصصة بلباس الخلفاء وما يحتاج إليه قصر الخلافة من الخلع والتشريفات.

وكانت دور الطراز الحكومية تدار من قبل الأعيان من الموظفين الكتبة أرباب الأقلام، لأنّ ضبط مصنوعات بحاجة إلى كتبة ومحاسبين.

دار الديباج:

والديباج في اللغة هو نوع من القماش المقصّب والمحلى بالذهب. وكانت الأقمشة المذهّبة والمحلاة بأنواع الحلّى والجواهر تختص بتصنيع الثياب، للخلفاء والأمراء فقط. وهي تختلف عن دار الطراز. فدور الطراز كانت تخط الثياب لقصور الخلافة وللموظفين، ولفقراء الناس.

ودار الطراز كانت تؤمّن الثياب والكسوات لزوم قصور الخلافة والموظّفين، وما يوزع على الناس في الأعياد، وفي فصلي الشتاء والصيف، كما يقول المثل العامي عندنا «من البابوج للطربوش» أي «العمامة والسروال والثياب الداخلية وما دونها وما فوقها» صيفاً شتاءً. ويقول لنا المقرئ أن الكسوة الواحدة التي كانت توزّع على الموظّفين مدنيين وعسكريين وقرّاء ومؤذنين ومجاورين وفقراء ستمائة ألف دينار ذهباً. وكانت هذه الكسوة توزّع ست مرات في

السنة أي تكلف الدولة أربعة ملايين دينار ذهباً، فإذا كان الحد الأدنى للأجور بين الدينارين والثلاثة دنانير، يعني أن كلفة هذه الكسوة السنوية في أيامنا:

$٤٠٠٠,٠٠٠ \div ٢ = ٢٠٠٠,٠٠٠ \times ٢٠٠ \text{ دولار} = \text{أربعمائة مليون دولار أميركي.}$

فانظر أيها القارئ ما وصلت إليه هذه الدولة من اهتمام برعاياها وموظفيها وأبنائها.

ونحن اليوم وقد دخلنا باب القرن الواحد والعشرين ولم نسمع بأي دولة تجعل كسوة الثياب من أساس الراتب.

وعندما يحدثنا المقرئ عن دار الديباج يقول إنه كان محاط بعدة دكاكين «لرسم أشكال ما يطرز بالذهب والحرير» وتحال هذه الرسوم على دار الديباج لتصنيع ثياب الخليفة. والجميل في الأمر، وصفه لهذه المحلات «فقد كانت انزه ما يرى فإنها كلها مرخمة بأجمل أنواع الرخام الملون»^(١).

مصانع الحياكة ومعامل الثياب الجاهزة:

يخبرنا ابن الحريري أنه كان في مصر الفاطمية ما لا يقل عن أربعمائة نول حياكة، منها ما كان من القطاع العام، ينسج النسيج ويرسله لدور الطراز ومنه ما كان يتبع القطاع الخاص ويبيع للخياطين الصغار أو لدور الطراز الحكومية.

(١) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٣٢.

وعندما يحدثنا المقريري عن سوق أمير الجيوش بدر الجمالي، أو سويقة أمير الجيوش، نتفاجأ بسبب تصغير اسمها وتسميتها سويقة فيقول إن هذه السويقة هي من أكبر أسواق القاهرة فإذا هي عدة أسواق في سوق واحد بها عدة حوانيت فيها الرِّفأون، والحبّاكون، وعدة حوانيت للرسامين على الثياب، وعدة حوانيت للمختصين بخياطة الفراء، وعدة حوانيت للخياطين. كما أعدت معظم دورها لسكن البرّازين.

ويقول المقريري: إنه يباع كذلك في هذا السوق سائر الثياب المخيطة والأمتعة من الفرش ونحوها.

أما البرّازون فهم مختصّون ببيع ثياب الكتان من الخام الأزرق وأنواع الطرح وأصناف ثياب القطن.

ويفاجئ القارئ عندما يعلم أن هذا السوق كان يضم محلات لتنظيف وكوي الثياب^(١).

وظيفة صاحب المقص أو المقص دار: مصمم الأزياء:

لقد علمنا أن دور الطراز كانت بإدارة الموظفين والكتبة من ناحية الحسابات وضبط ما يدخل إليها من أقمشة وما يخرج منها من ثياب ومصنوعات جاهزة. ولكن الإدارة الفنية وتحديد نموذج الثوب أو المظلة أو الخيمة أو الطراحة أو المسند أو أي تطريز وشكل، فقد كان من اختصاص صاحب المقص.

ففي معرض وصف خزانة الكسوات الخاصة بالخليفة يصف لنا

(١) راجع: الخطط المقريرية، الجزء الثاني، ص ١٠١.

المقريري المقص دار أو صاحب المقص فيقول: والخدمة في خزانة الكسوات لها رتبة عظيمة ويتولاها أكبر حواشي الخليفة، إما أستاذ أو غيره. وفيها من الحواصل ما يدل على إسباغ نعم الله تعالى على من يشاء من خلقه من الملابس الملونة رجالية ونسائية، وإليها يحمل ما يقص ويخاط في دور الطراز بتنيس ودمياط والإسكندرية. وبها صاحب المقص وهو مقدم الخياطين، ولأصحابه مكان لخياطتهم والتفصيل يعمل على مقدار الأوامر، وما تدعو الحاجة إليه وينقل كل ما يفصلوه إلى خزانة الكسوة الخاصة بلباس الخليفة، حيث يتولاها امرأة تُنعت بزين الخزان وبين يديها ثلاثون جارية، ولا يغير الخليفة ثيابه إلا عندها. ولا يلبس إلا من هذه الخزانة»^(١).

معامل لفرش البيت بالكامل:

وعندما حدثنا المقريري، نقلاً عن ابن الطوير عن قيمة ما نهبه الأتراك من قصور الخليفة المستنصر أيام المجاعة التي أصابت مصر، قال إنَّ أجلة الفيلة التي نُهبت لا تعد ولا تحصى وكانت هذه الأجلة منها ما هو مذهب ومنها ما هو ساذج (سادة)، بلا تذهيب. كما أنَّ الأعدال التي فتحت وجد فيها «كسوات بيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها. وكل بيت يشتمل على مسانده ومخداته ومراتبه وبسطه وأعتابه ومقاطعته وستائره، وكل ما يحتاج إليه. وقد كانت هذه الخزائن مملوءة بالأعدال المرقمة، كل عدل فيه فرش بيت كامل، وكله ما لا يحصى كثرة ولا يعرف قدره نفاسة»^(٢).

(١) الخطط المقريرية، الجزء الأول، ص ٤١٣.

(٢) الخطط المقريرية، الجزء الأول، ص ٤١٧.

أما محلات رفء الستائر (البرادي) فكانت من ضمن القطاع الخاص، لأنه ليس من المعقول أن يلجأ الخليفة أو الأمراء إلى رفء «برداية» فهم قادرون على استبدالها بأحسن منها.

معامل الدباغة:

لم يشر المقرئزي أو غيره من مؤرخي الدولة الفاطمية، إلى هذه المعامل ولكنهم تحدّثوا عن الجلود أو «الآدم». ووصفوها وتحدّثوا عن أهميتها في صناعة الأحذية والخيم والمساند والطراحت وسروج الخيل والدواب.

وقد أقام الفاطميون مخزناً للجلود كانوا يطلقون عليه اسم «خزانة الآدم»^(١)، وكانت هذه الخزانة توزع الجلود والأحذية «برسم الخاص وبرسم الجهات وبرسم الوزارة» وتوزع أيام توزيع الكسوات أي في فصلي الشتاء والصيف وفي الأعياد الأربعة.

مخازن الثياب لكل الشعب المصري مجاناً:

أطلق الفاطميون على هذه المخازن اسم «خزانة الكسوات» وقد أشرنا إليها سابقاً وكانت تخزن كل ما تفصله وتصنعه دور الطراز حتى يحين موعد توزيعه في أول الشتاء وأول الصيف والأعياد الأربعة.

وقد نقل لنا المقرئزي عن ابن أبي طي، أن الخليفة المعز لدين الله «أنشأ داراً سماها دار الكسوة، وكان يفصل فيها جميع

(١) أخبار مصر، ابن المامون، م.س. ص ٩٤.

أنواع الثياب ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم، كسوة الشتاء وكسوة الصيف وكسوات الأعياد، وكانت لأولاد الناس ونسائهم كذلك. وجعل ذلك رسماً يتوارثونه في الأعقاب. وكانوا يخرجون من خزائن الكسوات الثياب إلى جميع خدمهم وحواشيهم، ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير، وكسوات للصيف والشتاء، من العمامة إلى السراويل، وما دونه من الملابس والمنديل.

معامل ومصانع الموبيليا:

عرف عن الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم شدة الاهتمام بأثاث البيوت وفرشه. وقد كان للخلفاء الفاطميين معامل ومصانع تصنع أجمل ما في الأرض من كراسٍ ومقاعد وخزائن وطالوت.

وقد نقل ابن الطوير عن كتاب الذخائر والتحف أن طاولة واحدة (مرتبة) بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار، من طاولات وأثاث قصر الخليفة المستنصر. وقال المقرئ نقي نقلاً عن ابن الطوير أن قطع الفرش والأثاث التي أخرجها الأتراك من خزائن القصر، بلغت مئة ألف قطعة أثاث «وجميع ما فيها مذقّب ومعمول بسائر الأشكال والصور، من جميع أنواعه وألوانه، ما لا يحصى نقاسة وثماناً»^(١).

خيمة القاتول مساحتها عشرة آلاف متر مربع:

لقد اشتهرت في أيامنا هذه ونحن على مشارف الألفية الثالثة للميلاد، الديوانيات. والديوانية هي عبارة عن صالة كبيرة مسقوفة

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤١٦.

بالقماش أو ألواح الحديد، يعدّها صاحبها لاستقبال الناس، من أجل الوجاهة والزعامة. وأكبر ديوانية لا تتجاوز الألف متر مربع، فكيف إذا علمنا أنّ ديوانية القاتول أو خيمة القاتول كانت مساحتها عشرة آلاف متر مربع.

ما هي خيمة القاتول؟

خيمة القاتول هي عبارة عن ديوانية كبيرة تنصب في المكان الذي يختاره الخليفة أو الوزير الأول خارج القصور لعقد اجتماع أو لقضاء نزهته مع الحرس والحاشية. وصفها ابن المأمون فعرفنا أنها من صنع الأفضل بن بدر الجمالي، فقد أمر الخليفة الأمر بنصبها يوم الاحتفال بعيد فتح الخليج لأخذ مقياس النيل سنة ٥١٦هـ، حيث أمر بإخراج الخيمة من أجل هذا الاحتفال وأن يضرب ديوانية كبيرة بإقامة «الثوب الكبير الأفضلي المعروف بالقاتول». فضرب القاتول وقسم إلى أربعة دهاليز وأربع قاعات وقاعة كبيرة، ومساحة القماش المستعمل فيها على ما ذكر «الف الف وأربعمائة ألف (ذراع ١,٤٠٠,٠٠٠ / مليون وأربعمائة ألف ذراع /). وأخبرنا ابن المأمون أنّ طول ارتفاع عمود الوسط في خيمة القاتول خمسون ذراعاً (٥٠ × ٠,٦٧ = ٣٣,٥ م)، ولما كمل استعمله في أيام الأفضل ونُصب، تأذى منه جماعة ومات رجلان، فسُمّي بالقاتول لأجل ذلك. وما زال لا يضرب إلا بحضور المهندسين، وتنصب له أسافيل (سقالات) عدة بأخشاب كثيرة. والمهندسون يكرهون ضربه ولا يرغبون في إقامته^(١).

(١) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٥٦.

ووصف المقريزي طريقة تركيب أعمدتها فأعلمنا أنه يعمل في أول
العمود شقة دائرة ثم أوسع منها ويتوالى ذلك إلى إحدى عشرة شقة،
ويعلمنا أن سعتها فدانان. وقال إن الأمراء كانوا يخرجون خيمهم في
يوم هذا الاحتفال فينصبون خيمهم قربها «ويتمايزون فيها على قدر
هممهم، وضربهم إياها في المكان الأقرب فالأقرب على قدر رتبهم»^(١).
وقد وصف الشاعر اللبناني، أبو جعفر محمد بن هبة الله هذه
الخيمة فقال^(٢):

ضربت خيمة عز من مقرعلا أوفت على عذبات الطور ذي القنن
جاءت مدى الطرف حتى خلت ذروتها تاوي القلک الأعلى إلى سکن
اقطارها ملئت من منظر عجب يبدي إليك ذكاء الصانع الفطن
ووصفها أبو حسن الأنصاري بقوله:

أخيمة ما نصبت اليوم أم فلک ويقظة ما نراه اليوم أم حلم
ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن تسمو علواً على أفق النهى الخيم
حتى أتيت بها شماء شاهقة في مارن الدهر من تيه بها شم
كأنها جنة والقاطنون بها لا يستطيل على أعمارهم هدم
علت فخلنا لها سراً تحدثه للفرقدين وفي سمعيهما صمم
وقد أعلمنا المقريزي أيضاً أن قطع خيمة القاتول وأعمدتها كانت
تحمل على عشرين جمل، ويقول المقريزي: إن كلفة القاتول عشرة
ملايين دينار.

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٧٧.

(٢) راجع: م.س. نفسه، ص ٤١٩.

خيمة المدورة تحمل على مائة جمل:

إذا كانت خيمة القاتول تتجاوز مساحتها الفدانين، فخيمة المدورة أطلق عليها المقريزي اسم فسطاط والفسطاط في اللغة العربية هو القطر أو المدينة فما هي المدورة؟.

نقل المقريزي عن أبي الحسن الخيمي قوله إنهم أخرجوا من قصر الخليفة المستنصر أيام المجاعة الكبرى، «فسطاطاً كبيراً أكبر ما يكون يسمى المدورة الكبيرة».

وقال المقريزي: إنها كانت تقوم على عمود في وسطها طوله خمسة وستون ذراعاً ($65 \times 0,67 \text{ م} = 44 \text{ م}$) مقسّم إلى أربع وستين قطعة قماش كل قطعة تجمع في عدل واحد يجمع بعضه إلى بعض بعراه وشراريبه. «وحين ينصب تحمل أعمدته وخرقه وحباله وعدّته على مائة جمل»^(١). وينصب في أعلى العمود الأساسي راوية ماء صوّر في رفارفها صور كل حيوانات الأرض وكل شكل جميل وظريف.

وقد اشترك في تصنيع هذه الخيمة مائة وخمسون صنايعياً واستمر صنعها تسع سنين وكلفتها ثلاثون مليون دينار وقد أشرف على تصنيع هذه الخيمة أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الأيسر الحلبي، وقد أرسل بطلبه الوزير أبو محمد اليازوري سنة ٤٤٠ هـ، بطلب من الخليفة المستنصر، وكلفه بهندستها وتصنيعها.

ويقول المقريزي: إنّ خيمة المدورة كانت تحتاج إلى مائتي رجل ومهندس حين يؤمر بإقامتها ونصبها.

(١) سفرنامه، ناصر خسرو، م.س. ص ١٠٤.

وكان الخليفة العزيز بالله، كلما خرج للحرب والجهاد وأراد الراحة، ينصب له خيمة اسمها «الفازة الكبيرة». وهذه الخيمة كانت بعمود واحد طول ارتفاعه ٤٤ ذراعاً (٤٤ × ٠,٦٧ = ٣٠ م). ولم نستطع جمع معلومات إضافية عن مساحتها وتاريخ تصنيعها وكلفتها كخيمة القاتول والخيمة المدوّرة.

معامل الألوان الزجاجية والخزفية والنحاسيات:

عندما يحدثنا المسبّحي عن وفاة أبي جعفر بن الوزير أبي الفضل بن حنّابة، سنة ٤١٥ هـ، نعلم أنّ صنعة أبي جعفر سك الدراهم وتصنيع ألواح الزجاج، مما يدفعنا إلى الاستنتاج أنّ الزجاج كان يصنّع أوان مطبخية والواحاً عادية.

أما ناصر خسرو فوصف صناعة الفخار بأنها تخرج لطيفة وشفافة حيث يقول: ويصنعون بمصر الفخار من كلّ نوع، وهو لطيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل. وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها،^(١).

ولا أظن أنّ مشاهدة ناصر خسرو للفخار الشفاف حقيقية فربما شاهد نوعاً من أنواع المصنوعات الزجاجية فأطلق عليها نعت الفخار الشفاف، لأنه حتى يومنا هذا، لم تستطع التقنيات الحديثة أن تصنع فخاراً شفافاً.

وقد ذكر المقرئزي أنّ آلاف مرايا الزجاج المينا المحلاة بالذهب

(١) سفرنامه، ناصر خسرو، م.س. ص ١٠٤.

والفضة والجواهر، أخرجت من قصر المستنصر، وكذلك آلاف الصواني النحاس والفضة والذهب وكانت صينية الذهب يبلغ ثمنها ثلاثة آلاف دينار.

معمل حجارة باطون:

عندما يحدثنا المقرئزي عن حارة البيازرة نفهم أنها منسوبة للبازيار والبازيار هو مدرب الوحوش والطيور الخاصة بحديقة حيوانات قصر الخلافة.

يقول المقرئزي: إنه لما كثرت الابنية والعمارات حول الحديقة، طلب البازيار من الوزير المأمون توسيع أبنية الحديقة وطلب منه نفقة لذلك. فما كان من الوزير المأمون، إلا أن أمر بعمل القنوات والأفران لشوي الطوب (إعداد الحجارة المشوية) وتحويلها إلى البازيار. مما جعلنا نستنتج أن معامل حجارة البناء أو أفران شوي الطوب كانت منتشرة في مصر الفاطمية.

هذا بالإضافة إلى معامل تكرير الخمور التي يكثر الحديث عنها لكثرة تدميرها أو التفاوضي عنها في عهد الخلفاء الفاطميين، ومعامل تكرير السكر التي كانت في القاهرة فقط، ستة وثلاثون معملًا. ومعامل الصابون ومعاصر الزيت ومعاصر السمس التي تنتج زيت الشيرج أو ما نطلق عليه «طحينية».

أما الأفران فكان أقلها يخبز ما لا يقل عن سبعة آلاف رغيف يوميًا^(١).

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ١٢٢.

أقلام حبر بخزان:

لم يأت أي كاتب أو مؤرخ على ذكر استباق أحد للفاطميين على هذا الإنجاز، فقد أخبرنا القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي أنَّ الخليفة المعزَّ، توصل إلى تصنيع قلم بخزان يخزن الحبر، مما يدل على أهمية الكتابة والفكر عند الخلفاء الفاطميين^(١).

خزانة البنود أشبه بمعامل سيارات فورد لكثرة العمال:

عندما يحدثنا المقرئزي عن أيام الخليفة الظاهر بن الحاكم، يصف شغفه وحبّه للغناء واهتمامه بالأناقة، حتى هذا كل الشعب المصري حذوه بالاهتمام بالأناقة وحسن المظهر. وقال إنه كان يستقدم الصبيان والمماليك يعلمهم جميع أنواع الفنون والصنائع، في خزانة البنود، وهذه الخزانة كانت عبارة عن مصنع حربي، تصنع القسي والنشاب والسيوف والدروع والسروج وجميع مستلزمات العمل العسكري وقال: إنَّ عدد العمال الذين كانوا يعملون فيها ثلاثة آلاف عامل^(٢).

١٣

برادات لحفظ الماء والطعام:

عندما تحدث المسبّحي عن وفاة بنت أبي عبد الله بن نصر زوجة أبي جعفر بن الحسين بن جوهر الصقلي، سنة ٤١٤هـ، أخبرنا أنها ماتت بدون وريث، وفي هذه الحالة تجرد تركتها وتحول

(١) المجالس والمسائرات، م.س. ص ٣١٩.

(٢) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٣٥٥.

إلى مودع المواريث الحشرية، بانتظار ظهور وارث لها يثبت صلة قرابته، ويقول إنَّ محسن بن بدوس صاحب بيت المال أقام جرداً بالتركة بحضور الوزير الجرجرائي، فوجدوا فيها: «طواحين بلور وبرادات مكلّلة بالجواهر، وأمرٌ جليل من المال والجواهر» فأثبتوه وختموا عليه^(١).



(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ٥٥.

الساحات والفنادق

الساحة وأثرها في حياة الإنسان الشرقي:

الساحة هي منطقة عقارية واسعة داخل الحي أو الحارة في المدن الكبيرة، وداخل القرية في الريف. والساحة عادة تكون عبارة عن سوق صغير للحارة أو القرية، يجتمع فيها أهل الحي أو القرية بعد عناء العمل اليومي، للتندر وتبادل الأخبار العائلية والفكاهات. وفيها يعرف ابن الحي أو القرية أخبار حيّه أو قريته كلّها. وهي حتى اليوم تشكل جزءاً مهماً من العلاقات الاجتماعية والعائلية، في المشرق العربي.

وعادة التجمّع في ساحة القرية أو الحيّ نقلها أبناؤنا المهاجرون إلى المغتربات الأميركية. يبدأ بأن يقدم أحد المغتربين على استئجار دكان أو محلّ، فيتهافت جيرانه من أبناء جلدته العربية مسلمين ومسيحيين على قضاء فترات الراحة بالتجمّع أمام محله، وكأنّهم في ساحة القرية. يمر الأميركي ويраهم مجتمعين يتحدّثون ويضحكون فيعتبرهم بلهاء مجانيين لأنّهم يقضون وقتهم بدون تحويله إلى عمل، إلى دولارات، بينما هم ينظرون إلى الأميركي فيجدون فيه وفي آلته

ونظمه وحشاً سوف يقضي على البشرية، يعمل على سرق إنسانيتهم وتحويلهم إلى آلة مزدوجة الأهداف: تعمل في معاملة، وتشترى إنتاجه. ولكن كلما كثر المهاجرون في حي من الأحياء الأميركية، كلما ازدادت روابط اللفة والمحبة بينهم، وكلما ازدادت الحاجة إلى ساحة يلتقون فيها بعد الظهر.

ساحة بين القصرين:

قال المقرئ إن هذه الساحة كانت تتسع لأكثر من عشرة آلاف فارس بكامل عدتهم. وكان الخليفة المعز لدين الله قد أعدها لاستعراض الجيوش والخيول والركوبات التي أشرنا إليها. وهي ما زالت حتى اليوم معروفة في القاهرة باسم: بين القصرين.



ساحة درب السلسلة وصاحب التقفيزة:

عندما جاء الخليفة المعز لدين الله الفاطمي وبنى القاهرة وقصورها وساحاتها، كان ظهر كل يوم يضع سلسلة يمنع المارة من المرور بساحة تحت القصر، فسميت هذه الساحة باسم درب السلسلة. وكان قائد الحرس المختص بوضع السلسلة ونزعها مسؤول عن حراس ومستخدمين وقرّاء ومؤذنين كلّهم يبيتون ليلاً خارج القصر.

وجرت العادة أن يطلق على هذا القائد لقب «صاحب التقفيزة». أما السبب فكما قلنا إن المعز عندما بنى هذه القصور والساحات كلّ أحد قواده وهو مغربي بالقيام بعراضة ومظاهرة حول القصور،

من الخدم والقرّاء والمؤدّنين المختصّين بهذه الساحة خمس مرات
في السنة:

– ليلة عيد الفطر.

– ليلة عيد النحر.

– ليلة رأس السنة الهجرية.

– ليلة الأول من رمضان.

– ليلة فتح الخليج – أخذ مقياس النيل –

وكان صاحب التقفيزة يطرح في هذه المظاهرات شعار الإمام،
وكلّ شعارات الإسلام الشيعي الإمامي. «بالصراخ والصياح ثم يسير
بذاك الجمع إلى أبواب القصر، فيقف عند كلّ باب، حتى ينتهي إلى
باب الذهب»^(١).

فندق خمس نجوم معدّ لرجال الأعمال:

ويشير المقرّيزي إلى الفنادق والخانات، فنعرف أنّ الفندق
مختصّ بنزول الناس فيه فقط، بينما الخان يعد لاستقبال الناس
ودوابهم، أما الحمامات فكان أكثرها ملاصق للخانات والفنادق، فما
أن يصل التاجر الغريب أو المكارّي، حتى ينزل الخان أو الفندق
ويستحمّ في الحمام.

أما دار الوكالة، فنفهم من ابن المأمون والمقرّيزي، أنّها كانت
فندقاً مخصّصاً للتجار العراقيين والشاميين وغيرهم من تجار البلاد

(١) راجع: الخطط المقرّيزية، الجزء الأول، ص ٤٦٢.

الإسلامية. وقد أشار كل المؤرخين أن الخليفة الأمر هو الذي أمر بإنشائها، «ولم يُسبق إلى ذلك» أي أن الفاطميين هم أول من أقام فندقاً خمس نجوم مختصاً بكبار رجال الأعمال.

«والى جانب ذلك كان بالفسطاط (مصر القديمة) وسائر المدن الكبرى بالأقاليم المصرية عدد كبير من وكلاء التجار ودور الوكالة. ووكيل التجار هو تاجر ثري استقر هو أو والده في بلد أجنبي واعتمد فيه كمثل شرعي أو وكيل أعمال مقابل عمولة. وكانت دار الوكالة تستعمل أيضاً كمصرف أو عنوان بريدي»^(١).

ويقول أيمن فؤاد السيد، أن وكيل التجار كان يحصل على ترخيص من الحكومة لممارسة وكالته من المحتسب أو من والي المدينة. وكان الترخيص لا يعطى إلا لمن شهد له بالنزاهة والعدالة.



مركز بحوث التاريخ الإسلامي

(١) الدولة الفاطمية في مصر، أيمن فؤاد السيد، م.س. ص ٤٨٩.

محطات الوقود أو أهراءات التبـن

كانت مولدات دفع العربات أو الآلة التي تجر العربة أو تنقل الإنسان هي الجمل أو الحصان أو البغال. وهذه الحيوانات والدواب كان وقودها العلوفات وماء الشرب، لذا اهتم الفاطميون كثيراً في تأمين مستودعات ومحطات الوقود، تأميناً لحركة سيرهم وتنقلاتهم في الحرب والسلام.

وقد أخبرنا المقرئ **أبـن الخليفة** الأمر توصل إلى تصنيع سروج للبغال والخيـل مجوفة الداخل تحتوي على خزانات من معدن الرصاص تخزن الماء داخل السرج دون أن تعيق الفارس في عملية الكرّ والفرّ، أو تتعب الحصان في سيره، يشرب منها الجندي والحصان كلما تعب. ولا ضرورة للعودة من ساحة المعركة بسببها.

وفي الأسطر التالية سوف نعرض لكم العديد من هذه الإنجازات الحياتية التي تضع حضارة مصر والفاطميّين، في مصاف الحضارات المتقدمة على غيرها من الحضارات التي عرفها العالم.

محطات وقود اصطبلات قصر الخلافة:

يصف لنا المقرئ مصطبلات قصر الخلافة أو بالأحرى مرآب سيارات قصر الخلافة، فيقول إنها كانت بحارة زويلة مقابل قصر الشوك. وكانت مصطبلان أو مرآبان. وكل مصطبل فيه خمسمائة رأس بين بغل وبغلة وفرس وحصان، من أفضل أنواع البغال والخيول. وهي مخصصة لقصر الخلافة وللسفراء الطارئين على دار الخلافة. ويقول إن لكل ثلاثة رؤوس سائساً يخدمها داخل المصطبل. ولكل رأس شداد (سائق) برسم تسييرها ولكل عشرين رجلاً من السواس عريف يلتزم محاسبتهم على السروج المحلاة بالذهب والحلي التي يلبسونها للخيول والبغال أيام الركوبات والاستعراضات. ويعيدونها بضمانته ومسؤوليته لخزانة السروج.

وإذا قمنا بعملية تعداد الموظفين المخصصين لهذين المصطبلين أو المرآبين نجد أنهم يبلغون:

$1000 \div 3 = 333$ سائساً، 1000 شداد أو سائق، 50 عريفاً، 2 أمير ياخور، 1385 مستخدماً.

وقال المقرئ عن الخليفة العزيز «أنه كان يعلف له من الخيل في كل يوم والبغال والحمير والجمال عشرون ألف رأس، منها لركوبه ألف فرس، سوى البغال»^(١). فإذا كان ألف رأس يحتاجون إلى 1400 مستخدم فالعشرون ألف يحتاجون إلى ثمانين وعشرين ألف مستخدم.

(١) اتعاظ الحنفاء الجزء الأول، ص 296.

ويذكر المقرئزي أيضاً أنَّ كلَّ فرقة من فرق الجيش لها اصطبلاتها وخدمها وسواسها وأمراؤها، فقس على ذلك، تَرَّ أهمية قطاع الإصطبلات أو مراتب البغال والخيول في حياة مصر الفاطمية. ويقول المقرئزي: «إنَّ كلَّ إصطبل فيه بئر وساقية تدور إلى أحواض ومخازن فيها التبن والشعير والأقراط اليابسة».

وعندما تحدَّث المقرئزي عن إصطبلات فهد بن إبراهيم، أعلمنا أنَّ أحدها سقط فمات له نحو ستين بغلة، مما يدل على أنَّ الإصطبلات كانت كالمراثب في أيامنا في الطابق الثاني، وأنها كانت تضم أكثر من ستين بغلة ولكن مات منها فقط العدد المذكور.

أما مخزن التبن أو أهراءات التبن فكان يطلق عليها اسم الشونة ويقول المقرئزي: «إنَّ الشونة كانت تعباً بالتبن كالجبل الشاهق. ولها مستخدمون ومشرف برواتب جيدة». وكان هناك موظف للأتبان، يميِّز التبن المعتبر من التبن الرديء. ويشتره للدولة من الفلاحين والسماسرة بالرطل أو بالشنف والشنف هو وحدة وزن مصرية تساوي 360 رطلاً = 900 كيلوغرام.

ولما كان السواد شعار بني العباس، كان الفاطميون لا يدخلون إلى إصطبلاتهم ويركبون «حصاناً أدهم قط».

وذكر ابن الطوير أنَّ هذه الأهراءات كانت موزعة في جميع أنحاء مصر والقاهرة وبلدان الخلافة الفاطمية. ولم تكن مخصصة للتبن والعلوفات فقط، بل كانت تحتوي على جميع أنواع الحبوب والبقول. فأهراءات القمح في القاهرة مثلاً كانت «تحتوي على ثلاثمائة ألف أردب» على سبيل المثال. والإردب يزن ٢٤ صاعاً مما يعني أنَّ مخزون

القمح في القاهرة للسنين العجاف كان في أهراء واحد يبلغ:

$$\frac{300,000 \times 500 \text{ كـلـغ}}{2} = 75,000,000 / \text{خمس وسبعون ألف طن قمحاً.}$$

ويقول ابن الطوير: إنّه كان لهذه المخازن والأهراءات «الحماة من الأمراء ومن المشرفين العدول» وتصلها المراكب بجميع أنواع الغلال والحمّالون ينقلون حمولة هذه المراكب إليها بإشراف رؤوساء المراكب.

وعن مهمات هذه الأهراءات والمخازن يقول إنّه «منها إطلاق الأقوات لأرباب الرتب والخدم وأرباب الصدقات وأرباب الجوامع والمساجد وجرايات الوية العبيد والسودان.

ومنّها تخرج جرايات رجال الأساطيل البحرية وما يختص بدار الضيافة للسفراء ومرافقيهم، وما هو مخصّص لتصنيع الكعك أيام المناسبات والأعياد ومخصّصات دار الفطرة».

وموظفو هذه الأهراءات، لا يهدأون «داخليين خارجيين» ولهم جامكيّات ورواتب مميّزة ولهم حصّة شهرية من الخبز والدقيق لأقواتهم والشعير لدوابهم كجزء من رواتبهم الشهرية.

أما ابن المأمون فقد أخبرنا أنّ غلات وأتبان الوجه القبلي كانت تحمل إلى أهراءات وشؤون مصر والقاهرة، أما أتبان وغلّال الوجه البحري فكانت ترسل إلى الإسكندرية ودمياط وتنيّس وعسقلان وصور وطرابلس، وقال إنّه كان يسير إلى هذه الثغور سنوياً ومن أهراءات الدولة مائة وعشرون ألف أردب أي ما يقارب المئة ألف طن

قمحاً، «لعسقلان خمسون ألفاً ولصور سبعون ألفاً فيصير هناك ذخيرة». وكان لمتحصّل ديوان بيت المال منها كلّ سنة «ألف ألف إردب» = مليون إردبا = تسعمائة ألف طن قمحاً^(١).

وعلى عهد الخليفة الظاهر ابن الحاكم أذيع بيان بعدم بلوغ النيل المقياس المطلوب فاختلفت الأقوات والأتبان من السوق واشتد الطلب على القمح والشعير، حتى التبّن ارتفع سعره «فبيع الحمل منه بدينار. فكان التبّن مادة من المواد الأساسية في حياة الناس يتعرّض سعره للصعود والهبوط.

المناخات أو المدينة الصناعية:

قال ابن الطوير: إن المناخات وهي مفرد مناخ حيث كانت تناخ الجمال والبغال والعربات بحمولاتها من الأخشاب والحديد المعدّ للاستعمال الصناعي ورقائق النحاس والرصاص و«آلات الأساطيل من الأسلحة المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيها» إضافة إلى بالات القنب والكتّان التي كانت تعتبر المواد الأولية لصناعة الحبال. وإلى جانب هذه البالات كنت ترى المنجنيقات والدبابات والطواحين. وكذلك «الزفت في المخازن الذي علته الأتربة».

ووصف عمال وصناعية مناخات الدولة فقال إنّ أكثرهم من أسرى الفرنجة «وكانت عدّتهم كثيرة، وفيهم الجزارون والنجارون والدّهانون والفرانون والخياطون والفعلة والعجّانون والطحّانون. وفي

(١) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٩٦.

هذا المكان مادة أكثر أهل الدولة وله حام من الأمراء ومشرف عدل، وفيه أيضاً مشاهد النفقات، وعامل يتولى التنفيذ (مدير إداري).

وقال ابن الطوير إن هؤلاء الموظفين كان لهم علاوات ورواتب إضافية «غير جاريهم لأن أوقاتهم مستغرقة في مباشرة الإطلاقات وتنفيذ الأوامر الطارئة والمستعجلة»^(١).

وكنا قد أشرنا كيف توصل الخليفة الأمر إلى تصنيع أسرجة للخيول وهي في نفس الوقت خزانات وقود (ماء). وهذا الأمر أشار إليه المقرئ، أنه لم يسبق أحد إليه مما يدل على التقدم الحضاري في مضمار الصناعة والتصنيع الموضوع في خدمة الإنسان والإنسانية.



(١) نزهة المقلتين، م.س. ص ١٤٢.

اهتمام الخلفاء الفاطميين بالبريد والمراسلات السريعة

كانت الرسالة تصل من الشام أو المغرب، إلى القاهرة في يوم واحد. وكانت الرسائل والتقارير التي تصل من كافة أنحاء بلاد الخلافة الفاطمية محط اهتمام الخليفة والوزراء، فعلى ضوئها يتخذون المواقف المؤيدة أو المعارضة من حكام البلاد الصديقة أو العدوّة ومن ولاية الأطراف. وكان لهم أسلوبهم في إيصال هذه الرسائل بوسائل أسرع من وسائلنا المعاصرة. فالرسالة أو التقرير الذي يريد أحدنا بعثه أو إرساله من لبنان إلى القاهرة، كان منذ عشر سنوات أي قبل اختراع الفاكس والتلكس، يأخذ أكثر من شهر أو شهرين حتى يصل لصاحبه. أما بعد اختراع الفاكس فقد أصبح بمقدورنا إرسال الرسالة أو التقرير في نفس اللحظة التي ندخلها في الآلة الطابعة من بلد المرسل، وتصل إلى آلة طابعة محددة بالرقم المرسل إليه، في بلد المرسل إليه.

الفاطميون أوّل من استعمل الحمام الزاجل لنقل الرسائل:

يذكر الباحث الإسماعيلي مصطفى غالب أنّ الفاطميين كانوا أوّل من استعملوا في مراسلاتهم، الحمام الزاجل وكانوا يستعملون في

مراسلاتهم الشيفرة السرية أو الرموز السرية المتفق على معانيها ومفاتيحها مع الدعاة المنتشرين في كافة الآفاق الإسلامية. «وَأَنَّ فَكَ تلك الرموز كان من اختصاص كبار الدعاة، ممن تُلقى على عاتقهم المهمّات الجسام، ويكونون بعيدين عن مركز الدعوة. فكانت الرسائل تصلهم بصورة منتظمة بواسطة الحمام الزاجل، الذي برع في استخدامه دعاة الإسماعيلية، ويذكر التاريخ بأنهم، أوّل ما استعملوا الحمام الزاجل في مراسلاتهم كان عام ٢٣١ هجرية. وعندهم أخذت الدول الحديثة مع بعض الإضافات^(١).

ويخبرنا الداعي الفاطمي عماد الدين إدريس القرشي، أن المهدي لما هرب من دمشق يقصد المغرب، أشاع أنه يقصد اليمن «وما أن انتهوا إلى طبرية، حتى وجدوا داعي طبرية بانتظارهم على ظهر الطريق قائماً ينتظرهم، فلما رأى الإمام المهدي - عليه السلام - سلّم عليه وعرفه أن كتاب داعيه بدمشق ورد على جناح الطائر يفيد أن رسول العباسيين وصل إلى دمشق يطلب اعتقال الإمام - عليه السلام -»^(٢).

فإذاً، كان الحمام الزاجل بالنسبة للفاطميين، أشبه بهاتف نقال، أو آلة طباعة نقالة، تتلقى التقارير والرسائل في كلّ محطة وبلد.

ثمن الحمامة المدربة على نقل الرسائل ألف دينار ذهباً:

وكتب الباحث محمد حلمي أحمد عن اهتمام الخلفاء الفاطميين بالحمام الزاجل فقال: وقد بالغ الخلفاء الفاطميون ورجال الدولة على

(١) الثائر الحميري، م.س. ص ٧٠.

(٢) عيون الأخبار، السبع الخامس، م.س. ص ٩٣.

اختلاف مواقعهم ودرجاتهم في اقتنائه والاعتماد عليه في تبليغ الرسائل عند الحاجة بالسرعة المطلوبة وقد بلغ ثمن الحمامة الواحدة من هذا النوع سبعمائة دينار. وقيل أنّ طائراً منها جاء من خليج القسطنطينية (إستامبول) إلى البصرة بلغ ثمنه ألف دينار^(١).

تعريف البريد عند القلقشندي:

عرّف القلقشندي لفظة البريد في صبح الأعشى فقال إنّها مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً أو أربعة فراسخ، لأنّ الفرسح ثلاثة أميال والميل في نظرهم ثلاثة آلاف ذراع ($٣٠٠٠ \times ٠,٦٧$ م $= ٢٠٠٠$ م تقريباً). فإذا البريد مسافة قدرها ٢٠٠٠ م $\times ١٢ = ٢٤٠٠٠$ م $= ٢٤$ كلم.

والبريد مشتق من البرد، فالإنسان حسب رأي علماء اللغة لا تبرد نفسه إلا بعد أن تأتيه الأخبار.

ويقول القلقشندي أنّ البريد، استمر على الخيل والبغال حتى أواخر الدولة السلجوقية «فلم يكن بينهم إلا الرسل على الخيل والبغال»^(٢).

بيضة الحمام الزاجل بعشرين ديناراً:

وذكر الحميري في الروض المعطار أنّه «كانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالفراهة بعشرين ديناراً، وأنّه كان عندهم دفتر بأنساب الحمام، وأنّه كان لا يمتنع الرجل الجليل و«الفقيه ولا العدل من اتخاذ

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ٢٦٦.

(٢) راجع: صبح الأعشى، الجزء ١٤، م.س. ص ٤١٥.

الحمام والمنافسة فيه، والإخبار عنه، والوصف لأثره وكان الحمام عندهم تجارة من التجارات ولا يرون في ذلك بأساً^(١).

ويقول القلقشندي: أنَّ «الخلفاء الفاطميين، بمصر، بالغوا في اقتنائه وحافظوا عليه، حتى أفردوا له ديواناً خاصاً به. وأقاموا جرائد بأنساب الحمام، حتى صنف فيه أحد كتّابهم وهو محي الدين بن عبد الظاهر، كتاباً سمّاه: «تمائم الحمام» ذكر فيه أعضاء الطائر وأسماء ريشه وألوانه وأفضل صفاته، وكيفية تفريخه وتفقيسه البيض، وأبعد مسافة يستطيع الوصول إليها.

زوجة الخليفة العزيز بالله تتوخم على الخوخ اللبناني:

ذكرت كتب التاريخ أنَّ زوجة الخليفة العزيز بالله طلبت منه قراصيا بعلبكية (خوخ)، وقد ذكر الخبر ابن سعيد في كتابه «حيا المخل وجنى النحل» ونقل عنه بقية المؤرخين، فقال القلقشندي إنَّ العزيز ذكر لوزيره يعقوب بن كلّس أنَّه ما رأى القراصيا البعلبكية (الخوخ البعلبكي)، وأنه يحبُّ أن يراها، وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق، فكتب يعقوب بن كلّس لوقته، بطاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري، ويعلق في كلّ طائر عدّة حبّات من القراصيا البعلبكية ويرسلها إلى مصر، ففعل ذلك، فجمعه الوزير يعقوب بن كلّس وطلع به إلى العزيز في نفس اليوم، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه.

(١) الروض المعطار في خبر الأمصار، الحميري، ط٢، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، سنة

وذكر المقرئزي القصة، وقال إنَّ عدد الطيور المصرية الواردة من دمشق محملة بالخوخ كانت أكثر من ١٢٠ طائراً، فتصوّر قدرة هؤلاء الناس على تنظيم الأمر بشكل حضاري لم يسبقهم أحد من قبلهم إليه.

وذكر ابن سعيد المغربي في كتابه «المغرب في حلي المغرب» أنَّ الوزير اليازوري علي - أبو محمد - وجّه للخليفة المستنصر رسائل وتقارير بواسطة الحمام الزاجل من المهديّة في تونس إلى القاهرة، فوصل ذلك الحمام في نفس اليوم^(١).

مطارات الحمام الزاجل في كلّ أطراف الخلافة بإشراف رئيس ديوان البريد:

كان الفاطميّون يقيمون المطارات أو أبراج الحمام في كلّ بلدان الخلافة الإسلامية، ويذكر القلقشندي أنَّ تجار الحمام الزاجل في البصرة أرسلوا عبر الحمام الزاجل إلى القاهرة، يستشيرون القاضي الفاطمي بكار بن شيبّة، في بعض الحمام لأنّه كان ثقة عالماً بأنواع الحمام الزاجل.

وكان البرج أو المطار الرئيسي للحمام في مصر وكان لهم أبراج ومطارات في قوص وأسوان وعيذاب على البحر الأحمر، والإسكندرية ودمياط والسويس على طريق الحاج، ومن القاهرة إلى بلبيس إلى الشام، وإلى غزة ومن مطار غزة، كانت تتفرّع كلّ

(١) راجع: المغرب في حلي المغرب، ابن سعيد المغربي...

الحمامات إلى كافة مطارات بر الشام، كالقدس ونابلس وصيدا وصور واللد وجنين وبيسان وإربد وحلب وبعبك وحمص وحماء.

ويخبرنا المقرئ كثر المراسلات التي تمت بين الخليفة المعز لدين الله وولده الأمير عبدالله في حربهم ضد القرامطة وكلها كانت تتم عبر الحمام الزاجل وبواسطته، بين القاهرة والرملة والصعيد.

ويخبرنا المقرئ أن الوزير - أبو محمد اليازوري - وزير المستنصر كان يكثر من الاهتمام بالحمام الزاجل ومن اقتنائه فأقام له الأبراج والمطارات في سائر أنحاء بلدان الخلافة وكانت التقارير تصله من عيونه ومخابراته وسفرائه يوماً بيوم. فيرفعها إلى قصر الخلافة.

ومن التقارير التي كانت تصل إلى قصر الخلافة على سبيل المثال أن والي الإسكندرية، عازم الدولة - رقيب - اشتدت علته حتى أشرف على الموت... ثم يأتي طائر آخر ويحمل تقريراً ثانياً أنه عوفي وأبل وسلم. وأن حمامة من حمام صور وصلت حاملة أخبار الشام.

وعندما وقع الخلاف بين الخليفة الظافر والوزير طلائع بن رزيك، يخبرنا المقرئ أن خبر استدعاء والي بلبيس عباس بن تميم الصنهاجي، إلى القاهرة لتكليفه بالوزارة، وصله في نفس نهار الإرسال أو استدعائه على «جناح الطائر».

تزيين الحمامة التي تحمل خبراً جميلاً:

يخبرنا المقرئ أن العزيز بالله أرسل العساكر المصرية بقيادة القائد منجوتكين لحماية الثغور الإسلامية ناحية أنطاكية من هجمات

الروم البيزنطيين. وأنَّ منجوتكين والعسكر المصري الفاطمي بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل. وأنَّ العسكر اليوناني (الروم) بلغ سبعين ألف مقاتل، ولكن العسكر المصري بعزيمته وعقيدته الجهادية، كسر العسكر اليوناني «وانهزم الروم عند الجسر الجديد وأخذ سوادهم وقُتل منهم وأسر الألف، وأنه خلَّص من الروم عشرة آلاف أسير مسلم، قاتلوا معه وهو محاصر لأنطاكية. فما كان من الخليفة العزيز بالله إلا وضع الحمامة التي جلبت الخبر في قفص من ذهب وعليه ثوب ديباج «وطيف بها في شوارع مصر والقاهرة».

كما أنَّ العزيز سطر بياناً صادراً عن الحضرة المطهرة (قصر الخلافة) قرأه بنفسه على الناس. ثم نزل قاضي القضاة، محمد بن النعمان، وطلب تعميمه على كلِّ جوامع مصر والخلافة الإسلامية، ومما جاء فيه:

«فاحمدوا الله أيها الناس، فإنَّ الله تعالى قد صانكم وصان أموالكم بمولانا وسيِّدنا الإمام العزيز بالله - عليه السلام - فما بالعراق تاجر معه عشرة دنانير أو أكثر إلا وتؤخذ منه»^(١).

رئيس ديوان الرسائل:

وفي نصِّ أورده المقرئ يفيد أنَّ ديوان الرسائل، كان ديواناً كبيراً يتولى رئاسته مشرفٌ له علاقة مباشرة بقصر الخلافة وهو مسؤول عن رؤوساء دواوين بلدان الخلافة، فعلى سبيل المثال،

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، م.س. ص ٢٧٥.

رئيس ديوان الشام، يختص بالصادر والوارد من أبراج الشام وإليها وكذلك كل رئيس ديوان.

ولكي لا تتداخل الصلاحيات وتتشابك، يخبرنا المقرئ أن الخليفة الظاهر، أصدر أمراً لابن خالد الغرابيلي، رئيس ديوان البريد في الحضرة المطهرة «بأن يسلم إلى رئيس ديوان بريد الشام، جميع ما يرد من الشام» ونعلم أن أبي عبدالله محمد بن أحمد الجرجرائي هو رئيس ديوان بريد الشام، ولكنه وضع عليه مراقباً، وهو العميد محسن بن بدواس^(١).

والقلقشندي الذي تحدث فأسهب عن الحمام الزاجل وأبراجه ومطاراته، وهو المتوفى سنة ٨٢١ هـ أيام المماليك، قال في نهاية الفصل الذي تحدث فيه عن أبراج الحمام:

«قلت: وقد تعطل تدريج (تربية) الحمام الآن»^(٢).

مديرية التنظيم المدني أو دائرة المساحة:

منذ أن اختط جوهر الصقلي حارات وأحياء وقصور ومساجد وساحات القاهرة، أظهر عن تسلحه بفكر هندسي مدني منظم. فالتنظيم والساحات والشوارع الواسعة والجادات والفنادق والخانات التي عرفتها القاهرة المعز، والتي ما زالت حتى اليوم (بين القصرين)، تدل على علم واسع بأعمال الهندسة المدنية، وعلى عقل نير متفتح،

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ١٤١.

(٢) صبح الاعشى في كتابة الانشاء القلقشندي، الجزء ١٤، ص ٤٢٩.

حملة هؤلاء الناس إلى مصر وطبقوه في القاهرة، وطوروه إبان حكمهم لها لأكثر من مائتي عام.

وقد ذكر الباحث عبد المنعم حمادة نقلاً عن سنن أبي داود حديث النبي (ص) حول طريقة بناء المدن، وعلى أساس هذا الحديث بنى جوهر الصقلي القاهرة، حيث كان الأزهر محور المدينة أي وسطها واختط الحارات على أساس شارع كل حارة يبلغ أربعين ذراعاً (٤٠ × ٦٧ م) = ستة وعشرون متراً عرضاً. والزقاق تسعة أذرع (٩ × ٦٧ م) = ستة أمتار عرضاً. أما التكنات العسكرية فقد أوجب أن يكون الشارع الداخل إليها عرضه (٦٠ × ٦٧ م) = أربعون متراً^(١).

دائرة المساحة أو ديوان المساحة:

يخبرنا المقرئ أن بعض مهندسي المساحة الأقباط المكلفين من ديوان المساحة في قصر الخلافة، ركب مع بغلته في معدية (عبارة توصل الناس والدواب من شاطئ إلى شاطئ). وكان صاحب المعدية هو أحد ضماني البساتين المحيطة بالنهر منطقة عمله، فلما طلب منه إيجار نقله مع بغلته، «فنفر فيه النصراني وسبه وقاله له: أنا ماسح هذه البلدة، وتريد مني حق التعدية، فقال له الضامن: إن كان لي زرع خذه، وقلع لجام بغلة النصراني وألقاه في معديته، فلم يجد مهندس المساحة القبطي بداً من دفع الأجرة إليه. وعندما مسح أرض البلدة، ترك بياضاً في بعض الأوراق، ثم أخذ توقيع أصحاب البلدة والعدول والشهود

(١) راجع: مصر والفتح الإسلامي، م.س. ص ١٧٠.

بصحة المساحات، بإسم ضامن المعدية ز ثم زاد على الورقة الخاصة بإسم ضامن المعدية عشرين فداناً، ضريبة الدولة عليها أربعة دنانير في السنة، على الفدان الواحد. تستخرجها الدولة ثلاث مرات في السنة. ورفع هذه المساحات إلى ديوان المساحة في الحضرة المطهرة.

وبعد مرور أربعة أشهر جاء مندوب المساحة ليأخذ ضريبة الثلث الأول من السنة بشهادة بيان المساحة الموقع من المهندس القبطي والشهود والعدول وضامن المعدية، «فأنكر الضامن» ذلك، فلم يقبل معه موظف القصر وكان معه عسوفاً ظالماً، فضربه بالمقارع، واعتقله، حتى أضطر الضامن أن يبيع معديته، ويدفع الضريبة المتوجبة عليه.

الاعتراف بولاية الإمام علي (ع) الطريق الوحيد لإزالة الظلم عن المواطن المصري:

فعرض الضامن ظلامته على الناس والمسؤولين فجابوه بتوقيعه وتوقيع المهندس المساح والشهود والعدول، فلم يجد طريقة إلا النزول إلى قصر الخلافة والوقوف تحت سقيفة الإمام علي (ع).

ويقول المقرئزي عند هذه السقيفة: «وكان من جملة القصر الكبير موضع يعرف بالسقيفة، يقف عنده المتظلمون وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين، فإذا ظلم أحد وقف تحت السقيفة وقال بصوت عال: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله، فيسمعه الخليفة ويأمر بإحضاره إليه» فما كان من ضامن المعدية إلا أن وقف تحت السقيفة وصرخ بصوت عال معترفاً بولاية علي - عليه السلام - فأدخله الخليفة الحافظ لدين الله، «فلما وقف بحضرته، قصّ

عليه ظلامته مشافهة». وحكى له ما حدث بينه وبين المهندس النصراني، وما دبر له المهندس من كيد فاستدعى الخليفة رئيس ديوان المساحة في القصر ابن الخلال، وجميع رؤساء الدواوين، وأطلع على سند مساحة أرض صاحب المعديّة، وتصفّح الخليفة بنفسه قيمة ضمان السنة المذكورة مع قيمة ضمان السنوات السابقة، وتبين له صدق صاحب المعديّة، فأمر بإحضار المهندس النصراني وأمر بتسميره في مركب خشبي وأقام له من يطعمه ويسقيه كي لا يموت عدة أيام، ثم أمر بفكه من المركب وتطويفه على حمار في سائر أنحاء مصر وينادي عليه، ففعل ذلك^(١).

تحديد ومسح كلّ الأراضي الزراعية وأراضي الرعي ومصايد السمك:

يخبرنا المقرئزي نقلاً عن ابن المدبر أنّه جرت العادة أيام الدولة الفاطمية أن يُنتدب للمراعي موظف وشهود عدلين وكاتب، فيعدون المواشي التي ترعى في مشاعات الدولة ويأخذون من أصحابها عن كلّ رأس شيئاً معلوماً، ولا يكون ذلك إلا بعد هبوط النيل ونبات الكلا ورعيه من قبل القطعان. أما المصايد فإنّ أوّل من أوجد لها ديواناً هو ابن المدبر وكانت ممسوحة ومعروفة من قبل رئيس الديوان وهي منتشرة في خليج الإسكندرية، وبحيرة الإسكندرية وثرغر دمياط وجنادل أسوان.

وكان الفاطميّون يمسحون الأراضي أو يروكونها وفعل راک

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٠٥.

يرونك من اللهجة المصرية القبطية. وكانوا يصدرن سندات ملكية بالأرض الممسوحة، حيث يخبرنا ابن المأمون أنَّ القاضي الرشيد ابن الزبير رفع سنة ٥١٥ هـ للوزير الأفضل، أنَّ بعض أرباب الأملاك اعتدوا على أملاك الدولة وضمّوها إلى أملاكهم فكتب إليه بإحضار مهندس المساحة لإظهار حدود أملاكهم، ولا يقبل من أحد احتجاج إلا من يملك حجة أدخرها (سند ملكية)^(١).

تأجير أراضي البور مجاناً:

لما حلت المجاعة بمصر سنة ٤٦٣ هـ، زمن الخليفة المستنصر بالله، وتوقفت الأعمال وبطل الزرع، واستمرت حتى سنة ٤٦٧ هـ، استدعى الخليفة المستنصر واليه بعسقلان بدر الجمالي، وسلّمه مقاليد الوزارة. فكان أول تدبير اتخذه الوزير، أنَّ عمّم على الناس أنّه «فسح لكل من يرغب في عمارة أرض داشرة أو إدارة بئر مهجورة معطلة، أن يسلم إليه ذلك ويقاس عليه ولا يؤخذ منه خراج إلا في السنة الرابعة من تسليمه إياه». وعمّم هذا البيان على كافة أنحاء القطر المصري، فكان من أثره أن عاد الناس إلى الزراعة وعمّ الخير مصر.

استحداث الجسور وشق الخلجان وقنوات الري في كل أنحاء الخلافة:

ذكر المقرئزي العديد من الخلجان وقنوات الري ومن قوله: اعلم أنَّ النيل إذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان وترع يتخرق فيها الماء يميناً وشمالاً إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل.

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٢٢.

ويقول أيضاً: كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير وتدبير حتى أن الماء ليجري تحت منازلها وأقنيتها فيحبسونه كيف شاؤوا، ويرسلونه كيف شاؤوا. وكانت الجنات (الجنينات) بحاقتي النيل من أوله إلى آخره على الجانبين معاً جميعاً، من أسوان إلى رشيد، جنات متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء. والزرع ما بين الجبلين من أول مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء^(١).

وبالعودة إلى الخطط المقرزية نجد لكل خليج قصة، ولكل جسر حكاية واسم، ولكل ترعة رواية فيها نكتة أو حادثة أو نكهة، أيام مصر الفاطمية، فجسر منجك على سبيل المثال هو جسر البلاء. والخليج الأفضل هو خليج أبي المنجا اليهودي. وقد حاول الوزير الأفضل تغيير اسمه ولم يستطع فقال: نحن ندفع المال والاسم لأبي المنجا.

المهندسون يبنون جسوراً تسمح بمرور ست ناقلات:

لم تكن عمارة القاهرة ومصر وعمارة جسورها وقناطرها مسؤولية الفاطميين فقط، بل يخبرنا المقريزي أنه عندما قام بنو خفاجة بتعمير قنطرة الجاروفة في الكوفة وهي العين التي يشرب منها أهل الكوفة، اتصلوا بالخليفة المستنصر بالله وطلبوا منه إعادة ترميمها، فأرسل كلفة إعادة بنائها والبالغة ألفين دينار ذهباً، مما يدل على اهتمام الخلفاء الفاطميين بإعمار كل بلاد الخلافة الإسلامية، بالرغم من أن الكوفة كانت تحت حكم القادر بالله العباسي، ولكنه

(١) راجع: الخطط المقرزية، الجزء الأول، ص ٧٠.

تمنّع وتلكأ ولم يساعد في ترميمها، فتقدّم المستنصر بالله بعد
مراجعة بني خفاجة له^(١).

ويخبرنا المقرئ أنّ الجسر الواصل من قليب إلى دميّاط
خطّطه المهندسون «بعرض ست قصبات ومشى عليه ستة رؤوس
من الخيل صفّاً واحداً».

ممنوع مرور الشاحنات بين القصرين ومقتل امرأة بحادث سير:

يخبرنا المقرئ «أنّ القاهرة كانت توقر من مرور أحمال التبن
والحطب ونحوهما»، أي أنها كانت موقرة محترمة أيام الفاطميين.

وأخبرنا أيضاً أنّه «لا يمر بشارع بين القصرين حمل تبن ولا
حمل حطب ولا يستطيع أحد أن يسوق فرساً فيه، فإن ساق أحد،
أنكر عليه وخُرق به»^(٢).

وكما مسؤولو السير ينصحون باعتماد الأنفاق والجسور
للتخفيف من عجقة المواصلات، كان الفاطميون يعتمدون كذلك
الأنفاق والجسور، وكانت الأنفاق مخصصة للشاحنات الكبيرة
كالجمال والفيلة^(٣).

أما إضاءة كلّ الطرقات، ووضع راوية ماء وحنفية أمام كلّ محل،
فكنا قد أشرنا إليها، فهي عادة من عادات المصريين، والزامية، من
أيام الخليفة العزيز بالله.

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٨٧.

(٢) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٢٨ - ١١٩.

(٣) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٥٧.

ويخبرنا المسبّحي عند حديثه عن مجريات سنة ٤١٥ هـ «أنّ امرأة عبرت بسوق الحمام، فصدمها سقاء على جمل سقطت ميتة لوقتها»، فقامت الشرطة بالقبض على السائق واعتقلته رهن التحقيق ودفع دية المرأة المقتولة^(١).

التنظيم المدني يخطّط الحارات والأزقة، ويسمح بالبناء حتى الطابق الرابع عشر:

عندما مر الرحالة الفارسي ناصر خسرو في مصر والقاهرة، وصف لنا هذه المدينة بقسميها القديم (الفسطاط أو مصر) والجديد القاهرة. وقال إنّهُ استأجر منزلاً من ثلاثة طوابق مساحة كلّ طابق عشرين ذراعاً بـ إثني عشر ذراعاً ($20 \times 12 \times 0,67 = 160$ م^٢) لكلّ طابق، بخمسة عشر ديناراً في الشهر، وهذا الإيجار لمنزل مساحته ٤٨٠ م^٢ ليس بالكثير وخاصة أنّ الطابق الرابع الخالي، يأتيه صاحبه مرتين في السنة، وعندما يقوم التاجر باستئجار الطابق لقاء نزوله فيه مرتين في السنة، دليل الثراء والترف الذي يعيشه ذلك التاجر.

وعندما يصف لنا طريقة بناء البيوت نشعر بتدخل الدولة وإعطائها رخصاً حسب ما يقرره المسؤول عن تنظيم مدينة القاهرة، فهو يقول: «وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول إنّها بُنيت من الجواهر لا من الحجارة. وهي بعيدة عن بعضها، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر» مما يعني أنّ البيت لا يسمح بعماره إلا إذا

(١) راجع: أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ٢١٢.

كان له حديقة محيطة به. ويؤكد لنا ناصر خسرو هذا الأمر حين يقول: ويستطيع مالك كل بيت أن يقوم بما ينبغي لبيته من هدم أو إصلاح في كل وقت، دون مضايقة جيرانه^(١).

بستان على سطح الطابق السابع ومضخة ماء تسقيه:

يقول لنا ناصر خسرو في مشاهداته أنه شاهد في مصر بيوتاً مكوّنة من أربعة عشر طابقاً، وبيوتاً من سبع طوابق، وشاهد حديقة على سطح الطابق السابع فيها من جميع الأشجار والأثمار والورود، حمل إليها عجل فور ولادته ثم ترك فيها حتى كبر، ونصب العجل على ساقية فوق المبنى يرفع الماء من الساقية ويصب في البركة التي توزع الماء على كل الطوابق وتسقى الحديقة^(٢).

مضخة ترفع الماء إلى الطابق الرابع عشر:

مهما كانت مشاهدات ناصر خسرو مضخمة، أو فيها شيء من المبالغة، فهي تعطينا صورة حيّة عن حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي، بل صورة ناطقة. فالقاهرة ومصر، لم يعرفا البنايات العالية التي تبلغ أربعة عشرة طابقاً قبل سنة ١٩٥٠، وصور الأفلام التي تعرضها الشاشات العربية، والتي تم تصويرها قبل سنة ١٩٥٠ م أفضل دليل.

ولكن عندما يحدثنا ناصر خسرو عن بنايات ورباع القاهرة،

(١) راجع: سفرنامه، م.س. ص ٩١.

(٢) م.س. نفسه، ص ١٠١.

يقول: «وبمصر بيوت مكوّنة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات، وسمعت من ثقات أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار، وحمل إليها عجلًا ربّاه فيها حتى كبر، ونصب فيها ساقية، كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر»^(١).

ومضخة هذا الأيام الكهربائية لا تعيش أكثر من عشر سنوات ثم تتعطّل، بينما مضخة المصريين، أيام الدولة الفاطمية ربما عاشت ثلاثين سنة، وبعد أن تشيخ، لا ترمى كمضخة اليوم، بل يستفاد من لحمها.

وقد أكد المقرئزي طريقة نقل الماء إلى القصور والدور والبنائيات، حيث قال: «أنّها كلّها تأخذ من مجاري الماء مرفوعاً من النيل والآبار بدواليب تديرها الأبقار، من موضع إلى موضع ثم إلى آخر، حتى ينتهي الماء إلى القصور، وإلى دور الأمراء والخواص فيجري الماء في دورهم، وتعمل به حمّاماتهم وهو من عجائب الأعمال، فقد يصل ارتفاع رفع الماء إلى خمسمائة ذراع من مكان إلى مكان»^(٢).

ويخبرنا المقرئزي أنّ عدد مقاسم الماء التي كانت تجري في دار الوزارة أيام شاور السعدي «مائة وعشرون مقسماً للماء يجري في بركها ومطابخها وحمّاماتها».

(١) سفرنامه، م. س. ص ١٠١.

(٢) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢١٠.

لا بناء بدون رخصة. وبيع الشقق السكنية بالتقسيط المريح:

يخبرنا المقرئ أن المأمون البطائحي، تبين له أن هناك بعض البيوت والعمارات الخربة في مصر والقاهرة، فأمر المنادي بأن ينادي لمدة ثلاثة أيام، أن كل من كانت له دار خراب فليعمره ولا ضرورة للرخصة بعماره، ومن عجز عن تعميره فليؤجره لمن يعيد ترميمه مقابل الإيجار، ومن رفض، فإن الدولة ستصادر، فأسرع أصحاب الأملاك وأعادوا ترميم دورهم. وكل ذلك حفاظاً على بقاء القاهرة درة عقد العروبة والإسلام.

وكانوا يؤكدون على وجود «المشرفات» الشرفات في كل اتجاهات البيت، كون الشرفة العالية هي منظر منها أهل الدار على كل ما ومن يمر أمامهم في احتفالاتهم واستعراضاتهم العسكرية وغيرها، وخاصة لأن أيام الاحتفالات والأعياد، كانت أيام الدولة الفاطمية تتعدى إلى ٢٥٠ يوماً.

وعندما يحدثنا المقرئ عن الوزير أبي الفرج عبدالله بن محمد البابلي، وكيف ترقى في الدواوين حتى بلغ رتبة الوزير الأول قال إنه «اشترى داراً بخمس مائة دينار وطلب من الوزير اليازوري أن يقطع ثمنه من جاريه (راتبه) مائة دينار في الشهر، فوقع له الوزير اليازوري بالموافقة»^(١).

وكان هناك سكن بطريقة الإيجار في القاهرة ولكن يحق للمالك طرد المستأجر ساعة يشاء وعندما أعاد الوزير المأمون ابن

(١) راجع: اتعاظ الحنفاء الجزء الثاني، ص ٢٤٨.

البطايحي تأهيل قصر اللؤلؤة أجلى كل مستأجري البيوت المحيطة بالقصر، وترك فقط كل من يملك بيتاً في ملكه واستأجر البيوت المؤجرة من أصحابها، وأسكن فيها المستخدمين وخدم الخليفة.

وكان الفاطميون قد زرعوا القاهرة ومصر القديمة حدائق وبساتين، وأماكن نزهة لهم ولكافة الشعب المصري. وكانوا يبنون في كل بستان وحديقة ومنتزه، منظرية عالية في وسطها، يفرشونها بما يليق بمقامهم ومقام حاشيتهم وضيوفهم. يقفون فيها وينظرون منها إلى ما يحيط بها.

وكانت شوارعهم نظيفة واسعة، ترش بالماء كل يوم، وتكنس من قبل موظفي «البلدية»، وكانت دكاكين أسواقها «أنزه ما يرى»، فإنها كانت كلها مرخمة بأنواع الرخام الملون وبها حنفيات ماء تجري إلى فوارت تقذف بالماء على ذلك الرخام، فيستحسن منظرها للغاية لأنها على الجانبين»^(١).

وكنا قد أشرنا إلى خريطة العالم التي كان يملكها الخليفة المعز لدين الله والتي أخرجت مع ما أخرج من قصر المستنصر أيام المجاعة التي حلت بمصر، مما يدل على اهتمام هؤلاء الناس بكل ما هو يمت إلى الهندسة والمساحة والتنظيم المدني، حتى توصل بهم الأمر لبناء مدرجات للفرجة بالأجرة حيث أمر الخليفة الأمر «ببناء دار واسعة ليتفرج منها الناس عند كسر خليج القاهرة بالكراء». وليس الهدف تجارياً على ما أظن، فكل ما كان يجبيه الخلفاء

(١) راجع: الخطط المقرية، الجزء الثاني، ص ٣٢.

الفاطميّون من مال وذهب، كانوا يعيدونه إلى رعيّتهم، بشتى أنواع الطرق، ولكنّ تنظيم حياة الناس هو المؤشّر الوحيد لرقى الدول. والدولة الفاطمية، استطاعت أن تحقّق أفضل التنظيمات التي حقّقت الأمن والأمان والرقى للشعوب التي كانت تحكمها.



مؤسسة مقياس النيل أو فتح الخليج

كان نهر النيل وما يزال، عصب الحياة لدى مصر والمصريين، فهو جغرافيتهم وتاريخهم وسبب معاشهم، ومسبب حضارتهم «وليس للعالم كله نهر، له من الفضل على قطر وساكنيه، ما لنهر النيل من الفضل على مصر وساكني مصر، بل إن للنيل فضلاً على العالم كله، الذي تعلّم أبناؤه من وادي النيل، مبادئ الحضارة والعمران، يوم لم يكن حضارة ولا عمران، إلا ما نشأ ونما في هذا الوادي الخصيب»^(١).

وكان المصريون أيام الفراعنة يعبدون النيل، ويقدمون له القرابين، كالفتيات الصغيرات الجميلات، وما زالت هذه العادة معمول بها إلى أن أتى الإسلام ومنعها.

ولما كان النيل هو كل شيء بالنسبة للمصريين، كانوا يقيمون له الاحتفالات والأعياد، وخاصة إذا كان موسم غزيراً فائضاً. وكانت غزارته لها حد معين فإذا بلغ حده، عمّت الفرحة والبهجة سائر الأصقاع المصرية.

(١) نهر النيل، محمد عوض محمد، ط ٥، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٨٠، ص (١).

وكانت أيام الخير هي أيام فيضان النيل، وأيام الجفاف يطلقون عليها أيام التجاريف.

وقد عني المؤرخون المصريون عناية زائدة بتسجيل تقلبات النيل، من نقص وفيضان، وكانوا يرصدون كل سنة أدنى مستوى يصل إليه النهر أيام التجاريف، وأعلى مستوى يصل إليه أيام الفيضان.

وقد أقام الفاطميون مؤسسة بعناصرها، تشرف على أخذ مقياس النيل أيام التجاريف، وأيام الفيضان، وعيّنوا لها الموظفين، وخصّصوا لها الميزانية الكافية، لتنظيف السدود والمجاري التي على أساسها ومن خلالها يؤخذ مقياس النقص والزيادة.

النسبة المطلوبة لارتفاع الماء سنوياً:

بالعودة إلى كتب المؤرخين المصريين أمثال ابن عبد الحكم وابن زولاق وابن أبيك الدواداري والمقرئزي وأبي المحاسن ابن تغري بردي، نستنتج أنّ مستوى النهر أيام التجاريف، أي الحد الأدنى للمستوى الذي يصل إليه النهر خلال السنة، يتراوح بين حوالي أربعة أذرع وسبعة أذرع (بين ٢,٧ م و ٤,٧ م)، والمستوى الأعلى المطلوب لاعتبار السنة، سنة خصب، كان بين ستة عشر ذراعاً وعشرين ذراعاً (بين ١٠,٧ م و ١٣,٤ م)، وكان الفاطميون يقررون الضرائب والجبايات، حسب نتيجة المقياس التي يصدر عن مؤسسة المقياس.

كان أخذ المقياس يتمّ باحتفال مهيب، أو عيد يطلقون عليه عيد

«فتح الخليج» أو كسر الخليج، أي فتح القرع وفتح خليج القاهرة، حيث يسمحون بهذا اليوم بتسرّب الماء إلى سائر قنوات الرّي.

وسوف نستعرض بعض المواقف والبيانات والقرارات والمواقف الميدانية، التي كان الخلفاء الفاطميّون والموظّفون الرسميّون المولجون بعملية أخذ المقياس يقومون بها، كي نكون فكرة واضحة عن مدى تأثر حياة المصريين بهذا النهر العظيم، ومدى تأثيره بحياتهم ومعيشتهم وحضارتهم.

سر نهر النيل:

كان النيل في العصور القديمة وحتى أيام الفاطميّين، يشكّل سرّاً من الأسرار، «هذا السر الذي لم يتم حلّه إلا في عصرنا هذا، وقد شغل المفكرين منذ ستة آلاف من السنين»^(١).

وكان المصريون القدماء يعرفون أنّه ينبع من باطن الأرض وكانوا يعظّمونه تعظيماً لا مثيل له وكانوا يعتبرونه مصدر كلّ خير وغنى وحياة في مصر. وقد نظم الفرعون أخناتون قصيدة جميلة فيها كلّ ما يراه المصري القديم والفاطمي والمعاصر في هذا النهر العظيم.

قصيدة الفرعون أخناتون في وصف نهر النيل:

وقد ترجم برستد، صاحب كتاب تاريخ مصر قصيدة لفرعون مصر أخناتون يصف بها نهر النيل. وقد جاء في هذه القصيدة^(٢):

(١) نهر النيل، م.س. ص ٢.

(٢) نهر النيل، م.س. ص ٤.

أيها الإله الأعظم أتون
أنت خلقت النيل في العالم الأرضي
وأنت تخرجه بأمرك فتحفظ به الناس
يا إله الجميع، حين يتسرب إليهم الضعف.
يا رب كل منزل، أنت تشرق من أجلهم
يا شمس النهار، يا من تخشاه البلاد القاصية
أنت موجد حياتهم
أنت الذي خلقت في السماء نيلاً
لكي ينزل عليهم ولهم
يتساقط الفيضان على الجبال كالبحر الزاخر
فيسقي مزارعهم وسط ديارهم
ما أبدع تدابيرك يا إله الأبدية
في السماء نيل للأمم الغربية
ولماشية البلاد الأخرى ودوابها. ولكل ما يمشي على رجلين
أما النيل الذي يروي مصر فإنه يجيء من باطن الأرض.
وفي هذه القصيدة عدا جمالها الشعري - مقارنة جميلة بين
البلاد القاصية التي ترونها الأمطار من السماء - وبين مصر التي
يرونها نهر يجري في الأرض.
ومن المفيد أن نورد هنا قصيدة أخرى في تمجيد النيل ترجع
إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، نقتبس منها الجزء الآتي:

حمداً لك أيه النيل! الذي يتفجّر من باطن الأرض؛ ثم يجري
ليغذي مصر

فهو الذي يسقي المروج، وقد خلقه رع لكي يطعم كلّ دابة
وماشية

ويرسل الماء إلى الجهات البعيدة، فيروي مجديها، ويطفئ ظمأها

إله الزراعة (كاب) يحبه، وإله الصناعة (فتاح) معجب به

فلولاه ما ازدهرت الزراعة ولا الصناعة

ولولاه ما حصد القمح والشعير وامتلات بهما الخزائن

وأقامت الهياكل حفلات الشكر على الغلة الموفورة والخير العميم

والويل للأرض ومن عليها حين يقل ماؤه. ويجيء فيضانه

شحيحاً قليلاً

هناك تهلك النفوس وينادي الجميع بالويل والثبور

حتى إذا ارتفع وفاض، انتشر الفرح والابتهاج في كلّ مكان

وضحك الجميع حتى بدت أسنانهم.

هو الذي أنبت الشجر في كلّ بقعة، ووفر الأخشاب لبناء السفن.

ولولاه ما كانت الجواري تشقّ عباب اليمّ

فواعجبا له من ملك عظيم! ولكنه ملك لا يجبي اتاوة

ولا يفرض ضريبة... صادق الوعد، وفي بالعهد

يجيء خيره كلّ عام بإطراد وانتظام إلى مصر العليا ومصر

السفلى

يسبغه على الغني والفقير، والقوي والضعيف من غير تمييز أو محاباة.

إن الخير الذي يجلبه أجل نفعاً من الذهب والفضة. وأعلى قدراً من الجواهر

إنَّ الناس لن تاكلَ الذهب وإن كان صرفاً،

ولن تتغذى بالجواهر وإن كان حراً نقياً.

وقد أثبتت هذه القصيدة لإظهار مدى تعلق المصريين بهذا النهر العظيم منذ أقدم العصور، وقد أخبرنا ناصر خسرو أنَّ الخليفة المستنصر «سلطان مصر، أرسل بعثة لتتبع شاطئ النيل، سنة كاملة، ودرسه، ولكن أحداً لم يعرف حقيقة منبعه، ويقال إنه يأتي من جبل في الجنوب، يسمّى جبل القمر»^(١).

ونقل ابن إياس عن المسبّحي أنَّ أيام التجاريف كانت قاسية في إحدى سني الحاكم بأمر الله، وقيل له إن السبب هو أهل الحبشة، «فقد غيروا مجرى النيل» فأرسل الحاكم بطرك النصارى إلى ملك الحبشة، فلما وصل البطرك، ودخل على ملكهم، «أكرمه وسجد له» وسأله عن سبب قدومه عليه، فعرفه أنَّ النيل قد نقص ولم يزد في مصر شيء، وقد الحق هذا النقص الضرر بالمصريين، «فأمر ملك الحبشة بفتح سدّ عندهم» الذي يجري منه إلى مصر ماء النيل، بسبب قدوم البطرك عليه، فزاد النيل في ذلك زيادة قوية حتى أوفى^(٢).

(١) ناصر خسرو، م.س. ص ٨١.

(٢) راجع: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء ١، القسم ١، ص ٢٠٤.

ولا أظن أن هناك سداً بهذه الضخامة في الحبشة يستطيع أن يحبس ماء هذا النهر العظيم، ولكن إيراد هذه الخبرية، يؤكد مدى تعلق المصريين وتعلق أسباب رخائهم وفقدهم على ازدياد أو نقص مياه هذا النهر العظيم.

وصف حالة المصريين في حالة الفيضان:

يصف ناصر خسرو شاطئ النيل على الجهتين فيقول: ويتفرع من النيل فروع كثيرة تسير في الأطراف كما يتفرع منه ترع صغيرة. وعليها تقع الولايات والقرى. وشيدت قرى مصر كلها على المرتفعات والتلال، وذلك حتى لا تغرق، فإن الماء يغمر البلاد كلها وقت الفيضان، وحينئذ يسرون من قرية إلى أخرى بالزوارق، وقد أنشأوا على شاطئ النيل، من أول مصر لآخرها، طريقاً من الطين ليسير عليه الناس بجانب النيل.

ويحدد لنا ناصر خسرو المدة التي يغمر فيها ماء النيل القرى حوله، فيقول إنها أربعون يوماً تبدأ بالتزايد حتى تصل إلى ثمانية عشر ذراعاً أو عشرين، ثم أربعين يوماً، وتنحسر فيها فتعود إلى الستة عشر ذراعاً. ويقول إن الفلاحين يلحقون انحسار المياه، فيزرعون كل قطعة أرض انحسر عنها النيل، فوراً^(١).

وقد وصف أحد الشعراء فيضان النيل ونقصه فقال:

واهألهذا النيل أي عجيبة بكر بمثل حديثها لا يُسمعُ
يلقى الثرى في العام وهو مُسلمٌ حتى إذا ما حلَّ عاد يُودعُ

(١) راجع: سفرنامه، ناصر خسرو، ص ٨٢.

مستقبل مثل الهلال فدهرهُ أبدأ يزيد كما يزيد ويرجع
وقد أخبرنا المقرئزي أنه كان للنيل مجرى غير هذا المجرى،
وهذا من باب التخمين، وليس حقيقة، فالدراسات المعاصرة، أثبتت أن
مجرى النيل هو هو لم يتغير، ولكنه أحدث أنهار إفريقية تفجراً، حيث
أن صخور مجراه أحدث بكثير عمراً وزمناً من صخور ومجاري
غيره من الأنهار الإفريقية.

٦

مؤسسة أخذ المقياس بإدارة آل أبي الرّداد:

عندما جاء الفاطميون إلى مصر واستوطنوها، كانت مؤسسة أخذ
مقياس النيل موجودة، ولكنهم طوّروها واهتموا بها وبالمسؤولين عنها.
قال ابن خلّكان: ابن أبي الرّداد المؤذن، صاحب المقياس بمصر،
كان رجلاً صالحاً، تولّى مقياس النيل الجديد. بجزيرة مصر، وجمع
إليه النظر في أمره، وما يتعلّق به في سنة ٢٤٦هـ، واستمرّت في
ولده إلى الآن (٦٨٠هـ).

وعن عمود المقياس أو الذي يحدد مدى ارتفاع الماء أو انخفاضه
قال ابن خلّكان: وهذا المقياس وضعه أحمد بن محمد الحاسب
القرصاني بأمر المتوكّل على الله.

وكان المتوكّل على الله قد أمر بنقش هذا العمود بالرخام من
جميع الجهات، بطول عشرين ذراعاً. وقد نقش عليه أربع آيات
متساوية المقادير في حجم الخطوط، كلّ آية على جهة من جهات
العمود، وكتبت بشكل مسطّر، تحت الخط الذي يصل فيه العمود إلى
سنة عشر ذراعاً، وفي الذراع السادس عشر، فصلت الآيات عن

القسم الأعلى بحزام على دائر العمود، وكذلك فصل بنطاق آخر في الذراع الثامن عشر. أما القسم الذي يلي الذراع الثامن عشر، فقد جاء «منقوشاً كله، محفوراً مصبوغاً باللأزورد المشمّع، وما فوق الذراع التاسع عشر، وضع فيه رأس وعارضة ممسكة له، فطلّي كله بالذهب ونصب أمام عمود المقياس تمثال سبع يخرج الماء من فمه إذا بلغ النيل الذراع السادس عشر. وكانوا يعتبرون الحد المطلوب لفيضان النيل وزيادته ستة عشر ذراعاً، فإذا زاد عن ذلك فاض على القرى والبلدات المحيطة بشاطئيه. وحول واديه إلى بحيرة واسعة تستمر أكثر من ثمانين يوماً بين بدء الفيضان والتراجع إلى المجرى^(١).

وكان المتفق عليه في تاريخ مصر الإسلامية، أن يحتفل بوفاء النيل إذا بلغ الفيضان ستة عشر أو سبعة عشر ذراعاً، ويعتبر النيل مقصراً إذا قلّ عن الرقم الأول، ويعتبر خطراً إذا زاد عن الرقم الثاني.

وكانت النصارى تتولّى مقياس النيل قبل الفتح العربي إلى زمن الخليفة المتوكل كما أشرنا. فعزلهم واليه على مصر، سليمان بن وهب، واختار «الرجل الصالح المسلم عبدالله بن عبد السلام بن أبي الرداد المؤذن»، وكان راتبه الشهري لقاء الإشراف على مؤسسة المقياس سبعة دنانير ذهباً، وبقيت هذه الوظيفة في أبنائه (ابن أبي الرداد) حتى أواخر القرن التاسع الهجري، وأصبح هذا الاسم علماً على هذه المؤسسة. فلا تمرّ سنة إلا ويذكر هذا الاسم في كتب المؤرخين، حين يشيرون إلى مدى زيادة ماء النيل أو نقصانه.

(١) ابن خلكان، الجزء الثالث، ص ١١٣.

أهمية أخذ مقياس النيل وأثره على الاقتصاد المصري:

كان الناس في كل أنحاء مصر، ينتظرون وفي أثناء بدا ارتفاع منسوب نهر النيل، البيان الرسمي الذي تذيبه مؤسسة المقياس، وعلى النتائج التي يعلنها البيان، تتوقف حالة ارتفاع الأسعار واحتكار الأصناف واختفائها من الأسواق أم العكس. فإذا كان البيان يشير إلى وصول منسوب النهر إلى الارتفاع المطلوب، الذي يحقق تدفق المياه في كل قنوات الري الموجودة على طول ضفتيه في القطر المصري، والمنسوب المطلوب هو ستة عشر ذراعاً، يهرع التجار إلى عرض بضائعهم بكثرة، دون تخزينها أو حجبها، مما يؤدي إلى هبوط أسعار السلع بناء لنظرية العرض والطلب. أما إذا أتت نسبة ارتفاع مياه النهر أقل من ستة عشر ذراعاً، فيعهد التجار إلى إخفاء السلع والبضائع مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار.

مركز بحوث وتطوير علوم مصر

عمرو بن العاص يربط قيمة الجزية بنسبة ارتفاع مياه النهر:

ذكرت كتب التاريخ أنّ أول من ربط الضرائب والجزية التي كان الحكام المسلمون يستوفونها من المصريين، هو عمرو بن العاص، وكانت تتراوح بين دينارين وأربعة دنانير على كل إنسان، وذكر أبو المحاسن ابن تغري بردي، أنّه بعد مداولات بين عمرو بن العاص وبين المقوقس، أنّهم «اجتمعوا على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يُفرض على جميع من بمصر، أعلاها وأسفلها، من القبط ديناران على كل نفس، شريفهم ووضيعهم، ممن بلغ منهم الحلم، ليس على الشيخ

الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء»^(١).
ونُقل عن ابن معاتي أنه: «إذا أوفى النيل ستة عشر ذراعاً، فقد
وجب الخراج، وإذا زاد عن ذلك ذراعاً زاد الخراج مائة ألف دينار،
وإذا نقص ذراعاً نقص الخراج مائة ألف دينار»^(٢).

ال خليفة المعز لدين الله يمنع إذاعة نتائج ارتفاع منسوب النيل:

قال المقرئزي: «ومنع المعز من النداء بزيادة النيل، وألا يكتب
بذلك إلا إليه وإلى جوهر، فلم تمّ ست عشرة ذراعاً، أباح النداء». ٢٤
وعقب ابن زولاق على هذا الكلام فقال: فتأمل ما أبدع هذه السياسة،
فإن الناس دائماً إذا توقّف النيل في أيام زيادته، أو زاد قليلاً يقلقون،
ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل، فيقبضون أيديهم على الغلال،
ويمتنعون عن بيعها رجاء ارتفاع السعر. ويجتهد من عنده مال في
خزن الغلة، إما لطلب السعر، أو لطلب ادّخار قوت عياله، فيحدث بهذا
الغلاء، فإن زاد الماء انحلّ السعر، وإلا كان الجذب والقحط، ففي
كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجلّ عائدة»^(٣).

ميزانية سنوية لتنظيف مجاري المقياس:

لما كانت معرفة منسوب ارتفاع ماء النيل أمراً مهماً في الحياة
المصرية، لانعكاسه على الأسعار والتجارة، والزراعة، كان الفاطميون

(١) النجوم الزاهرة، الأول، ص ٢٢.

(٢) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، م.س. ص ٢٢٤.

(٣) اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، م.س. ص ١٣٩.

يهتمون كثيراً بمعرفة نسبة الارتفاع الحقيقية لمياه النهر، لذلك كان من الواجب تنظيف مداخل ومخارج المجرى الذي رفعوا فيه عمود المقياس، وكنسه من كل الرسوبات والحصى. من هنا، جعلوا لهذا المقياس ولمجاريه ميزانية سنوية تصرف عليه للمسؤول عنه، ابن أبي الرداد.

قال المسبّحي عندما وصف نزهة الخليفة الظاهر ابن الحاكم إلى منظره المشتبه في الخليج: «وكان الشريف أبو طالب العجمي قد تنكر على ابن أبي الرداد وأهانته وتقابحا في الكلام، فضربه الشريف واعتقله». ويعرفنا المسبّحي أنّ السبب هو رفع التقارير الكاذبة عن نسبة ارتفاع الماء، مما يضطره إلى تعيين مراقبين على ابن أبي الرداد فيقول: فأقام قاضي القضاة أحمد بن أبي العوام - أبو العباس - مشرفين على ابن أبي الرداد، ليرفعا إليه ما يصحّ من أمر المقياس، فوجدا أنّ مجاري الماء مسدودة، رغم أنّ ابن أبي الرداد يتناول كلّ سنة خمسين ديناراً لكنس المجاري. ووجد الماء قد انتهى إلى حدّ، فلما فتحت المجاري، طلع الماء إلى حدّ أكثر من الحد الذي كان عليه»^(١).

ومن حينها أصبحت وظيفة مراقب ابن أبي الرداد وظيفة دائمة، فيخبرنا المقرئ على سبيل المثال، أنّ المشارف (المراقب) على ابن أبي الرداد سنة ٥٢٢هـ، كان محمد بن ميسّر - أبو عبدالله -

(١) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ٢٢٩.

طريقة الاحتفال بأخذ المقياس: هبات وخلع وثياب، وذهب وأكل وشرب وقراءة قرارات:

وصف المقرئ احتفالات أخذ المقياس أو كسر الخليج نقلاً عن ابن زولاق فقال: وفي سنة ٣٦٢هـ، ركب المعز لدين الله لكسر الخليج فكسر بين يديه.

وكتب ابن المأمون يصف طريقة الاحتفال بفتح الخليج ويصف ما ينفقه الفاطميون في هذا الاحتفال على الناس ومراسم الاحتفال فقال:

«وفي سنة ٥١٨هـ، وصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج وهي برسم الخليفة، تختان ضمنهما بدلتان: إحداهما برسم المضي والآخرى برسم العودة. وكذلك ما يختص إخوته وجهاته، لكل منهم بدلتان مذهبتان وأربع حلل مذهبية وبرسم الوزير بدلة موكبية مذهبية، وبرسم أولاد الوزير الثلاثة، ثلاث بدلات مذهبية، وبرسم جهات الوزير، لكل واحد حلّة (بدلة)، وبقيّة ما يخص المستخدمين (الموظفين)، وابن أبي الرّدّاد، تحوت في كلّ تخت، عدّة بدلات.

وحضر متولي الدفتر واستاذن الخليفة لتوزيع ما يحمل في هذه المناسبة (برسمه، وما يفرّق وما يفصل برسم الخلع (الثياب)، وما يفصل برسم غلمان الخاص (الحرس الخاص) وذلك ما قدره سبعمائه بدلة، وما يصرف برسم رؤساء العشائر (السفن) المشتركة في الاحتفال من شقق الثياب والمناديل (العمائم) والفوط الحريري الأحمر، وما يعرف برسم النواتية (البخارة). فوق الخليفة بإنفاق جميع ذلك.

ثم وقع الخليفة لمتولي الدفتر مطالعة ثانية ابتيع بموجبها

«برسم ما هو مستمر» فبلغ من العين (الذهب) أربعة آلاف وخمسمائة دينار ومن الورق (الفضة) خمسة عشر ألف درهم مرفقة بجدول يفصل الكسوات والهبات بأسماء أربابها.

وحضر متولي المائدة الأميرية بمطالعة يستدعى ما جرت به العادة في هذا الموسم من الحيوان والضأن والبقر، وغير ذلك من الأصناف برسم التفرقة والأسمطة (الموائد). وحضر متولي دار التعبئة (مخزن الشراب والحلويات) يستدعي لبيتاع الأثمار والأزهار، ولترتيب هيئة المتعينين لتعبئة منظرة السكر لأجل حلول الخليفة بها ومقامه فيها. وتعبئة جميع مقاصيرها المخصصة للأستاذين والأقارب والحاشية، ورسمها مئة دينار، فوقع الخليفة بإطلاقها.

وفي العاشر من شهر رجب سنة ٥١٨هـ، وفي النيل ستة عشر ذراعاً، فتوجه الوزير المأمون إلى الخليج فرميت العُشاريات بين يديه، وقد جُددت ورُيّنت جميعها بالستائر الملونة، والكوامخ والأهلة (جمع هلال) الذهب والفضة. وشمل الإنعام أرباب الرسوم على عاداتهم. وعدى الوزير في إحدى العُشاريات إلى عمود المقياس وخلق العمود (رشه بالعطر)، بما جرت به عادتهم، من الطيب (العطر)، وفرقت الرسوم، وانكفأ الوزير المأمون إلى دار الذهب وأمر بإطلاق مخصصات المبيت في المقياس لجميع الشهود والمتصدّرين والقراء وهي: العشرات من القناطير:

١ - من الخبز عشرة قناطير.

٢ - عشر خراف مشوية.

٣ - عشر شمعات.

ثياب تذهل الأبصار:

وأول من يحضر للمبيت، الشريف الخطيب، سيد المقرّبين وإمام المتصدّرين، وله وللجماعة التي تبیت معه من الدراهم التي تفرّق أوفى نصيب.

ويصف ابن المأمون خروج الخليفة بعد تأمين كلّ مسلتزمات الاحتفال بفتح الخليج أو أخذ المقياس فيقول:

«وخرج الخليفة بزّي الخلافة ووقارها وناموسها بالثياب التي تذهل الأبصار. والعمامة بالشدة العربية التي ينفرد بلبسها في الأعياد والمواسم الخاصة. وكانت تُسمّى عندهم شدة الوقار، وكانت مرصعة بغالي الياقوت والزمرد والجواهر. وعندما يلبسها، تخفق لها الأعلام ويُتجنب الكلام ويُهاب. ولا يقرب منه غير الوزير، فيقبل الأرض من بعيد من غير دنو. ثم يمشي بين يديه من مقدّمي خزائنه من يحمل سيفه ورمحه المرصعين بأفخر ما يكون، ثم المذبتان التي لكلّ منها عمودها الذهب. وينفرد بحملها الصقالبة».

١٢٤

الخليفة يمشي على بسط من حرير:

ويتابع ابن المأمون واصفاً احتفال الخليفة الأمر بفتح الخليج فيقول:

«ويمشي بين الصّفين المرتّبين راجلاً على بسط حرير فُرشت له، وكلّ الواقفين على الصّفين يتناهى في مواصلة تقبيل الأرض للخليفة، إلى أن وصل إلى مجلس خلافته، وصعد على الكرسي المغشّى بالديباج، المخصّص لركوبه، وقد اصطفّ رواض وأزمنة

(مسؤولو) الإصطبلات أمام خيلهم. وقُدِّم إليه ما وقع اختياره عليه (من الخيل)، وأمر بأنَّ تجنب (تسرج) البقية في الموكب بين يديه. ولما اعتلى ما قدم إليه، استفتح مقرئو الحضرة.

وخرج الخليفة، فتلقيه صبيان ركابه العشرة المقدمين أرباب الميمنة والميسرة، وصبيان وراء صبيان، وصبيان الرسائل، وصبيان السلام، كلٌّ منهم في الخدمة المعينة له، لا يخرج عنها لسواها، وجميعهم بالعمائم المعلّمة. وكلّهم أولاد أعيان وأهل فهم ولسان، ليس فيهم عبيد شراء ولا سودان. ولما خرج الخليفة من باب الذهب، ضربت البوقات، واجتمع الرهجية من كلّ مكان، ونشرت المظلة فوق رأسه، فاجتمع إليه الزويلية (بني زويلة) بالعُدَد، وظلّل بها، وسارت بسيره، والقرآن الكريم عن يمينه ويساره، والحجرية الصبيان المنشدون، وسار الموكب بحملته على ما ذكر، والترتيب بإمرة متولّي الباب وحجّابه، ثم يتلوه متولي الستر، وكلّ منهم على حكم الدارج، لا سبيل إلى خروج أحدهم عمّا رسم فيه.

وسار الخليفة إلى الخليج بجملّة موكبه، كأنّه بين حصنين مانعين، من طوارق عسكره، فارسها وراجلها، كلّ طائفة يتقدّمها زمامها، وقد ازدحموا في صفوفهم بالعدد المذهبة الحربية، والآلات المضيئة، وليس بينهم طريق لسالك، وقد زُيِّنَت أمامهم جميع الطرق: حوانيتها وبيوتها وجميع مساكنها وأبواب حاراتها، بأنواع من الستائر والديباج على اختلاف أصنافها وأصناف السلاح.

رش الذهب على الجانبين:

ويتابع ابن المأمون وصف الموكب فيقول:

وملأت النظارة الفجاج والبطاح والوهاد والروابي والصدقات والرسوم تعم أهل الجانبين من أرباب الجوامع والمساجد، وبوابي أبواب الحارات والسقّاتين والفقراء والمساكين في طول الطريق.

ووصل الخليفة إلى المضارب في حراسة شديدة، فتقدّم الوزير إليه وأخذ شكيمة الفرس من يد الرّواض. وشقّ به الخيام التي جمعت جميع الصور الآدمية والوحشية، وقد فرشت جميعها بالبسط، إلى أن وصل إلى القاعة الكبرى فيها، وجلس على سرير خلافته، وفي محل عظمته وأجلس وزيره على الكرسي الذي أعدّ له. وختم المقرئون القرآن العظيم. وقدم غزّيّ الملك شعراء المجلس على طبقاتهم. وعند انقضاء الاحتفال، اعتلى الخليفة الفرس والوزير يمسك الشكيمة بيده، وانتظم موكباً عظيماً والقراء في ركابه عوض الرهجية، وانفصلت خدمة جميع الأمراء والضيوف عنه بأحسن وداع من تقبيل الأرض.

قراءة القرآن، وضربات الفعلة يترافقان أمام الخليفة أثناء فتح السدود والقرع:

وتابع ابن المأمون واصفاً مراسم احتفالات فتح الخليج والخليفة في منظرة «السكر» المعدة لتفرّج الخليفة وحاشيته على طريقة أخذ المقياس وفتح السدود فقال:

وصعد الخليفة ووزيره وأولاده وإخوته والأصحاب والحاشية إلى «السكر»، وهي من جنّات الدنيا المزخرفة، وتلقاه أخوه بعظمة

سلامه، وقبل الأرض بين يديه وجلس لوقته. وفتحت طاقات المنظرة، وأخوه ووزيره جالسان عن يمينه ويساره، وعندما شاهدته الناس قبل جميعهم الأرض احتراماً له، وأداموا النظر نحوه، والمستخدمون والفعلة جميعهم على السد، مشدودو الأوساط «واقفين» عليه، فلما أمرهم الوزير أن يكسروه، قبلوا الأرض جميعاً وابتعدوا عنه، وتولته الفعلة «الواقفين» من جانبيه في البساتين السلطانية، بالفتح وقراءة القرآن من قبل المقرئين، والتكبير من قبل الناس والمتفرجين. ولما كمل فتحه، انحدرت العشاريات عن آخرها، الصغير اللطيف منها يتقدم الكبير، وجميعها مزينة بالذهب والفضة والستائر المرقومة. وجميع رؤسائها وخدامهم، يلبسون الكسوات الجميلة.

أما المقرئ فيصف هذا الاحتفال بقوله: ويقف الوزير وأرباب الرتب صافين من ناحية سرير الملك إلى ناحية الخيمة، والقراء يقرأون القرآن ساعة زمانية، فإذا ختموا قراءتهم، استأذن صاحب الباب على حضور الشعراء للخدمة، فيؤمر بتقديمهم واحداً بعد واحد ولهم منازل، على مقدار أقدارهم، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد، وهو أمر يقرره مستخدم يقال له النائب. فتقدم الشاعر ابن جبر وأنشد قصيدة منها:

فُتِحَ الخَلِيجُ فسال منه الماء وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنه كف الإمام فعرفها الإعطاء
وتقدم مسعود الدولة ابن جرير وأنشد:

ما زال هذا السد ينظر فتحه إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل حامل مغول

فجرى كأن قد ريق فيه عنبرٌ يعلوه كافور بطيب الصندل
وتقدّم كافي الدولة أبو العباس وقال:

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد للنيل أم لك يا ابن بنت محمّد
أم لاجتماعكما معاً في موضع وافيتما فيه لأصدق موعد
والقصيدة طويلة سنذكرها في باب الأدب والشعر.

وقد ذكر صاحب كتاب الذخائر والتحف (الرشيد ابن الزبير) إنّ
ميزانية تزيين سفن الاحتفال والتي تبلغ ستاً وثلاثين سفينة،
أربعمائة ألف دينار ذهباً. ويقول إنّ سفينة واحدة كلفت مائة وثلاثة
وثلاثين ألف درهم فضة، فكيف ببقية السفن، وهذه السفينة خاصة
بركوب «رصد» أم الخليفة المستنصر. وبعد اكتمال أخذ المقياس
وفتح السدود، أغلقوا طاقات المنظرة «وحلّ الخليفة بالمقصورة
المعدّة لراحته، وكذلك الوزير وأولاده وأخوته وجميع الأمراء
والاستاذين والأصحاب والحاشية»^(١).

توزيع أجمل الثياب مصحوبة بالذهب والفضة وصواني الطعام على كلّ
المشاركين في احتفال فتح الخليج:

يقول ابن المأمون:

إنّه فور تدفّق مياه النيل في السدود والترع، يتقدّم والي مصر
والقاهرة من البر الشرقي عبر إحدى السفن الصغيرة، حتى يصل

(١) كنا نظن أن المنظرة تسع لعدة الأشخاص، فتبيّن أنها أشبه بفندق خمس نجوم، حيث أنّ
بها مقصورات (غرف فخمة) للخليفة ولكل أفراد الحاشية.

إلى المنظرة في الناحية الغربية، فينزل ويقبل الأرض أمام الخليفة، ويعني هذا التقبيل بدء رش الذهب والفضة والثياب الجديدة، وصواني الأكل على كل الذين اشتركوا في هذه الاحتفال: «ووصل والي مصر من البر الشرقي وخلع عليه بدلة منديلها وثوبها مذهباً مع ثوبين آخرين، فقبل الأرض من تحت المنظرة وعدى في البحر حيث حفظ مكانه. ثم استدعى حامي البساتين ومشارفها (المشرف عليها) فخلع عليهما بدلتين حرير مع ثوبين، ثم متولّي ديوان العمائر (الجهاد)، ثم مقدّمي الرؤساء، وسلّم كلّ منهم حسب ما أثبت لهم وتشتمل هذه الإثباتات على كلّ أصناف الإنعام من العين (الذهب) والورق (الفضة)، وصواني الفطرة (الحلويات)، والموائد المشتملة على الخراف المشوية، وجامات الحلوى، وطلب منهم تفرقة ذلك على ما رُسم إلى الأصحاب والحواشي من أرباب السيوف (العسكر) والأقلام (الموظفين)، ثم الأمراء المستخدمين والضيوف المميّزين من الجنود وغيرهم، وكلّ من تتعلّق به خدمة تختص بالموسم (أخذ المقياس) من البحارة وأرباب اللعب وغيرهم.

١٥

وصف سماط فتح الخليج:

ويصف ابن المأمون مائدة فتح الخليج وما تضمّ من أطعمة ومأكّل فيقول:

وعُيِّت الأسطة في المسطّحات المنصوبة لهذا الاحتفال بجانب الباب الغربي للخيام. وأشرف الوزير على استدعاء الأمراء والضيوف وأجلس «كلّ» منهم على السماط (المائدة) في موضعه على عادته.

وتلاهم العساكر على طبقاتهم، ولم يمنع حضورهم نول كلّ منهم من جميع ما ذكر على حكم ميزته.

ويقول ابن المأمون، أنّه بعد انتهاء كبار الدولة والجيش من تناول الطعام «بقي متولّي الباب جالساً لأسطمة العبيد وجميع المستخدمين من الراجل (العسكر المشاة) والسودان».

سماط منظرة السكرة أو الفندق خمس نجوم:

ويصف ابن المأمون: مائدة منظرة السكرة الخاصة بالخليفة والحاشية فيقول:

وعُيِّت المائدة الخاصة بالسكرة، التي لا يحضرها إلا العوالي، الخاص، المستخدمون من الخدم الكبار، ومن يحضرها، يُجمع له حالتان: حضوره في أشرف مقام، وجلوسه في مكان يحصل له به حرمة وذيّام. وجلس الخليفة عليها وأخوه على شماله ووزيره على يمينه، بعد أن أدّى كلّ واحد منهم من سلام وتعظيم، وحضر أولاد الوزير وإخوته، والشيخ أبو الحسن، كاتب الدست وابنه سالم والأستاذون المحنكون أرباب الخدم، وكذلك القاضي وشهوده (لجنة المحلفين) والداعي وابن خاله، الذين يُخصّصون عن سواهم بمقامهم دون غيرهم في قاعة الخيمة الكبرى (القاتول)، أمام سرير الخلافة المنصوب مدّة النهار.

ويقول ابن المأمون إنّّه بعد أن «انقضى حكم المائدة قبل كلّ من الحاضرين الأرض، وانصرف بعد أن أخذ منها ما تقتضيه نفسه على حكم الشرف والبركة».

انتهاء الاحتفال: توزيع الصواني الجامعة للثروة من كل جهة والغرابية من كل صنف:

يقول ابن المأمون إن مقدّمي الركاب، فور الانتهاء من يوم احتفال فتح الخليج، حاسبوا كاتب الدفتر، وأخذوا منه ما يتوجب برسم تفرقة الرسوم والصدقات التي ستوزّع في طريق العودة، فكمّل لهما على ما بقي معهما مثل ما كان أولاً في طريق المجيء.

أما صواني مائدة الخليفة فقد فرّقت أمامه وبين يديه على «من له الوجاهة العالية» وهي «الجامعة للثروة من كل جهة، وللزينة من كل معنى، وللغرابية من كل صنف، وقد جمعت ملاذ جميع الحواس، وكلّ منها لا مندوحة أن يكون فيها زهرة أو ثمرة»^(١).

ويصف عودة الخليفة بعد انتهاء الاحتفال فيقول: وعاد الخليفة من السكرة بجميع خواصه وحواشيه، وفُتح لهم الباب الذي هو منها بشاطئ الخليج، وقُدّم له إحدى العُشاريات الموكبية، وفيها مقدّم رياسة البحرية، فركب فيها بجمعه والوزير واقف راجل على شاطئ الخليج خدمة له، إلى أن انحدرت العُشاريات جميعها قدّامه ومراكب اللعب - من دون أرباب الرهج - والمستخدمون في البرّين يمنعون الناس من الاقتراب، والمتفرّجون لا يصدّهم ويردّهم ما يحلّ بهم، بل يرمون أنفسهم على الدواب ويسيروا بسير الخليفة.

وركب الخليفة الدابة المخصّصة لركوبه، واستفتّح القراء بقراءة القرآن.

(١) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٧٩.

ناصر خسرو يصف احتفالات كسر الخليج أيام الخليفة المستنصر:

كتب الرحالة الفارسي ناصر خسرو يصف احتفال الفاطميين
بيوم بلوغ النيل الارتفاع المطلوب فقال^(١):

وكذلك وجد في يوم فتح الخليج طبقات أخرى من الرجال من
ذوي الفضل والأدباء والشعراء والفقهاء، ولكلّ منهم أرزاق معينة.
ولا يقل رزق الواحد من أبناء الأمراء عن خمسمائة دينار، وقد يبلغ
الألفين، وليس لهم عمل إلا أن يذهبوا ليسلموا على الوزير حين
يركب ثم يعودون.

والآن نعود إلى حديث فتح الخليج. يحملون المجامر ويحرقون
العنبر والعود.

والعادة في مصر أن يسجد الرجال للسلطان وأن يدعوا له كلما
قرب منهم.

وجاء بعد السلطان الوزير مع قاضي القضاة وفوج كبير من أهل
العلم وأركان الدولة. وقد ذهب السلطان إلى حيث ضرب الشراع على
رأس سد الخليج أي فم النهر. وظل ممتطياً البغل تحت السراشق مدة
ساعة، وبعد ذلك سلّموه مزراقاً ليضرب به السد. ثم عجل الرجال
بهدمه بالمعاول والفؤوس والمجارف، فانساب الماء، وقد كان
مرتفعاً، وجرى دفعة واحدة في الخليج.

وفي هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على
فتح الخليج، وتجري فيه أنواع الألعاب العجيبة.

(١) سفرنامه، ناصر خسرو، م.س. ص ٩٥.

وكان في أول سفينة نزلت الخليج جماعة من الحرس يسمون بالفارسية «كنكث ولال»، لعلهم يتفاءلون بنزولهم. ويجري السلطان عليهم صدقاته في هذا اليوم.

وكان للسلطان إحدى وعشرون سفينة، وقد عمل لها حوض خاص قرب القصر، في اتساع ميدانين أو ثلاثة، وطول كل سفينة منها خمسون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً، وكلها مزينة بالذهب والفضة والجواهر والديباج، ولو وصفتها لسطرت أوراقاً كثيرة. وهذه السفن كلها مربوطة في الحوض، معظم الوقت، كالبغال في الإصطبل.

في اليوم الذي ذهب السلطان في صباحه لفتح الخليج، استأجروا عشرة آلاف رجل أمسك كل واحد منهم إحدى الجناثب التي ذكرتها، وساروا مائة مائة، وأمامهم الموسيقيون ينفخون البوق ويضربون الطبل والمزمار وسار خلفهم فوج من الجيش. مضى هؤلاء من قصر السلطان حتى رأس الخيول، أتت الجمال وعليها المهود والمراقد، ومن بعدها البغال وعليها العماريات.

وقد ابتعد السلطان عن الجيش والجناثب، وهو شاب كامل الجسم، طاهر الصورة، من أبناء أمير المؤمنين حسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهما. كان حليق شعر الرأس، يركب على بغل ليس في سرجه أو لجامه حلية، فليس عليه ذهب أو فضة. وقد ارتدى قميصاً أبيض، عليه «فوطه» فضفاضة، كالتي تلبس في بلاد المغرب، والتي تسمى في بلاد العجم «دراعة»، وقيل إن اسم هذا القميص «الدبيقي»، وأنه يساوي عشر، آلاف دينار. وكان على رأسه عمامة من لونه، ويمسك

بيده سوطاً ثميناً. وأمامه ثلثمائة راجل ديلمى، عليهم ثياب رومية مذهبة. وقد حزموا خصورهم، وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر. ومعهم النشاب والسهام وقد عصبوا سيقانهم.

ويسير مع السلطان حامل المظلة، راكباً حصاناً، وعلى رأسه عمامة مذهبة مرصعة، وعليه حلّة قيمتها عشرة آلاف دينار ذهبي مغربي. والمظلة التي بيده ثمينة جداً، وهي مرصعة ومكّلة. وليس مع السلطان فارس غير حامل المظلة. وقد سار أمامه الديالمة، وعلى يمينه ويساره جماعة من الخدم يحملون المجامر ويحرقون العنبر والعود.

صيغة البيان الرسمي عن نسبة ارتفاع النيل:

بعد التأكد من أنّ الارتفاع بلغ النسبة المطلوبة وهي ستة عشر ذراعاً، يقوم ابن أبي الرّداد برش عمود المقياس بالعطور (يخلّقه) ويرش الصبيان، الموجودين للفرجة بالعطر أيضاً تبرّكاً بطهارتهم ثم يرفع التقرير عن هذه النسبة إلى الخليفة فيصدر الخليفة بياناً بالنتيجة وهذه صورة إحدى البيانات نقلها لنا المقرئ من ابن منجب الصيرفي (٤٦٣ - ٥٤٢هـ):

أما بعد: «فإن أحق ما وجبت به التهنئة والبشرى، وغدت المسرات منتشرة، تتوالى وتترى، وكان من اللطائف التي غمرت بالمنّة العظمى، والنعمة الجسيمة الكبرى، ما استدعى الشكر لموجد العالم وخالقه، وظلّت النعمة به عامة لصامت الحيوان وناطقه، وتلك الهبة بوفاء النيل المبارك، الذي يسره الله تعالى وله الحمد يوم...، فإن هذه العطية تؤدّي إلى خصب البلاد وعمارتها، وشمول المصالح

وغزارتها، وتقضي بمضاعفة المنافع والخيرات وتكاثر الأرزاق والاقوات، وتساهم الفائدة فيها جميع العباد. وتنتهي البركة بها إلى كل دان وناء، وكل حاضر وباد»، ويوجه كلامه إلى ابن أبي الرداد: فاذع هذه النعمة واعمل بها، إن شاء الله تعالى^(١).

ويصف لنا المقرئ احتفال المصريين بوفاء النيل سنة ٤١٥هـ، فيقول:

وفي الرابع من شهر رجب، زين العامة أسواق مصر والقاهرة، وخلقوا وجوه الصبيان، ونادوا بوفاء النيل ستة عشر ذراعاً، فخلع على ابن أبي الرداد خلعاً مذهبة، ورداء محشواً مذهباً، وعمامة مذهبة، وحمل على بغلين بسرجين ولجامين مذهبين، أحد السرجين مصفح، وأعطى ستة عشرة قطعة ثياب مذهبة، وثلاثة آلاف درهم، وبلغ الماء أصبعين وسبعة عشر ذراعاً، فكان يوماً حسناً كثر فيه سرور الناس^(٢).

مركز تحقيق مكتبة مصر

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٧٩.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٥٠.

المطبخ الفاطمي

يقول الدكتور حسين مؤنس: «إن الحضارة لا تتمثل في عظمة المنشآت كالأهرامات أو قصور فرساي أو العمائر السامقة التي تصعد في الجو فحسب، بل هي تتمثل في صورة أوضح وأدق في صغار الاكتشافات التي تقوم عليها حياة البشر. فرغيف الخبز مثلاً، أنفع للبشر من الوصول إلى القمر. ورغيف الخبز وإناء الفخار مقياسان أصدق للتقدم الحضاري^(١).

فإذا أخذنا هذا القول وحاولنا معرفة موقع مصر الفاطمية في سلم الركب الحضاري ومدى تقدم الحضارة في مصر، في ظل الإسلام الشيعي، خلال قرنين من الزمن، انطلاقاً من تأمين الرغيف ولقمة العيش للشعب، نجد أن حضارة مصر في ظل هؤلاء الناس، قد بلغت مبلغاً لم تبلغه أي حضارة معاصرة، فحتى اليوم لم نسمع بدولة توزع الثياب على موظفيها وشعبها كجزء من الراتب. وأي توزيع؟ ست مرات في السنة، وكذلك لم نسمع بدولة تنشيء

(١) الحضارة، حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم ١، الكويت سنة ١٩٧٨، ص ٩.

مؤسسة وظيفتها محصورة بصنع الحلويات وتوزيعها على الناس «مدة ثلاثة أشهر في السنة». كما لم نسمع بدولة تبقى طيلة أيام عاشوراء وطيلة شهر رمضان والأعياد، عملها محصور في مدّ الموائد والأسمطة مسافة كيلومترات، لإطعام شعبها ورعاياها. كل ذلك لم نعهده من قبل صعود نجم الدولة الفاطمية في مصر.

مطبخ القصر:

عندما يحدثنا المقرئزي، عن مطبخ قصر الخلافة يخبرنا بأنه يخرج منه ألف ومائتا طنجرة كبيرة، طوال شهر رمضان يومياً، من جميع ألوان الطعام «تفرّق كل يوم على أرباب الرسوم والضعفاء».

ويعلمنا أنّ صحن الزجاج التي أخرجت من مطابخ قصر الخلافة أيام الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر، بلغت «ثمانية عشر ألف صحن بلور». فتصوّر اتّساع هذا المطبخ، الذي يخرج منه هذا العدد من القدور الكبيرة، ومن صحن الزجاج.

وعندما يصف المقرئزي مطبخ الخليفة الأمر لأحكام الله يقول إنه: «كان المنفق في مطابخه وأسمطته الشيء الكثير، فكان عدّة ما يذبح له في كلّ شهر خمسة آلاف رأس من الضأن خاصة، سوى ما يُذبح مما سوى ذلك، وثمان الرأس منها ثلاثة دنانير»^(١).

وإذا علمنا أنّ سكان قصور الخلافة بين أمراء وموظفين وجواري وعبيد وخدم وحشم وجنود، كانوا لا يقلّون عن ثلاثين ألف إنسان

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ١٢١.

لعلمنا أن هذا المطبخ مهما كبر، يبقى عاجزاً عن تأمين الطعام لهم. ولكن كل الشواهد، تدلّ على أن أبناء فاطمة (ع)، كانوا يؤمنون الطعام لقصورهم ويوزعون على الموظفين والفقراء أضعاف أضعاف حوائج قصورهم.

وعندما أخبرنا المقريري عن دار الوزارة، يعلمنا أن عدد الحنفيات التي كانت تجري في مطابخها بلغت «مائة وعشرين مقسماً للماء، يجري في مطبخها».

الدجاج: أفخاذ وصدور:

كلنا يعلم أن الدجاج يباع حالياً صنفين: أفخاذ وصدور. أما الجوانح والرقاب، فهي تباع للفقراء. وليس هناك صنف ثالث له. بينما كان المصريون أيام الدولة الفاطمية يبيعون الدجاج أربعة أنواع:

١ - الطير ذو اللحم الفائق: اثنان بدينار.

٢ - الطير المسمّن: ثلاثة بدينار.

٣ - الطير المصدر: أربعة بدينار.

٤ - الطير المعرق: ستة بدينار.

وإذا حاولنا معرفة هذه المصطلحات، نستنتج أن المعرق هو الفروج الضعيف الكثير العظام والمصدر هو الفروج العادي والمسمّن هو الفروج الكثير اللحم والمشحم والطير ذو اللحم الفائق ربما هو الفروج النباتي الصغير العمر الذي لا يصل وزنه حياً لأكثر من ١٥٠٠ غرام.

ويخبرنا المقرئ أن المستنصر بالله، اكتشف عندما زار الوزير اليازوري، أن الفروج ذا اللحم الفائق مخصص لمائدته، بينما مائدة الخليفة يُخصص لها المعرق والمصدر، فكانت هذه القضية واحدة من القضايا التي أدت إلى توسيع الهوة والخلاف بين الخليفة والوزير اليازوري.

ويصف لنا المقرئ سحر الخليفة الأمر طيلة شهر رمضان، حيث يخبرنا نقلاً عن ابن المأمون، وهو من المؤرخين المعاصرين للخليفة الأمر. فيقول أن الخليفة يجلس في القصر إلى وقت السحر والمقرؤون يتلون عشراً من القرآن الكريم ويطلبون. والمؤذنون يأخذون بالتكبير وذكر فضائل السحر، ثم يختمون الليلة بالدعاء. والوعاظ يعظون الحضور، فيذكرون فضائل رمضان ويمدحون الخليفة، والصوفيون يرقصون الرقصات الدينية أمام الجميع، إلى أن ينقضي من الليل أكثره. فيحضرون «جفان القطائف وجرار الجلاب، فأكلوا وملأوا أكمامهم، وما فضل عنهم تخطفه الفراشون. ثم جلس الخليفة وبين يديه المائدة معبأة جميعها من جميع أنواع الحيوان وغيره، وأمامه القعبة الكبيرة (صدر كبير). وكان كل واحد من الموجودين يأخذ منها ما يريد له ولأولاده ولأهله، على سبيل البركة. وكان ذلك مستفاضاً عندهم (كثير)، وغير معيب على فاعله ثم قدمت الصحون الصيني مملوءة قطائف، فأخذ منها الجماعة الكفاية. ثم قام الخليفة وجلس على المائدة وبين يديه السحورات والمطيبات من لبأ رطب ومخيض وعدة أنواع من العصير وسويق ناعم ومجروش. وكل ذلك ممزوج بقلوبات مجروشة وموز. ثم قدموا له بعد ذلك

صينية ذهب مملوءة من أنواع السفوف (نمورة ومعمول وصفوف) وبعد انتهاء الخليفة منها، تناولها الاستاذون والمستخدمون وفرّقوها، فأخذها القوم في أكمامهم»^(١).

الرحالة الفارسي ناصر خسرو يصف مطبخ الخليفة المستنصر: حاجة المطبخ كل يوم، خمسون ألف من سكر:

بالعودة إلى كتاب الأوزان والمقادير للشيخ إبراهيم سليمان، حدّد لنا المن بـ ١٢٨٠ مثقالاً ولما كان المثقال يساوي درهماً والدرهم وزنه:

$$\frac{1280 \times 3,125}{16} = \text{غراماً فيصبح وزن المن } 250 \text{ غراماً أي ربع كيلو.}$$

فلنر ما أخبرنا ناصر خسرو عن هذا المطبخ: «يقيم الخليفة مأدبة في كلّ من العيدين، ويأذن بالاستقبال في قصره للخواص والعوام، وتنصب مائدة الخواص في قصره بحضوره، ومائدة العوام في سرايات أخرى».

ويخبرنا ناصر خسرو أنّ الموائد التي شاهدها كانت بمناسبة عيد الفطر لسنة ٤٤٠هـ، وكانت المائدة أعدت لحضور الخليفة بعد صلاة العيد.

يتابع ناصر خسرو وصفه: حين دخلت من باب السراي، رأيت عمارات وصفوف وإيوانات. وكان هناك اثنا عشر جناحاً، كلّها متّصلة بعضها ببعض. وكلما دخلت جناحاً منها وجدته أحسن من

(١) الخطّ المقرئ، الجزء الأول، ص ٤٩١.

سابقه. ومساحة كل جناح مائة ذراع بمائة (٦٧,٠ م × ٦٧,٠ م = ٤٥٠٠ م^٢).

وقيل إن راتب السكر في ذلك اليوم الذي تنصب فيه مائدة الخليفة خمسون ألف مَن (١٢,٥٠٠ طن).

ومطبخ السلطان خارج القصر، ويعمل فيه دائماً خمسون طباًخاً، ويتصل القصر بالمطبخ بطريق تحت الأرض. ويحمل إليه يومياً أربعة عشر حمل ثلج، وكان لمعظم الأمراء والخواص راتب من هذا الثلج. وكذلك يصرف منه لمن يحتاجه من مرضى القاهرة. وكذلك كان يصرف لكل محتاج أو طالب دواء من أهل القاهرة أو مشروباً، فلا يرد. وكذلك كان في هذه المطابخ زيوت، وكان للناس كافة أن يطلبوها، فلا تمنع عنهم^(١).

فإذا كانت حاجة مطبخ قصر الخلافة في يوم واحد وهو يوم عيد الفطر اثني عشر طناً ونصف الطن من السكر. فما هي عظمة هذا المطبخ؟ وما هو كبره واتساعه؟

وكيف لو علمنا أن أيام الدولة الفاطمية كانت كلها أعياد ومواسم واحتفالات، لاستطعنا تقدير مصروفات هذا المطبخ.

بالإضافة لعظمة مطابخ قصور الخلافة، لا يسعنا إلا الإشارة إلى مطابخ دار الفطرة. وكنا قد أشرنا إليها وإلى ميزانيتها السنوية وطريقة عملها وتوزيعها الحلويات على الأمراء والقواد والموظفين والعامّة طيلة أشهر رجب وشعبان ورمضان من كل سنة، بميزانية

١٧

(١) سفرنامه، ناصر خسرو، م.س. ص ١٠٨.

مأخذوة من الفطرة التي كان يتبرع بها كل مسلم شيعي زكاة عن نفسه وأنفس أولاده كل سنة، بمناسبة أفطاره بعيد الفطر. وهذه سنة ما زالت متبعة في الصقع العاملي من جنوب لبنان، لكن الفطرة تعطى للفقير لعدم وجود مؤسسة رسمية تجبي أموال المتبرعين.

كما أن قدور الهريسة الضخمة الحجم والتي تتسع لأكثر من خروفين ما زالت توقد تحتها طيلة الايام العشرة الاولى من محرم، ويوزع لحمها وطبيخها على الناس عن روح أبي عبدالله الحسين (ع) شهيد الطف بكربلاء، وهذه العادة ما زالت متوارثة من أيام الدولة الفاطمية، لأنهم كانوا أول من سنّ هذه السنة وأقام النوح والبكاء ومدّ أسمطة الحزن، وطبخ الهريسة بمناسبة عاشوراء.

وكانت خزانة الشراب، أو مخزن الشراب من الدوائر والمصالح الحكومية التابعة لقصر الخلافة، عن طريق دار الوزارة، وكانت ميزانيتها تبلغ في السنة ١١٥ قنطاراً من السكر: (١١٥ × ٢٥٠ كلغ = ٢٨,٧٥٠ طن سكر) ومن مربى الورد ١٥ قنطاراً (١٥ × ٢٥٠ = ٣,٧٥٠ طن مربى). وكان فيها خدم وطباخون لا عمل لهم إلا استخراج ماء الورد وماء الزهر بالكركات. وكانت تعدّ ما يطلبه منها الأطباء من شرابات تدخل في باب الأدوية، حسب العشبة التي يصفها الأطباء، حيث كانت تصفى تلك الأعشاب ويستخرج منها الدواء المطلوب^(١).

أما خزانة التوابل، فقد كانت أوسع وأكبر وأبرح من مخزن

(١) راجع: الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ٤٢٠.

الشراب لكثرة واتساع اختصاصاتها. فهي اسمها خزانة التوابل، ولكن كانت تهتم بتأمين جميع أنواع النقول والمكسرات والطيب والعطور لقصور الخلافة.

ولما كانت مهمة تأمين الزيت الحار والبخور للجوامع والمساجد والمقابر تقع على عاتقها، كانت تعمل طيلة أيام السنة.

وكيف لو عرفنا أنه كان يخرج من مخازنها يومياً، من الفستق عشرون رطلاً على مدار السنة، أي أنها كانت تؤمن لقصور الخلافة ودار الفطرة وقصور الأمراء والوزير الأول سنوياً سبعة أطنان فستق قلوبات أي مقشور. وبالتأكيد من الفستق الحلبي، لأن فستق العبيد يطلق عليه المصريون اسم الفول السوداني. ولن ندخل في متاهات أرقام التمور والطحينة والعطور والأفاوية والتوابل.

وكذلك دار التعبئة: وهي المؤسسة المسؤولة عن تعبئة وتأمين موائد القصور بالثمار والورود والأزهار وكانت ميزانيتها تبلغ أربعة آلاف دينار سنوياً.

أهمية الثلج في المطبخ الفاطمي:

لما كان المطبخ الفاطمي يعتبر من أرقى وأطيب المطابخ، كان اهتمام متولي مطابخهم يتجه إلى تأمين أي صنف يؤدي إلى تطيب وتحسين الطعام والشراب والحلويات.

ولما كان الثلج من أهم عوامل تحسين المشروبات، لذلك اتجه متولوا المطابخ الفاطمية إلى تأمين أحمال الثلج من لبنان إلى قصور الحضرة صيفاً شتاءً وبانتظام، وقد وصف لنا القلقشندي طريقة نقله وحفظه

فأشار إلى أنه كان ينقل إما في السفن وإما على ظهور الجمال. وكان الثلج يحصر في غرف السفن بعد أن تقطع عنه كل منافس الهواء والضوء والشمس، فيخلق من الغرفة المحصور فيها براداً يؤدي إلى حفظه.

وكذلك كانوا يحفظونه بنفس الطريقة في مطابخ قصورهم ومستودعات الثلج الخاصة بالدولة.

وكنا قد أشرنا إلى أن بعض كبار الموظفين كان له لوحان من الثلج في الأسبوع، كجزء من مخصصاته وراتبه. مما يعني أنه كان هناك مؤسسة حكومية مسؤولة عن تأمين الثلج وتوزيعه.

كما وردت إشارة إلى وجود برادات أمام المحلات التجارية مخصصة للعامة.

وبالتأكيد أن هذه البرادات كانت تمتد بالثلج من مخازن ثلج الدولة. وقد أشار القلقشندي ولوع المصريين بجلبها «إكمالاً للرفاهية» لتبريد الماء به في زمن الحر. وذكر أنها كانت تجلب إلى مرفأ طرابلس الشام وتنقل على السفن إلى مرفأ مصر ومن دمياط إلى بولاق ويتم توزيعه من بولاق إلى مخازن الثلج في القاهرة ومصر عن طريق البغال.

كما أشار أنه كان لمخازن الثلج ولناقلية مستخدمون مخصصون لهذا العمل، يعرفون كيف يحافظون عليه سليماً نظيفاً^(١).

(١) راجع: صبح الأعشى، الجزء ١٤، م.س. ص ٤٤١.

رواتب الطبّاحين:

عندما يصف المقرّيزي كبير الطهاة يقول إن اسمه «صاحب المائدة» ويتبعه حامي المطبخ ويقول: إن راتب كلّ واحد منهم ثلاثون ديناراً، ما عدا الرسوم وما حولها. وبالطبع يعني المقرّيزي بالرسوم هي الاعطيات والمنح والكسوات والعلاوات التي كان الخلفاء الفاطميّون يوزعونها بمراسم الاحتفال بأعيادهم الكثيرة المتواصلة. وربما تصل هذه الرسوم والعلاوات إلى حد تتجاوز فيه الراتب الشهري.

وكنا قد أشرنا إلى حديث المقرّيزي عن أنّ الجندي الواحد من أيام الدولة الفاطمية كان يصرف لزوم طعامه يومياً ما لا يقل عن عشرة دنانير أي ما مبلغه بالشهر الواحد ٣٠٠ ثلاثمائة دينار. فكيف يصرف أحدهم هذا المبلغ وراتبه لا يزيد عن الثلاثين ديناراً شهرياً؟ والجواب موجود عند كرم الفاطميّين وكرم أمرائهم ووزرائهم وقوادهم.

وعندما يصف المقرّيزي «وفي الدولة إسعاف»، متولّي مائدة الخليفة الأمر، نعلم أنّ تزيين المائدة كان لها أربابها وأنّ متولي المائدة إسعاف، كان من أصحاب الذوق الرفيع في تزيين المائدة.

ويصف لنا مائدة عيد الفطر لسنة ٣٨٠هـ، أيام الخليفة العزيز فيقول: وسماط العيد من خشب مدهون شبه الدك اللاطية، فيصير من جمعه للأواني، سماطاً عالياً وبعرض عشرة أذرع (٦,٧م) فتفرش فوقه الأزهار، ويرصّ الخبز على حافيته، (في صينيّات قش) في كلّ صينية ثلاثة أرطال من نقي الخبز، يدهن وجهها عند خبزها بالماء فيحصل لها بريق ويحسن منظرها. ويعمر السماط على طول

بواحد وعشرين طبقاً وكلّ طبق فيه واحد وعشرون ثنياً مشوياً
(خروف عمره سنتان). $21 \times 21 = 441$ ثنياً.

ومن الدجاج والفراريج وفراخ الحمام في كلّ طبق ثلاثمائة
وخمسون طائراً. ($21 \times 350 = 7350$ طيراً) ويسوّر بشرائح الحلواء
اليابسة. ويّزين بالوانها المصبغة. ثمّ تسدّ تلك الاطباق بصحون
خزفية، في كلّ واحد منها سبع دجاجات. وهي مترعة بالالوان
الفائقة من الحلواء المائعة والمشقّفة. والطيب غالب عل ذلك كلّهُ
(رائحة العنبر). وتناهز عدة الصحون المذكورة خمسمائة صحن
($7 \times 500 = 3500$ دجاجة) ويأتيه من دار الفطرة قصران من حلوى،
في كلّ واحد سبعة عشر قنطاراً، يحملهما العتّالون. وهما شكل مليح
مدهونان بأوراق الذهب.

ويخبرنا المقرّيزي أنّ هذه المائدة لا يبقى منها شيء «فيعمّ أهل
القاهرة ومصر من ذلك نصيب وافر»^(١).

وعندما يحدثنا عن «دار الطراز» وهي معمل النسيج في أيامنا،
يقول: «إن من جملة ما وقع الاهتمام به، ما صار يعمل في دار
الطراز ما لم يتقدّم نظيره للولائم التي تتخذ برسم تغطية الصواني».
ويقول إن هذه الشرافش التي بدأت دار الطراز تصنعها، كانت
محلاة بالذهب ولا يقلّ ثمنها عن خمسين ديناراً ذهباً.

وكانت هذه الشرافش تعدّ لتغطية صواني الأكل رغم أنها كانت
تُغطّى بالزهور والورود.

(١) الخطط المقرّيزية، الجزء الأول، ص ٢٨٨.

وكان متولّي مائدة الخليفة يؤمّن لقصور الخلافة الفاكهة على أنواعها على مدار السنة، باستقدامها من مختلف بلدان الخلافة الفاطمية، مستفيداً من تغيّر الأحوال المناخية بين بلد وبلد. كذلك كان يؤمّن المساكب الزراعية أو الخيم الزراعية، للخضار والبقول في جميع فصول السنة، وكثّراً قد أشرنا إلى هذا الأمر سابقاً.

أهم الأطعمة المتداولة في مصر الفاطمية:

أورد صاحب كتاب الطبخ، محمد بن الحسن بن محمد البغدادي ثبّتاً بأهم أنواع المأكولات التي كانت معروفة ومتداولة في عصره فجاء منها^(١):

- ١ - الحوامض وأنواعها.
- ٢ - السواذج على اختلافها (الطبخة السادة).
- ٣ - القلايا والنواشف.
- ٤ - الهراش والتنّوريات.
- ٥ - المعجنات والمبرّدات والمقلوبة والسنبوسك.
- ٦ - الأسماك الطرية والمملّحة.
- ٧ - المخلّلات والمطيّبات (البهارات).
- ٨ - الجواذيب (مقبّلات) والأخبصة.
- ٩ - الحلّوات على أنواعها.
- ١٠ - القطائف على أنواعها.

(١) راجع: كتاب الطبخ، م. س. ص ١١.

مواصفات الطباخ الماهر (الشيف):

وكتب محمد بن الحسن يصف لنا الطباخ الماهر، وصفاته فقال: «ينبغي للطباخ أن يكون حاذقاً عارفاً بقوانين الطبخ، بصيراً بصنعة، وليتعاهد قص أظافره بحيث لا يحيف عليها، ولا يتركها تطول، لئلا تجتمع الأوساخ تحتها. وليختار من القدور: البرم ثم من بعده الفخار، وعند الضرورة النحاس المبيض. وأردأ ما طبخ في قدر نحاس قد نصل بياضها. ويختار من الحطب اليابس مما لا يكون له دخان ساطع كحطب الزيتون والسنديان، وما أشبه. ويتجنب حطب التين، فإنه كثير الدخان، وكل ما فيه نداوة. ثم يعرف مقدار الوقود. ويختار من الملح الأندراي. وإن لم يحضر فالملح النقي (الأبيض) الخالي من التراب والحجارة الصغار (وأجوده ما حل وعقد). ومن الأباذير ما يذكر: من الكسفرة^(١) ما كان حديثاً أخضر اللون يابساً، ومن الكمون والكراويا كذلك، ومن الدراصيني ما كان خشبه ثميناً ملتفاً ذكي الرائحة واللسان، ومن المصطكي ما كان حبه كباراً براقاً غير دق، خالياً من التراب والوسخ. ومن الفلفل ما كان حديثاً غير عتيق وكان حبه كباراً. وليبالغ في تنقية سائر الأباذير وطحنها ناعماً، وكذلك في غسل الأواني المستعملة في الطبخ والقدور، وليضربها بالطين الأحمر، ثم الأشنان والورد اليابسين المدقوقين، ثم بورق الأترج الطري. ويختار لدق اللحم هاوناً من حجر. وأما الأباذير فتطحن في (رحا) طحناً ناعماً، وغسل القدور والأواني مهما أمكن.

(١) الكسفرة: الكزبرة.

ثم يكثر من الأباذير في السواذج، وأكثر منه في القلايا والنواشف في حلوها أكثر من حامضها، ويقله في الحوامض ذوات الأمراق. والأصل في الطبخ كله إذا غلت القدر أن يبالغ في أخذ الرغبة والزبد ووسخ اللحم وما عساه يطفو على رأس القدر مع النفاخات الطالعة، وقبل ذلك غسل اللحم (بالماء الحار والملح) مما عساه يبقى فيه من دم أو وسخ وتنقيته من الغدد (والعروق والأغشية)، وتعريق اللحم في السواذج والقلايا بالدهن قبل سلقه، وأن يترك الطبخ حتى يهدأ على نار هادئة ساعة جدة قبل غرفه. فاعرف ذلك^(١).

ملوك العالم يرسلون الطباخين إلى مصر لتعلم فن الطبخ:

يصف المقرئ جوالي القصور المصرية أيام الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب فيقول: وماكل أهل القاهرة كالدמים والبطارخ وحلاوة القمح، لا تصنع إلا بالديار المصرية، وفيها جوار طبّاخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين. وكان لهن في الطبخ صناعة عجيبة ورياسة متقدمة^(٢).

وكان قد سبقه ابن الأثير وهو أقرب معاصرة للدولة الفاطمية فأشار إلى تقدّم ورياسة المطبخ الفاطمي على كلّ مطابخ ملوك الإسلام. وفي معرض حديث ابن الأثير عن نصر الدولة بن مروان، صاحب ديار بكر، أشار إلى امتلاكه الجوالي والإماء بكثرة، وتسريه

(١) كتاب الطبخ، م. س. ص ١١.

(٢) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٣٦٧.

لأكثر من خمسمائة سرّية «سوى توابعهن». وأرسل طبّاخين إلى الديار المصرية، وتغرّم على إرسالهم جملة وافرة حتى تعلّموا الطبخ^(١).

ويعتبر الباحث حسين مؤنس أنّ «رغد العيش مؤشّر مهم من مؤشرات التقدّم الحضاري، ومن منا لا تتوق نفسه إلى الحصول على المال الوفير وتملك العقار الكثير الفاخر والرياش المستجادة، والطعام المستطاب، وكلّ ما يجتمع تحت قولنا «رغد العيش»، فغالبيتنا العظمى تنزع إلى ذلك. بل إنّ الذي لا يتطلّع إلى الحصول على هذه الخيرات، هو رجل محدود الآفاق والهمة والآمال»^(٢).

فمن هنا نستطيع وصف حضارة مصر الفاطمية، بأنّها بلغت أرقى درجات التطوّر والرقى، لأنّها حقّقت رغد العيش وامتلاك المال والعقار وفاخر الرياش، لكلّ طبقات الشعب المصري.

مركز تحقيق التراث
مكتبة جامعة القاهرة

(١) راجع: الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، ص ٩٢.

(٢) الحضارة، حسين مؤنس، م.س. ص ١٥٨.

كيف كان الفاطميون يعالجون مشاكل البيئة والتلوث

لم تكن موضوعات التلوث والبيئة معروفة قبل عقدين من الزمن، أي أننا لم نكن نسمع في أواخر القرن العشرين عن موضوعات البيئة والتلوث. أما ونحن على عتبة الألفية الثالثة للميلاد، أصبح موضوع البيئة والتلوث عنوان كل جريدة ومجلة وقناة فضائية، حتى أدخل موضوع التربية البيئية في برامج المدارس والجامعات. وأصبح موضوع البيئة الشغل الشاغل للحكومات والجمعيات والبلديات في القرى والبلدات والمدن. فمجارير الصرف الصحي والجور الصحية في القرى، تؤثر على الينابيع والعيون والآبار المخصصة للشرب، ومكبات النفايات والمزابل، تلوث الهواء وتطلق الروائح الكريهة في محيطها.

والمثير في هذا الموضوع، أن كل الكتب التي أرخت للدول الإسلامية قبل الفاطميين وبعدهم، لم تشر إلى هذا الموضوع ولا إلى طريقة معالجته، باستثناء مؤرخي الدولة الفاطمية، فقد أطلقوا

إشارات كثيرة ومفصلة عن موضوع البيئة والتلوث، كما وصفوا طريقة معالجته وموقف الدولة الفاطمية منه.

معالجة النفايات عن طريق المحرقة:

يصف المقرئزي الأبخرة المرتفعة فوق سماء القاهرة فيقول: وإذا هبَّت ريح الجنوب أخذت من بخار الفسقاط إلى القاهرة شيئاً كثيراً. كما أنَّ آبارها يصل إليها عن طريق الرشح من عفونة الكنف (المراحيض) شيء ما، وبين القاهرة والفسقاط تمتلئ البطائح بالمياه الرديئة الوسخة لما يصب فيها من العفونة، ويجعل الأبخرة المرتفعة منها إلى القاهرة والفسقاط زائدة في رداءة الهواء بهما.



وعن مكب النفايات يقول:

ويُطرح في جنوب القاهرة أقذار كثيرة في حاره الباطلية (الباطنية)، وكذلك يطرح في وسط حارة العبيد.

والحارتان هما من الحارات القديمة أي في الفسقاط، أما في المدينة الجديدة القاهرة، فيقول المقرئزي: «أنها أصلح حالاً لأن أكثر عفوناتهم (نفاياتهم) ترمى خارج المدينة»^(١).

ويقول المقرئزي: أنه كان في حي الخرنشف محجر لحرق الزبالة.

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٣٦٦.

الممالك يحولون دهايز وسرايب قصور الفاطميين إلى مجارير صحية
تصب في النيل:

وعندما يصف المقريزي القصر الغربي والدهاليز التي كان
الفاطميون يدخلون منها - تحت الأرض - إلى البستان الكافوري
يقول: «كان منتزهاً للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم، وكانوا يصلون إليه
من سرايب محفورة تحت الأرض، ينزلون إليها من القصر الكبير
الشرقي ويسيرون فيها بالدواب إلى البستان الكافوري، ومنظرة
اللؤلؤة، حيث لا تراهم الأعين، وما زال البستان عامراً إلى أن زالت
الدولة، فاحتكر وبني فيه الحارات والخطط، أما السرايب فإنها عملت
مسارب للمراحيض، وهي باقية إلى يومنا هذا وتصب في الخليج»^(١).

صحون كرتون وخشب وفخار تباع مع الأكل دون أن تعاد:

وكنا قد أشرنا إلى هذا الموضوع ولكن لطرافته نعيد ذكره حيث
يصف المقريزي نقلاً عن المعمرين أن سوق القصبة أيام الفاطميين
كان يضم اثني عشر ألف حانوت ولو كانت واجهة كل حانوت أربعة
امتار على الأقل، وعلى الصفين لكان طول هذا السوق

$$= \frac{4 \times 12,000}{2} = 24,000 \text{ م طولي} = 24 \text{ كلم}$$

أي: «أربع وعشرون كيلومتراً». إذا كان في شارع واحد ويحتاج
المشتري أكثر من يوم للتجول فيه ويقول عنه: «ويعجز العاد عن
إحصاء ما فيها من الأنواع، فضلاً عن إحصاء ما فيها من الأشخاص،

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٥٧.

وسمعت الكافة ممن أدركت، يفاخرون بمصر سائر البلاد، ويقولون إنه يُرمى بمصر كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل، ويعنون بذلك ما يستعمله اللبّانون والجبانون والطباخون من الشقف التي يوضع فيها اللبن والجبن، والتي يأكل فيها الفقراء بحوانيت الطباخين، وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التي توضع تحت الجبن وما يستعمله العطّارون من القراطيس والورق المقوّى (الكرتون)، والخيوط التي تشدّ بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام، من الحبوب والأفاوية وغيرها، فإن هذه الأصناف المذكورة، إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها، ألقيت إلى المزابل»^(١).

الفاطميّون يخصّصون ميزانية وموظفين لكنس الشوارع ورشها بالماء:

يقول المقرئزي إنّ الفاطميّين كانوا يكنسون الطرقات ويرشونها بالماء رشاً خفيفاً، ويفرشون الطرقات التي يمشي عليها الخليفة في الاحتفالات «بالرمل الأصفر»^(٢).

ويقول الباحث عبد المنعم حماده: «على ذكر تجميل القاهرة أذكر أنّ القاهرة عرفت فرش الرمل الأصفر في حفلاتها الرسمية منذ ألف عام، فقد كان نظام حفلات الاستقبال في الدولة الفاطمية يقضي بفرش الرمل في الطرقات المؤدّية إلى القصر الفاطمي وأمامه»^(٣).

وكان أوّل من أمر بكنس الطرقات وإضاءتها الخليفة الحاكم

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٩٥.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٢٣.

(٣) مصر والفتح الإسلامي، م.س. ص ١٧١.

ويخبرنا المقرئزي أنه عمّم على الناس سنة ٣٩١هـ وكان له من العمر ست عشرة سنة. بإكثار وقود المصابيح في الشوارع والطرق، والاستكثار منها وبكنس الطرقات وتنظيفها^(١).

ولما تساهل الناس في تنظيف شوارع القاهرة، أعاد الحاكم عليهم التأكيد «بكنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور، في كل مكان، ففعل ذلك».

ويخبرنا المقرئزي أن الوزير المأمون، قرّر لكل سقاء من سقائي مصر والقاهرة ديناراً واحداً في اليوم «برسم رش ما بين البلدين، مصر والقاهرة»، فعمّ ذلك جميع السقائين أصحاب الجمال والدواب^(٢).

صالة للمتفرجين بالأجرة:

وكانت مناسبة فتح الخليج مناسبة لهو وشرب وقصف ولعب واجتماع كل المصريين في الساحات المحيطة بموقع عمود المقياس (قنطرة المقس) ويجتمع في هذا اليوم «من النصارى والمسلمين خلق كثير للأكل والشرب واللهو».

ويخبرنا المقرئزي عن احتفالات سنة ٥١٨هـ، أيام الخليفة الأمر فقال: «وفيها أمر ببناء دار واسعة ليتفرّج الناس فيها عند كسر الخليج بالكراء، وذلك أن الناس عند كسر الخليج كانوا يصنعون أخشاباً متراكبة بعضها على بعض، يجلسون فوقها للتفرّج يوم كسر الخليج، فبُنِي»^(٣).

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٣٩.

(٢) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ١٠١.

(٣) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ١٠٧.

ويقول محمد حلمي أحمد في هامش هذه الصفحة أنَّ الخليفة والوزير، يبدأان الاحتفال بالصلاة ركعتين «كلّ منهما بمفرده»، ثم يُؤتى بالزعران والمسك فيتناولوه صاحب بيت المال ويعطيه لابن أبي الرّدّاد فيلقى ابن أبي الرّدّاد بنفسه على العمود ويتعلّق به، برجليه ويده اليسرى ويخلّقه (يرشه بالعطر) بيده اليمنى والقراء يقرأون القرآن. أما بقية مراسم الاحتفالات التي ذكرناها، فتتم بعد أربعة أيام من أخذ المقياس^(١).

يزرعون الأشجار بالملايين لتلطيف المناخ:

وعندما تحدّث المقرّيزي عن اهتمام الفاطميّين بالتشجير وزراعة البساتين قال عنهم أنّهم كان لهم شأن عظيم وغرام بزراعة البساتين والتشجير. ووصف لنا بستان الأفضل نقلاً عن ابن عبد الظاهر فنال: «عمل الأفضل لهذا البستان سوراً مثل سور القاهرة، وعمل فيه بحيرة كبيرة وسير فيه عُشاري (سفينة صغيرة)، وبنى في وسطه منظره محمولة على أربعة عواميد من أحسن الرخام. وأحاطها بشجر النارج (ليمون)، وشق للبحيرة أربع سواق. وجعل لها معبراً مخروط الشكل من نحاس. وجلب إليه من الطيور المسموعة شيئاً كثيراً، واستخدم عدّة مطيرين للحمام الذي كان به. كما عمر به عدة أبراج لها. وسرح فيه الطواويس الكثيرة». وأكد ابن عبد الظاهر أنّه كان عدد البقر العمال التي تحرث هذا البستان ثمانين مائة واثنى عشر رأساً، ومن الجمال مائة وثلاثة رؤوس. ومن الفلاحين العاملين

(١) اتعاظ الحنفاء، م.س. ص ١٠٧.

به ألف رجل، وأنَّ مجمل ما ضم هذا البستان سبعة عشر ألف ألف شجرة (١٧ مليون شجرة).

الخليفة الحافظ يرفض قطع شجرة واحدة من هذا البستان:

ذكر المقرئزي أنَّ الأمير شرف الدين، وهو أحد أمراء الدولة الفاطمية، «وكانت له حرمة عظيمة عند الخليفة الحافظ» طلب قطع شجرة واحدة من سنط البستان، فرفض الخليفة الحافظ.

الفاطميون يفرضون تغطية أحمال الجمال وروايا الماء:

يخبرنا المقرئزي أنَّه في رجب سنة ٣٨٢هـ أصدر الخليفة العزيز بالله قراراً يطلب فيه من السقَّائين أن يغطوا روايا (أكياس ماء مصنوعة من جلد الماعز) الجمال والبغال، «كي لا يدنَّسوا ثياب الناس».

مركز بحوث ودراسات إسلامية

طفايات للحريق في كلِّ محل:

يخبرنا المقرئزي أنَّ الخليفة الحاكم بأمر الله فرض على صاحب كلِّ محلٍّ أن يضع في محله زيراً مملوءاً بالماء، لاستعمالها في حال حدوث أي حريق في محله أو في المحلات القريبة ومنع استعمال الخيم القش فوق المحلات بسبب سرعة احتراقها، «فأزيل جميع ذلك من مصر والقاهرة» كما يخبرنا أنَّه أقام في طرقات القصر وسراييه ودهاليزه، «وفي كلِّ محلة من محلاته، فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق في الليل».

والي القاهرة يستخدم العمال لكنس الطرقات ورشها بالماء بشكل متواصل:

وتحت عنوان عوايد القاهرة، قال المقرئزي: «في حال مرور الخليفة أو السلطان عمم على الحمالين «أنه لا يمر بقصبة القاهرة حمل تبين ولا حمل حطب ولا يسوق أحد فرساً بها ولا يمر بها سقاء إلا وراوئته مغطاة، وعلى كل صاحب حانوت أن يضع في حانوته زيراً مملوءاً بالماء مخافة أن يحدث الحريق في مكان ما فيطفأ بسرعة، ويلزم كل صاحب حانوت أن يعلق أمام حانوته قنديلاً طول الليل يسرج إلى الصباح، ويقام في قصبة القاهرة قوم يكنسون الأتربة والأتربة ونحوها، فيرشون الطرقات كل يوم. ويجعل فيها طول الليل عدة من الخفراء يطوفون بها لحراسة الحوانيت وغيرها. ويتعاهد كل وقت قليل بكنس ما عساه تجمع من الأوساخ في الطرقات، حتى لا تعلق في الشوارع»^(١).

من مهمات صاحب العسس: إطفاء الحرائق:

نقل لنا ابن المأمون، في أحداث سنة ٥١٧ هـ، إصدار أوامر الوزير الأول إلى «والي مصر والقاهرة، بإحضار عرفاء السقائين وأخذ توقيعاتهم والحجج على المتعينين منهم بالقاهرة ومصر، بضرورة حضورهم ما دعت الحاجة إليهم، ليلاً نهاراً، وكذلك القربيين (حاملو قرب الماء)، وطلب منهم أن يبببتوا على باب كل معونة (حارة)، ومع كل واحد منهم عشرة من الفعلة بالمطارق والمساحي» تحسباً لأي حريق وأن يؤمن للفعلة العشاء^(٢).

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ١٠٧.

(٢) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٦٩.

صواني الأكل تُغطى بالشراشف والزهور:

وعندما يتحدث المقرئ عن مصانع النسيج في تَنيس وكانوا يطلقون عليها اسم دار الطراز، وعن اهتماماتها وما تصنعه من البسة وأنسجة، قال: «ومن جملة ما وقع به الاهتمام وما صار يستعمل في الطراز، ولم يتقدّم نظيره للولائم برسم تغطية الصواني، فكان منها عدة عراضي وقوَّارات (شراشف) تكون على الصواني، مفتوح كلَّ قوَّارة منها دون أربعة أشبار وثمان كلَّ واحدة خمسة عشر ديناراً ورُقْم في كلَّ منها سجف ذهب ثمنه أربعون ديناراً فتكون القوَّارة التي تغطي الصينية بخمسين ديناراً»^(١).

وكذلك كانوا يغطّون صواني الطعام بالزهور والورود، لمنع اقتراب الذباب والبعوض منها، ولتزيينها فتحاً للشهية.

الأطعمة والمشروبات يوظفون لها ذوَّاقة وتعدّ بإشراف الأطباء:

عندما يصف لنا المقرئ خزانة الشراب أو مخزن المشروبات، نقل عن ابن الطوير أنّه عندما زارها الخليفة، وجلس على السرير في قاعتها، تقدّم صاحبها وهو من كبار الأستاذين وبوجود شاهدها (الذوَّاقة)، فيحضر الفَرَّاشون عيون الأصناف العالية من المعجّنات العجيبة في الصواني والطيافير (صينية كبيرة) الخلنج (الجديدة) فيتذوقها الشاهد (الذوَّاقة) بحضور الخليفة ثم يستخبر عن أحوالها بحضور أطباء الخليفة، ثم يؤكّد في ذلك (يوافق)، ويستأذن على ما

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٧٢.

يعرف منها بتوقيع وموافقة أطباء الخليفة، للقصر وللحاشية فيؤذن في ذلك»^(١).

المصريون أيام الفاطميين لا يشربون إلا من الآبار النقية:

رغم أنَّ الفاطميين كانوا حريصين على تنقية ماء النيل وحفظه من التلوث، لكنهم لم يكونوا يجراؤن على الشرب من مائه زيادة في الحرص على صحتهم وصحة مواطنيهم، لذلك كانوا يحفرون الآبار أمام كل مبنى أو حارة لتأمين مياه الشرب منها.

وقد أخبرنا المقرئ أن الوزير الأول، الأفضل بن بدر الجمالي، عمَّ على الناس سنة ٥٠٢ هـ، منشوراً، هدَّد فيه بالاعتصاف من كل من يطرح في النيل شيئاً، وقام بتنظيف خليج القاهرة، وطلب من كل صاحب بستان أو مسؤول عن بستان تعود ملكيته للدولة والأمراء، أن يتولى تنظيف الجهة التي يحاذيها بستانه للنهر. فتمَّت تنقيته وتنظيفه من كل الأوساخ والقاذورات^(٢).

وكنا قد أشرنا إلى ذكر المقرئ أن أكثر شرب أهل القاهرة من مياه الآبار، لا من نهر النيل، بسبب التلوث الذي تحدثه مجاري الصرف الصحي في النيل.

وعندما حدَّثنا المقرئ عن قاضي القضاة ابن يونس، ذكر أنه «لم يشرب قط من ماء النيل، بل من ماء الآبار». كما أننا قد

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٢٠.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ٤٣.

تحدثنا عن دري المظفري الذي كان يحمل دائماً بيديه خريطة (ورق تنظيف معطر)، لأنه كان يظن أن كل من لمسه، نقل إليه العدوى - وسوسة - فينظف يديه بعد المصافحة بالخريطة، وهو نموذج موجود في كل زمان ومكان، فهناك الكثير من الناس الذين يطهرون أيديهم بالورق المعطر بعد كل مصافحة.

قضايا البيئة أو حالة القاهرة ومصر أيام المماليك:

نقل المقرئزي عن أحدهم ويدعى روفس رأياً مفاده: إذا دخلت مدينة فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة البناء فاهرب منها لأنها «وبئة». ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوانات التي تخالط الناس في شوارعهم وأزقتهم، فتعفن وتخالط عفونتها الهواء، ومن شأنهم أيضاً أن يرموا في النيل فضلات حيواناتهم وخرارات كنفهم (بواليع الجور الصحية)، وربما انقطع الماء، فيشربون هذه العفونة باختلاط الماء فيها.

ويقول المقرئزي أن الفسطاط أو مصر القديمة مليئة بالموارد العظيمة التي يصعد منها في الهواء، الدخان المفرط وهي كثيرة الغبار، حتى أنك ترى الهواء في أيام الصيف كدراً يأخذ بالنفس. وإذا مر بها الإنسان لحاجة ودون أن يرجع، يتسخ ثوبه التنظيف في اليوم الواحد. كما يجتمع في لحيته ووجهه غبار كثيف. ويعلو سماءها في العشيات وخاصة في أيام الصيف، كدر أسود أغبر^(١).

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢٤٠.

ونقل المقرئ رأى أحد الشعراء فى القاهرة أيام الممالك الذى
قال:

يقولون سافر إلى القاهرة ومالى بها راحةً ظاهره
زحام وضيق وكرب وما تثير بها أرجل السائر



مصادر تمويل الدولة

لم تكن تختلف الدولة الفاطمية عن سابقتها ومعاصريها من الدول الإسلامية في تنظيم مداخل الدولة إلا ببعض الأمور الخاصة بالمذهب الشيعي الإمامي، من حيث تنظيم المداخل، كالفطرة والخمس والمواريث الحشرية وبعض التنظيمات المالية الخاصة بإغناء مالية قصر الخلافة، بعيداً عن بيت مال الدولة أو المصرف المركزي في الدولة، كمال النجوى وإيجار شقق ومحلات مدينة القاهرة العائدة ملكيتها للخليفة الفاطمي.

من هنا سوف نتحدث عن مداخل قصر الخلافة منفرداً عن مداخل بيت المال ثم نشير إلى مداخل الدولة الفاطمية.

مصادر تمويل قصر الخلافة:

كان للخليفة الفاطمي عدة مداخل خارجة عن النظام الضريبي للدولة، منها إيجارات محلات ودكاكين وبنائات وحمّامات ومصانع القاهرة، والفطرة، ومال النجوى، فما هي هذه المداخل؟

١ - إيجارات شقق ومحلات مدينة القاهرة:

عندما جاء جوهر الصقلي ودخل مصر، وخطّط لبناء مدينة القاهرة، بنى فيها القصور والمساجد والمصانع والمعاصر والمعامل، والبنائات والحوانيت وجعلها كلّها ملكاً للخليفة الفاطمي، أو لقصر الخلافة. وكانت بمقابل مدينة الفسطاط أو مصر القديمة. وكانت إيجارات هذه المحلات والشقق وإنتاج المعامل والمعاصر والمصانع، يعود ريعها كلّها لقصر الخلافة، ولا علاقة لجهاز الدولة بها.

ويصفها محمد عبدالله عنان بقوله: «وكان قيام القاهرة أعظم وآخر إنقلاب في خطط قاعدة مصر الإسلامية، وكان خاتمة عهد جديد في تاريخ الإسلام والخلافة، ومبدأ هذه الدولة الإسلامية الباهرة التي استقلّت بمصر، وجعلت منها أمنع قاعدة للذود عن الإسلام، وأسطع منارة في المشرق لبث حضارته وتفكيره. وهي قاهرة المُعِزّ أو القاهرة المعزية، نسبة إلى مؤسسها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، منشيء الدولة الفاطمية بمصر»^(١).

ويقول أيضاً: وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهى العناية والترف؛ حتى يمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة، والمنازل كلّها منعزلة، بحيث أنّ الأشجار القائمة في أحدها لا تصل أغصانها إلى منزل الآخر. ويؤكد ملكيتها للخليفة فيقول:

وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلّها من

(١) مصر الإسلامية، محمد عبدالله عنان، ط ٢، القاهرة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، سنة

١٩٦٩، ص ٢٤.

أُملاك الخليفة، ومنها عدد عظيم يُؤَجَّر الحانوت منها بعشرة دنانير معزّية في الشهر. كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة، وكلّها أيضاً من أُملاك الخليفة.

وبالتأكيد إيجار ما يقارب عشرين ألف حانوت ومثلها من الحمامات والخانات والمعاصر والمصانع ومثلها من الشقق والبيوت، يدرّ على الخليفة ما يقارب الستة ملايين دينار ذهباً شهرياً أو اثنين وسبعين مليون دينار ذهباً سنوياً، وهذا كاف لتفسير البذخ والكرم والرفاهية التي كان يعيشها الخلفاء الفاطميّون مع رعاياهم وحاشيتهم، من المصريين وغير المصريين.

ويقول عنان أيضاً: «ولقد شهدت القاهرة في ظلّ الخلافة الفاطمية، ألواناً من العظمة والأبهة والبذخ، قلما شهدتها في ظلّ دولة إسلامية أخرى».

ويصف انعكاس هذه المداخل المالية الضخمة على قصور الخلافة فيقول: ولا نستطيع أن نُلمّ بذكر تفاصيل هذه الصروح والمنشآت العظيمة التي أقامتها الدولة الفاطمية، من قصور باذخة ومجالس فخمة زيّنت بالذهب والجوهر، ومخازن عظيمة لأنواع التحف والذخائر والأسلحة، ودور للكتب كانت تضم مئات الألوف من الكتب، وبساتين ومناظر (للفرجة) وميادين وشوارع.

٢ - مال النجوى أو الاشتراك المالي الحزبي:

النجوى في اللغة هي كلمة تقال سرّاً بين اثنين وناجى ربّه: خاطبه سرّاً. أما في المصطلح الشيعي الإمامي الفاطمي فهي تعني ما

يقدمه المنتسب لحزب الدعوة الفاطمية من اشتراك مالي شهري أو تبرع مالي شهري أو أسبوعي.

وقد كانت تصل النجوى إلى مبلغ ثلاثين درهماً للشخص الواحد أو ثلاثة دنانير ونصف، أما المتبرع العادي فقد كان يدفع في كل اجتماع مبلغ ثلاثة دراهم وثلاث، وكان كبار الأعيان يدفعون ثلاثين ديناراً وثلاثي الدينار أي مئة ضعف المشترك العادي.

وكانت الاشتراكات ترفع إلى داعي الدعوة، وكان الداعي ينقلها بدوره إلى الخليفة، وكان الخليفة يوقع على الإيصالات الخاصة بالمتبرعين الكبار برقعة أو وصل كتب عليه: «بارك الله فيك وفي مالك وولدك». فيأخذها الحزبي المتبرع ويتباهى بها أمام أفراد حزب الدعوة الفاطمية، من رفاق وأنصار.

وأساس تبرع مال النجوى عند الفاطميين الشيعة قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ، فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾. وتدل كتب التاريخ الإسلامي، أنه لم يعمل بمضمون هذه الآية إلا الإمام علي بن أبي طالب (ع) وبنوه من بعده، اثنا عشرية أو إسماعيلية^(١).

ويقول المقرئ: إنها كانت تُجبي كل يومي اثنين وخميس وتأتي النشرة الحزبية (مجلس الحكمة التأويلية) إلى مسؤول الحلقة أو الخلية مبيضة، بعد تلاوتها على الخليفة من قبل داعي الدعوة وأخذ

(١) راجع: النص والاجتهاد، السيد عبد الحسين شرف الدين، ط ٤، بغداد مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة ١٩٦٦، ص ٢٧٠.

موافقته عليها بتوقيع ظاهر. وكانت الاجتماعات تعقد في القصر في مكانين مجلس للرجال ومجلس للنساء، «فإذا فرغ من تلاوة المجلس، حضروا إليه لتقبيل يديه، فيمسح على رؤوسهم بمكان توقيع الخليفة، وله أخذ النجوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها، ولا سيما الصعيد، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث، فيجتمع من ذلك الشيء الكثير، يحمله الداعي إلى الخليفة بيده بينه وبينه، وأمانته في ذلك مع الله تعالى، فيفرض له الخليفة منه ما يعينه لنفسه وللنقباء» ونستفتح من هذا النص أنَّ داعي الدعاة كان يجمع الاشتراكات على يده وأمانته، ولا من رقيب عليه كبقية دواوين الدولة، وأنَّ هذا المال هو خاص بالخليفة وحده، يصرفه على نفسه وعلى نقباء حزب الدعوة الفاطمية الإسماعيلية، ولا دخل للدولة ولبيت المال فيه ولا رقابة عليه.

وعندما يخبرنا ابن المأمون، عن احتفال الشعب المصري وقصر الخلافة وأعيان الدولة بعيد مولد الخليفة الأمر بسنة ٥١٧هـ، نعلم أنَّ مصارفات وكلفة احتفالات وهدايا هذا العيد يصرف «من صندوق مال النجوى»، وليس من بيت مال الدولة.

الخليفة المعز يرفض التبرع الكبير:

يخبرنا أبو علي المنصور جامع سيرة الأستاذ جؤذر، مستشار الخليفة المعز في القيروان، أنَّ الأستاذ جؤذر تبرع بمبلغ عشرة آلاف دينار ذهباً لبيت الدعوة الإسماعيلية في القيروان، فأرسل له الخليفة المعز الكتاب التالي: وصل المال الذي بعثت به يا جؤذر، زكى الله سعيك، وأكمل أجرك، إلا أنَّك حملت نفسك حملاً ثقيلاً. والله عز وجل

يقول: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ والوسع دون الطاقة. وقد قبلت منه ألف دينار وهو كثير، ورددتها إليك». وحدّد الخليفة المعزّ المطلوب عمله أو شراؤه بالآلاف دينار التي تبرع بها جؤذر^(١).

مال النجوى من أصول مذهب الإمامية ولا يجوز تركه أو إغفاله:

كتب داعي دعاة اليمن علي بن محمد الصليحي إلى الخليفة المستنصر يطلب منه التهاون في جمع مال النجوى والاشتراكات الحزبية، فرد عليه الخليفة المستنصر بالكتاب التالي:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين يخص أولياء دعوته وأنصار دولته - كثّره الله - على ما يحظيهم لدى الله، ويوضح لهم مرآشد إيمانهم... ويقول الله عزّ وجلّ: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وصلّ عليهم إن صلاتك سكنٌ لهم﴾. ويقول سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾. فقد صارت هذه الصدقات فرضاً واجباً على كل مؤمن العمل به، ومن تركه كمن ترك فرضاً من الفرائض: الصلاة والصوم والحج والجهاد. وليس ما يراه أمير المؤمنين من متابعة أوامره بإخراج الفطر والنجوى احتذاءً يحتذيه، ولا إتساعاً في بيت ماله يلتمسه ويستدعيه، ولكن لما كانت من الفروض اللازمة للإمام على المؤمنين، وبها قوام الدين، تعيّن على أمير المؤمنين تعهد أوليائه بحملها، ليرفع لهم في الأعمال الصالحات ويجتنوا بها ثمرة الباقيات.

(١) سيرة الاستاذ جؤذر، م.س. ص ٤٧.

ولما ورد كتابك، وتضمن فصل منه سؤالك قبول العذر في تراخي حمل النجاوى، فقد قدّم أمير المؤمنين القول، وأوضح الأمر أنّه لا يسع أحد من المؤمنين تأخيرها، ولا يحلّ له إغفالها فاعلم هذا من الأمر واعمل بحسبه، إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله.

كتب في العشر الآخر من ذى القعدة من سنة ٤٨١هـ^(١).

وكانت نفقات التربة المعزية التي تضم قبور الخلفاء الفاطميين لا تصرف من بيت مال المسلمين، بل تؤخذ من صندوق النجاوى، كما كان يصرف من هذا الصندوق سنوياً عشرة آلاف دينار لجوامع مصر، قرية لله تعالى. وقد حدّد المقرئ هذه الجوامع فقال إنها: الأزهر بالقاهرة والجامع العتيق بمصر، وجامع القرافة.

وكذلك كانت إطلاقات الفقراء والمساكين والمؤذنين والقراء الخارجة عن رواتبهم، تصرف من مال النجاوى.

وتجعلنا هذه الإشارات نستنتج أنّ كلّ ما كان يفرّقه الخلفاء على الناس في الاحتفالات والأعياد والمناسبات، من ذهب وكسوات وأطعمة، كان ينفق من مال النجاوى.

مال الفطرة وأموال الخمس:

كنا قد أشرنا إلى أنّ الفطرة هي ما يدفعه المسلم زكاة عن نفسه وزوجته وأولاده بمناسبة عيد الفطر. وقد قدّرها علماء الإمامية من زيدية واثنى عشرية وإسماعيلية، بقيمة إطعام مسكين ليوم واحد

(١) السجلات المستنصرية م.س. السجل رقم ٢٢، ص ٨٤.

وهي مقدرة ساعة كتابة هذه الأسطر بخمسة آلاف ليرة لبنانية عن الشخص الواحد، أو يقارب ثلاثة دولارات أميركية ونصف الدولار أو ثلث غرام ذهباً تقريباً. وقد لاحظنا تأكيد الخليفة المستنصر عليها في رسالته لداعي دعاة اليمن علي بن أحمد الصليحي، وكيف جعلها مع مال النجوى ومال الخمس جزءاً لا يتجزأ من أركان الإيمان والإسلام.

٦

ولم يكن الخلفاء الفاطميون من محبي جمع الأموال، بل كان التبذير والبذخ والإنفاق على الخاص والعام والفقير والحقير والعالي والدون دأبهم، ونثر الأموال ذهاباً وإياباً يدينهم، لذلك أقاموا مصنعاً كبيراً للحلويات والمعجنات أطلقوا عليه اسم دار الفطرة، ووضعوا لها برنامج عمل يتضمن صنع الحلويات والمعجنات وإرسالها لكل الموظفين والناس والمؤذنين وقراء القرآن والمجاورين في الجوامع والقرافة، وكل فقراء مصر والقاهرة، في الأعياد المشهورة والاحتفالات المشهودة، وطيلة أشهر رجب وشعبان ورمضان، وقد أكد ابن الطوير أن عمالها كانوا يعملون «ليلاً نهاراً».

ويخبرنا ابن الطوير أن كل نوع من الحلوى له مائة صانع برئاسة مقدم. ويقول إن الحلويات المعدة في دار الفطرة «المعمولة والمعبأة، مثل الجبال من كل صنف» «ولا يزال الوزن كذلك إلى أن ينقضي شهر رمضان، ولا يفوت أحداً شيء من ذلك. ويتهاداه الناس في جميع الأقاليم»^(١).

١٧

١٨

(١) نزهة المقلتين، ابن الطوير، م.س. ص ١٤٥.

أما الخمس فهو خمس أرباح التاجر أو المزارع التي مرّ عليها سنة ولم تخمّس، وهي بنسبة ٢٠٪ من أرباح المسلم السنوية. وهي جليلة المقدار، كثيرة، وافرة وجليلة. وهي لا تدخل في حساب الدولة لأنها مقرّرة من الله لأهل بيت النبي، يصرفونها كما يروون في صرفها مصلحة للإسلام والمسلمين.

وقد أوجز الباحث الإسماعيلي الفاطمي مصطفى غالب مداخل الأئمة الفاطميين كالتالي^(١):

١ - أموال الخمس.

٢ - أموال النجوى.

٣ - أموال الفطرة.

٤ - أموال تركة الميت الذي لا وريث له.

الخليفة يمنع القضاة من قبض مال النجوى والفطرة والخمس:

نحن نعلم أنّه من الممكن في الدولة الفاطمية تعيين قاض للقضاة وليس بالضروري أن يكون إمامياً إسماعيلياً، بل يمكن أن يكون مالكيّاً أو حنفيّاً أو شافعيّاً أو زيديّاً أو إثني عشريّاً، ولما كانت أموال النجوى والفطرة والخمس هي من الأموال المختصة بالإمام فقط، مما يعني أنّه لا يجوز أن يطلع على قدر هذه الأموال إلا المقرّب من الإمام ومذهبه، لذلك، أصدر الخليفة الحاكم بأمر الله، سنة ٤٠٠هـ،

(١) الحركات الباطنية في الإسلام، مصطفى غالب، م.س. ص ١٧٨.

سجلاً منع فيه القضاة أخذ الخمس والفطرة والنجوى وترك أخذها محصوراً بأيدي داعي الدعاة. لأنَّ داعي الدعاة هو بمثابة أمين عام حزب الدعوة الإسماعيلية، والخليفة هو رئيس الحزب. لذلك كان الفاطميون يفضلون حصر هذه المهمة بدعاتهم فقط، والسجل الذي أرسله الخليفة المستنصر للداعي اليمني، علي بن أحمد الصليحي، خير دليل على ذلك.



مصادر تمويل بيت مال الدولة

كان لزاماً علينا أن نفرّق بين مداخل قصر الخلافة والخليفة عن مداخل الدولة، لأنّ الدولة لها ضرائبها ومكوسها ولما كان نظام الخلافة الفاطمية، هو نظام إسلامي ديني قبل أن يكون نظام دولة، لذلك كان لهم مداخلهم الخاصة بهم كأئمة من أهل بيت النبي قبل أن يكونوا سلاطين وخلفاء، وقد روت لنا كتب التاريخ أنّ الحاقدين على الإمام عليّ بن موسى الرضا (ع)، كانوا يقولون للخليفة المأمون: «إنّك خليفة شكلاً، بينما أموال الدنيا تجبى للإمام الرضا.

من هنا نرى واجب الفصل في المداخل بين أموال الإمامة وأموال الخلافة أو الدولة.

وأهم هذه المداخل:

الزكاة، المكوس، الخراج - الجزية - ضمان الأراضي الزراعية،
الفيء، العشور، مصادرات أموال الخونة والهاربين، ضرائب
المصادرات والواردات.

الزكاة:

والزكاة فرضها الله في كتابه الكريم، وقد وردت في القرآن في اثنين وثمانين آية، منها: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة، الآية ١١٠)، و﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة، الآية: ١٠٣).

من هذه الآيات فرض فقهاء الإسلام، ضريبة الزكاة على المكلفين، والزكاة لغة هي الطهارة والنماء، سميت بذلك لأنها تثمر المال وتنميه، «وهي في الشريعة حق واجب في مال خاص لطائفة مخصصة في وقت مخصوص».

والزكاة ركن من أركان الإسلام، وفرض عين على كل من توافرت فيه شروطها.

وهي نوع من الضرائب التي أقرها الإسلام في دولته على دخل الإنسان المسلم، وقد قدرها العلم بنسبة ٢,٥٪ على دخله السنوي، وهي لا تؤخذ إلا من المسلم.

الفيء:

وهو المال المأخوذ من أهل الذمة صلحاً.

الغنيمة:

وهو المال المأخوذ من أهل الذمة والمشركون قهراً وحرباً.

الجزية:

وهي الضريبة التي تفرض على رؤوس من دخل في ذمة

المسلمين من أهل الكتاب. وهي موازية للزكاة عند المسلمين، لأنها تصرف في الدفاع عنهم، لأنَّ أهل الكتاب لا يجبرون على الالتحاق في صفوف الجيش.

الخراج:

والخراج هو الضريبة العقارية المفروضة على الأراضي الزراعية.

العشور:

لم يكن الفاطميون يستوفون ضريبة العشور، لأنها من وضع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب. وهي عبارة عن ضريبة مرور. وقد حددها عمر بن الخطاب درهماً على كل أربعين درهماً، على أن يبدأ الاستيفاء بما ثمنه مائتا درهم فما فوق؛ ومن أهل الذمة نصف العشر أي $\frac{2}{80}$ درهماً^(١).

مركز تحقيق تكملة تاريخ مصر

ومن أمثلة الضرائب أو المكوس، الضرائب التي كانت تفرض على تجارة البهار، التي بلغت أيام الخليفة العاضد ٣٣٣٦٤ ديناراً، والمكوس المفروضة على القوافل المارة بأرض مصر، وقد بلغت في إحدى السنين ٩٣٥٠ ديناراً. وكذلك كانت تفرض رسوم على تجارة الملح والخشب والتمر والأسماك والقطن.

ونذكر لنا المقرئ أنَّ خراج حلب لسنة ٤٤٠ هجرية كان

(١) راجع: الموارد المالية في الإسلام، إبراهيم فؤاد أحمد علي، ط ١، القاهرة، مكتبة الانجلو
مصرية، سنة ١٩٧٠، ص ٢٠٧.

عشرون ألف دينار، كما أنَّ كبار الفلاحين كانوا يضمنون الأراضي الزراعية بعقود مكتوبة وموثقة وكان إذا تقدّم أحد الضامنين باعتراض وطلب استرحام بسبب الجفاف يسامح بأجرة الضمان، كضامن الصعيد الذي سامحه الخليفة الحاكم بسبب الجفاف والخسارة بمبلغ ٦٤٧٦٥ ديناراً، ضمان سنة ٤٠٩ هجرية.

شروط تجديد عقود الضمان وفسخها:

وقد أكد الخليفة الأمر في إحدى سجلاته الصادرة سنة ٥١٥ هـ، «بأنّه أي أحد من الناس ضمن ضماناً من باب أو ربع أو بستان أو ناحية أو كفر، وكان لأقساط ضمانه مؤدياً، ولما يلزمه من ذلك مُبدياً، وللحقّ متبّعاً، فإن ضمانه باقٍ في يده لا تقبل زيادة عليه، مدة ضمانه على العقد المعقود، عملاً بالواجب والنظام المحمود، واتباعاً لما أمر الله تعالى في كتابه المجيد إذ يقول: «يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود»، إلى أن تنقضي مدة الضمان، ويزول حكمها. وأما من ضمن ضماناً ولم يقم بما يجب عليه فيه، وأصرّ على المغالطة، التي لا يعتمد عليها إلا كلّ ذميم الطباع، فذلك فُسِخَ ضمانه لنقضه الشروط المشروطة عليه، وحكمه حكم من زيد عليه في ضمانه، فأخرج من يديه لأنه هو الذي بدأ بالفسخ وأوجد السبيل عليه»^(١).

وكنا قد أشرنا إلى إقدام الوزير الأول بدر الجمالي عند عودته

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٣٠.

من عقسلاان وإعاده الأمور إلى نصابها بعد القضاء على ناصر الدولة بن حمدان، كيف طلب من الولاة إعطاء الأراضي لمدة أربع سنوات مجاناً وبدون ضمان لمن يزرعها، على أن يبدأ بدفع ضمانها بعد مرور السنوات الأربع.

مسامحة الناس بكل أنواع الإيجارات والضرائب بمناسبة شهر رمضان من كل سنة:

يخبرنا المقرئزي أن الخلفاء الفاطميين، كانوا في كل سنة وفي بداية شهر رمضان، يعمّمون على رعاياهم في جميع أنحاء البلاد الإسلامية بياناً يلغون فيه كل الضرائب والأجور والمكوس على أنواعها.

وقد أصدر الخليفة الأمر سجلاً في أول شهر رمضان لسنة ٥١٧هـ، جاء فيه: «ولما كان أحسن ما تطرّز به محاسن السير، وتتناقل ذكره السنة البدو والحضر، وتجنّي ثمرته في الدنيا والآخرة، وتحمد مغبّته في العاجلة والآجلة، التقرب إلى الله تعالى في كلّ أوان، وابتغاء ثوابه في كلّ زمان، لا سيما شهر رمضان، الذي تزكو فيه أفعال البرّ والصّلاح وتتضاعف فيه الحسنات في الغدو والرواح، رأينا ما خرج به أمرنا من كتابة هذا المنشور بمسامحة الناس كافة، سكان الرباع السلطانية بالقاهرة ومصر وخارجها من الدور والحمامات والحوانيت والمعاصر والخانات والطواحين، بأجرة شهر رمضان من كلّ سنة، إحساناً يسير ذكره كلّ مسير، وتعظيماً لحرمة هذا الشهر العظيم الخطير، الذي فضّله الله على كلّ الشهور، وأنزل فيه قرآنه المجيد، وفرض صيامه على أهل التوحيد، فليعتمد

العمل بما تضمنه هذا المنشور، ويثبت في الدواوين حجة بمودعه، وليجلد بالمسجد الجامع العتيق بمدينة مصر، منعاً لمن يروم المماثلة فيه أو ينقص شيئاً منه، إن شاء الله»^(١).

وعندما حدثنا ابن المأمون عن أهراءات الدولة أخبرنا «أن متحصلها من الغلات في كل سنة ألف ألف إردب قمحاً» أي مليون إردب قمحاً أي: $1000,000 \times 24 \times 20$ كلغ = $480,000,000$ أربعمئة وثمانون ألف طن قمحاً^(٢).

وكانت الأميرات الشريفات يملكن من الإقطاعات ما يدر على الواحدة منهن سنوياً الأموال الجلية والجزيلة، فعلى سبيل المثال، يخبرنا المقرئ من المبالغ التي استوفتها ست الملك أو السيدة العزيزية شقيقة الخليفة الحاكم ضمان إقطاعاتها عن سنة ٣٨٩ هجرية فكانت كالتالي:

ضياح الصعيد وأسفل الأرض	٦٨٤٥٠ ديناراً
قرية أبو تيج	٠٦٧٥٠ ديناراً
صهرجت الصغرى	١٧٠٠٠ ديناراً
دمنهو	٠٥٠٠٠ دينار
بنايات وبساتين	٣١٥٥٠ ديناراً
	١٢٨,٧٥٠

مائة وثمانين وعشرون ألفاً وسبعمائة وخمسون ديناراً.

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ١٠٤.

(٢) أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٩٦.

من يموت بلا وريث ترثه الدولة:

كان الفاطميون يطلقون على الذين يموتون ولا وارث لهم اسم المواريث الحشرية، وكان القانون يقضي بانتقال ورثة الميت كلها إلى الدولة، فعندما يخبرنا المسبّحي عن مقتل المخنث البغدادي، انتظرت الدولة أربعة أيام لكي يظهر له وريث فلم يظهر، «كان موسراً كثير المال، وكان يدل على المتاع والجوهر النفيس والأعلاق الثمينة، ولما لم يعرف له خبر، أنفذ السلطان، فنقل ما في منزله من المال والمتاع والجواري المغنيات وغير ذلك»^(١).

وعندما توفيت الجارية «عُلَيَّة» وهي جارية الأمير عبدالله بن الخليفة المعز، لم يكن لها وريث وخلفت تركة قُدّرت بأربعمائة ألف دينار، فختم على كل ما خلفته.

أما الجارية «تقرب» كانت رئيسة جهاز استخبارات السيدة العزيزية (صاحبة خبر) وكانت تخصص لها المخصصات الضخمة، ولما ماتت، حمل مالها إلى القصر، وكانت أموال كثيرة العدد، جزيلة، جليلة.

وكان الوزير المأمون بن البطّاحي طالب بتطبيق نظام المواريث الحشرية على الشيعة، وطلب من الفقيه أبي بكر الطرطوشي بتطبيق هذا الأمر، فكان جواب الطرطوشي: إن كل من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه. فلما أصرّ الوزير الأول، كان جواب الطرطوشي: أنا نائب الخليفة، ومذهبه ومذهب جميع الشيعة، من الزيدي والإمامي والإسماعيلي، أن الإرث جميعه للإبنة خاصة بلا عصبه ولا بيت مال،

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ٢٢٦.

ويتمسكون بأنه من كتاب الله، كما يتمسك به الإمام أبو حنيفة ويوافقهم في هذه القضية».

وعندما رفعت القضية للخليفة الأمر، سطر منشوراً يقضي بعدم مخالفة الشرع والقوانين ونسخته بعد البسملة: خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور، عندما طالعه السيد الأجل المأمون (الوزير الأول)، من أمر المواريث، وما دخل عليها من الفساد، والخروج في تطبيقها عن المعهود والمعتاد. وهو أن لكل «موروث» يترك من موجوده على حكم مذهب في حياته، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته، فيخلص لذوي التشيع من الوارثات جميع موروثهم، وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال، الآية: ٧٥).

ويتوجه للوزير الأول محذراً: وليوف الأجل المأمون بامتنال هذا الأمر والاعتماد على مضمون هذا المرسوم، وليحذر كل من القضاة والنواب والمستخدمين في الباب وسائر الأعمال من اعتراض موجودات أي شخص يسقط بالوفاة وله وارث بالغ رشيد، حاضراً كان أو غائباً، ذكراً كان أو أنثى، من سائر الناس على اختلاف أديانهم، بشيء من التأولات أو تعقب ورثته بنوع من التعقبات، إلا ما أوجبه بينهم المحاكمات، والقوانين الشرعية الواجبة.

أما من يموت حشرياً ولا وارث له حاضر أم غائب، فتركته تعود لبית المال بأجمعه على الأوضاع السليمة، والقوانين المعلومة القويمة إلا إذا كان عليه دين فلتبث في جهته.

وإن سقط متوفٍ وله وارث غائب، فليحفظ الحكام والمستخدمون

تركته احتياطاً حكماً، وقانوناً شرعياً مصوناً من الاصطلام، محروساً من التفريط والاخترام، فإن حضر وأثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحكم، طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد بقبضه، عليه.

وبعد تلاوة هذا التوقيع في المسجدين الجامعين بالمعزية، القاهرة المحروسة، ومدينة مصر، على رؤوس الأشهاد، ليتساوى في معرفة مضمونه كل قريب وبعيد وحاضر وباد، ولتنسخ منه النسخ إلى جميع النواب، في سائر الأعمال (الولايات)، وليجلد في مجلس الحكم. كتب لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ٥١٦ هـ^(١).

فإذاً، فهمنا أن الموارد الحشرية هي وراثـة الدولة لمن ليس له وارث. مهما كان مذهبه أو دينه.

أولئك هم الخلفاء الفاطميون، وتلك هي حضارتهم في مجال تأمين المداخل لقصورهم ولدولتهم ولشعبهم. كان المال عندهم مثل التراب، ينثرونه، كما ينثرون الحبوب للحمام، وقد أعلمنا المقرئ أن الخليفة المعز لدين الله، حمل جواهر الصقلي ألفي صندوق ذهب حين قرر فتح مصر، أي أتى إلى مصر بالمال والدراهم، ولم يأت لحلب واستغلال الشعب المصري كما فعل الأيوبيون والمماليك والأتراك بمصر وشعبها فيما بعد.

وقد قال المقرئ إن الذي أنفقه المعز على مصر، «لا يضبط ولا يعرفه أحد إلا هو وصاحب خزانته». ونقل المقرئ أن الخليفة

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٩١.

المعز لدين الله قوله: إِنَّ فراغات أكياس المال التي أنفقتها في مصر، حملت في أعدل على جملين.

ال خليفة يستقرض من الناس بالمعروف:

ورغم الغنى الفاحش والمصادر العديدة التي كانت تدرّ ملايين الملايين على الخلفاء الفاطميين، كانت تمر حالات يضطر فيها الخليفة الاستدانة من الناس وبكفالة، فقد أخبرنا المقرئزي، أن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ابن الخليفة الحاكم، تسلّم الحكم والإمامة وخزائن قصور الخلافة خاوية خالية من الذهب والفضة بسبب كرم والده الحاكم، فاضطر سنة ٤١٥هـ، «أن يدفع لوفد مكة نصف المقرّر لهم كلّ سنة، فمضوا غير راضين، فحمل له، مظفر صاحب المظلة عشرة آلاف دينار قرضاً، ثم استدعى مظفر الشريف أبا طالب العجمي متولي الصناعة بالمقس، وطلب منه عشرة آلاف دينار أخرى قرضاً، فرفض ثم قبل بإقراض الخليفة خمسة آلاف دينار، بعد أن يضمن له الخليفة أمر إعادتها، فضمن له ذلك الوزير نجيب الدولة أبو القاسم، علي بن أحمد الجرجرائي، فحملها له»^(١).

وإذا قابلنا هذا النص بنص عن سلطان مملوكي لاحظنا مساحة وهامش الحرية الاقتصادية والمالية والدينية التي كان يتمتع بها الشعب المصري في ظلّ حكم أهل بيت النبي (ع).

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، م.س. ص ١٦٩.

الخمير والحشيش وبيوت الزواني مصدر مُهم من مصادر تمويل الدولة الأيوبية:

لن نطيل الحديث عن هذا الموضوع، فهو بحاجة إلى مؤلف أو كتاب بكامله، يقارن بين مصادر تمويل الدولة الفاطمية ومصادر تمويل الدولة الكردية الأيوبية، وخلال قراءتنا المستفيضة في الكتب التي أرخت للدولة الفاطمية، لم نجد أي موقف سياسي أو ديني أو اجتماعي معارض لأهل هذه الدولة، محدداً بالأرقام والأدلة والبراهين، بل بقيت الاتهامات، عامة شاملة صادرة عن مؤرخين مبغضين لهؤلاء الناس. أما إذا راجعنا الكتب التي أرخت للدولة الأيوبية أو المملوكية أو العثمانية، نجدها ملأى بالأخطاء والمظالم والعسف والظلم بحق المسلمين والمصريين.

يصف لنا المقرئ في بعض المكوس والضرائب التي فرضها أحد وزراء الملك الصالح نجم الدين أيوب على المصريين والمسلمين فقال: فأحدث مظالم كثيرة، وقرّر على التجار وذوي اليسار أموالاً تجبى منهم، وأحدث التقويم والتصقيع على سائر الأملاك. وجبى منها مالاً جزيلاً (حسب قيمة كل ملك)، ورتّب مكوساً على الدواب من الخيل والجمال والحمير وغيرها، وعلى الرقيق من العبيد والجواري، وعلى سائر المبيعات، وضمن المنكرات من الخمير والحشيش وبيوت الزواني بأموال مقرّرة. وسمّى هذه الضرائب والحقوق بالحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية^(١).

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٩٠.

البنك المركزي أو دار الضرب

لم تعرف الدول الإسلامية السابقة أو المعاصرة للدولة الفاطمية أو الدول التي أتت بعدها، نظاماً مالياً متماسكاً كالنظام الذي كان سائداً في مصر أيام الحكم الفاطمي. وقد بلغ هذا النظام من الدقة والتنظيم مما جعله قريباً جداً من أنظمة البنوك المعاصرة، إلا أنه، كان وقفاً على الدولة فقط، ولم يدخل مجال القطاع الخاص بسبب تحريم الفائدة والربا.

ولو كانت الفائدة أو الربا مباحة لكان بلغ المصريون في هذا المجال شأواً عظيماً. ولكن منعها وتحريمها، جعل إقامة المودع (البنك) حكراً على الدولة فقط، خاصة أن المتخصصين بعملية الإقراض والاستدانة والربا والفائدة - وهم اليهود - كانوا من نخبة المجتمع الفاطمي، ولكن ذكاءهم كان يستفاد منه في مجال التنظيمات الإدارية والمكتبية ومجال الطب فقط. ولو سمح لهم لاستعمال ذكائهم في مجال العمليات البنكية المرتبطة بالفائدة، لكانوا استولوا على المجتمع المصري كاستيلائهم على الكثير من المجتمعات الأوروبية والأميركية.

أهمية أمان جوهر الصقلي في بناء الثقة بالدولة الفاطمية:

كان للأمان الذي أعطاه جوهر الصقلي لأعيان مصر، أثر كبير في خلق جو من الثقة بين الشعب المصري والدولة الجديدة. وقد أكد فيه جوهر للمصريين أنّ في أمانه لهم «إعزازهم وحمايتهم والجهاد عنهم، بعد أنّ تخطفتهم الأيدي واستطال عليهم المستذلّ وأطمعته نفسه بالإقتدار عليهم وعلى مصر».

كما أكد لهم أنّ هدف الخليفة المعزّ لدين الله «إقامة الحج الذي تعطلّ وأهمل العباد فروضه وحقوقه بسبب الخوف المستولي عليهم، إذ لا يأمنون لا على أنفسهم ولا على أموالهم»، فقد أوقع بهم قطاع الطرق وسفكت دماؤهم مرة بعد أخرى، «وابتزّت أموالهم».

ثم أكد على منع التزوير والتزييف في العملة حيث قرّر في هذا الأمان «تجديد السكّة» وصرفها إلى العيار الذي عليه السكّة الميمونة المنصورية المباركة نسبة للخليفة المنصور والد المعزّ لدين الله.

ووعد جوهر المصريين بمنع الغش في السكّة كما وعدهم بنشر العدل وبسط الحق ومنع الظلم وقطع العدوان والتعدّيات، ونفي الأذى وإعانة المظلوم «مع الشفقة والأحسان وجميل المنظر وكرم الصحبة ولطف العشرة وتفقد الأحوال، وحياسة أهل البلد في ليلهم ونهارهم، وحين انصرافهم أو ان ابتغاء معاشهم، ولمّ شعنتهم وإقامة أودهم، وإصلاح بالهم، وجمع قلوبهم، وتاليف كلمتهم، وترميم مساجدهم، وصرف الرواتب لقومتها وللقرءاء والمؤذنين، ومن يؤمّ الناس فيها».

وكانت أوّل مناسبة لإثبات ما أعطاه جوهر من أمان لأهل مصر، إقدام العساكر الكافورية بنقض الأمان والهجوم على عساكره، لكنهم

انهزموا وهربوا من مصر إلى الشام، فمنع عساكره من نهب بيوتهم وأقام الحراسات عليها بانتظار عودتهم وتوبتهم، فلما علموا بعفوه وحلمه، عادت العساكر الكافورية واستلمت بيوتها.

البنك المركزي من المودع إلى دار الضرب:

يخبرنا أبو عمر الكندي أن أول بنك في مصر أُسس على يد القاضي عبد الرحمن بن عبد الله العمري سنة ١٨٥ هـ. وأطلق عليه اسم المودع. وقد أسس هذا المودع لحفظ أموال اليتامى «وكانت تجمع فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له»^(١).

وعندما جاء الخليفة المعزّ أقام داراً للضرب، تضرب فيها العملة أو دار السكّة، من سكّ الدراهم والنقود، ولم ينتظر الخليفة المعزّ لدين الله حتى يدخل مصر لبناء دار الضرب، فأرسل أمراً إلى جوهر بفتح دار الضرب وضرب السكّة الحمراء وعليها:

دعا الإمام معزّ بتوحيد الإله الصمد - في سطر. المعزّ لدين الله أمير المؤمنين - في سطر آخر. وفي الوجه الثاني للدينار:

ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وفي دينار آخر جاءت السكّة:

- لا إله إلا الله، محمد رسول الله - وفي الوجه الثاني للدينار: عليّ أفضل الوصيين، وزير خير المرسلين^(٢).

(١) الولاة وكتاب القضاة، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، ط ١، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، سنة ١٩٠٨، ص ٤٠٥.

(٢) اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، ص ١١٦.

وكانت النقود التي تُسَكَّ صنفان: الدينار يُسَكَّ ذهباً أو عيناً
عروضاً والدرهم يُسَكَّ ورقاً يعني فضة.

ويقول المقرئزي عن دار الضرب: «أنها ما زالت مستمرة طيلة
أيام الدولة الفاطمية، وكان لها في أيامهم أعمال، ويعمل بها دنانير
الغُرَّة (دنانير سياحية) بمناسبة عيد خميس العدس، ويتولّاها قاضي
القضاة لجلالة قدرها».

قاضي القضاة هو حاكم البنك المركزي:

كان لمركز المشرف على دار الضرب أو البنك المركزي أهمية
كبيرة وجليلة في الدولة الفاطمية، لذلك كان الإشراف عليها يسند
عادة إلى قاضي القضاة، تعظيماً لشأنها، ويُنَصَّ على إسنادها إليه
في جملة ما يسند إليه من وظائف القاضي واختصاصاته. ويمكن
لقاضي القضاة أن ينيب عنه من يختاره من معاونيه الثقة أو من
نطلق عليهم اليوم نواب حاكم البنك المركزي.

١٣٨

وكان حاكم البنك المركزي أو دار الضرب يتولى إلى جانب
القضاء، دار العيار المسؤولة عن ضبط الموازين والمكاييل، وشؤون
المساجد والجوامع، وقد تولى هذه المناصب مجتمعة الحسن بن
النعمان زمن الحاكم بأمر الله.

وكانت سبائك الذهب الخالص تحمل إلى دار الضرب من المناجم
بإشراف نائب الحاكم. وهو موظف يتبع مباشرة لقصر الخلافة،
ويعتبر المدير المسؤول عن عملية السكّة. حيث يتم تحويل السبائك
أمامه سائلاً كالماء الجاري، ثم يؤخذ منها مقدار أربعة مثاقيل

ويضاف إليها أربعة مثاقيل أخرى من الذهب الحار ويعمل منها سبائك قليلة السماكة تسمى ورق، وتغلى في أتون فخار طوال الليل، ثم تضرب دنانير، ويعمل بالدرهم الفضة نفس العملية.

وقد كتب ابن بَغَرَة عن اهتمام الفاطميين بالذهب ومصادره وطريقة استخراجهم من المناجم وتحويله إلى رقائق وسبائك فقال: «وذلك أنَّ ملوك مصر المتقدمين كانوا يعملون الذهب بدار الضَّرْب بلا عيار يستند إليه، ولا أصل يُعتمد عليه: فتارةً يعلو عيارهم، وتارةً ينزل، وهم لا يعلمون، حتَّى انتهى المُلك إلى الأمر الذي عرف به الدينار الأمري العال، وهو أحد ملوك مصر، ولد بالقاهرة المعزية ليلة الثلاثاء الثالث عشر من المحرم سنة تسعين وأربعمائة، وتولَّى المُلك وعمره خمس سنين وشهر وأربعة أيام، وأمعن الكشف في أسرار عمل الذهب بدار الضَّرْب سنة أربع عشرة وخمسمائة، وتوفي في ثالث ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ودقَّق البحث عن ذلك، ووقف من أسرار الذهب على أصل لا يجوز لغيره أن يتعداه، وبالع في الإستقصاء عنه إلى حدٍّ لم يصل إليه سواه وصار قدوة يَقتَدَى به مَنْ بعده. وعياراً قد استوعب الممكنات في التحرير وهو العمدة، ولا الوقوف إلاَّ عنده. ولما علم مولانا السلطان الملك الكامل علوَّ الدينار من الأمرية أراد بعلوِّ همته البروز عنها، وحيف عيار الدنانير المختومة بأسمه عن الأمرية وهي أعلى منها، ولا في شرق الأرض ولا مغربها دينار أعلى من الأمري [إلا] الكاملى.

وصفة التَّسْلُطُ للأمر - رحمه الله تعالى - لهذا العمل أنَّه وجد أصناف الذهب ثلاثة وهي: معدني، وتربة، ونبات.

«فَأَمَّا الْمَعْدِنِي فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الْحَجَرِ يَشْبَهُ الْعُرُوقَ
الْمَفْرَعَةَ فِيهِ، وَهُوَ بِالْمَغْرِبِ. وَأَمَّا التُّرْبَةُ فَهِيَ التُّبْرُ الْمَشْبُوهُ بِالْجِصِّ
وَالرَّمْلِ؛ وَأَمَّا النَّبَاتُ فَهُوَ الَّذِي يَنْبَتُ فِي بَحْرِ النَّيْلِ خَلْفَ جَبَلِ الْقَمَرِ،
وَلَطِيفُ هَذَا النَّبَاتِ يَحْمِلُهُ النَّيْلُ إِلَى أَرْضِ أُسْوَانَ وَيَجْمَعُ تَرَابَهَا مِنْهُ،
وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي الْفَخَّارِ الْأَسْوَانِيِّ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ كَالدَّرِّ اللَّطِيفِ، وَلَطِيفٌ هَذَا
اللُّطِيفُ يَحْمِلُهُ النَّيْلُ مِنْ أُسْوَانَ إِلَى بَحْرِ مِصْرَ تَرَاهُ ظَاهِرًا فِي الرَّمْلِ
لَمَنْ يَتَأَمَّلُهُ بِشَاطِئِ بَحْرِ مِصْرَ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَفِي بِمَا يَغْرَمُ عَلَيْهِ مِنَ
الْعَمَالَاتِ لضعفه ونزارته، وَأَمَّا الَّذِي لَا يَقْدِرُ النَّيْلُ عَلَى حَمْلِهِ فَيَبْقَى
مُسْتَقَرًّا فِي مَكَانِهِ، وَهُوَ كَالْجِصِّ الْمُسْتَطِيلِ.

وهذه الأصناف أول ما تطلع في معادنها تظهر فضة ملونة
بذهب، ثم يقوى الذهب فيها على الفضة أولاً فأولاً على قدر قوة
بخار معادنها، فيصل إلى دار الضرب ما يكون حايلاً قد أنضجت
الطبيعة وكملت مزاجه، ومنها ما يكون ذهباً دُونَاً لم ينته في الطبخ
إلى غايته.

والذهب أكثر مخلوقات الله قيمة من جميع المعادن، لأنه باقٍ على
مر الزمان في كل أرض وجهة، ويزيد في كل يوم ما تُنبته الطبيعة
في معادنه. وسبب قلته في أيدي الناس فرط محبتهم فيه، وإشفاقهم
عليه وإدخارهم له، واكتنازهم إياه؛ ثم يعرض قاطع الموت لأصحاب
الدُّخَائِرِ وَالْكُنُوزِ فتختفي بموتهم.

ونعود لما كنّا فيه؛ فجمع الأمر من هذه الأصناف الثلاثة من
الذهب ثلاثة أجزاء متساوية، وسبكها سبائك، ورقّقها وقطّعها
كالأظفار، وعلقها في أتون دار الضرب كما جرت العادة ليلة واحدة.

وأي صنف حضر من هذه الثلاثة قام مقام الجميع. وأوقد عليه بنار قُحْم السُنْط. القويّة، فأذابت النار ما في جسمه من الذهب والفضّة التي خلقها الله تعالى في جسمها وقصرت الطبيعة عن نضجها حتّى تعود ذهباً، ولم يذب الذهب، وصبر على النار لكمال طبيعته وتعامه، بل نقص من وزنه مقدار الفضّة التي فارقت في التعليق للنار لضعف جسمها^(١).

وإشراف نائب الحاكم يهدف إلى عدم الغش بالدينار باستبدال بعض الذهب بالنحاس يكون النحاس داخل الدينار والغلاف الخارجي من ذهب. ويجب أن يحرر الدينار الذهب بثمانية مثاقيل أو ٣,١٢٥ غرام.

ولما كان دار الضرب وما يتبعها من مؤسسات هي من مسؤولية قاضي القضاة، لذلك كان القاضي يحضر بنفسه مباشرة لمراقبة وزن السبائك الذهبية المعدة للسكة ويعود ويختتم عليها بنفسه، بعد التأكد من وزن وعدد الدنانير التي ضربت بموجب السبائك الذهبية المحولة بإشراف نائب الحكم أو نائب الخليفة.

الخليفة المعزّ لدين الله يستعمل الدنانير المزورة للقضاء على القرامطة:

يخبرنا المقرئزي أنّه حينما هاجم الحسن بن أحمد القرمطي مصر وحاصر القاهرة، ساعده أمير الشام حسان بن الجراح الطائي، فعمد الخليفة المعزّ إلى تشريد عساكر القرامطة وجموعهم بمخادعة

(١) كتاب كشف أسرار دار الضرب المصرية، ابن بكرة، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، سنة ١٩٦٦، ص ٤٩.

حسان بن الجراح حيث أرسل له خبراً مفاده أنه إذا تخلّى عن الحسن بن أحمد القرمطي وسحب عساكره من المعركة فله هدية مقدارها مائة ألف دينار ذهباً. فقبل حسان بن الجراح، وسحب عساكره، فما كان من الخليفة المعز إلا أن أمر دار الضرب بسبك مائة ألف دينار نحاساً وطلّيتها بالذهب «وجعلها في أكياس، ووضع على رأس كلّ كيس منها دنانير يسيرة من الذهب ليغطّي ما تحتها». وأرسلت الأكياس إلى أحد الأشخاص الموثوقين من قبل ابن الجراح. ويقول المقرئزي إن ابن الجراح، لما وصل إليه المال، تقدّم إلى كبار جيشه وأصحابه وطلب منهم أن يتبعوه إذا تواقف العسكران للحرب، عسكر القرمطي والعسكر الفاطمي، فلما اشتدّ القتال، هرب ابن الجراح منهزماً فتبعه أصحابه^(١).

تسليفات البنك المركزي بدون فائدة أو كفيل:

يروى لنا المقرئزي نقلاً عن ابن مهذب وهو صاحب بيت المال أو حاكم البنك المركزي في القاهرة، كتب إلى الخليفة العزيز بالله يقول له:

يا مولانا: صلّى الله عليك، ربما سألني بعض أهلي وكتّابي وبعض الكتّاب من عبيد الدولة، الموثوق بهم في استقراض مال، ومالي لا يحتمل ذلك، ومال مولانا لا أمدّ له يدي إلا بإذنه. وقد كتبت هذه الرقعة إلى مولانا أستاذنه فيما أعول عليه؟.

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٠٥.

فكان جواب الخليفة العزيز إلى ابن مَهْدَب: «يا محمد سلّمك الله، من أتاك من أهلك وكتّابك وخزّانك والمنصرفين معك، ومن سائر رعايانا والمتمسّكين بأذيالنا يطلب منك سلفاً، ورأيت منه ما يدل على صحّة ما شكاه من ضرورته، وعلمت صدقه في ديانته، فادفع إليه ما رأيته، وخذ منه خطّه (توقيعه)، ولا تطلب منه ردّه. فإن ردّه إليك عفواً من ذات نفسه، فخذ منه، وإن لم يرده إليك وعلمت أن يده لا تصل إلارده، فاعذره في تأخير ما قبضه. وإن طلب زيادة، زده على شرطه، واسكت عن طلبه. ومن عرفت أنّه قادر على ردّ ما قبضه، ولم يعده إليك، فامسك عن طلبه، وامنعه من مثله»^(١).

فإذاً، كانت الشروط التي يفرضها البنك المركزي للقرض هي:

١ - أن يكون من رعايا الدولة الفاطمية أو موظفيها.

٢ - أن يكون مضطراً للقرض.

٣ - أن يثبت ضرورته له.

٤ - أن يكون صادق الدين والذمة.

وهذا يشمل كلّ أبناء مصر والدولة الفاطمية من مسلمين ونصارى ويهود، لا فرق بين مواطن ومواطن إلا «في صدقه بديانته».

وقد سمح الخليفة العزيز بمعاودة الاستقراض من البنك المركزي مرة ثانية، شرط ضرورته له، ولو لم يرّد القرض الأول.

كما أنّه أكّد على ضرورة البحث والتقصّي عن إمكانية صاحب القرض من إعادته أو عدم إعادته، لكي يمتنع بيت المال عن تسليفه ثانية.

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، ص ٢٩٦.

طريقة كشف النقود المزورة بماكينة العد:

كانت الطريقة الوحيدة التي تساعد الصرافين أو البنك المركزي وفروعه هو وزن الدينار أو الدرهم، فإذا نقص وزنه، يكشف زيفه. فالدينار الذهب يزن ٣,١٢٥ غ. وكان كلّ جهبذ أو أمين صندوق يحتفظ بجدول يظهر أمامه وزن كلّ مبلغ من الدينانير أو الدراهم، فكانت الموازين في البنوك هي بمثابة ماكينة عدّ، يقبض بواسطتها أو يدفع، أكبر مبلغ بأقل وقت.

فروع البنك المركزي:

لم تكن دار الضرب أو البنك المركزي مختصرة على مركز دار الخلافة في القاهرة المعزية فقط. وقد كان هناك ثلاثة فروع لدار الضرب قبل الخليفة الأمر، الأول في المهدية بتونس، والثاني في صور في لبنان، والثالث في عسقلان بفلسطين. ولما أتى الخليفة الأمر فتح ثلاثة فروع جديدة لدار الضرب، وهي في مصر السفلى (الفسطاط) وقوص، والإسكندرية.

ونعلم من أخبار فرع البنك في قوص أنّ عملية سك العملة وضربها تتمّ بإشراف «مهندسين». وقد ضرب حاكم البنك في قوص عشرين ألف دينار ذهباً وعشرين ألف درهم فضة كتجربة، «وصار كلّ ما يصل من اليمن والحجاز من الدينانير العدنية وغيرها، يعاد سبكها وضربها في دار الضرب بقوص».

استبدال النقود المزيفة بالصحيحة في نفس الوقت في جميع فروع البنك المركزي الفاطمي المصري:

عندما كان الصيارفة يكتشفون زيفاً في العملة الذهبية أو الفضية، كانوا يعمدون إلى إخبار المحتسب أو حاكم البنك، أو مسؤول دار الضرب، فيعمد الأخير إلى إذاعة بيان أو منشور على منابر جوامع مصر والقاهرة، ومنابر وجوامع كل بلاد الخلافة الفاطمية، بعد إرسال البيان إلى فروع البنك المختلفة بطريقة الحمام الزاجل، يحدّد فيه نوع العملة المزورة، والمهلة المحددة لاستبدالها من فروع البنك مباشرة أو من محلات الصيارفة.

وكذلك كان حاكم البنك المركزي يعمل في حال إنزال عملة جديدة تستبدل بالعملة القديمة.

يخبرنا المقرئ أن الخليفة الحاكم، أمر، سنة ٣٩٧هـ بسك عملة جديدة، بعد أن تضخّم سعر الدينار المتداول وأصبح أربعة وثلاثين درهماً فضة بدينار، فعَمَّم على الناس بضرورة استبدال هذه الدراهم القديمة. وكان الدرهم الجديد يستبدل بـ أربع دراهم قديمة. وعَمَّم على الناس بضرورة استبدالها من دار الضرب أو من الصيارفة، بعد أن أغرق الصيارفة «بعشرين صندوقاً مملوءةً دراهم جديدة». وقرئ بيان منع التعامل بالدرهم القديم.

كما يخبرنا المقرئ أنه بعد أن سكّ الخليفة المعزّ لدين الله الدينار المعزّي وأنزله في الأسواق وفي محلات الصيارفة، أقبل المصريون على التعامل به وكان يصرف بـ خمسة عشر درهماً فضة، «وكان يستبدل يومياً من دار الضرب ما بين خمسين ألف

ومائة وعشرين ألف دينار معرّي». ويعلق المقرئ على هذا الأمر بقوله: «وهذا شيء لم يسمع قط بمثله في بلد آخر». ويقول إنَّ تبديل العملة من دار الضرب استمرَّت حتى أوَّل المحرم من سنة ٣٦٥هـ.

البنك المركزي يتوقف عن الدفع:

يخبرنا المقرئ، أنَّ الخليفة الحاكم كثرت أوامر الدفع الصادرة عنه لصاحب بيت المال حسين بن طاهر الوزان سنة ٤٠٣هـ. فتمنع عن الدفع فوصل الخبر للخليفة الحاكم. فكتب له بخطه بعد البسملة:

الحمد لله كما هو أهله:

أصبح لا أرجو ولا أتقي سوى إلهي وله الفضل
جدي نبوي وإمامي أبي وديني الإخلاص والعدل
المال مال الله عز وجل، والخلق عباد الله، ونحن أمتناؤه في
الأرض، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام^(١).

١٣

البنك المركزي يصدر عملات سياحية:

كانت الدولة الفاطمية سابقة لعصرها في حضارتها ونظمها وقوانينها في جميع المجالات. فقد أوردت كتب التاريخ التي أرخت لهذه الدولة، أنَّهم كانوا يصدرون عملات ذهبية مختلفة الأحجام والأوزان والأشكال عن العملات المتداولة، بسبب مناسبة معينة

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٩٧.

يقَدِّسونها أو يحترمونها، حيث علمنا أنهم كانوا يصدرون مثلاً
بمناسبة خميس العدس وبمناسبة رأس السنة الهجرية دنانير
«سياحية» يُسَكَّ منها عدد قليل بعدد المُهدى إليهم من قبل
الخليفة.

فعلى سبيل المثال، كانوا يضربون ألف دينار في كلَّ أول يوم
من السنة الجديدة، ويطلقون عليها اسم دنانير الغرّة. وكانوا
يوزّعونها على كبار الموظفين والأعيان والأعوان. كذلك كانوا
يضربون خمسمائة دينار بمناسبة عيد خميس العدس من كلَّ عام.
ولم تكن دار الضرب في العاصمة فقط تسكّ هذه العملات، فكان
فرعها في صور على سبيل المثال يضربها، بأمر وموافقة المركز
الرئيسي في القاهرة وتوزّع على أعيان صور والساحل اللبناني^(١).

إضراب شارع المصارف:

وكان الغش في مراكز الصيارفة أو المصارف في مصر قائماً على
قدم وساق قبل مجيء الفاطميين، وعندما أتى جوهر، قمع الغش وهدّد
الصيارفة بتحميلهم مسؤولية ترويج أي درهم أو دينار مزوّر، وطلب
من المحتسب سليمان بن عروة تشديد المراقبة على المصارف، وكان
في القاهرة - شارع للمصارف، يدعى «رحبة الصيارفة»، فما كان من
سليمان بن عروة إلا أن شدّد الرقابة عليهم فشغبوا، أي أضربوا
وقاموا بمظاهرات ضد المحتسب وضد جوهر، فما كان من جوهر إلى

(١) راجع: الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ٤٥٠.

أن أقدم على محاصرتهم من جميع منافذ الشارع، وطلب من المحتسب وقائد الشرطة بحرق المصارف وأصحابها، فسكنوا وهدأوا ووعدوا بالامتثال لأوامر الدولة الفتية الجديدة^(١).

لص يثقب سقف البنك ويسرقه:

يخبرنا المسبّحي أن أبا القاسم القرقوبي يملك مودعاً (بنكاً أو مصرفاً) في أحد شوارع مدينة تنيس، وكان ذلك سنة ٤١٥هـ، فجاء أحد أبناء الريف وسكن في شقة فوق المصرف. وكان هذا الساكن الجديد يراقب أبا القاسم القرقوبي، ولما علم أنه بات ليلة الجمعة في القرافة، ثقب سقف المودع من شقته ونزل إليه وسرق منه جرة فيها ألف ومائتا دينار ذهباً، «فأخذها وطلع من حيث نزل»، وأصلح الثقب كأنه لم يكن، وترك الشقة وانتقل إلى غيرها.

وعاد أبو القاسم باكراً إلى مودعه صبيحة يوم السبت، وفتحه وطلب المال فلم يجده، فبحث عنه، ولاحظ أن السقف فيه تلاعب «وكانه أعيد عمله»، فاستدعى وكيل الدار وذهب به إلى مقر الشرطة السفلى في مصر القديمة، فدلهم على حال الساكن المذكور، وكيف أنه أقام فيه أياماً ثم انتقل منه. وسطر متولي شرطة مصر القديمة مذكرة بحث وتحرق بحق هذا الساكن، وبعد أيام استطاع جمع بعض المعلومات عنه، وأنه مقيم بـ«بنها العسل»، وهي أحد قرى «أسفل الأرض»، فأنفذ شرطته إلى هناك وقبضوا عليه واقتادوه إلى مركز

(١) الخطط المقرية، الجزء الثاني، ص ٣٤٠.

الشرطة السفلى في مصر، وقرّر بما أقدم عليه من سرقة للمودع، فأقرّ واعترف بما فعله وصنعه. وسؤل عن المال، فلم يجدوا معه سوى ثلاثمائة دينار، كانت بقيت معه من أصل المال، وذكر أنّه كان عليه دين لأخته خمسمائة دينار، فأعادها لها، فطولبت أخته بالمبلغ، فوجدوا معها منه أربعمائة دينار، فاسترجعوها منها، وضمن أحد سكان «بنها العسل» الرجل بمائة دينار ودفع عنه للشرطة، فكان مجمل ما أعيد من المبلغ إلى صاحب المودع ثمان مائة دينار واقتصرت السرقة على أربعمائة دينار، فأعيد الرجل السارق إلى معتقله بانتظار استكمال إعادة كامل المبلغ إلى البنك، ومن ثم محاكمته^(١). وبالإضافة إلى البنوك الخاصة أو محلات الصرافة، كان هناك بنوك خاصة بالأيّام.

بنك الأيتام:

ويخبرنا المقرئزي أنّ الحاكم بأمر الله، كان أوّل من فتح بنكاً أو مودعاً خاصاً بأموال اليتامى الذين مات أهلهم وتركوا لهم مالاً. وكلف به أبا عبد الله، الحسين بن علي بن النعمان، وطلب منه إلزام ولاية أمور الأيتام بتقديم حساباتهم إلى المودع. وعيّن خمسة من الشهود العدول في هذا المودع لضبط ما يرد إليه وما يخرج منه، من أموال بحجج (وصولات) موقّعة من قبل ولاية أمور الأيتام، والشهود العدول.

وكان يتولى هذا المنصب، أي مدير بنك الأيتام أو مودع الأيتام، قبل الحسين بن علي بن النعمان، عمه محمد بن النعمان. ولما توفي أقيمت

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ١٧٦.

جردة على أموال البنك فتبين أن فيها نقصاً قيمته عشرون ألف دينار، وقيل ستة وثلاثون ألف دينار، فأقدم الخليفة الحاكم على بيع كل متروكات محمد بن النعمان لتسديد ديونه لبنك الأيتام، وطالب الموظفين الموقعين على المعاملات، ومن لم يستطع تبرئة نفسه غرّمه بما وقع عليه. ثم استدعى الحسين بن النعمان وأعطاه منزلاً وأربعين ألف دينار ذهباً وقال له أغنيتك عن مد يدك لأموال اليتامى، فإياك والغلط.

ولكن بعد مديدة، تقدّم أحد الأيتام برقعة يتظلم فيها إلى الحاكم من الحسين بن علي بن النعمان، ويذكر فيها أن أباه توفى وترك له عشرين ألف دينار. وأنها أودعت في المودع ومعه توقيع الحسين بن النعمان والشهود والعدول عليها، إضافة إلى أرزاق وأوقاف معلومة، كلّها بتصرف المودع. وقال فيها إنه حين طالب الحسين بن النعمان، أجابه «أنّ ماله قد نجز» (لم يعد له رصيد). فما كان من الخليفة الحاكم بأمر الله إلا أن أخذ الرقعة واستدعى مدير البنك، الحسين بن علي بن النعمان، «فأحضر من ساعته»، وأوقفه على الرقعة، فكان جواب الحسين للخليفة كجوابه لليتيم صاحب المال: «أنه استوفى ماله من مال» - حسابك مكشوف - فما كان من الخليفة الحاكم إلا أن طالب بكشف حساب ذلك اليتيم ومقابلة توقيعه مع توقيع مدير المودع مع توقيع الشهود والعدول، «فوجد أن الذي وصل للرجل أيسر ماله». فعَدَدَ الخليفة الحاكم على مدير المودع، الحسين، «ما أقطعه من إقطاعات وما أجرى له من جرايات، وما أزاح من عله» لئلا يتعرّض إلى ما نهاه عنه من هذا التصرف وأمثاله. فقال

الحسين: «العفو والتوبة» ولكن الحاكم أمر به فضربت عنقه وأُحرق^(١).

الميزان هو ما كينة العدّ والدفع لكل عشرة موظفين:

يصف لنا المقرئ طريقة صرف رواتب الجنود والعساكر الذاهبة إلى الجهاد فقال: «وَقَرَّرَ يَوْمَ لِلنَّفَقَةِ، وَيَتَوَلَّى النَّفَقَةَ لِلْغَزْوِ فِيهِمُ الْخَلِيفَةُ بِنَفْسِهِ، فَإِذَا أَرَادَ الْخَلِيفَةُ النَّفَقَةَ عَلَى الْمَرَكَبِ السَّائِرَةِ لِلْجِهَادِ وَكَانَتْ عَدَّتُهَا تَزِيدُ عَلَى خَمْسَةِ وَسَبْعِينَ شَيْئاً وَعَشْرَ مَسْطَحَاتٍ وَعَشْرَ حَمَالَاتٍ فَيُؤْمَرُ نَقِيبُ كُلِّ شَيْئٍ بِإِحْضَارِ الرِّجَالِ، وَلَهُمُ الْمَشَاهِرَةُ (رواتب شهرية) وَالْجَرَايَاتُ الْمَتَقَرَّرَةُ مَدَّةَ أَيَّامِ السَّفَرِ، وَهُمْ مَعْرُوفُونَ عِنْدَ عَشْرِينَ نَقِيباً، وَلَا يَعْتَرِضُ أَحَدٌ أَحَدًا. فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْعِدَّةُ الْمَطْلُوبَةُ، يَقَرَّرُ يَوْمَ لِلنَّفَقَةِ، فَيَجْلِسُ الْخَلِيفَةُ وَالْوَزِيرُ كُلُّهُ فِي مَكَانِهِ، وَيَحْضُرُ صَاحِبُ دِيْوَانِ الْجَيْشِ وَهُمَا الْمُسْتَوْفِي وَالْكَاتِبُ، وَيَكُونُ الْمُسْتَوْفِي مُسَلِّماً عَدْلًا وَالْكَاتِبُ يَهُودِي. فَيُفْرَشُ أَمَامَ مَجْلِسِ الْخَلِيفَةِ أَنْطَاعٌ (قدور واسعة الفوهة) تَصُبُّ فِيهَا الدَّرَاهِمُ وَالْذَنَانِيرُ. وَيَحْضُرُ الْوَزَّانُونَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ لِذَلِكَ. فَإِذَا بَدَأَ صَرْفُ الرُّوَاتِبِ وَالْجَرَايَاتِ، أَدْخَلَ الْجُنُودَ «مِائَةَ مِائَةٍ»، يَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ، وَتَكُونُ أَسْمَاؤُهُمْ قَدْ أُدْرِجَتْ فِي جَدَاوِلٍ وَأَوْرَاقٍ لَاسْتِدْعَائِهِمْ عَنْ طَرِيقِ نَقَبَائِهِمْ، بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ، فَيَسْتَدْعِيهِمُ الْمُسْتَوْفِي بِمَوْجِبِ الْأَوْرَاقِ وَاحِدًا وَاحِدًا، فَإِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ اسْمُهُ، عَبَّرَ مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ الْخَالِي، فَإِذَا اكْتَمَلَ الْعَدَدُ عَشْرَةَ رِجَالٍ، وَزَنَ الْوَزَّانُونَ لَهُمُ النَّفَقَةَ (الرواتب) وَكَانَتْ

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٥٩.

لكل واحد خمسة دنانير، فيتسلمها النقيب ويوقع بيده على استلامها، وباسمه، ثم يصرفها لكل جندي بموجب الورقة أو الجدول الذي قبض بموجبه،^(١).

بنوك مصر تتعامل بالشيكات:

يخبرنا الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي مرّ في مصر سنة ٤٤٤هـ، أيام الخليفة المستنصر، أنّه قبض صكاً (شيكاً) من أحد أصدقائه التجار في ميناء عيذاب على البحر الأحمر، وقال له: إذا اضطررت فاصرفه من مصر، فكتب ناصر خسرو يصف عملية صرف الشيك فقال: حينما كنت في أسوان كان لي صديق؛ فلما ذهب من هناك إلى عيذاب كتب لوكيله كتاباً يقول له: أعط ناصر ما يريد، وهو يعطيك صكاً بالحساب، فلما بقيت بها ثلاثة أشهر، وأنفقت ما معي اضطررت أن أعطي الوكيل، الورقة التي معي، فأكرمني الوكيل، وقال لي، إن لديّ أشياء كثيرة، فخذ ما تريد وأعطني صكاً بها، فأخذت منه ما أريد وأعطيته صكاً بها (شيك) فأرسله إلى أسوان وقبضه^(٢).

مودع المواريث أو بنك المواريث:

وهذا المودع أو البنك، كان أوّل من أقرّه وأقامه في الدولة الفاطمية، الوزير الأول، الأفضل بن بدر الجمالي. وكانت وظيفة هذا

(١) راجع: الخطط المقرّية، الجزء الأول، ص ٤٨٣.

(٢) راجع: سفرنامه، ناصر خسرو، م.س. ص ١١٩.

البنك، حفظ مال من لا وارث له وإدارة أملاكه وجمع ريعها وأرباحها وإيداعها في حساب المتوفى بانتظار ظهور وريث له ولو في أقاصي الدنيا. وهذا ما لم تعرفه أي دولة متحضرة أو متقدمة حتى تاريخه.

يقول المقريري واصفاً هذا المودع:

وكانت محاسن الأفضل كثيرة، منها أنه أول من أقام مودعاً لأموال المواريث، ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها، فإذا حضر من يطلبها، وطالعه القاضي بثبوت استحقاقه أمره في الحال بإعطائه ما يثبت له.

ويقول المقريري: «وقد اجتمع بالمودع من مال المواريث التي تنتظر وصول مستحقيها من شرق الدنيا وغربها مائة وثلاثون ألف دينار».

ويقول أيضاً: إن مدير مودع مال المواريث، استكثر هذه الأموال وطالب برفعها إلى البنك المركزي «فرفعها إلى بيت المال أولى من تركها في المودع، فإن لها الفترة الطويلة ولم يطلب منها شيء»، فكان جواب الوزير الأول الأفضل لمدير المودع: «اتركه على حاله لمستحقيه ولا تراجع فيه»^(١).

(٦)

ومن مجريات الحديث عن الدينار والدرهم وأنواعها استطعنا أن نستخلص أن درهم النقرة هو درهم النحاس ودرهم الورق أو العروض هو درهم الفضة وأن الذهب يختص بالدينار فقط، وليس هناك دينار فضة أو نحاس وعلمنا أيضاً أن الدينار الذهب يصرف بـ ١٦ درهم فضة.

(١) راجع: اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ٧٢.

حالة البنوك والمصارف بعد زوال الدولة الفاطمية:

كان المقرئزي أكثر المؤرخين دقة وأشدّهم تأكيداً على إبراز الملاحظات المفيدة والقيمة حول كلّ ما يختص بالعملية الاجتماعية، وخاصة ما يختص بالنقد والدرهم، فهو يقول إنّ الدرهم والدينار نقصت قيمتها لكثرة ما نهبه الأتراك من قصور الخليفة المستنصر، من مطرّزات وأوان وجواهر وعقود وسروج، ونزعوا ما فيها من ذهب وفضة، وباعوه في السوق. فأدّى ذلك إلى تدني سعر صرف الدينار الذهب والدرهم الفضة.

ولما انقرضت الدولة الفاطمية يقول المقرئزي، «أنّ البلبلّة وقعت في سوق النقد المصري، وعمت بلوى المصارفة بأهل مصر، بسبب ما نهب منها من ذهب وفضة، خرجا منها وما رجعا، وعُدمتا فلم يوجد، ولهج الناس بما غمّهم من ذلك، وصاروا إذا قيل «دينار أحمر» فكأنما ذكرت شيئاً محرّماً مفقوداً، وكان إن حصل الدينار في يد أحدهم، فكأنما جاءت بشارّة الجنّة له».

ويقدر المقرئزي أنّ ما نهبه صلاح الدين الأيوبي من قصور الخلافة «ما بين دينار ودرهم، ومصاغ وجوهر، ونحاس وملبوس، وأثاث وقماش، وسلاح، ما لا يفي به مُلْك الأكاسرة، ولا تتصوّره العقول، ولا تشتمل على نيّله الممالك، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة»^(١).

(١) شذور العقود في ذكر النقود، تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي - ط ٦، بيروت، دار الزهراء، سنة ١٩٨٨، ص ٨١.

هذا ما صارت إليه مصر بعد ذهاب الدولة الفاطمية بعد ما كان الذهب والفضة يغطيان شوارعها وأزقتها وساحاتها، وقد كنا قد ذكرنا أن بعض الفقراء كان لا شغل لهم إلا غربلة التراب في الساحات التي كان يمر فيها الخلفاء، ويقول المقرئزي إنهم يغربلون هذا التراب لكثرة ما يختلط به من دنانير، ينثرها الخلفاء على الرعية.

ونحن مهما نشرح أو نزيد من الشروح حول غنى مصر أيام الدولة الفاطمية، وكما قال المقرئزي أن الله وحده الذي يعلم حساب الآخرة، قادر فقط على معرفة وحساب مقدار غنى هؤلاء القوم الصفاة، لا نفاجيء متى علمنا أن الخليفة العزيز بالله لما أراد أن يعد الحملة العسكرية لقتال الروم في حلب حمل «خزائنه على عشرين ألف جمل، سوى خزائن الوجوه والخاصة، وكان معه من المال خمسة آلاف حمل جمل على كل جمل صندوقان كبيران مملوءان مالا، وألف وثمان مائة بختي^(١) وبختية وعلى كل واحد منها صندوقان في كل منهما مثل ما في الصندوقين المحمولين على الجمل»^(٢).

مما يعني أن الخليفة العزيز بالله جهّز // ١٣٦٠٠ // ثلاثة عشر ألف وستمئة صندوق مملوءة ذهباً. ترى كم يسع الصندوق الواحد المحمول على جمل من الدنانير وحسب تقديري لا يقل حمل الجمل عن مئة كيلو من الذهب، فقس على ذلك قدرة هذه الدولة في تمويل حملة عسكرية واحدة.

(١) اتعاط الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٨٨.

(٢) البختي: هو البعير.

الرواتب والأجور في مصر الفاطمية

يرى المطلع على تاريخ مصر الاجتماعي في ظلّ الخلفاء الفاطميين، أنّ الموظف المصري، كان يعيش في ظلّ نظام اجتماعي اقتصادي مالي، يحميه من كلّ غوائل الدهر، فكان يصرف للموظف الراتب التقاعدي، كما كان يُصرف له من ضمن راتبه مخصصات مالية وعينية، من طعام وشراب وثياب، فشكّل هذا النظام سابقة متقدّمة في تاريخ الدول المتحضرة والمعاصرة.

فنحن نرى في هذه الأيام تباهي موظفي البنوك أو مديرية الضمان الاجتماعي، أنّ رواتبهم ستة عشر شهراً في السنة. ونرى موظفي الشركات الكبرى، يتباهون برّزيمهم الموحد الذي تقدّمه لهم الشركات على نفقتها. فكيف ولو استعرضنا طريقة معاملة الدولة الفاطمية لموظفيها كباراً وصغاراً، فلن نفاجيء بضخامة الرواتب والمخصصات، لأنّ ما بلغته حضارة هذه الدولة في مجال تأمين لقمة العيش والرفاهية لشعبها، لم تبلغه أي دولة حتى الآن، شرقية أو غربية أوروبية، أو أمريكية. فلنحتكم للأرقام.

قيمة صرف الدينار والدرهم محكومة بسعر الذهب والفضة:

لم تكن قيمة صرف الدينار الذهب أو الدرهم الفضة ثابتة في كل العهود التي مرّت على مصر، بما فيها عهد الدولة الفاطمية. ولكن يتميز هذا العهد بقلّة الأزمات الاقتصادية باستثناء المجاعة التي ضربت الدولة لمدة سبع سنين، أيام الخليفة المستنصر، وقد أشرنا إلى أنّ الأسباب السياسية وتناوش القوادر والوزراء الأتراك، هو الذي أدّى إلى حدوث هذه المجاعة.

وقد عرفت جميع عهود الدولة الفاطمية التي استمرّت لأكثر من مائتي سنة، عدّة أزمات اقتصادية، ولكنها كانت تُحلّ بيومها وساعتها، بتدخل من قصر الخلافة مباشرة، إما بدعم الأفران والقماحين، أو بإغراق السوق بالدينانير والدرهم، أو بفتح أهراءات الدولة وقصر الخلافة، وتوزيع ما تخرّنه على البلد المصاب بالأزمة الاقتصادية.

وكان الدينار أو الدرهم يتأثر سعر صرفه بحالتين: ندرة السلعة أو كثرتها، وندرة الذهب والفضة أو كثرتهم في أيدي الناس.

ويعلمنا ابن منجب الصيرفي أنّ كلّ مائة درهم فضة تساوي ستة دنانير وربع، ذهباً. مما يعني أنّ الدينار الذهب قيمته: $100 \div 6,25 = 16$ درهماً فضة، وأنّ الدرهم النقرة هو درهم النحاس وأنّ كلّ درهم فضة يساوي أربعاً وعشرين فلساً، علماً أنّ الفلوس لم تكن قد بدأ استعمالها إلا في أواخر الدولة الفاطمية وكانت من نحاس. واستنتجنا من خلال التعامل بالدينار والمثقال، أنّ الدينار يوازي سبعة مثاقيل، مما يعني أنّ المثقال $= \frac{1}{7}$ من الدينار. وكان

سعر الدينار يصل أحياناً إلى أن يصرف بعشرين درهم فضة.

ويخبرنا المقرئ أن النهاية نهبت دار قوصون المملوكي سنة ٧٤٢هـ، ولكثرة ما نهب من جواهر وذهب وفضة وأصبح متداولاً بين أيدي الناس، «انحطَّ سعر الذهب عقيب هذه النهبة حتى بيع المتقال بإحدى عشر درهماً فضة، لكثرت في أيدي الناس، بعد ما كان سعر المتقال ذهباً عشرين درهماً فضة».

ويؤكد الدكتور محمد حميد الله، محقق كتاب الذخائر والمتحف، «أن وزن الدينار الفاطمي ٤,٢٥ غرام وهو موجود في متحف جمعية النقود الأميركية بنيويورك»^(١).

ويخبرنا المقرئ أن الخبز سنة ٣٩٠هـ، على عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، كان يباع كل ستة عشر رطلاً بدرهم. ويخبرنا كذلك أنه في سنة ٤١٠هـ، اشتمل الغلاء بديار مصر، فبيع الدقيق رطلاً بدرهم واللحم أربع أواق بدرهم.

ويخبرنا كذلك أنه اشتدَّ الغلاء أيام الخليفة الظاهر، سنة ٤١٥هـ، فتدخلت الدولة وحددت سعر الخبز الحواري (الأبيض) أربعة أرطال بدرهم والخبز الجشكار (الأسمر) خمسة أرطال بدرهم. واستمرَّ الغلاء، فوجدنا وفي نفس الوقت أن سعر البطيخة ٣٠ درهماً وإردب الشعير بدينار، وتليس القمح بثلاثة دنانير، ورطل اللحم بثمانية دراهم.

فلنقم عملية حسابية لمعرفة القدرة الشرائية للحد الأدنى للأجور

(١) الذخائر والمتحف، م.س. ص ٧٤.

للإنسان المصري أيام الخليفة الظاهر بمقارنة الحد الأدنى للأجور ساعة كتابة هذه السطور في لبنان.

نحن نعلم أنَّ الحد الأدنى للأجور كان في الدولة الفاطمية يتراوح بين ثلاثة دنانير للموظف الصغير وخمسة دنانير للجنود والعساكر، هذا، ما عدا الكسوات والصِّلات أيام الأعياد، ومخصَّصات الطعام والحلويات.

وكان الدينار يتراوح سعر صرفه بين ١٦ درهماً فضة وعشرين درهماً، أي بسعر وسطي هو خمس وخمسون درهماً فضة أي أنَّ الحد الأدنى للأجور في الدولة الفاطمية كان له القدرة على شراء:

- خبز أبيض 55×4 أرطال $2,50 \times$ كلغ = 220 كلغ خبز.

- لحم ضأن $56 \div 8 \times 2,50$ كلغ $17,50$ كلغ = لحم ضأن.

- القمح التليس الواحد بـ ٣ دنانير = 430 كيلغ قمح.

- الشعير $\frac{56}{8} \times 480$ كيلو = 3360 كلغ شعير.

تلك هي القدرة الشرائية للحد الأدنى للأجور أيام الغلاء في الدولة الفاطمية وهي أقوى بكثير من القدرة الشرائية للحد الأدنى للأجور في لبنان في هذه الأيام والبالغة ٢٠٠ دولار أميركي أو ٢٥ غرام ذهباً.

الرواتب والأجور، أدناها وأعلىها:

كان الفارق بين أدنى راتب وهو راتب المستخدم العادي وبين أعلى راتب وهو راتب الوزير الأول، كبيراً جداً. رغم أنَّ الاثنين ينالان

من العلاوات والمخصّصات من قصر الخلافة على قدر كلّ منهما. ولكن الفارق بين الراوتب هو بنسبة مائة وسبعين ضعفاً، فادنى راتب هو ثلاثة دنانير وأكبر راتب هو خمسة آلاف دينار.

ولكن هذا الفارق الكبير، لم يكن يخلق هوة أو فوارق طبقية في المجتمع الفاطمي، فقد أكّد لنا المقرئزي أنّ أصغر خادم أو جندي أو موظف من خدم وجنود وموظفي الدولة الفاطمية، لا يقلّ مصروفه على طعامه فقط عن العشرين أو العشرة دنانير يومياً، مما يعني، أنّ العلاوات والمنح والأعطيات التي ينالها الموظف من رؤوسائه وخليفته، تتجاوز قيمة راتبه مئات المرات. وأنّ الراتب هو راتب رمزي فقط.

الرواتب الرسمية الشهرية:

يحدّثنا المقرئزي عن رواتب الوزير الأول وكبار الموظفين وعن رواتب موظفي قصر الخلافة، بحديث يدعو إلى الانبهار والدهشة عن ضخامة هذه الرواتب.

راتب الوزير الأول:

يقول إنّ راتبه خمسة آلاف دينار في الشهر، وتأتيه التعويضات العائلية فتكون للولد ثلاثمائة دينار وللأخ مئتا دينار، ومن من الوزراء من لم يكن له عائلة مؤلفة من أكثر من عشرة أشخاص بين ولد وأخ، مما يعني أنّ التعويضات العائلية الشهرية تتجاوز راتبه أي يصبح راتبه الشهري أكثر من عشرة آلاف دينار ذهباً.

أو: $١٠,٠٠٠ \times ٤,٢٥$ غ = $٤٢,٥٠٠$ إثنان وأربعون كيلو ونصف الكيلو ذهباً شهرياً.

ويخبرنا المقرئ أن الوزير شاور عندما تسلم مركز الوزارة، قرر لكل ولد من أولاد الوزراء تعويضاً عائلياً قدره خمسمائة دينار شهرياً.

أما راتب أحد موظفي الحاشية فلا يقل عن خمسمائة دينار ذهباً ينزل متدرجاً حسب رتبة كل موظف من ٥٠٠ إلى ٤٠٠ إلى ٣٠٠ دينار خارجاً عن الإقطاعات والعلاوات.

أما رواتب مستشاري الخليفة وهم الاستاذون يبلغ راتب كل واحد منهم مئة دينار وراتب الطبيب خمسون ديناراً في الشهر وراتب كاتب الخليفة مائة وخمسون ديناراً. والكتاب الذين بين يديه ثلاثون ديناراً في الشهر.

وراتب صاحب الباب أو السكرتير مائة وعشرون ديناراً.

أما حامل السيف وحامل الرمح، فراتب كل منهما سبعون ديناراً. وبقية القيادات العسكرية الدنيا من نقيب وما دون، فراتب كل منهم من خمسين إلى أربعين إلى ثلاثين ديناراً.

أما راتب قاضي القضاة وداعي الدعاة فهو مائة دينار في الشهر. ورواتب قرّاء القرآن في قصر الحضرة والجوامع، عشرون ديناراً. ورواتب خطباء الجوامع عشرون ديناراً. ورواتب الشعراء عشرون ديناراً لكل شاعر. ورواتب رؤساء الدواوين من سبعين ديناراً حتى الأربعين ديناراً، كل حسب أهمية ديوانه. ورواتب موظفي الدواوين خمسة دنائير لكل موظف مشاهرة. أما رواتب أمناء المخازن

والأهراءات فهي خمسون ديناراً لكلّ منهم، بينما حماة البساتين والمناظر والأماك وجباة إيجارات البيوت والدور والحوانيت، عشرون ديناراً في الشهر. أما رواتب الفرّاشين في القصر وصاحب المائدة وكبير الطباخين، بلغت ثلاثين ديناراً لكلّ منهم. أما رشّاشو الماء في الطرقات وفي جنائن القصور، وعدّتهم ثلاثمائة مستخدم، فراتب كلّ منهم عشرة دنانير شهرياً.

ورواتب فرقة المكافحة وحرس القصر الخاص أو صبيان الركاب، فللمقدّم منهم خمسون ديناراً شهرياً، وللحرس خمسة عشر ديناراً للواحد شهرياً.

وقد ذكر المقرئزي أنّ للحرس الخاص عطاءات وعلاوات استثنائية، تلحق أولادهم الذكور والإناث، وتلحق نساءهم أيضاً. وهي مقرّرة لهم من أيام الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز. ولم يبطلها أي خليفة أتى من بعده^(١).

ويخبرنا المقرئزي أنّ الحاكم بأمر الله الفاطمي عزل أبي محمّد بن عمار الكتامي من الوزارة وكانت تدعى أيام العزيز وبداية عهد الحاكم بالوساطة. وقد استمرّ أبو محمّد بن عمار في كرسي الوزارة حتى سنة ٣٨٧هـ ثم عُزل من قبل الحاكم وكانت مخصّصاته الشهرية وراتبه بعد عزله كما ذكرها المقرئزي:

— نقداً خمسمائة دينار ذهباً شهرياً.

— سلة فاكهة يومياً.

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٠١.

- عشرة أرطال شمع في اليوم.

- نصف حمل ثلج يومياً.

ولا نستكثر هذا الراتب وهذه المخصصات لوزير معزول، خاصة إذا عرفنا أنَّ الوزير الأفضل أصابه رخش بيده اليمنى، فلم يعد يستطيع التوقيع على المعاملات «وصعب عليه إمساك القلم والعلامة على المكاتبات، فأقرَّ أخاه أبا محمد جعفر المظفر بن بدر الجمالي، وجعل له خمسمائة دينار في الشهر مضافاً إلى راتبه، فوقع عنه».

كما أوكل قضية الجلوس في شباك الوزارة إلى ولده الأجل سماء الملك، «وقرَّر له على هذه النيابة في الشهر خمسمائة دينار، وبذلة مذهبة ورزمة كسوة من حرير، والبذلة وحدها تساوي خمسمائة دينار»^(١).

وقد أكثر المقرئزي وابن الطوير وابن الصيرفي والرشيدي بن الزبير من إيراد الإشارات الكثيرة التي تدل على أنَّ العديد من الموظفين كان يصيبهم من الأطعمة والأشربة وسلات الثمار وأحمال الثلج وطيافير الحلوى وجامات الفطائر المحشية باللوز والجوز بمثابة جزء من رواتبهم ومخصصاتهم ما يفوق ثمنه رواتبهم.

الثياب توزَّع ستّ مرات رسمياً في السنة:

كان الفاطميون يوزَّعون الثياب على أجنادهم وعساكرهم وموظفيهم ورعاياهم، ستّ مرات في السنة. وقد أكد المقرئزي أنَّها

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثالث، ص ٥٤.

كانت توزع «على الموالي والجهات بالقصور الزاهرة ودار الوزارة والأصحاب والحواشي والشهود والمتصدّرين والفقراء والمساكين».

وكانت هذه الكسوات توزع كما ذكرنا سابقاً ست مرات في السنة. ولكثرة ما كان الفاطميون يوزعونها خاصة في عيد النحر، كان الناس يطلقون عليه عيد الحل (جمع حُلّة: ثوب) لأنّ الحل فيه تعمّ كلّ الناس.

وعندما أراد ابن المأمون تعداد ألقاب الموظفين والخدم والحشم مع ذكر ما نال كلّ منهم من بدل وشقق وفوط ومناديل، أخذت معه عملية التعداد سبع صفحات من القطع الكبير وقد أنهاها ببيان صادر عن القصر، بجعل الأناقة والتأنق في اللباس، جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية^(١).

ويعلمنا المقرئ أن يانس الناسخ تمّ نقله من ولاية الشام إلى ولاية القاهرة، «واستخدم في خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنانير في الشهر وثلاث رزم كسوات في السنة، مع الهبات والرسوم». والهبات والرسوم هي التي توزّع في الأعياد وأيام رمضان وشعبان وغيرها وهي كثيرة. وقد استمرت خزانة الكسوات ودور الطراز في الدولة الفاطمية تعمل في سبيل خدمة الشعب المصري طيلة عهد الدولة الفاطمية، باستثناء قرار يتيم أخذه الوزير التركي الأصل العادل بن السلار سنة ٥٤٦ للهجرة حيث حذف الكسوات من جدول الرواتب، فعمّ الغضب جميع الأمراء والموظفين والمستفيدين من هذه المنحة.

(١) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص: ٤٨ - ٥٤.

وفي السنة التالية قتل بن السلار، فأعيد العمل بتوزيع الكسوات.
وعندما رثى الفقيه عمارة اليماني الدولة الفاطمية قبل إعدامه ذكّر
بأهمية كسوة الناس عندهم فقال:
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلي
كانت رواتبكم للذمتين وللضيف
المقيم وللطاري من الرسل
ويخبرنا المقرئ أن الخليفة الأمر، استدعى أحد الأطباء الكبار
من الأندلس للتدريس في دار العلم بالقاهرة، وهو الشيخ أبو جعفر
يوسف بن أحمد بن حسدية، فلما أتى هذا الطبيب أقر له الأمر «جار
(راتب) وكسوة وعيدية ورسوم، وأقطعه داراً بالقاهرة».

الرواتب التقاعدية:

لم تكن دولة بغنى الدولة الفاطمية تترك موظفيها ورعاياها من
المقعدين والمعوقين بدون تأمينات اجتماعية. وقد رشح الكثير من
الإشارات في الكتب التي أرخت لهذه الدولة العظيمة، التي تدلّ على
صرف الرواتب التقاعدية للموظفين والمعوقين.

وكانت هذه الرواتب تختلف باختلاف الموظف ورتبته، ففخر
الملك بن عمار أمير طرابلس وصاحبها، كان راتبه أشبه براتب اللاجيء
السياسي. واللاجيء السياسي تحقق معه الجهات الأمنية أولاً، ثم يقبل
لجؤه. وكذلك حدث مع فخر الملك، فهو لجأ إلى القاهرة بعد سقوط
طرابلس بأيدي الفرنجة، ولكنه، كان قد غادرها تاركاً ابن عمه مكانه

قاصداً بغداد لطلب الدعم والمساعدة بدل الاتجاه نحو القاهرة، فكان في خروجه من طرابلس تخاذل وتهاون، لذلك، عندما وصل إلى القاهرة اعتقل وأودع في خزانة البنود، وسجن خزانة البنود، وهو سجن الأعيان والأمراء، ولكن بعد أن أثبت براءته وحسن نواياه أطلق سراحه، «وحصل له الأمن، وأمر به إلى دار أعدت له، وجُعل فيها شهوات السمع والبصر، وحملت إليه الضيافات الكثيرة، وجُرد برسم خدمته صاحب معه عدة مستخدمين. وحملت إليه الكسوات التي لا نظير لها. ووصله من الهبات ما أربى على أمله، وقرّر له راتباً في كل شهر ستون ديناراً مع مياومة الدقيق واللحم والحيوان، وصار يرسل إليه ما يرسل لأعيان الضيوف من بواكير الفاكهة المستغربة وأنواع التحف المستظرفة وهبات المواسم، وجُعل له في المواسم والأعياد من الكسوات الفاخرة ما يميّزه عن أمثاله، واستمرّ إليه الإحسان، وصار يركب مع الخليفة في أيام الركوبات والسلام وغيرها»^(١).

وكنا قد أشرنا إلى الأستاذ المتقاعد في منزله بالقصر والبالغ من العمر مائة وخمساً وعشرين سنة، كيف استطاع إبلاغ الأمر عن تعديّات الراهب ابن أبي نجاح على الناس، وكيف كان في تدخل الأستاذ المتقاعد نهاية هذا الراهب^(٢).

أما قاضي القضاة مسلم بن علي الرأس عيني، عنده مرض وأصابه زمع (رجفة)، ولم يعد يستطع يؤمّ الناس في الصلاة التي

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٨٠.

(٢) م.س. نفسه، ص ١٢٥.

يحضرها الخليفة، أحاله الخليفة على التقاعد، «وألزمه داره وقرّر له راتباً».

وكنا قد أشرنا إلى المرأة المخلوقة بدون ثديين أو يدين وكيف استعملت رجلها في الكتابة والرسم وبراية الأقلام أمام الوزير رضوان بن ولخشي، ويختتم المقريري هذا الخبر بالإشارة إلى أنّ سبب مجيئها «سؤال بأن يزداد في راتبها، فوقّع لها الوزير خلف الرقعة بما تسأل وأعادها إلى بلدها». مما يجعلنا نستنتج أنّ الدولة الفاطمية كانت تصرف رواتب للمعوقين.

وكان باستطاعة الموظف أن يأخذ سلفة على راتبه ويقسطها فيما بعد^(١).

ديوان الرواتب:

كان لديوان الرواتب أهمية كبيرة في الدولة الفاطمية، «ففيه أسماء كلّ مرتزق في الدولة ضُمن له جَار (راتب) وجراية (علاوة)».

وكان هذا الديوان يتحقّق من المستمرين في الخدمة في سائر أنحاء الدولة الفاطمية، ومن أسماء المتوفّين. فكان يشطب اسم المتوفّي «بعد صرف استحقاقه»، (تعويض وفاة).

وكان هذا الديوان يضمّ عشرة من الكتّبة المبيّضين للأوراق والجداول التي تضم أسماء الموظّفين. وكانت جداول الرواتب تعد باستمارات وتعرض على الخليفة، ففي سنة ٤٠٦ للهجرة، «عُرض

(١) راجع: الخطط المقريرية، الجزء الأول، ص ١٢٦.

الاستثمار على الحاكم بأسماء الفقهاء والقراء والمؤذنين بالقاهرة ومصر، فكانت جملته في كل سنة واحداً وسبعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وثلاثين ديناراً (٧١,٧٣٣)، فوقَّع الخليفة عليها دون أي تعديل^(١).

وكنا قد أشرنا في بداية هذا الفصل إلى طريقة إعداد جداول الرواتب باستمارات، واستدعاء مستحقيها، وصرف الرواتب لهم بما كينة العد أي الميزان.

ولا يخفى علينا اتباع بعض مسؤولي الإدارات في الدولة الفاطمية إلى تسجيل موظفين وهميين تركوا الخدمة، لقبض رواتبهم بدون علم الدولة^(٢).

طريقة محاربة الغلاء:

كانت الدولة الفاطمية تسعى بعدة وسائل لمكافحة ومحاربة الغلاء، كوضع سعر للأصناف المحتكرة تحت طائلة معاقبة مخالف التسعيرة، أو كبس مخازن ومستودعات القمح وختمها بالشمع الأحمر، وعدم فتحها والسماح ببيع موجوداتها إلا تحت رقابة المحتسب، كما عمل المحتسب دواس بن عبدون سنة ٤١٥ هـ، أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، حيث أقدم «على كبس مائة وخمسين مخزناً للقمح وختم عليها».

(١) الاستثمار مشتقة من الجذر «امر» ومزيده «استامر» استثمار واستثماره فاصبح الاستثمار والاستمارة.

(٢) الخطط المقريرية، الجزء الأول، ص ٣٩٩.

وكانت تسعى الدولة في حال الوفرة وتدقق الخيرات بسبب وفاء
النيل لمقياسه، إلى مسامحة الناس بما عليهم من إيجارات وخراج
وزكاة وضرائب وجزية كما تم سنة ٥١٦ للهجرة.

الخليفة الأمر يسامح الناس بدخل الدولة سنة بكاملها:
لما أقدم قومة الجوامع والمستخدمون في الخزائن إلى مطالبة
الخليفة الأمر بزيادة مخصصاتهم ومخصصات الجوامع بسبب الغلاء
«تقدم الأمر بعمل حساب الدولة من الخراج». فأقيم هذا الحساب
ورفع للخليفة الأمر، فأصدر الخليفة منشوراً يسامح فيه المصريين
وسائر بلاد الخلافة الإسلامية الفاطمية بما عليهم من ضرائب
وأجور للدولة ولقصر الخلافة.

قيمة المسامحة أكبر من ميزانية الدولة المصرية اليوم:
كتب المقرئ يحدد لنا قيمة ما سُمح به المصريون فكانت
كالتالي:

– مليونان وسبعمائة ألف وسبعمائة وسبع وستون ديناراً ذهباً
وزنها:

$2,767,000 \times 4,20 = 11,800,970,000$ غرام أو اثنا عشر
الف طن ذهباً.

– سبع وستون ألف وخمسمائة درهم ورق (فضة).
– ثلاثة ملايين وثمان مائة ألف إردب قمحاً وزنها ٣,٨٠٠,٠٠٠
إردب $480 \times$ كلغ = ١,٨٢٤,٠٠٠,٠٠٠ كلغ أو مليون وثمان مائة
وأربع وعشرون ألف طن قمحاً.

— عشرة آلاف ومائتان وتسع وثلاثون إردباً من الأرز = ٥٠٠٠ طن.

— من الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألف وثلاثمائة وخمسة رؤوس / ٢٣٥٣٠٥ /.

— من الأبقار اثنان وعشرون ألفاً ومائة وأربع وستون رأساً.

ولم يذكر المقرئ كمية أو عدد بقية الأصناف بل أشار إليها «بالشيء الكثير» وهي من الكتان والصباغ والحديد والزفت والقطران والثياب والمآزر والبر والملح والرمان وعسل النحل والشمع والسكر والسمن والجبن والصوف والشعر^(١).

طريقة إعداد الموازنة العامة سلفاً:

تبدأ عملية إعداد الموازنة العامة في الدولة الفاطمية بجمع تقارير الوزارات أو كما كانوا يطلقون عليها: الدواوين، فيقوم كل ديوان بإقرار ميزانيته ويرفعها لمجلس الوزراء حيث تتم مناقشتها في دار الوزارة، فلما تقرّ وإما يحذف منها أو يضاف عليها. يخبرنا المقرئ أن الخليفة المستنصر بن الظاهر طلب من وزيره اليازوري «أن يعمل قدر ارتفاع نفقات الدولة، فعمل أرباب كل ديوان ارتفاعه من النفقات، وما عليه، وسُلم جميع الارتفاعات لمتولي ديوان المجلس وهو مسؤول الدواوين، مُنظم عليها عملاً شاملاً جامعاً ورفعها للوزير، فوجد ارتفاع الدولة (نفقات) ألفي ألف دينار

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٨١.

(مليونان)، منها للشام فقط ألف ألف دينار (مليون)، ونفقات الريف وباقي الدولة ألف ألف دينار، فوافق عليها.

ويخبرنا المقرئزي نقلاً عن كتاب المنهاج في علم الخراج أنَّ ميزانية الدولة لسنة ٤٦٣هـ، كانت مليونين وثمانين ألف دينار، أما موازنة سنة ٤٧٨هـ فقد كانت ثلاثة ملايين ومائة ألف دينار. ولما رفعت الميزانية للوزير الأفضل بن بدر الجمالي، طلب سنة ٤٨٥هـ، من معدي الموازنة، رفعها إلى «خمسة آلاف ألف دينار»^(١). أي ما قيمته ٢١٢٥٠ كلغ ذهباً.

كما نفهم من ملاحظاته أنَّ الوزير المأمون بن البطائح، وزير الخليفة الأمر، طلب من أصحاب الدواوين تقديم تقاريرهم ومذكراتهم «ومطالعاتهم بما تحتاج إليه الدولة في طول السنة، كما أكد عليه ذكر ما ينعم به ويتصدق ويحمل إلى الحرمين الشريفين من كل صنف وإرساله على يد المندوبين»^(٢).

متى يبدأ إعداد الموازنة العامة:

كان الفاطميون يبدأون بإعداد الموازنة العامة للسنة القادمة بعد إنقضاء عيد الأضحى من كل سنة، «فإذا انقضى عيد النحر من كل سنة، تقدّم بعمل الاستيثار لتلك السنة، فيجتمع كُتّاب الدواوين عند متولي ديوان الرواتب، وتحمل الأوراق إليه، فإذا تحرّرت نسخة التحرير (الموازنة) بِيُضَت، ولا يفوت من الاستيثار شيء من كل ما

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، سنة ١٠٠.

(٢) م.س. نفسه، ص ٤٤٦.

تقرّر شرحه وعلم مقداره عيناً وورقاً وغلة وغير ذلك، فيحرر ذلك كلّه بأسماء المرتزقين. وهذا كلّه خارج عن الكسوات المطلقة لأربابها والرسوم المعدّة في كلّ سنة، وما يحمل من دار الفطرة من الأصناف، وما يشهد به دفتر المجلس من العطايا الخافية (النفقات السرية).

ويقول المقرّيزي إنّ إعداد الميزانية يستمر حتى آخر السنة وعند الانتهاء منها تعرض على الخليفة للتوقيع والموافقة قبل بدء شهر المحرم من السنة الجديدة.

«وربما يتأخّر العرض بعد المحرم ليحيط العلم بما فيه الكفاية فإذا أكمل العرض، تخرج إلى الديوان، وقد شطب على بعضها، وينقص استحقاق قوم للاستكثار ويزاد استحقاق قوم، ويصرف قوم ويستخدم آخرون، على ما تقتضيه الآراء في ذلك الوقت، ثم يسلم لرب هذا الديوان»^(١).

ويؤكد المقرّيزي هذا الأمر، حين يقول أنّه «كانت من عادتهم إذا انقضى عيد النحر من كلّ سنة، عمل الاستيमार بعد أن يثبت فيه جميع ما يشتمل عليه مصروف تلك السنة من عين (ذهب) وورق (فضة)، وغلة وغيرها مفصلاً بالأسماء، ويعرض على الخليفة، فيستوعبه، ويشطب بعضه وينقص قوماً ويزيد قوماً، ويستجدّ آخرين، بحسب ما يعنّ له فيحمل الأمر على الشطب. وعمل الاستيमार (الموازنة) مرة في أيام المستنصر بالله، فوقّع بظاهره بعد الموافقة عليه: الفقر مرّ المذاق، والحاجة تذلل الأعناق، وحراسة النعم تكون

(١) الخطط المقرّيزية، الجزء الأول، ص ٤٤٦.

بإدراك الرزاق، فليُجرُوا على رسومهم (مخصّصاتهم) في الإطلاق.
﴿وما عندكم ينفذ وما عند الله باقٍ﴾ (سورة النحل، الآية: ٩٦)^(١).

ولما قُدّمت الموازنة العامة لسنة ٣٨٣هـ إلى الخليفة العزيز، رَفَضَهَا ولم يوقع عليها، لأنه وجد أنها تبدأ بمصروف مؤونته ومطابخه وموائده، فحذفه ولعن من عمل هذه الموازنة وقال:
أشبع أنا وتجوّع الناس، أطلقوا الرزاق على الناس».

الدولة قررت خفض الرواتب، دعاية كاذبة:

عندما تمر الدولة أي دولة بأزمة اقتصادية أو ضائقة مالية تعتمد إما إلى خفض رواتب موظفيها ومستخدميها، أو إلى زيادة الضرائب. والدولة الفاطمية، كانت بغنى عن هذين القرارين باعتبار أنّ خزائن قصر الخلافة أغني من الدولة للأسباب التي أشرنا إليها. ولما كانت تمرّ الدولة بأي أزمة أو ضائقة اقتصادية، كان قصر الخلافة يفتح صناديقه وأهراءاته ليوزّع على الدولة والدواوين والناس.

ويخبرنا ابن الطوير أنّ الإشاعات ملأت مصر والقاهرة بأنّ الدولة سوف تقوم بخفض الرواتب في إحدى السنين أيام الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد. فطلب الخليفة من رؤوساء الدواوين تقديم الموازنة دون مسّها بأي شيء من النقص، فقدمت إليه، فوافق عليها كما أتمته، ووقع عليها بالكلمة التالية:

«إن أمير المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثيراً لإعطاء، ولا

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٣٤٣.

يكدّره بالتأخير له والتسويق والإبطاء. ولما انتهى إليه ما أرباب الرواتب عليه من القلق، للامتناع عن إيجاباتهم وحمل خروجاتهم وأنه قد ضعفت قلوبهم، وقنطت نفوسهم، وساءت ظنونهم، شملهم أمير المؤمنين برحمته ورأفته، وآمنهم مما كانوا وجلين من مخافته. وجعل التوقيع بذلك بخط يده، تأكيداً للإنعام والمنّ، وتهنئة بصدقة لا تُتبع بالاذى والمنّ. وليعتمد هذا الأمر في ديوان الرواتب، وإجراء ما تضمنت هذه الأوراق على ما ألفوه وعهدوه من رواتب. وصرفها على سياقها لكافتهم، من غير تأوّل ولا تعنّت ولا تعقّب، وليجروا في تسببياتهم على عاداتهم، لا ينقص من أمرهم ما كان مبرماً وعملاً بما أخبر به عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ، لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾ (سورة الإنسان، الآية: ٩). ولينسخ ويجلّد في جميع الدواوين بالحضرة - إن شاء الله تعالى - (١).

ربط ميزانية رئاسة مجلس الوزراء بمؤشر الغلاء:

كانت ميزانية الوزير الأول في الدولة الفاطمية تتضمن رواتبه ورواتب أهله وأولاده ومخصّصات مكتبه في الوزارة.

وكانت الوزارة أيام الحاكم وزارة وساطة يتولاها برجوان، ولما تولى الحاكم الخلافة من بعد أبيه العزيز، عزل ابن عمار منها وولى برجوان مكانه ويخبرنا المقرئ أن الخليفة الحاكم لم يقطع رواتب ابن عمار، بل أجرى له رواتب ومخصّصات طبق ما كان يجري أيام والده العزيز «له ولآله وحرمة ومبلغ ذلك من اللحم والتوابل والفاكهة

(١) نزهة المقلتين، م.س. ص ٧٨.

خمسمائة دينار في الشهر، يزيد على ذلك تارة وينقص أخرى على قدر الاسعار،^(١) وهي إشارة مهمة، جعلتنا نستنتج أنَّ الخلفاء الفاطميين كانوا يصرفون لموظفيهم رواتب ومخصصات حسب تقلبات الاسعار والغلاء.

بعض الأوزان والمصطلحات:

جاء في كتاب النظم الإسلامية للشيخ صبحي الصالح: وقد عثر علماء الآثار على نقود عديدة من العصور الإسلامية تبين من وزنها أنَّ الدينار يزن ٤,٢٥ غراماً. وما دام الدينار هو المثقال، فإذا يكون وزن المثقال بالغرام نفس وزن الدينار أي ٤,٢٥ غراماً. ولما كان المثقال يزن ٧٢ حبة شعير، فيكون وزن الحبة الواحدة $٤,٢٥ \div ٧٢ = ٠,٠٥٩$ غ. ولما كان المثقال يساوي عشرين قيراطاً، فيكون وزن القيراط $٤,٢٥ \div ٢٠ = ٠,٢١٢٥$ من الغرام^(٢).



مركز بحوث التاريخ الإسلامي

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١١٣.

(٢) راجع: النظم الإسلامية، الشيخ صبحي الصالح، ط ١، بيروت، دار العلم للملايين، لا تاريخ. ص ٤٢٧، ٤٢٨.

الأهرامات: بين الحماية والهدم

قبل ظهور الكتابة، كان ما تتركه الشعوب من مباني وإنشاءات ورسوم محفورة على الصخر وقبور وقصور وتماثيل وأصنام، هو الدليل الوحيد على المستوى الحضاري لأي شعب. وعندما ظهرت الكتابة، بدأ علماء الآثار ومتتبعو التطور الحضاري، يعمدون إلى فك رموز لغة كل شعب من الشعوب، والتعرف على تقدمه الفكري والعقلي والفلسفي، من خلال متروكاته ومدوناته ومخطوطاته.

وقد ظهرت الكتابة أول ما ظهرت على الرقم المصنوعة من التراب والمشوية بالأفران، ثم ظهرت حفرًا على الأحجار والصخور، وتطورت لتكتب على سعف النخل وورق البردي.

ولو لم يستطع العلماء فك رموز الكتابة الهروغليفية، لكانت الأهرامات والتماثيل التي تركتها الحضارة الفرعونية، هي الدليل الوحيد على المستوى الحضاري الذي وصلوا إليه. ولكن بالرغم من توصل العلماء إلى فك رموز الكتابة الفرعونية، لم يستطيعوا حتى اليوم، فك رموز الطريقة التي اتبعها الفراعنة في بناء الأهرامات ذات الأحجار الضخمة، الذي يبلغ الحجر فيها إلى أكثر من خمسين ألف

كلغ (٥٠ طناً). كيف اقتلع هذا الحجر من المقلع؟ وكيف رفع من مكانه في الجبل؟ وكيف سحب وكيف أوصل إلى مكانه؟ كلها أسئلة لم يستطع علماء المصريات الإجابة عليها حتى الآن.

وقد مرَّ على مصر العديد من الشعوب والحكام والدول من يونان ورومان وبيزنطيين، ومسلمين وأمويين وعبَّاسيين وفاطميين وأكراد. وأتراك فما هو موقف حكام هذه الدول من هذه الأهرامات والتماثيل؟.

من الذي بنى الأهرامات:

يحدثنا المقرئزي نقلاً عن إبراهيم بن القاسم الكاتب الذي نقل بدوره عن كتاب العجائب الكبير لإبراهيم بن وصيف شاه، قال إن الذي بنى الأهرامات هو الملك سوريد الذي حكم مصر قبل طوفان النبي نوح (ع) بثلاثمائة سنة، وقال إنَّ سوريد رأى مناماً مفزعاً فاستشار كبير الكهنة فيلمون، فأشار عليه ببنائها.

ويقول النويري: إنَّ الملك سوريد بعد أن انتهى من بناء الأهرامات الثلاثة، «نقل إليها الكنوز والأموال والجواهر المعدنية والجواهر المسبوكة الملونة والآلات والزبرجد، والتماثيل المعمولة والطلسمات، والحديد الفاخر والسلاح الذي لا يصدأ، والزجاج الذي ينطوي ولا ينكسر، والنواميس والمولدات والدُّخَن وأصناف العقاقير والمفردات والمؤلَّفات والسموم، وغير ذلك شيئاً كثيراً لا يدرك وصفه»^(١).

(١) نهاية الارب، النويري، الجزء ١٥، م.س. ص ٢٥.

ويتساءل القارىء: هل بلغت حضارة المصريين أيام الفراعنة لدرجة تصنيع زجاج ينطوي ولا ينكسر. وربما كان المعنى بهذا الزجاج البلاستيك الطيع الأبيض.

وفي مكان آخر قال النويري إن الذي بنى الأهرامات هو النبي إدريس عليه السلام و«أمر بإيداعها الأموال وصحائف العلوم وما يُخاف عليه الذهب والدثور»^(١).

شكل الأهرامات وطول أبعادها:

يقول النويري: «إن كل هرم مربع القاعدة، مخروط الشكل، ارتفاع عموده (المحور) ثلاثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعاً ($317 \times 67 = 212$ م)، يحيط به أربعة سطوح (مثلثات) متساوية الاضلاع، كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعاً ($67 \times 460 = 308$ م). ويقال أنه كان عليه حجر شبه المكبة رمته الرياح والعواصف. وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة واتقان الهندسة وحسن التقدير، بحيث إنه لم يتأثر إلى يومنا هذا، بعصف الرياح وهطول الأمطار وزعزعة الزلازل. وطول الحجر من حجارته خمسة أذرع بسمك ذراعين (ط 3,35 م × ع 1,45 م)^(٢).

ويقول النويري إن لكل هرم سبعة أبواب وكل باب من حجر واحد من هذه الحجارة، مركون على لولب يفتحه به من يعرف أنه

(١) م.س. ج ١، ص ٢٨٨.

(٢) راجع: م.س. الجزء الأول، ص ٢٨٩.

باب، لأنَّ لا فرق بين الحجر الباب والحجر الثابت فكُلُّها متشابهة^(١).

وإذا أخذنا أبعاد القاعدة التي تستوعب عشرين ألف حجر من الحجم المذكور أعلاه بارتفاع $\frac{212}{3}$ م نجد أنَّ كلَّ هرم يحتاج إلى: $20,000 \times 106 = 2,120,000$ مليونين ومائة وعشرين ألف حجر لا يقل وزن كلِّ منها عن خمسين طناً، وكيف باقتلاع الحجر الواحد، فكم يحتاج من الوقت لاقتلاعه وكم يحتاج من العبيد والخيول والبغال لجرِّه ووضعه في مكانه.

طريقة اقتلاع الحجر:

أخبرنا علماء المصريين، أنَّ الفراعنة كانوا يقتلعون الحجر من المقلع بتحزيده وإدخال سنبك من الخشب في جوانبه، ويصبُّون الماء على الخشب فعندما ينفش الخشب بفعل الماء، يقصُّ الحجر من مكانه ولكن حتى الآن، لم يستطيعوا تفسير عملية رفع الحجر من مكانه. وبعد رفعه يتمَّ تدريجه على أعواد خشب، ويتمَّ رفعه إلى المكان المطلوب بتعبئة ما قبل المكان بالتراب حتى حافته، فيسحب الحجر ويوضع في مكانه.

أما المقرئزي فهو يأخذ برواية سوريد أنَّه هو الذي بنى الأهرامات قبل طوفان نوح ولكنه يذكر رأياً آخر هو أنَّ العماليق قوم تبَّع بن عاد الحميري اليمني هم الذين بنوا الأهرامات.

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ١٦١.

ووصف المقرئزي هؤلاء العمالقة بقوله: كان طول واحد منهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً، وعن وهب بن منبه قال: كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع وكذلك مناخيرهم. وقيل إن سبعين رجلاً من قوم موسى استظلوا بقحفه رجل من العماليق (الجمجمة)، وعن ابن عباس روى أنه كان طول الواحد منهم اثني عشر ذراعاً (ثمانية أمتار). وذكر المقرئزي أنه «في خلافة المقتدر بالله، أبي الفضل جعفر بن المعتضد، وجد كنز في مصر، فيه ضلع إنسان، طوله أربعة عشر شبراً بعرض ثلاثة أشبار».

وقد أورد المقرئزي عدة قصص وحكايات ومشاهدات ميدانية أيام العباسيين والفاطميين والأيوبيين ومشاهدته هو شخصياً عن بقايا جثث وعظام وأسنان تدل على وجود قوم تبع بن عاد والعماليق^(١).

وقد قال المقرئزي يصف عظمة الأهرامات:

هَمُّ الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
أوماترى الهرمين قد بقيا وكم ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضم قدره أضحى يدل على عظيم الشأن

عجائب مصر:

ولم تشتهر مصر بالأهرامات فقط، بل كانت منارة الإسكندرية تعد من العجائب السبع، كذلك الملعب الروماني والبرابي المنتشرة

(١) راجع: نهاية الأرب، الجزء الأول، ص ٢٩٤.

فيها. والبرابي هي جمع كلمة برباة على وزن مشكاة والبربابة هي
أمكنة تعبد الأقباط، أو بيت الحكمة وقال النويري: «إنه كان لكل كورة
من كور مصر برباة يجلس فيها كاهن (قبطي) على كرسي من
ذهب».

وهي كذلك مبنية من الحجارة العظيمة الوزن، الضخمة وبعضها
مبني من حجارة المرمر. ويقال إن الحجارة التي استعملها الأقباط
في بناء البرابي كانت أكبر من الحجارة التي استعملوها في بناء
الأهرامات، فحجر البربابة جاء بطول ثمانية عشر ذراعاً بعرض
خمس أذرع $67 \times 18 = 12,00$ م طول.

$67 \times 5 = 3,35$ م عرض وارتفاع، وقسموها على غرف
ودهايز، كل دهايز منها أعطوه اسم أحد الكواكب السبعة^(١).

تمثال أبي الهول:

يقول المقرئزي إن الاسم الحقيقي لهذا الصنم: بلهب وحرّفته
العامّة فأصبح: أبو الهول. ويقال أن سبب حفره هو طلسم يمنع
الرمال من الزحف نحو الجيزة.

ويقول إن جثته مدفونة تحت الرمل، ويقتضي قياس جسمه
بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعاً (67×70 سم $= 47$ م).
ويقول إن في وجهه حمرة ودهان يلمع، عليه رونق الطراوة. وهو
حسن الصورة، مقبولها، عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك باسمًا.

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ١٢٢.

تناسب عناصر وجهه مع حجمه:

وقال المقرئزي إنه سُئل بعض الفضلاء عن عجيب ما رأى، فقال تناسب وجه أبي الهول، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة، فإن أنف الطفل مثلاً مناسب له وهو حسن به، حتى لو كان ذلك الأنف لرجل، جاء مشوهاً، وكذلك أنف الرجل لو كان للصبي لتشوهت صورته. وعلى هذا سائر الأعضاء، فكل عضو ينبغي أن يكون على مقدار ماهيته بالقياس إلى الصورة وعلى نسبتها.

ويتساءل المقرئزي قائلاً: والعجب من مصوره، كيف قدر أن يحفظ التناسب للأعضاء مع عظمها، مع أنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه». ويقال إن أبا الهول هو طلسم للرمل يمنع من الوصول إلى النيل^(١).

طريقة هندسة ملعب الإسكندرية الروماني: مليون متفرج

قال المقرئزي يصف هذا الملعب: كان القبط يجتمعون في هذا الملعب مرة واحدة في السنة للعب بالكرة، وكانت إذا خرجت الكرة من ساحة الملعب وقعت في حوض أحد المتفرجين ملك هذا المتفرج مصر. فهو يقول: «ولا تقع هذه الكرة في حجر أحد إلا ملك مصر، وحضر عمرو بن العاص عيداً من أعيادهم فوقعت الكرة في حجره فملك البلد بعد ذلك في الإسلام»^(٢).

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ١٥٨.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢٠٢.

ويقول المقرئزي: إنه إذا حضر هذا الملعب ألف ألف (مليون) من الناس، فلا يكون فيهم واحد إلا وهو ينظر في وجه صاحبه (دائري الشكل). ثم إذا قرئ كتاب سمعوه كلهم، أو لعب لون من اللعب رأوه كلهم. لا يتظالمون فيه و(لا يتدافعون). ومراتبه (مدارجه) عليّة وسفلية.

موقف الفاطميين من الأهرامات وعجائب مصر الهندسية:

لم يقم أي حاكم أو خليفة أو والي أو سارق بمهاجمة كنوز مصر إلا وذكره المقرئزي وغيره من المؤرخين، كالنويري وابن تغري بردي وابن أياس. ولم يشر كل هؤلاء المؤرخين إلى حادثة واحدة في عهد الخلفاء الفاطميين، الذي استمرّ لأكثر من مائتين وعشر سنين، تدلّ على إقدام أي خليفة أو حاكم أو والي أو أحد العامة من الناس، على نقب قبر أو كسر تمثال أو نبش حائط هرم، أو ما شابه ذلك من الأعمال. مما يعني أنّ الفاطميين بعظمتهم وغناهم الفاحش وكبر نفوسهم، كانوا يرون أنّ عظمة هذه الأهرامات تضاهي عظمتهم، لذلك حافظوا عليها وحملوها من السرقة والهدم والتدمير.

مسلسل النهب والتدمير الكردي المنظم لكنوز مصر ودفائناتها:

ابتدأ هذا المسلسل التدميري على يد الأكراد الأيوبيين، فبعد أن قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية، جعل من قصر الخلافة سجناً كبيراً للأمراء والأميرات، ثم قرّر أن يبني قلعة للحكم

له في جبل المقطم، فكلف الطواشي بهاء الدين قراقوش ببناء هذه القلعة، فأقدم الأخير على هدم أكثر من ثمانية عشر هرمًا صغيراً كانت موجودة في الجيزة، «فأخذ حجارتها وبنى فيها قناطر الجيزة وسور القاهرة ومصر وقلعة الجبل». «وكان خصياً رومياً» حتى المساجد القريبة من هذه المنطقة، لم يوفرها قراقوش ولا صلاح الدين، فهدمها مع ما هدم من الأهرامات^(١).

الملك العزيز عثمان يتابع تدمير الأهرامات:

يقول محمد مصطفى زيادة: اقتدى السلطان العزيز عثمان بأبيه صلاح الدين في هدم الأهرام، واستخدام حجارتها في بناء الأسوار. ففي أيام صلاح الدين هدمت بعض أهرام الجيزة على يد بهاء الدين قراقوش، وبنيت بأحجارها قلعة الجبل والسور المحيط بالقاهرة ومصر، وكذلك فعل العزيز عثمان لبناء سور دمياط. غير أن المقرئ ينفي نية العزيز عثمان لبناء سور دمياط ويقول إن سبب هدم الأهرامات هو لإخراج ما تحتها من كنوز. فأقام عماله على ذلك شهوراً. ثم تركوه عن عجز^(٢).

الملك العزيز عثمان قرّر هدم كل الأهرامات:

يقول المقرئ: في سنة ٥٩٣ هـ، تولى الملك العزيز عثمان سلطنة مصر بعد أبيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولما استقل

(١) راجع: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، هامش ص ١٦٩.

(٢) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ١٥٠.

بملك مصر بعد أبيه، سؤل له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام، فبدأ بالهرم الصغير الأحمر، فأخرج إليه النقابين والحجارين وجماعة من أمراء دولته وعظماء مملكته، وأمرهم بهدمه. فخيّموا عنده وحشروا الرجال والصنّاع، وقرروا عليهم النفقات، وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخیلهم ورجالهم يهدمون كلّ يوم، بمزيد من الجهد واستفراغ بذل ما بوسعهم، الحجر والحجرين. قوم يدفعونه من فوق بالأسافين، وقوم يجذبونه من تحت بالحبال. فإذا سقط سمع له ضجة عظيمة من مسافة بعيدة، حتى ترتجف الجبال وتزلزل الأرض ويغوص في الرمل، فيتعبون تعباً آخر حتى يخرجوه ويضربون فيه بالأسافين بعدما ينقبون لها موضعاً ويثبتونها فيه، فينقطع قطعاً، وتسحب كلّ قطعة على العجلات حتى يلقى في ذيل الجبل، فلما طال ثواؤهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم وتعبههم ووهت عزائمهم، انكفوا بحسرتهم، لأنهم لم ينالوا بغيتهم، بل شوّها الهرم، وأبانوا عن عجز وفشل، ومع ذلك فإنّ الرائي لحجارة الهرم المقطّعة، يظن أنّ الهرم قد استؤصل، فإذا عاين الهرم ظنّ أنّه لم يهدم منه شيء، وإنما سقط بعض جانبه. وحين ما شوهدت المشقة التي يجدونها في هدم كلّ حجر، سئل مقدّم الحجارين، ف قيل له: لو بذل لكم السلطان ألف دينار على أن تردّوا حجراً واحداً إلى مكانه وهندامه، هل كان يمكنكم ذلك؟ فأقسم بالله أنّهم ليعجزون عنه حتى ولو بذل لهم السلطان أضعاف ذلك^(١).

(١) راجع: الخطط المقرّية، الجزء الأول، ص ١٢١.

ترى لو استطاع الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين تدمير هرم الجيزة الصغير، مع العلم أنَّ حجارته أصغر بكثير من حجارة بقية الأهرامات، فماذا كان حلّ بهذه المحطّة الحضارية العظيمة من محطات الحضارة الإنسانية في مصر؟.

الأمير بلاط المملوكي يدمّر صنم زوجة أبي الهول:

يقول المقرئزي: إنّه كان في مقابلة صنم أبي الهول صنم آخر لامرأة في حجرها طفل مولود، يزعم العامة أنّها زوجة أبي الهول أو سرّيته، قام الأمير بلاط المملوكي في سنة ٧١١هـ «في نفر من الحجارين والقطّاعين وكسروا صنم السريّة وقطّعوه أعتاباً وقواعد، ظناً أن يكون تحته مال، فلم يوجد سوى أعتاب من حجارة عظيمة، فقلعت وحفر تحتها فلم يجدوا شيئاً»^(١).

الشيخ محمّد صائم الدهر الصوفي يشوّه وجه أبي الهول:

يقول المقرئزي: إنّ جمال وجه أبي الهول، كان يعتبره بعض الصوفيين مهيجاً للجنس، ويعدّ من المنكرات، فقام رجل صوفي يدعى الشيخ محمّد صائم الدهر، في زمن المقرئزي أي في أوائل القرن الثامن الهجري «وشوّه وجه أبي الهول وشعّته، فهو على ذلك إلى اليوم».

أسباب خلود الأهرامات:

يقول المقرئزي: إنّ أسباب خلودها يعود إلى دقة وصحّة

(١) م.س. نفسه، ص ١٢٣.

الأسس الهندسية التي اتبعت في بنائها. فهو يقول: وقد سلك في بناء الأهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان، لذلك جرت على مر الأزمان وممر الأيام، لا بل على ممرها صبر الزمان، فإنك إن تأملتَها، وجدت أن الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلاً في غاية إمكانها، حتى أنها تكاد تحدث عن قوة قومها، وتخبر عن سيرتهم، وتنطق عن علومهم وأذهانهم، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم وذلك أن وضعها على شكل مخروط، يبتدىء من قاعدة مربعة وينتهي إلى نقطة، جعل مركز الثقل في الوسط يتساند على نفسه، ويتواقع على ذاته، ويتحامل بعضه على بعض وليس له جهة أخرى يتساقط عليها. ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزوايا مهبّ الرياح الأربع، فإن الريح تنكسر سورتها (هيجانها)، عند ملامستها الزاوية منه. ومنها ما هو مبني بحجارة الصوان الأحمر المنقّط الشديد القوة والصلابة، ولا يكاد يؤثر فيه الحديد، وإذا رأيت الواحد منها هالك مرآه وحير النظر في تأمله^(١).

(١) راجع: الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ١٢٠.

القاهرة: ينيها أهلها ويدمرها الغرباء

القاهرة اليوم:

إنَّ القاهرة اليوم هي غير قاهرة الإمس، فالقاهرة اليوم تعتبر أكبر مدينة من مدن الشرق العربي والإسلامي ويقال إنَّ عدد سكَّانها يتجاوز العشرين مليون نسمة أي ثلث سكان مصر.



القاهرة في التاريخ:

يقول لنا المقرئزي: إنَّ مركز الحكم في مصر كان عبر التاريخ القديم في مدينة الإسكندرية، وخاصة أيام الرومان والبيزنطيين، أي عندما جاء العرب وحاولوا فتح مصر، افتتحوها الإسكندرية مركز الحكم.

ويقول المقرئزي: إنَّ الاسكندرية استمرَّت دار إمارة قبل الإسلام مدة تسعمائة سنة، أي من أيام الإسكندر الكبير الذي تسمَّت باسمه، وحتى فتح المسلمين لمصر.

مكان الفسطاط قبل الإسلام:

يخبرنا المقرئزي أنَّ مكان الفسطاط، أو مصر القديمة كان قبل

الإسلام مزارع وأشجاراً، وفضاء محصورة بين النيل وجبل المقطم «وليس فيه من البناء والعمارة، سوى حصن كان يعرف بقصر الشمع». وكان هذا الحصن، مقرّ نزول الحاكم الروماني من قبل قياصرة روما وبيزنطية. وكان لا يطيل المكوث فيه، بل يعود إلى مركز الإمارة في الإسكندرية. وحصن قصر الشمع كان يطلق عليه المسلمون اسم حصن بابليون. ونقل المقرّيزي عن الحارمي أنّ العرب عندما فتحوا حصن بابليون. وهدموه وأقاموا مكانه الفسطاطات والفسطاط في اللغة هو البيت الكبير من الشعر أو الخيمة الكبيرة، لأنّ العرب كانوا يفضّلون الفسطاط على الحصون والقلاع، حيث لم يكونوا قد تعودوا على حياة المدن.

وقد أجمع المؤرّخون أنّ مصر فتحت على يد عمرو بن العاص وأنّه اختطّ مكان مصر القديمة، حيث نصب الخيم والفسطاطات، فسُميت الفسطاط.

مركز تحقيق مكتبة مصر

أسباب عدم اتخاذ الإسكندرية مقراً للحكم:

يروى لنا المقرّيزي أنّ عمرو بن العاص أعجب بالإسكندرية ومنازلها، وكتب إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) يستأذنه بذلك، فرفض عمر بن الخطاب فتحول ابن العاص عنها إلى الفسطاط وجعلها مركزاً للإمارة.

الفسطاط يتحوّل إلى اسم العسكر:

يذكر المقرّيزي أنّ اسم الفسطاط ظلّ سائداً حتى أواخر عهد

الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية، حتى إذا جاء صالح بن علي ونزل الفسطاط، وأمر عساكره بالإقامة هناك. ثم جاء السري بن الحكم والياً من قبل العباسيين فابتنى داراً في المنطقة المحاذية للفسطاط، وسمح لعساكره ولعبيده ولحشمه بالبناء، وبني جامعاً أطلق عليه جامع العسكر «فسمي من حينئذ ذلك الفضاء بالعسكر» فقال الناس: كنا بالعسكر وخرجنا إلى العسكر وكتب من العسكر. وصار مدينة ذات محلات وأسواق ودور عظيمة ونسي الناس اسم الفسطاط، بل أصبح الفسطاط حياً من أحياء العاصمة: العسكر.

العاصمة تنسى اسم العسكر ويصبح اسمها الجديد: القطائع:

يقول لنا المؤرخون أنّ أحمد ابن طولون، عندما ولي مصر، أقطع عساكره عدة قطع من الأرض تسكن فيها. وخصّص كلّ قطعة أرض أو قطيعة لسكن جماعة محدّدة، فأصبحت القطيعة أشبه بالحارة، كقطيعة السودان وقطيعة الأتراك وقطيعة الديلم. فأصبحت هذه القطائع أشبه بالحارات وكلّ حارة مختصة بفئة أو قبيلة معينة من الناس. وهكذا، حلّ اسم قطائع ابن طولون على اسم العسكر أو اسم الفسطاط، وأصبح اسم عاصمة مصر: القطائع.

يصف المقرئزي قطائع ابن طولون فيقول: «حتى اتصل البناء بالفسطاط ثم قطعت القطائع وسمّيت كلّ قطيعة باسم من يسكنها، فكان للنوبة (السودان) قطيعة (حارة) مفردة تعرف بهم، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم، وللفرّاشين قطيعة، ولكلّ صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم. وبني القواد مواضع متفرقة، فعمرت

المعز، قاهرة الدنيا. تلك القاهرة التي بنى فيها جوهر الصقلي والمعز إضافة إلى القصور والجوامع والمساجد والمنتزهات والمناظر (أماكن الفرجة)، بُني فيها عشرون ألف دكان وعشرون ألف بيت ملكاً للخلفاء الفاطميين «يؤجرونها للناس بطيب خاطر وبرغبة المستأجر فلا يجبر شخص على شيء»^(١).

وقد أخذت القاهرة، تكبر وتنمو وتزداد وتتسع حتى اتصلت بالعواصم القديمة، التي أصبحت أحياء وحارات من العاصمة الجديدة، فأصبح الفسطاط حياً ويطلق عليه أيضاً مصر القديمة، وأصبح العسكر حياً وقطائع ابن طولون حياً. وغلب اسم القاهرة على العاصمة، فأصبحت تدعى القاهرة ومصر القديمة أو القاهرة ومصر، حيان.

القاهرة تصبح دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة:

بعد أن يصف المقرئزي القاهرة وشوارعها وقصورها وساحاتها وأسباب بنائها يقول: «هذا ما كانت عليه صفة القاهرة في الدولة الفاطمية، وحدثت هذه الأماكن شيئاً بعد شيء، ولم تزل القاهرة دار خلافة ومنزل ملك ومعقل قتال، لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره وخواصه الذين يشرفهم بقربه فقط».

الفاطميون يكثر من بناء المساجد في القاهرة:

لقد أثبتت الفصول السابقة مدى اهتمام الفاطميين بالإسلام

(١) راجع: سفرنامه، ناصر خسرو، م.س. ص ٨٨.

وبمؤسّساته وكيف لا! وهم أهل بيته وأهل بيت نبيّه. ولما كان الجامع أهم مؤسّسة من مؤسّسات الإسلام، عمل الخلفاء الفاطميّون ووزراؤهم على تعمير الجوامع وتجهيزها بكلّ ما يلزمها من إضاءة وفرش ومؤذنين وقوّة وقرّاء وخدم. وسنكتفي بذكر أهم وأكبر الجوامع التي بناها الفاطميّون خلال حكمهم في القاهرة ومصر.

الجامع الأزهر:

أسس هذا المسجد جوهر الصقلي، وقد أسّسه بالتزامن مع بناء قصور الخلفاء. وكان أوّل يوم في بنائه السبت في ٢٤ / جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ. واستمرت عملية البناء أكثر من سنتين، فقد انتهى جوهر الصقلي من بنائه في التاسع من رمضان سنة ٣٦١هـ. وقد صلّى فيه المعزّ في السنة نفسها في رمضان أوّل جمعة وخطب. وقد أشرنا إلى طريقة صلاته وقنوته وافتتاحه كلّ السور بالبسملة.

وعندما استقرّ الخلفاء الفاطميّون في مصر ورأوا أهميّة الجامع، وظفّوا له الفقهاء والقومة والمؤذنين، وكان كلّ منهم يسكن في ناحية معيّنة من نواحي القاهرة بعدت أو قربت، مما يجعل وصولهم في الأوقات المطلوبة لعملهم صعباً، فطلب الوزير يعقوب بن كلّس من الخليفة العزيز أن يطلق لهم صلات وأرزاقاً تسمح لهم ببناء بيوت لسكنهم قرب الجامع، وهكذا كان، «فأطلق العزيز لهم ما يكفي كلّ واحد منهم من الرزق والمال، وأمر لهم بشراء أرض وبناء بيوت لهم، فبنيت بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى

الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة. وأطلق لهم الوزير أيضاً صلة في كل سنة وكانت عدتهم خمسة وثلاثين رجلاً^(١).

وكان هؤلاء الفقهاء والمقروؤن والمؤذنون مكرّمين من قبل الخلفاء الفاطميين، تصلهم رواتبهم شهراً بشهر، كما تصلهم الكسوات ومصاريق الجامع والخلع والتكريم في كل مناسبة.

وقد أخبرنا المقرئزي عن قيمة راتب كل موظف من موظفي الجامع بالإضافة إلى ميزانية الجامع السنوية ونحن سنكتفي بذكر كل موظف وراتبه فقط في الصفحات اللاحقة.

يقول الباحث عبد المنعم حماده عن الهدف من بناء الأزهر: «وكما هو النهج الذي سار عليه المسلمون منذ العهد الأول للإسلام، من بناء المسجد الجامع ليكون مقراً للدعوة، ومدرسة لتفهم الدين وأصوله، والمكان الذي تصدر منه الأوامر والتعليمات، ويستمع فيه ولي الأمر (ال خليفة) إلى مطالب المسلمين وتظلماتهم، ويشاورهم في أمور البلاد وما يجب أن تكون عليه، جرياً على هذه القاعدة، وتمشياً مع ما سار عليه السابقون، فكّر الفاطميون، منذ وضعوا أساس مدينتهم الجديدة، لتكون مقراً للخلافة الفاطمية، في بناء المسجد الجامع (الأزهر)، الذي يستخدم لاجتماع المسلمين من ناحية والذي يجلس فيه علماء التفسير والحديث واللغة ويتخذون منه مقراً لدروسهم من ناحية ثانية»^(٢).

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢٧٣.

(٢) مصر والفتح الإسلامي، عبد المنعم حمادة، ط ١، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، سنة ١٩٧٠، ص ١٧٥.

ويذكر الباحث أنَّ ما قام به جوهر الصقلي ليس بجديد،
فعمر بن العاص أقام جامع عمرو بالفسطاط، حين افتتح مصر
والسرّي بن الحكم العباسي أقام جامع العسكر في العسكر، وأحمد
ابن طولون أقام جامع في القطائع.

وقال إنَّ الغاية الأساسية من إنشائه هو بثُّ الدعوة الإسلامية،
وأن يكون مدرسة يلتقي فيه طلاب العلوم الدنية حسب المذهب
الإمامي الشيعي. وليكون منارة لنشر الدعوة الفاطمية ومحاربة
الدعوة العباسية في بغداد، والدعوة الأموية في الأندلس.

رواتب موظفي جامع الأزهر:

- ١ - القومة أو خدام الجامع وعددهم أربعة:
ديناران في الشهر لكل خادم.
- ٢ - أئمة الصلاة أو الذين يصلّون في الناس جماعة وعددهم
ثلاثة:
ديناران وثلاث دينار لكل إمام في الشهر.
- ٣ - المؤذنون وعددهم خمسة عشر مؤذناً:
لكل مؤذن ديناران وثلاث ودرهمان.
- ٤ - المشرف العام: ديناران في الشهر راتباً وخمسة دنانير كلفة
ترميم شهرياً.
- ٥ - كلفة متولّي تعليف رأسي البقر لجرّ الماء من المصنع
(البئر) إلى الجامع سبعة دنانير.
- ٦ - أجرة السقاء والحبال، إثنا عشر ديناراً.

بناء جامع الحاكم: أو الجامع الأنور:

أول من عمل على وضع حجر الأساس لهذا الجامع هو الخليفة العزيز بالله. وقد خطب فيه العزيز، وصلى فيه الناس الجمعة، ولكن الذي أكمله هو ابنه الحاكم بأمر الله، ويعرف أيضاً بالجامع الأنور. وقد صرف الحاكم أربعين ألف دينار في تكملة بنائه. وقد بنى الحاكم في هذا الجامع مئذنة لجهة باب الفتوح، يقال أنها بلغت مائة ذراع طولاً (٦٧م).

ويخبرنا المقرئ أنَّهُ في سنة ٤٠٣هـ، طلب الحاكم من مشرف الجامع تقريراً بما يحتاجه الجامع من الفرش والحصر والقناديل من أجل الإضاءة، «فكان تكسير ما ذرع للحصر ستة وثلاثين ألف ذراع».

وقد أطلق على هذا الجامع عدة أسماء منها جامع الخطبة وجامع الأنور، ولكن بعد إعادة تأهيله من قبل بدر الجمالي، استمرَّ باسم جامع الحاكم.

الحاكم يبني جامع راشدة:

سمي هذا الجامع بجامع راشدة لأنه بُني في (خُطّة) حارة من حارات مصر القديمة التي كانت معروفة باسم حارة راشدة، أو خُطّة راشدة، في الحي المعروف حالياً بـ«إسطنبول عنترة».

وراشدة هو اسم رجل وليس اسم امرأة، وهو راشدة اللخمي. وكان جامع راشدة قبل بنائه كنيسة للأقباط محاطة بمقابر لليهود والنصارى، فجاء الخليفة الحاكم وأزال الكنيسة والمقابر، وأقام

مكانها هذا الجامع. وأطلق عليه اسم الحارة التي بني فيها. وقد استمرّ بناؤه أكثر من عشر سنين، أقيمت به أول جمعة سنة ٣٩٥هـ، وقد تكامل فرشاه وتعليق قناديله قبل هذه الخطبة وصلى فيه الحاكم وخطب في الجمعة الثانية من رمضان من نفس السنة. وفي رمضان من سنة ٤٠٠ هجرية، أنزل الحاكم فيه القناديل الفضة ويقال إن زنتها بلغت ألفاً كثيرة. وكان الحاكم طيلة مدة حكمه يكثر الصلاة فيه ويلتقي الناس والمتظلمين ويأخذ الرقاع (الشكاوى) ويقرأها ويحجب عليها في هذا الجامع.

وقد روى لنا النويري في نهاية الأرب أنّ كاتب الحاكم أبا المنصور الزيات النصراني، بني في هذا المكان كنيسة، فاحتج المسلمون ورفعوا أمره للحاكم، فما كان من الحاكم إلا أن هدمها وبني جامع راشدة مكانها، وعندما اضطر للتوسّع في بنائه، جرف المقابر المحيطة به. ويخبرنا الدكتور محمد حلمي محمد أحمد، أنّ جامع راشدة قد اندثر ولا وجود له. وهو حسب تقديره، كان موجوداً.

الحاكم يبني جامع المقس:

يقول المقرئزي أنّ كلمة المقس هي محرّرة من كلمة مكس ومكوس أي استيفاء الضرائب، ويبدو أنّ حارة المقس أو المكس هي الحارة التي كان يُستوفى فيها الضرائب والمكوس. وقد أنشأه الحاكم بأمر الله على شاطئ النيل بالمقس. ويقول المقرئزي إنّه كان له ميزانية كبيرة من الحصر العبدانية والحصر المظفورة وأعواد الند

(العنبر) والبخور وجميع ما يحتاجه. كما كان أمامه البساتين الواسعة المزروعة من جميع أنواع النخيل. وقد بنى الحاكم في هذه البساتين، منظره يأتي إليها عند عرض الأساطيل المنطلقة لمحاربة الروم (اليونان)، «فيجلس بها لمشاهدة ذلك كله».

ال خليفة الأمر يبني جامع الأقر:

يقول المقرئ أن الخليفة الأمر بأحكام الله طلب من وزيره الأول المأمون بن البطاحي بناء هذا الجامع مقابل قصر الخلافة، فأنتهى المأمون من بنائه سنة ٥١٩ هجرية. ويقول المقرئ إن المأمون اشترى له حماماً يدعى حمام شمول، ودار النحاس وربما تكون محلاً لتصنيع الأواني النحاسية. وأن المأمون جعل هذين الدكانين من أوقاف الجامع، لتأمين رواتب «سدنته ووقود مصابيحه ومن يتولى أمره ويؤذن فيه»^(١). وموقع هذا الجامع هي وسط شارع المعز لدين الله وكان الخليفة الأمر قد أزال الدكاكين الموجودة تجاه القصر بأن دفع ثمنها لأصحابها، ثم أقام تحت هذا الجامع دكاكين ومخازن لجهة باب الفتوح وليس لجهة القصر، وقفها على الجامع، أي يعود ريعها وإيجارها لوقف هذا الجامع.

ال خليفة الظافر يبني جامع الظافر:

بنى هذا الجامع الخليفة الفاطمي، الظافر بنصر الله، أبو المنصور إسماعيل، سنة ٥٤٣ هجرية، وقد بُني هذا الجامع وسط القاهرة أو

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٢٩٠.

وسط السوق الذي كان يعرف بسوق السراجين وسوق الشوايين. وكان قبل ذلك زريبة غنم تعرف بدار الكباش. ويقال إن جزاراً أخذ كبشين من هذه الدار وأراد أن يذبحهما «فذبح أحدهما ورمى سكينته ومضى ليقضي حاجته، فأتى رأس الغنم الآخر وأخذ السكين بفمه ورمها في البالوعة، ورجع الجزار ليذبح الكبش التالي، فلم يجد السكينة وكان هناك خادمه يراقب العملية، فأخبر الجزار وخلّص الكبش الثاني من الذبح، فوصل الخبر للقصر وللخليفة الظافر فأمرُوا بعمل مكان الزريبة جامعاً، ويسمى الجامع الأفخر وبه حلقة تدريس وفقهاء ومتصدرون للقرآن، وأقيمت به صلاة الجمعة»^(١).

وكتب محمد حلمي أحمد محمد / محقق الجزء الثالث من كتاب اتعاظ الحنفا في هامش ص ٢٠٩ عن هذا الجامع فقال: لا يزال هذا المسجد موجوداً إلى الآن، ويسمّيه المقرئزي باسم جامع الفاكهيين، ويقول إنّه كان يُسمّى جامع الأفخر ويعرف اليوم باسم جامع الفاكهاني نسبة إلى السيد محمد أنور الفاكهاني. وله بابان: أحدهما يطلّ غرباً على شارع المعز لدين الله، والآخر يطلّ على حارة خوش. وقد أنشاه الخليفة الظافر سنة ٥٤٨هـ. ويقال إنّ الظافر كان يريد أن يدفن رأس الحسين (ع) بهذا المسجد، بعد أن استنقذت من عسقلان، فأشار عليه أهل القصر بدفن الرأس الشريفة داخل القصر.

جوامع وزراء الدولة الفاطمية وقوادهم:

إنّ الناس على دين ملوكهم، ولما كان الفاطميون يعتبرون

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، م.س. ص ٢٩٢.

أنفسهم أصحاب البيت الإسلامي وأهله وحماته، كان عليهم أن يرسوا دعائمه ببناء الجوامع والمساجد ومكاتب الدعوة الإسماعيلية الشيعية. وبالطبع الناس على دين ملوكهم، فلا غرو إذا أقدم وزراء وقواد الدولة الفاطمية على تعمير المساجد وبناء الجوامع.

جامع غين:

وغين هو أحد صبيان العزيز، وامتدت خدمته إلى عهد الحاكم. وقد قلّده منصب الوزارة وقائد القواد والشرطتين وجمع بين يديه كل سلطات الحكم، ولكنه عاد وقطع يديه ثم قطع لسانه. ومكان هذا الجامع بالروضة، ولم تزل الخطبة فيه إلى أن عُمر جامع المقس أو جامع المقياس، فانتقلت صلاة الجمعة وخطبتها من قبل الخلفاء، منه إلى جامع المقياس فكثر عمائر الناس حوله.

جامع الفيلة:

بنى هذا الجامع الأفضل بن بدر الجمالي كبير وزراء المستنصر في شعبان من سنة ٤٧٨ هجرية. وسمي جامع الفيلة لأن في قبلته تسع قباب ذات قناطر. إذا رآها الإنسان من بعيد، يجد أنها تشبه مدرّعين على فيلة، كالتى كانت تعمل في المواكب وأيام الأعياد في الدولة الفاطمية.

ويروي المقرئزي نقلاً عن ابن منجب الصيرفي أن خطيب هذا الجامع كان «الشريف الزكي، أبو جعفر، محمد بن علي الحسيني - من نسل الأفتس - النسابة الطرابلسي، رقي المنبر لإلقاء أول خطبة فيه فقال:

بسم الله والحمد لله، وأرتج عليه (سكت) فلم يدر ما يقول.
وأضجر من حضر، ثم نزل عن المنبر وقد حُمّ (أصابته حُمى).
فتقدّم قيمّ الجامع (خادمه) وصلى بالمصلين إماماً دون أن يخطب.
ويقول المقرئون إنّ الشريف أبو جعفر الحسيني، مضى إلى داره
ومرض واعتل فمات قهراً من هذه الغلطة.

ويقول المقرئون: إنّ الشريف أبا جعفر توفي سنة ٥١٧ هـ، مما
يعني أنّ الانتهاء من بناء جامع الفيلة وابتداء الخطبة فيه، كانت سنة
٥١٧ للهجرة.

ال خليفة الأمر يبني مائتي مسجد:

عرف عن الخلفاء الفاطميين شغفهم ببناء القصور والمنتزهات
والمناظر (شرفات الفرجة) والمخازن والمعامل والجوامع
والمساجد.

وأكثر المساجد والجوامع التي ارتفعت منابرها «بحي علي خير
العمل» في سماء القاهرة ومصر، هي التي أنشئت على عهد الخليفة
الأمر لأحكام الله.

فقد أخبرنا المقرئون أنّ الوزير الأول المأمون بن البطاحي كان
مشرفاً من قبل الخليفة الأمر على بناء الجوامع والمساجد، «وقيل إن
الذي أنشأه المأمون في وزارته ووزارة الأفضل بن بدر الجمالي،
بالقاهرة ومصر ما يناهز المائتي مسجد»^(١).

(١) اتعاط الحنفاء، الجزء الثالث، ص ٩٢.

جامع الصالح: طلائع بن رزّيك:

يقول المقرئزي عن هذا الجامع: هذا الجامع هو من المواقع التي عُمِّرت في زمن الخلفاء الفاطميين، وهو خارج باب زويلة. ونقلًا عن ابن عبد الظاهر، يقول المقرئزي إنَّ الصالح طلائع بن رزّيك عمّر هذا الجامع لينقل إليه رأس الحسين من عسقلان، ولكنّه لما فرغ من بنائه، لم يمكنه الخليفة من ذلك، ولكن كنا قد أشرنا إلى أنّ الذي عمّر مشهد الإمام الحسين في مصر ونقل الرأس الشريفة إليه هو الوزير الأول الأفضل بن بدر الجمالي. وليس هناك تفسير لهذا التناقض. وقد بنى الصالح ابن رزّيك داخل هذا الجامع صهريجاً عظيماً ومدّه إليه ساقية من الخليج تملأه أيام فيضان النيل وجعل المجاري إليه.

والي القاهرة جعفر ذخيرة الملك يبني مسجد «لا بالله»:

ويقول المؤرخون: إن والي القاهرة من قبل الخليفة الأمر بأحكام الله ذخيرة الملك جعفر، بنى هذا المسجد بالعسف والظلم، حيث كان يصادر الناس ويسخرهم بالعمل في بنائه.

ويقال إنَّ سبب تسميته بذلك، أنّ الوالي كان يقبض على الناس في الطرقات ويظلمهم فيقولون له مستنجدين: «لا بالله»، فلا يستجيب لهم، بل يقيدهم ويجبرهم على العمل في الجامع بغير أجر.

ويقول لنا المقرئزي: إنّ الله ابتلى ذخيرة الملك «بأمراض شديدة» قبل أن يصل خبره للخليفة الأمر. فمات، ولما مات لم يصل عليه أحد ولم يسيروا في تشييعه^(١).

(١) راجع: نهاية الأرب للنويري، جزء ٢٨، ص ١١٤.

ما هي المنظرة:

المنظرة عند الفاطميين هي بناء عال يشرف على مكان جميل، يستطيع الناظر أن ينظر منه إلى كل ما يحيط به من مشاهد وبساتين ومناظر جميلة. من هنا أطلق الفاطميون على هذا البناء اسم منظرة.

وقد زرع الفاطميون القاهرة بالبساتين والبرك، وأماكن النزهة. وفي كل مكان بنوا لهم منظرة يقفون عليها للتفرج على ما يحيط بها من أشياء جميلة، أو احتفالات مذهشة، أو عروض عسكرية أو أي شيء.

وكان لهم في كل بستان منظرة، وفي كل قصر منظرة، حتى في السفينة التي يقفون بها للتفرج على عملية قياس ارتفاع النيل منذرة. ومن المناظر التي كانوا يعتلونها، منظرة أطلقوا عليها منظرة الخمس وجوه، أو كما نقول من هذه الأيام «فندق خمس نجوم».

يقول المقرئ عن هذه المناظر: وكان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش وظواهر القاهرة، وكانت لهم عدة منتزهات أيضاً.

أسماء مناظر الفاطميين:

- ١ - منظرة الجامع الأزهر يجلس فيها الخليفة داخل قصره ولكنها تشرف على الجامع الأزهر لمشاهدة الاحتفالات.
- ٢ - منظرة اللؤلؤة: كانت هذه المنظرة داخل قصر اللؤلؤة وكان القصر من أعظم القصور، ويعد أحد أهم منتزهات الدنيا.
- ٣ - منظرة الدكة.

- ٤ - منظرۃ المقس.
- ٥ - منظرۃ باب الفتوح.
- ٦ - منظرۃ بستان البعل.
- ٧ - منظرۃ التاج.
- ٨ - منظرۃ الخمس وجوه.
- ٩ - منظرۃ الصناعة (مكان صناعة السفن).
- ١٠ - منظرۃ دار الملك.
- ١١ - منظرۃ منازل العز.
- ١٢ - منظرۃ الهودج.
- ١٣ - منظرۃ بركة الحبش.
- ١٤ - منظرۃ الأندلس.
- ١٥ - منظرۃ قبة الهواء.
- ١٦ - منظرۃ السُكْرَة.
- ١٧ - منظرۃ كسر الخليج وهي داخل سفينة.
- ١٨ - منظرۃ قصر الورد.
- ١٩ - منظرۃ بركة الجب.
- ٢٠ - منظرۃ القرافة.
- ٢١ - منظرۃ الزاهرة.
- ٢٢ - منظرۃ الفاخرة.
- ٢٣ - منظرۃ قبة الهواء.
- ٢٤ - منظرۃ بحر أبي المنجا.
- ٢٥ - منظرۃ المشتهى.

هل للمنظرة هدف أمني؟

يحتار القارئ والمطلع على مدونات وأدبيات الفاطميين فما الهدف من بناء أكثر من عشرين منظرة في عشرين ساحة في القاهرة، هل كان الهدف أمنياً، أي مراقبة الناس والإطلاع على تحركاتهم؟ أما الهدف مراقبة جمال الأماكن والمشاهد والعروض العسكرية والاحتفالات التي كانت تتم في هذه الساحات؟

بالتأكيد لم يكن الهدف من بنائها أميناً، بل له علاقة بتأمين ملذات الحواس الخمس ومنها حاسة النظر.

وكما زرع الفاطميون القاهرة، مناظر ومساجد وجوامع وساحات، كذلك زرعوها قصوراً وقاعات؛ ومن القصور التي تركها الفاطميون:

١ - قصر الشوك ويقول العامة عنه: قصر الشوق.

٢ - سقيفة المتظلمين أمام القصر الكبير، أو سقيفة الإمام علي (ع).

٣ - القصر الكبير وقد أشرنا إلى أن صلاح الدين الأيوبي حينما أغلق على أهل القصر، ومنعهم من الخروج، كان به من الأمراء والأشراف والخدم أربعون ألفاً من الناس.

فن العمارة:

وأهم ما بقي من العمارة الإسلامية في العصر الفاطمي حتى اليوم، الجامع الأزهر، وجامع الحاكم وجامع الأقمر، وجامع الصالح طلائع وأسوار القاهرة.

والجامع الأزهر، هو: أول جامع أنشئ في القاهرة بنائه القائد
جوهـر الصقـلي باسم الخليفة المعز لدين الله عام ٣٦١هـ.

أما جامع الحاكم فقد تمّ بناؤه في عصر الحاكم بأمر الله عام
٤٠٣هـ، الصحن فيه تحيط به أربعة إيوانات، أكبرها إيوان القبلة.

وبنى الخليفة الأمر جامع الأقمر سنة ٥١٩هـ، وهو عبارة عن
صحن مكشوف تحيط به أربعة إيوانات.

وجامع الملك الصالح طلائع بن رزيك، تمّ بناؤه عام ٥٥٥هـ،
قبل مقتله بقليل، وهو آخر إنشاءات العصر الفاطمي. وللجامع أربع
واجهات، وهو مرتفع عن مستوى الشارع بأكثر من ثلاثة أمتار.
وأهم واجهاته، الواجهة الغربية، وبها الباب الرئيسي. وأمامه رواق
قائم على أربعة أعمدة. أما الجامع فهو عبارة عن صحن حوله أربعة
إيوانات. وعقوده محمولة على أعمدة، وقوق العقود نوافذ صغيرة
مزخرفة بزخارف وتصاوير نباتية متنوعة^(١).

ومن الآثار التي ما زالت ماثلة أيضاً أمام المواطن المصري في
القاهرة المعزية باب زويلة، وباب الفتوح، وباب النصر، وأضرحة
السبع بنات، وترجع أهميتها من حيث دلالتها التاريخية على طريقة
بناء الأضرحة عند المصريين الفاطميين وهذه الأضرحة أعدها آل
المغربي الذين قتل الحاكم منهم سبعة أشخاص سنة ٤٠٠هـ^(٢).

(١) دراسات في العمارة الإسلامية، عبد السلام أحمد نظيف، ط١، القاهرة، الهيئة العامة
للكتاب، سنة ١٩٨٩، ص١٦.

(٢) العمارة الإسلامية في مصر، كمال الدين سامح، ط٤، مصر، القاهرة، الهيئة المصرية
العامة للكتاب، سنة ١٩٩١، ص٤٣.

أما المشهد الحسيني، أنشأه الأفضل بن أمير الجيوش بعد أن نقل إليه رأس الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، من عسقلان ودفنه فيه.

وكذلك مشاهد السيدة رقية، والسيدة نفيسة، وقد تمّ بناؤهما في أواخر عهد الخليفة الأمر سنة ٥٢٧هـ.

دوائر أو مخازن القصر الكبير:

يذكر لنا المقرئ أن الإدارات التي كانت موحودة داخل القصر مع موظفيها ومخازنها. وكل دائرة هي وزارة بحالها في أيامنا هذه، وهي:

- ١ - مخزن الكتب أو المكتبة العامة.
- ٢ - مخزن البنود أو مخزن الألوية والأعلام، وسجن المعتقلين السياسيين.
- ٣ - مخزن السلاح (السيوف - السهام - الأقواس - قرب النفط).
- ٤ - مخزن السروج.
- ٥ - مخزن الفرش والامتعة.
- ٦ - مخزن الكسوات (الثياب).
- ٧ - مخزن الأدم (الجلود).
- ٨ - مخزن الشراب.
- ٩ - مخزن التوابل.

- ١٠ - مخزن الخيم.
- ١١ - دار التعبئة (تجهيز الأطعمة للجيش والقصور).
- ١٢ - دار الفطرة - وقد سبق الحديث عنها.
- ١٣ - دار العلم - الجامعة الداخلية.
- ١٤ - مخزن الجواهر.
- ١٥ - مخزن البخور وأنواع الطيب والطرائف.
- ١٦ - مخزن دار أفكين وهو مسؤول عن تخزين الشمع والقلوبات والسكر وزيت السمسم والزبيب والعسل.



أسواق القاهرة أيام الفاطميين السوق الواحد اثنتا عشرة ألف دكان

أما الحديث عن هذه الأسواق، فيحتار الواحد، أيصدق ما وصفه المؤرخون لهذه الأسواق، أم أنه يعتبر هذا الوصف من باب المبالغة. فحين تحدث المقرئزي عن سوق القصبية وهو السوق الممتد من المشهد الحسيني، حتى مشهد الست نفيسة «إنه يحتوي على اثني عشر ألف حانوت غاصة بأنواع المأكول والمشارب والأمتعة تبهج رؤيتها، ويعجب الناظر هيئتها ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلاً عن إحصاء ما فيها من الأشخاص»^(١).

وعن سوق باب الفتوح يقول:

«يقصده الناس من جميع أنحاء البلاد لشراء أنواع اللحوم الضأن والبقر والمعز ولشراء أصناف الخضراوات».

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٩٥.

وعن سوق المرحلين يقول:

معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال وأقتابها
(حبالها) وسائر ما تحتاج إليه. ولو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل
وأكثر في يوم واحد، لما شقَّ عليه وجود طلبه، لكثرة ما تخزنه
التجار في الحوانيت وفي المخازن.

ويخبرنا المقرئ إن أهل هذا السوق كانوا أغنى أهل مصر،
ولكن أيام الملك الناصر فرج بن برقوق، تسلَّط المماليك على تجار
هذا السوق، يأخذون ما يريدون دون دفع ثمنه أو يدفعون ثمناً
رمزياً مما أدى إلى «اختلال أمر هذا السوق فقلَّت أموالهم بعد ما
كانوا مشتهرين بالغنى الوافر والسعادة الطائلة وضربت معظم
حوانيت هذا السوق وتعطلت»^(١).

سوق خان الرواسين (سوق رأس النيفة):

يقول المقرئ: إن هذا السوق كان من أحسن أسواق القاهرة
حوانيته مملوءة بأصناف المأكّل وخاصة «الرؤوس المغمومة».

ولن نطيل الشرح عن هذه الأسواق ولكننا سنذكرها باسمها:

١ - سوق حارة برجوان ومختص للحمامات والأفران.

٢ - سوق الشماعين ومختص ببيع الشموع.

٣ - سوق القماحين.

٤ - سوق الدجاج.

(١) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ٩٥.

- ٥ - سوق البندقانيّين وهو مختص بالرسّامين.
- ٥ - سوق السلاح وهو مختص لبيع القسيّ والزرديات والنشاب.
- ٦ - سوق الصيرفيّين وهو مختص للصرافين.
- ٧ - سوق القفيصات وهو مختص لبيع الأساور والذهب أو سوق الصاغة.
- ٧ - سوق الفاضل: وهو مختص لثياب الأعراس وجهازهنّ.
- ٨ - سوق الحريرين وهو مختص لبيع الأقمشة والثياب الحرير.
- ٨ - سوق الأخفافيّين وهو مختص بأحذية النساء.
- ٩ - سوق العنبر، وهو مختص لبيع العنبر والبخور والطيب والكافور على أنواعه.
- ٩ - سوق الكفتيّين وهو يختص بتلبّيس المعادن بالذهب أو الفضة.
- ١٠ - سوق الزجاجيّين.
- ١٠ - سوق الصناديقيّين ويبيع فيه الأسرّة والخزائن والمقاعد.
- ١١ - سوق القشّاشين.
- ١١ - سوق الخراطين وهو يختص بصناعة السكاكين ودويّ الحبر.
- ١٢ - سوق الأمشاطيّين ويبيع فيه الأمشاط على أنواعها.
- ١٢ - سوق الفراء.
- ١٣ - سوق النقلين «الذين يبيعون الفستق واللوز والزبيب ونحوه»^(١).
- ١٤ - سوق الأبريّين.

(١) راجع: م.س. نفسه. ص ٢٠٧.

- ١٥ - سوق الكتبيين.
- ١٥ - سوق البخانقيين (العقود والقلائد).
- ١٦ - سوق اللجميين، ويبيع فيه اللحم وقطع الزينة.
- ١٧ - سوق الحلاونيين.
- ١٧ - سوق الإسكافيين.
- ١٨ - سويقة أمير الجيوش وفيها البرّازون والرفّاقون والحباكون.
- ١٨ - سوق الشوائين.
- ١٨ - سوق الخياميين وهو مختص بصنع الخيم.
- ١٩ - سوق الخلعيين (الثياب القديمة).
- ١٩ - سوق الأغلاق والضبب (الأقفال).
- ٢٠ - سوق الجملون الصغير - وفيه حوانيت مختصة بالغسيل والكوي.
- ٢١ - سوق الغرابليين، لبيع الغرابيل والمناخل.
- ٢١ - سوق الخياطين.
- ٢٢ - سوق المجبرين (طبيب عربي).
- ٢٣ - سوق المهامزيين.
- ٢٤ - سوق الجبانين لبيع الأجبان والألبان ومشتقاتها
- وينهى المقرئ قوله بعد أن يسمي كل سوق ويصفه: «وهناك منهم بقية إلى يومنا هذا، ما بين صيارفة وبيّاعي طُرف ومتعيشين في المأكّل غيرها»^(١).

(١) م.س. ص ١٠٠.

دكان واحدة تضم أربعة وثلاثين ألف طير:

ويروي لنا المقرئزي حادثة، يقصد بها إظهار ومدى غنى أهل القاهرة وراثتهم فيقول إنَّ الوالي كان يمرّ بسوق الدجاجيين فشم رائحة كريهة تظهر من أحد المحلات، فكشف على هذا المحل فوجد به «أربعة وثلاثين ألفاً ومائة وستة وتسعين طائراً» من حمام ودجاج ووزازير، كلّها متغيرة اللون والرائحة فأدّبه وشهرّه به.

القاهرة الفاطمية خلية نحل بحاجة إلى قبّان عمومي:

عندما يصف المقرئزي الأسواق أيام الدولة الفاطمية، يصفها بدقّة وكلّها أسواق متخصصة، فما بالك بسوق الأبريين، ولقد لفت نظري وصفه لسوق حارة برجوان إذ يقول:

«وكان هذا السوق معمور الجانبين بالعدّة الوافرة من بيّاعي لحم الضأن السليخ وبيّاعي اللحم السميّط (المطبوخ) وبيّاعي اللحم البقري. وبه عدّة كثيرة من الزيّاتين وكثير من الجبّانين والخبّازين واللّبّانين والطّبّاخين والشوّايين والبواردية (بياعو المبرّدات)، والعطّارين والخضريين، وكثير من بيّاعي الأمتعة، حتى أنّه كان به حانوت لا يباع فيه إلا حوائج المائدة (مأزّة) وهي البقول والكرّات والثمار والنعناع. وحانوت لا يباع فيه إلا الشيرج والقطن فقط، برسم تعمير القناديل التي تضاء في الليل. وكان يوجد في هذا السوق لحم الضأن النّيء والمطبوخ إلى ثلث الليل الأوّل، ومن قبل طلوع الفجر بساعة.

كيف أصبح سوق برجوان: بعد الفاطميين:

يقول المقرئزي: إنه بعد سنة ٨٠٦ للهجرة: «قد خرب أكثر حوانيت هذا السوق، ولم يبق لها أثر، وتعطل بأسره بعد سنة ٨٠٦ هـ. وصار أوحش من وتد في قاع، بعد أن كان الإنسان لا يستطيع أن يمر فيه من كثرة ازدحام الناس، ليلاً نهاراً، إلا بمشقة. وكان فيه «قبان» برسم وزن الأمتعة والمال والبضائع. لا يتفرغ من الوزن ولا يزال مشغولاً به. ومعه من يستحقه ليزن له»^(١).

زفة العروس أو جهازها:

بعد أن أخبرنا المقرئزي أن أسواق مصر بلغت أيام الفاطميين اثنين وخمسين سوقاً. أخبرنا عن النحاس المكفت (الملبس جوانبه بالفضة) ويقول إنه لا بد أن يكون في جهاز العروس سبع دكة (مجموعات) وكل دكة طناجر من نوع معين: دكة من فضة، ودكة من كفت (نحاس ملبس بالفضة أو البرونز)، ودكة من نحاس أبيض ودكة من خشب مدهون ودكة من صيني (فخار) ودكة من بلور، ودكة من ورق مدهون (كرتون). ويقول: «كل دكة سبع قطع بعضها أصغر من بعض في جوف بعض مع الطشت والإبريق والمبخرة»^(٢).

ولن نطيل الحديث عن هذه الأسواق والمباني، فكلها أشرنا إليها في الصفحات السابقة. إضافة لما بناه الوزراء المصريون من قصور وجنائن كدار الوزارة التي بناها الوزير الأول بدر الجمالي المستنصري.

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٩٦.

(٢) راجع: م.س. نفسه، ص ١٠٥.

تلك هي القاهرة المُعزِّز لدين الله، القاهرة الدنيا القاهرة من بناء الإسلام الشيعي الإمامي، قصور ومناظر للفرجة والتفرُّج، وبساتين للنزهة، وقصور وجنائن وساحات وأعياد واحتفالات ومساجد وجوامع ومؤذنون وقراء ومصلِّون وثراء لا مثيل له، وغنى لم يبلغه شعب آخر في الدنيا. وترف وحضارة وحرية معتقد، وحرية الأديان والمذاهب والقضاة والمفتين. أما القاهرة ما بعد الفاطميين كيف أصبحت وكيف كانت؟

كيف أصبحت القاهرة بعد الفاطميين:

لم يأت الحقد على القاهرة من المصريين وأبناء المصريين، بل كان الحقد يأتي دائماً من أناس حضنتهم مصر والقاهرة فقابلوها بالحقد والحرق والتدمير، وإذا استعرضنا أسماء الذين حاولوا تدمير القاهرة، وحرقها واستعرضنا أصولهم وأعرافهم، لما وجدنا بينهم مصرياً واحداً. بل كلهم من الأتراك والأكراد الذين أتوا ضيوفاً على مصر والقاهرة طلباً للرزق، أو الحكم أو الشهرة، فبدل من أن يبادلوها المحبة والرعاية والوفاء لها ولشعبها ولنيلها ولخلفائها، بادلوها بالحقد والحرب والحرق والمؤامرات. فمن هم هؤلاء الحاقدون؟.

أول من اتهم بحرق القاهرة، هو الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي. وعندما تحدَّث المقرئزي عن هذا الخبر نفاه بقوله: «ولم أقف على هذا الخبر مسطوراً»^(١)، ولم يشر إليه ابن الأثير ولا ابن خلدون، ولا

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ١٠٢.

إبن العبري ولا ابن سعيد، بل تخصص بتداوله المؤرخون الأكراد
كلابن أيبك الدواداري وابن أيبك الصفدي والعماد الأصفهاني وابن
تغري بردي والحافظ ابن كثير وابن العماد الحنبلي.

وقد أشار المقرئزي إلى إقدام الخليفة الحاكم على إحراق حارة
الجوثرية وهي إحدى حارات القاهرة المختصة بسكن اليهود، فقد
نمي إلى الخليفة الحاكم أن اليهود في هذه الحارة يجتمعون في
أوقات خلواتهم ويغنون:

وأمة قد ضلّوا

ودينهم معتلّ

قال لهم نبيهم

نعمّ الأدامُ الخلّ

ويسخرون من هذا القول ويتعرضون إلى ما لا ينبغي سماعه، فأتى
الحاكم إلى هذه الحارة وسدّ أبوابها عليهم ليلاً وأحرقها بمن فيها^(١).
فربما حوّر المؤرخون الأكراد هذه الحادثة وجعلوها عليه وليس
له.

أما الخراب الذي حلّ بالفسطاط والقطائع أيام الشدة المستنصرية،
فإنّ أوّل عمل عمله بدر الجمالي أن أعاد تأهيلها وتعميرها، حيث سمح
لأي كان، بإعادة تعمير بيته من دون ترخيص وهدّد بمصادرة كلّ دار لا
يعاد تعميره.

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٥٠.

شاوړ يحرق مصر القديمة (الفسطاط) بثلاثين ألف قارورة نפט:

إنّ شاوړ بن مجير السعدي يبدو لأول وهلة أنّه مصري بسبب انتمائه لبني سعد، ولكن إذا تميّزنا اسمه: شاوړ فلا معنى له، فلا يعقل أن يكون فعل أمر من شاوړ. ويبدو أن هذا الاسم هو لفظ كردي مثل طشتمر وبيدمر والدكز وبيبرس وغيرها من الأسماء الكردية التركية.

ولو كان شاوړ مصرياً لما أقدم على حرق مسقط رأسه وملعب أترابه.

يقول المقرئزي: إنّ شاوړ «أمر بإحراق مدينة مصر، فأخرج لحرقتها ثلاثين ألف قارورة نפט وعشرة آلاف مشعل مضرمة بالنيران، وفرقت فيها، واستمرت النار في مصر أربعة وخمسين يوماً، والنهابة تهدم ما بها من المباني وتحفر لأخذ الخبايا»^(١). وكان قبل هذا العهد، أقدم الأتراك أيام الشدة المستنصرية على حرق بيوت السادة الأشراف والأمراء ونهبوها.

ويروي المقرئزي أنّه عندما وقع الخلاف بين الوزير عباس بن تميم وهو مصري المولد، واشتدّ، وأحسّ عباس أنّه أصبح مسجوناً في القاهرة وأنه لا بدّ مقتول «أشار عليه بعض خواصه بتحريق القاهرة، فأبى وقال: يكفي ما جرى»^(٢) ورفض عباس بن تميم حرق القاهرة، ولو كان كردياً أو تركياً أو شركسياً أو إفرنجياً، لكان وافق

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢٥١.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٢١٦.

على حرقها. فإسلام هؤلاء الطارئين ضعيف، ولن يمنعهم من حرقها.

أسد الدين شيركوه يحرق قصر اللؤلؤة:

ويخبرنا المقرئ أن أسد الدين شيركوه أحرق قصر اللؤلؤة وطرح النار فيها وفي البيوت والقصور التي تحيط به وأحرق دار سعادة ودار القنطرة.

صلاح الدين يحرق حارة السودان وأحياء الأرمن:

يخبرنا المقرئ أن صلاح الدين، حينما حاول فرض سلطته على القاهرة، بدأ أول ما بدأ، بمحاربة لواء السودان، لمعرفة بمدى تعلقه بالخليفة الفاطمي وبمصر، فأرسل النفاطين إلى هذه الحارة الموجودة خارج باب زويلة، ويطلقون عليها حارة المنصورة فأحرقها وأتلف أموال أهلها. فهلك أولادهم واحتترقت نساؤهم، وانهزم العبيد بعد حلول هذه المصيبة بهم. وأحرق أيضاً بيوت الأرمن التي كانت منتشرة بين القصرين، وكان بها خلق كثير من الأرمن وكلهم رماة ولهم رواتب. وكانوا قد أنكوا الأكراد في حربهم مع العبيد، فاحتترقت دورهم عليهم ولم يكذب يفلت منهم أحد^(١).

وأمر صلاح الدين بتدمير هذا الحي من القاهرة فدمر تدميراً كاملاً وقلعت بيوته وحول إلى بستان محروث.

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٣١٣.

جامع ابن طولون أصبح زريبة للماعز:

يقول المقرئزي عن جامع ابن طولون أصبح بعد زوال الدولة الفاطمية نزلاً للحجاج المغاربة، بأباعرها وأماعزها، وقد خرب أكثره وتشعث. وقد استمر على هذه الحال طيلة عهد الدولة الأيوبية والمماليك البرجية، حتى مجيء السلطان لاجين فأعاد تأهيله.

الملك الصالح نجم الدين أيوب يهدم ٣٣ مسجداً:

يخبرنا المقرئزي أنه لما تولى السلطنة في مصر، الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، قرّر بناء قلعة الروضة، ومن أجل بنائها «وقع الهدم في الدور والقصور والمساجد التي كانت بجزيرة الروضة، وحول الناس من مساكنهم التي كانوا فيها، وهدم كنيسة كانت لليعاقبة، وقطع منها ألف شجرة نخيل، وخرب الهودج والبستان وهدم ثلاثة وثلاثين مسجداً عمّرها خلفاء مصر وسراة المصريين لذكر الله تعالى وإقامة الصلوات»^(١).

التباهي بين بشتاك وقوصون، يؤدي إلى هدم إحدى عشر مسجداً من مساجد القاهرة:

ويخبرنا المقرئزي أنه أيام سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون، أخذ أميران من أمرائه بالتباهي بأملاكهم وبساتينهم ودورهم وقصورهم، مما دفع بقوصون إلى أن يصادر إحدى عشر مسجداً وأربعة معابد كانت من آثار الخلفاء الفاطميين فهدّها وعمّر

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ١٨٢.

مكانها «قصرأ من أعظم مباني القاهرة، فإنَّ ارتفاعه في الهواء أربعون ذراعاً وأساسه في الأرض مثل ذلك والماء يجري بأعلاه»^(١).

دائرة ترميم المساجد أيام الدولة الفاطمية:

كنا قد أشرنا إلى وجود ميزانية سنوية لكل مسجد من مساجد القاهرة، وإلى وجود موظفين وخدم ومؤذنين وقرّاء ومشرف عام لكل مسجد. وفي الصفحات السابقة، علمنا أن المساجد التي ذكرها المقرئزي كمسجد الحاكم وجامع راشدة وغيرها، ليست إلا المساجد الكبيرة المشهورة التي كان يصلي فيها الخلفاء وليس كلّها. فقد علمنا من خلال وصف المقرئزي أن الصالح أيوب هدم ثلاثة وثلاثين مسجداً وأن قوصون هدم إحدى عشر مسجداً. وقد أشار المقرئزي أنّها من بناء الخلفاء الفاطميين. مما يعني أن مساجد القاهرة والتي كانت تبلغ ثمان مائة مسجد، كان الفاطميون يحافظون عليها، ويحرصون على استمرارها واستمرار صلاة الجمع فيها.

فقد أخبرنا المقرئزي أن قاضي القضاة كان من مسؤولياته، ترميم المساجد وتزويدها بما يلزمها من حصر وفرش وإضاءة فهو يقول: «وقال المسبّحي في حوادث سنة ٤٠٣هـ، أن الحاكم أمر بإثبات المساجد التي لا غلّة لها ولا أحد يقوم بها، وما له من غلّة تكفيه بما يحتاج إليه، فأحصيت ورفع إلى الحاكم بأمر الله، فكانت عدتها على الشرح المذكور ثمان مائة وثلاثين مسجداً، ومبلغ ما تحتاج إليه في كلّ شهر ٩٢٢٠ درهماً». وذكر المقرئزي فقال نقلاً

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٧٠.

عن الشريف بن أسعد الجواني، وأنه «كان القضاة بمصر إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام، طافوا على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة لنظر حصر تلك المساجد وقناديلها وعمارة ما تشعّت منها. وما زال الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية»^(١).

قضاة الممالك يحكمون بهدم الجامع لسرقة أرضه:

بينما كان الخلفاء الفاطميون يعمرّون الجوامع والمساجد، ويلحقون بها الدكاكين والبساتين أوقافاً لها تؤمّن استمراريتها، وتجعلها مستقلة استقلالاً تاماً عن وضع الدولة المالي. وبالرغم أنهم كانوا يخصّصون لكلّ جامع ومسجد ميزانية سنوية وموظفين دائمين، يخبرنا المقرئزي عن الأساليب التي كان يتبعها الأكراد والأتراك في هدم الجوامع من أجل الاستيلاء على أرضها. ويحدّثنا عن أيام الملك الناصر فرج، فقال إنّ الأمير الذي يطمع بأرض جامع يأتي بشاهدين «يشهدان بأنّ هذا المكان يضرّ بالجار والمار وأنّ الأفضل أن يستبدل فيحكم له قاضي القضاة به ووصل بهم السفه إلى أن حكم ببيع المساجد الكبيرة»^(٢).

القاهرة بعد الفاطميين: مزبلة

يصف المقرئزي القاهرة أيام صلاح الدين الأيوبي فيقول: «قد تقدّم أن القاهرة إنما بُنيت منزل سكن للخليفة وحرمه وجنده

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢٩٥.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢٩٦.

وخواصه، ومعقل قتال يُتَحَصَّن بها ويُلتجأ إليها، وأنها ما برحت هكذا حتى كانت الشُّدَّة العظمى في خلافة المستنصر. ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالي وسكن القاهرة وهي يباب دائرة خاوية على عروشها غير عامرة. فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن وكلّ من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء في القاهرة، مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله. فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض البيوت وغيرها، وعمّروا به المنازل في القاهرة، وسكنوها. ومن حينئذٍ سكنها أصحاب السلطان إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي في سنة ٥٦٧هـ عليها، فنقلها عما كانت عليه من الصيانة، وجعلها مبتذلة (مزبلة)، وأسكن العامة فيها وحطّ من مقدار قصور الخلافة فيها وهدم بعضها وأزال مصالحها»^(١).

تلك هي القاهرة أيام صلاح الدين الأيوبي مبتذلة، مزبلة، وتلك هي أيام الخلفاء الفاطميين. فما ذنب المصريين، هل كان هذا جزاؤهم لأنهم والوا أهل البيت، وحضنوه، ودافعوا عنهم؛ أم لأنهم خضعوا للحكم الكردي الظالم الذي استمرّ ظلّامه حتى ثورة يوليو تموز سنة ١٩٥٢.

(١) م.س. نفسه، ص ٣٦٤.

مصر خارقة في كل شيء

لم تكن مصر واسطة عقد العروبة عن عبث، بل ربما هي مشيئة وإرادة إلهية، فكل ما في مصر مميز، فهي مميزة بأهراماتها وأوابدها وتمائيلها ومعابدها وتاريخها وحكامها، وحيواناتها وطيورها وزراعاتها.

وقد وصف لنا المقرئزي - مؤرخ مصر الكبير - بعض هذه الخوارق واللامالوف من زراعات مصر وطيورها وحيواناتها، وحتى بعض الناس منها، وكل خبرة فيها نكهة تدل على رقي وتحضر الشعب المصري أيام الفاطميين لدرجة تتجاوز حضارة القرن الواحد والعشرين، فمهما استنسخوا من الغنم لن يستطيعوا أن يولدوا من غنمة واحدة ألف وعشرين حملاً، ومهما طوّروا بالعلف لن يستطيعوا تسمين الخروف الواحد ليصل وزنه ربع طن أي ٢٥٠ كلغ.

استيلاد أكثر من ألف وخمسين نعجة من نعجة واحدة:

عندما يتحدث المقرئزي عن أرض الصعيد بمصر يقول إنها كثيرة المواشي من الضأن، وغير ذلك. ولكثرة إنتاج الضأن، بلغ فيها

أن الرأس الواحد من نعاج الضأن يتولد عنه في عشر سنين، ألف وأربع وعشرين رأساً، وذلك بتقدير السلامة، وإن تلد كلها إناثاً وتلد مرة واحدة في السنة». وقد اشترط المقرئ أن النعجة الواحدة يخرج منها ألف نعجة وأكثر إذا قدرت السلامة، أي لم يموت منها أي مولود وأنها كلها إناثاً، وإن كانت لمرة واحدة في السنة، فتبلغ هذا العدد، ولكنه يؤكد أنه «شاهد كثيراً من أغنام الصعيد ما يلد في السنة ثلاث مرات، وولد في البطن الواحد ثلاثة رؤس»^(١).

ونحن لكي لا نتهم المقرئ بالمزايدة على علماء الاستنساخ، وأن مصر يكفيها من علم الله وعطائه، الاستنساخ وأهله، سوف نعمل عملية حسابية بسيطة للنعجة الواحدة التي تلد ولداً وأنثى خلال عشر سنين ونحن نعلم أن النعجة تبقى تلد حتى تصل سننها العاشرة، فسنرى أن مصر وغنى مصر أكثر ما توقعه المقرئ.

السنة الأولى: النعجة الواحدة - أنثى واحدة = ٢.

السنة الثانية: نعجتان - يلدان نعجتين = أربع نعاج.

السنة الثالثة: الأربعة تلد أربعة = ثماني نعاج.

السنة الرابعة: الثماني نعاج تلد ثماني = ١٦ نعجة.

السنة الخامسة: ١٦ نعجة تلد ١٦ نعمة = ٣٢ نعجة.

السنة السادسة: ٣٢ نعجة تلد ٣٢ نعجة = ٦٤ نعجة.

السنة السابعة: ٦٤ نعجة تلد ٦٤ نعجة = ١٢٨ نعجة.

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ١٩٠.

السنة الثامنة: ١٢٨ نعجة تلد ١٢٨ نعجة = ٢٥٦ نعجة.

السنة التاسعة: ٢٥٦ نعجة تلد ٢٥٦ نعجة = ٥١٢ نعجة.

السنة العاشرة: ٥١٢ نعجة تلد ٥١٢ نعجة = ١٠٢٤ نعجة.

فكيف لو اعتمدنا ولادة نعجتين أو ثلاث نعاج في السنة الواحدة!

وعندما حدثنا المقرئ عن كباش بركة البقرة، يقول إنه أدركها وهي مراحاً للأغنام. وكان يعلفها صاحبها حب القطن وغيره من العلف. فتبلغ الغاية في السمنة «حتى أنه يدخل بها محمولة إلى القاهرة على العجلات، لعظم جثتها وثقلها وعجزها عن المشي، فكان يقال كبش بركاوي (نسبة لبركة البقرة) وشوهد مرة كبشاً من كباش هذه البركة وزنت شفته اليمنى خمسة وسبعين رطلاً سوى الإلية»^(١).

فإذا كان وزن الشقة خمسة وسبعين رطلاً ما عدا الإلية فيعني أن الكبش يزيد عن المائة والخمسين رطلاً، مما يعني أنه أوزن من عجول هذه الأيام، فأكبر عجل في أيامنا هذه يزن حوالي الخمسمائة كلغ (٥٠٠ كلغ)، ووزن الكبش المصري يفوق الأربعمائة كلغ.

حمار بسنام:

والمقرئ أيما كتب وكيفما كتب، يخبرنا عن أي طرفة أو نادرة، أو أي شيء خارق وبعيد عن المألوف، فهو يقول إنه في أواخر سنة ٥٠٠ للهجرة، «قدم إلى القاهرة، من الشام رجل معه حمار، له سنام كسنام الجمل، يرقص ويدور ويستجيب له إذا

(١) الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ١٦٤.

دعاه»^(١)، وأين هذا الحمار الجمل من حيوانات أي سيرك من سيركات أوروبا وأميركا!.

حديقة حيوانات خمارويه بن أحمد بن طولون:

يخبرنا المقرئزي أن خمارويه بن أحمد بن طولون، حول الحديقة التي كان والده يقيم فيها المقصورات لقراءة القرآن وترتيله ليلاً نهاراً، إلى حديقة للحيوانات «فعمل للنمر داراً مفردة، وللفهود داراً مفردة، وللغيلة داراً مفردة، وللزرافات داراً، ويقول المقرئزي إنه لما جاء الفاطميون حولوها إلى حلبة للسباق وللرباط في سبيل الله تعالى برسم الغزو»^(٢).

ولله صاحب العزة، جل جلاله في خلقه شؤون، فقد أخبرنا ابن الحريري أن أحد الأشخاص اصطاد أرنباً والأرنب عند الشيعة الإمامية لا يؤكل إذا كان أنثى لأنها تحيض كالمرأة، فأراد تفحصه، فوجده «لها ذكر وأنثيان ولها فرج أيضاً، فشقوها، فإذا في بطنها جوفان»^(٣).

شبل يتيم ترضعه امرأة:

ويخبرنا المقرئزي أن امرأة من مصر، أهدت إلى الخليفة العزيز بالله أسداً كانت قد ربته، حيث وجدت شبلأ صغيراً بدون أمه،

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء ١، القسم ١، م.س. ص ٢٢٠.

(٢) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٣١٨.

(٣) منتخب الزمان، م.س. ص ٣٣١.

فأخذته وأرضعته، حتى كبر، وقال المقرئزي إنَّ الأسد كان يقترب من المرأة «ولا يصرعها، وهو في قدر الكبش الكبير»^(١).

خوارق مصر في الحيوانات البحرية والنهرية:

ذكر المقرئزي الكثير من غرائب نيل مصر وبحرها ضمن هذه الغرائب السقنقور. وهو فرخ التمساح، وقال إنَّه إذا اتجه إلى النهر وعاش في الماء أصبح تمساحاً وإذا اتجه إلى الرمل وعاش في الرمل صار سقنقوراً أي سحلية برية ويقال له الورن أي ابن التمساح، ويقول إنَّ لحمه يزيد الباه والانعاظ والقوة الجنسية. «إنهاض شهوة الجماع ويهيج الشبق».

وقد علمنا من المقرئزي «إنَّ التمساح لا دبر له، وما يأكله يتكوّن في بطنه دوداً فإذا آذاه، خرج إل البر واستلقى على قفاه فاغراً فاه»، فينقضُّ إليه طير الماء، وقد اعتاد ذلك منه فيأكل كلَّ ما يظهر من جوفه من ذلك الدود»^(٢).

الحوت الذي يدخل الرجل إلى جوفه:

أخبرنا المقرئزي أنَّه أيام الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٨ هـ، صيد في مدينة تنيس حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعاً ونصف (٢٨,٥ × ٠,٦٧ = ١٩,٨ م)، وطول رأسه تسعة أذرع (٩ × ٠,٦٧ = ٦ م) ودائرة بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعاً (١٥ × ٠,٦٧ = ١٠ م)،

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٧٢.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٦٧.

وفتحة فمه تسعة وعشرون شبراً ($0,67 \times \frac{29}{71} = 0,28$ م)، وعرض ذنبه خمسة أذرع ونصف ($0,67 \times 0,5 = 0,33$ م)، وله يدان يجذف بهما، طول كل يد ثلاثة أذرع وهو أملس أغبر غليظ الجلد، مخطط العينين ببياض وسواد، ولسانه أحمر، وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع، وله عينان كعيني البقر، فأمر أمير تنيس أبو إسحاق بن لوبة به، فشق بطنه ومُلح بمائة إردب ملح، ورُفع فكّه الأعلى بعود خشب طويل. وكان الرجل يدخل إلى جوفه بقفاف الملح وهو قائم غير منحن، وحُمِل إلى القصر حتى رآه العزيز بالله^(١).

وقد حدثنا ناصر خسرو في سفرته إلى مصر عن رؤيته لسمك القرش في البحر الأحمر، كما حدثنا النويري عن الدلفين وقال عنه «هو كالزق المنفوخ» وقال إنه لا رئة له، وإذا ظفر بغريق يحمله على ظهره، ويدفعه إلى الشاطئ وينقذه ولا يؤذي، كما أنه من الحيوانات المرضعة^(٢).

وأما السلحفاة البحرية، فهي إن استمرت تعيش في البر، سموها لجأة. وإن فضلت البحر سموها سلحفاة، وقال إنها تبيض تسعاً وتسعين بيضة.

أما فرس النهر فقد ذكرها المقرئزي والمسبّحي وابن المأمون والنويري - وصفه النويري فقال: هو عظيم الجثة، خلقه خلق الفرس، إلا أن وجهه أوسع، وله أظلاف كالبقرة، وذنبه مثل ذنب الخنزير، وصوته يشبه صوت الفرس، وهو لا يوجد إلا في نيل مصر، وهو يخرج من

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ١٨٠.

(٢) راجع: نهاية الأرب، الجزء العاشر، ص ٢١٢.

الماء إلى البر، ويرعى الزرع. وهو قادر على قتل التمساح وقهره.
وقد قال المقرئزي إنَّ باستطاعة فرس الماء أن ينزو على الفرس
البري وبالعكس. ويأتي قلوهما أجمل شكلاً من الإثنين.

مشاهدات في عجائب الطيور: ببغاء يقرأ المعوذتين

وصف لنا المقرئزي أحد طيور السُّمَن (السمان)، فقال: وكنا
نسمع أن من السمان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم، وكذلك بقية
الطيور المسموعة، فيبلغ الواحد منها نحو ألف درهم، فقد بلغ بهم
الترف أن يقتنوا السُّمَانَ والشحارير والببغاء، ويتغالوا في ائمانه.
بلغنا أنه بيع طائر من السُّمَانَ بألف درهم فضة، قيمتها يومئذ نحو
الخمسين ديناراً من الذهب، كل ذلك لإعجابهم بصوته. وكان صوته
على وزن قول القائل:

«طَظْلَقْ وَغَوْغْ»، وكلما كثرت صياحه كانت المغالاة في ثمنه، «فاعتبر
أيها القارئ بما قصصته عليك من حال الترف الذي كان فيه أهل مصر،
ولا تتخذ كلامي هزأً وسخرية، فتكون ممن لا تنفعه المواعظ»^(١).

وأخبرنا المقرئزي أيضاً أنه كان عند الإمام الظافر في قصر
الروضة ببغاء بيضاء تقرأ المعوذتين (قل أعوذ برب الناس، وقل
أعوذ برب الفلق)، وتستدعي كثيراً من الاستاذين بأسمائهم
ونعوتهم^(٢).

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٩٦.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٢١٠.

وكنا قد أشرنا إلى اصطحابهم المشاتل الزراعية في كل رحلاتهم وتنقلاتهم، حيث كانوا يزرعونها في مصاطب خشبية، ينقلونها على ظهور البغال والجمال، فلا يحتا جون لأي نوع من الخضار، على مدار السنة.

وكذلك أخبرنا المقريري عن يقطينة كبيرة، استعملها أهل النيل الأعلى في النوبة مراكب وسفن «تعبّر في النيل».

مشاهدات المقريري عن عجائب خلق الله في الإنسان:

ولد مخطّط كخطوط حمار الوحش:

يقول المقريري: أنه في سنة ٥٦٧ هـ للهجرة قدم إلى القاهرة، غلام من عرب الحوف، وسنه يناهز العشر سنين «أسمر حلو السمرة، على بطنه خطوط بيض ناصعة البياض، متساوية القسمة، من أعلاه إلى أسفله، كأحسن ما يكون من الخطوط»^(١).

التوائم السيامية:

قال المقريري: إنه في سنة ٣٩٧ هـ، على عهد الحاكم بأمر الله، أولدت جارية بنتاً برأسين، أحدهما بوجه أبيض مستدير، والآخر بوجه أسمر فيه سهولة، وفي كل وجه عينان، فكانت ترضعهما وكلاهما مركب على عنق واحد في جسد واحد، بيدين ورجلين وفرج ودبر، فحملت إلى الخليفة حتى رآها، ووهب لأمها جملة من المال»^(٢).

(١) راجع السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القسم الأول، م. س. ص ١٩٠.

(٢) راجع: الخطط المقريرية، الجزء الأول، ص ١٨٠.

وأخبرنا ابن الحريري أنه في سنة ٥٦٠ هـ، وفي يوم الأضحى ولدت امرأة يقال لها بنت أبي العزم «أربع بنات في بطن واحد»^(١).

الصالح رُزَّيك يستقبل رجلاً طوله أربعة أشبار:

يقول المقرئزي: إنه في سنة ٥٥٢ هـ، أحضر إلى القاهرة رجل كامل الأعضاء، سريع الحركة، لكن طوله «من رأسه إلى قدمه أربعة أشبار» والرجل متزوّج وله عدّة أولاد، ولكنهم عاديّون وليسوا أقزاماً مثله، فاستقبله الوزير الأول، الملك الصالح رُزَّيك بن طلائع وأنعم عليه.

امراة بدون يدين تكتب وترسم برجليها:

وكذلك يخبرنا المقرئزي كيف أن امرأة من تنيس حضرت إلى مقر الوزارة في القاهرة، وهي بدون يدين ولا ثديين، وفي موضع ثدييها مثل الحلمتين، وموضع يديها مثل الأصابع، فصارت إلى مجلس الوزير رضوان، وأخبرته أنها تصنع برجليها جميع ما يعمل باليدين، من رسم وكتابة ولوازم حياتها اليومية، من أكل وطهي وغير ذلك، فطلب الوزير رضوان أن يأتوا لها بدواة، فتناولت برجلها اليسرى الأقلام، قلماً قلماً، ثم تناولت السكين برجلها اليمنى وبرت قلماً. ثم طلبت ورقة، وامسكتها برجلها اليمنى وكتبت عليها برجلها اليسرى، «رقعة بأحسن خط» وحمدت الله في آخرها، وناولتها للوزير، فإذا فيها سؤال بأن يزداد في

(١) راجع: منتخب الزمان، م.س. ص ٢٠٣.

راتبها ومخصصاتها، فوقع الوزير على ظهر الرقعة بالموافقة،
واعادها إلى بلدها^(١).

ونحن نستنتج أن هناك راتب ومخصص شهري من قبل الدولة
الفاطمية لهذه المرأة، ولا نستبعد ذلك، فقد كانوا يخصّصون لكل
مُقعد أو مريض راتباً.

ونحن إذا سلطنا الضوء على هذه الأمور، فقصدنا إظهار كل
مشاكل ومميزات المجتمع المصري أيام الدولة الفاطمية، علّنا نخرج
باستنتاجات مهمّة تظهر التطور الحضاري لهذه الفئة الإسلامية
المظلومة من قبل المؤرّخين.

وضع المرأة في مصر الفاطمية:

لم تكن المرأة في العصر الفاطمي جزءاً أو كياناً مهماً في
المجتمع والدولة فقط، بل كان لها الدور الأساسي والبارز في الحياة
السياسية والاجتماعية حتى والاقتصادية. ولكن من وراء «كواليس»
القصور، حتى ويظن قارئ سيرة التاريخ المصري الفاطمي أنّ
الحكم والسلطة طيلة هذه الحقبة كانت بيد المرأة المصرية وليس بيد
الخلفاء. «فسلطنة» بنت العزيز وأخت الحاكم أدارت دفة الحكم من
أيام أبيها العزيز واختلفت مع الحاكم بسبب التزاحم على السلطة
وعملت على قتله، واستفردت بالحكم طيلة خلافة ابن أخيها الظاهر
الإعزاز دين الله، وأول حكم ولده المستنصر. وأم المستنصر «رصد»،

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٦٧.

حكمت مصر والعالم الإسلامي طيلة الفترة السابقة على وزارة الوزير بدر الجمالي وأولاده. وهاتان الحقيبتان تعدّان من أهم حقبات الحكم المصري الفاطمي.

والفاطميّون ينتسبون بالاسم إلى جدتهم فاطمة البتول، الزهراء (ع). فإذا كان انتسابهم وكنيتهم تعود لاسم مؤنث، فبالطبع يدلّ هذا الانتساب على احترام شديد لدور المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية.

وقد كانوا يتداولون سيرة السيدة فاطمة ومواقفها السياسية والاجتماعية والشعرية، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وعن مواقف زوجها وابن عمها، علي بن أبي طالب (ع)، جد الخلفاء المصريين وجد أشراف مصر ونقبائها.

ومن شعر فاطمة الزهراء (ع)، المتداول في كتب الفاطميّين ومدوناتهم:

مركز تحقيق التراث
مكتبة جامعة القاهرة

فاطمة الزهراء (ع) ترثي أباهاً شعراً: (١)

قالت الزهراء أم الحسنين (ع) ترثي أباهاً محمّداً (ص):

ماذا على من شَمَّ تربة أحمدٍ أن لا يشمّ مدى الزمان غواليها
صُبَّت عليّ مصائبُ لوأْنْها صُبَّت على الأيام عدن لياليها
وقالت في رثائه، (ص) أيضاً:

(١) كتاب نور الأبصار، في مناقب آل بيت النبي المختار، سيد الشلبنجي ط ١، القاهرة،

مكتبة الجمهورية العربية، لا تاريخ، ص ٤٧.

اغبرَ آفاق السماء وكُورت شمس النهار وأظلم العصران
والأرض من بعد النبي كئيبة أسفاً عليه كثيرة الأحزان
فليُبكِه شرق البلاد وغربها ولتبكه مضر وكلّ يمان
وليبكه الطود الأشم وجوه والبيت ذو الاستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك صنوه صلى عليك مُنزّل القرآن
وقد روى المؤرخون لها جوابها لزوجها الإمام علي - عليهما
السلام - بالآبيات التالية:

أمرك يا ابن العم وطاعه
مالي من لوم ولا ضراعه
باللب غذيت وباليراعه
أرجو إذا انفقت من جماعه
أن الحق الأبرار والجماعه
وادخل الجنة بالشفاعه

وفي قول آخر تشعر وكأنها عالمة بمقتل ولديها في سبيل الله،
حيث تقول:

فسوف أعطيه ولا أبالي
وأوثر الله علي عيالي
أمسوا جوعاً وهموا مثالي
أصغرهم يقتل في القتال

والى جانب فاطمة الزهراء (ع)، كان المصريون يتبركون
بالسيدة نفيسة.

من هي الست نفيسة:

هي السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور ابن زيد ابن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب - عليهم السلام - تزوجت من ابن عمها إسحق بن الإمام جعفر الصادق، وكان يدعى بإسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل، وروي عنه الحديث، وكان له عقب في مصر من غير السيدة نفيسة. أما الست نفيسة فقد ولدت منه ولدين: القاسم وأم كلثوم. وكان مولد الست نفيسة بمكة المشرفة سنة ١٤٥هـ، ونشأت بالمدينة بالعبادة والزهادة، تصوم النهار وتقوم الليل، وكانت لا تفارق حرم النبي (ص) وحجّت ثلاثين حجة أكثرها مشياً على الأقدام.

وروت ابنة أخيها واسمها زينب، إنها كانت تأكل مرة واحدة في كل ثلاثة أيام. وكانت تحفظ القرآن، زارت مصر ثم سكنت بها لشدة ما تعلّق بها المصريون بعد أن كان لها جار يهودي اضطرّ أن يترك ابنته المقعدة المشلولة عندها، بسبب اضطراره للخروج هو وزوجته من بيته. فأجلست السيدة نفيسة بنت اليهودي المقعدة إلى جنبها، وعندما جاء وقت صلاة الظهر، أحضرت السيدة نفيسة ماء فتوضّأت به، فجرى من ماء وضوئها شيء أصاب ابنة اليهودي، فبدأت الصبية تحرك أعضائها، فانتبهت الست نفيسة وأخذت تمرر ماء الوضوء على كلّ أعضائها. وعندما عاد اليهودي وزوجته لأخذ ابنتهما المقعدة، تفاجأ بها تلعب في صحن دار الست نفيسة، فسألاها عن شأنها، فأخبرتهما بالماء الذي رشّتها به، السيدة نفيسة، فأسلما.

وقد جاءت إلى مصر سنة ١٩٢هـ وكان لها من العمر ثمان وأربعون سنة.

ويقال إنه لما سمع المصريون بقدموها، وكان لها ذكر شائع، استقبلها الرجال والنساء بالهوادج من العريش ولم يزالوا معها إلى أن دخلت مصر.

المصريون يشكون أحمد ابن طولون للمست نفيسة:

قال الأبشيهي في المستطرف أنه لما شعر المصريون بظلم أحمد ابن طولون، توجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها، فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في الغد. فكتبت رقعة ووقفت بها في طريقه: وقالت له: يا أحمد يا ابن طولون. فلما رآها عرفها ونزل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقراها فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم وخولتم فعسفتم، ووردت إليكم الأرزاق فقطعتم. هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة، ولا سيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوعتموها، وأجساد عزيمتموها، ومحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم. اعملوا ما شئتم فإننا صابرون، وجوروا فإننا بالله مستجيرون، وأظلموا فإننا إلى الله متظلمون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. قال فاتضع وعدل بالرعية من وقته^(١).

فإذا كانت هذه نظرتهم لفاطمة الزهراء (ع) والسيدة نفيسة (ع)، فلا يعقل أن تكون نظرتهم للمرأة نظرة دونية. وسنرى من خلال بعض اللوحات التاريخية موقع المرأة المصرية في ظل حضارة مصر الفاطمية.

(١) راجع: المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين بن محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي الجزء الأول ط ١، القاهرة، مطبعة الإستقامة، لا تاريخ، ص ٧٦.

غنى المرأة المصرية:

لم تكن المرأة المصرية في ظل الدولة الفاطمية مجرد حاضنة أو أم أو مربية لأولادها ولا وسيلة إنجاب ومتعة، بل كانت تتمتع بنفس الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الرجل المصري، بل أكثر. وقد وردت عدة لمحات وإشارات في الكتب التي أرخت لحضارة مصر في ظل الدولة الفاطمية، سلّطت الضوء الساطع على حالة المرأة المصرية وغناها المادي والمعنوي.

ثروة رشيدة ابنة الخليفة المعز لدين الله:

يخبرنا المقرئزي أنه عندما ماتت السيدة رشيدة ابنة الخليفة المعز لدين الله قُدرت ثروتها بمليون وثمان مائة ألف دينار ذهباً // ١٨٠٠,٠٠٠ // أي ما قيمته الشرائية // ٦٠٠,٠٠٠ // ستمائة ألف راتب الحد الأدنى للأجور يوم وفاتها وما قيمته اليوم / ١٢٠ مليون دولار أميركي / مائة وعشرون مليون دولار أميركي / وما وزنه
$$\frac{3,125 \times 1800,000}{1000} = 5625 \text{ كغ أو خمسة طن وستماية وخمس}$$

وعشرون كغ ذهباً هذا غير الثياب والتحف والهدايا والجواهر. ويقول المقرئزي أن أكثر من خليفة كان ينتظر وفاتها ليرثها، ولكن ثروتها كانت من نصيب الخليفة المستنصر، حيث توفيت سنة ٤٤٢ هـ. أما ول ديورانت فقد حدّد ثروة السيدة رشيدة بثلاثة عشر مليون دولار أميركي، وربما عندما كتب كتابه كانت ثروتها تقدر بهذا المبلغ^(١).

(١) راجع: قصة الحضارة، ول ديورانت، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ط ٢، القاهرة جامعة الدول العربية، سنة ١٩٦٤، ص ٢٦٧.

أما شقيقتها العبداء بنت المعز فقد تركت ثروة «لا تحصى» حيث قدرها المقرئزي بأربعين رطلاً ذهباً من الرطل المصري. وأمتعة كتبت على بطاقات، قدر عدد البطاقات بثلاثين رزمة ورق ووجد لها ألف وثلاثمائة قطعة من الفضيّات لا يقل وزن الواحدة منها عن العشرة آلاف درهم (٢,٥ كلغ) وأردب زمرد أي ما وزنه ٤٨٠ كلغ زمرد.

وعندما توفيت جارية الأمير عبدالله بن المعز عائشة سنة ٤١٥هـ، «وكانت من وجوه عجائز القصر، خلّفت أربعمائة ألف دينار ذهباً».

ورغم أن المعز نصّح معاونيه بالاكْتفاء بالزوجة الواحدة، وهو نفسه عمل بهذه النصيحة فاكتفى بزوجة واحدة، إلا أن خلفاءه كانوا يكثرّون من الجوّاري على أنواعهنّ، الحبشيّات الزنجيات كرسد أم المستنصر والجوّاري الشقراوات الصقليّات.

وقد حدثنا المقرئزي عن ما تركه يعقوب ابن كلّس لابنته وقد قدرت بأربعة ملايين دينار ذهباً أي ما وزنه $4,125 \times 4,200,000 =$ سبعة عشر طناً من الذهب.

ويخبرنا المقرئزي أيضاً أنّه عندما زفّ بُلْتُكين التركي، كاتب السيدة العزيزية، أخته، ذبح لها من كباش الغنم والعجول عشرين ألف رأس وحُمِلَ جهازها على ثلاثين بغلاً^(١).

وجرت العادة أن يأتي أهل مكة السادة الأشراف الحسنين

(١) راجع: اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، ص ٢٧١.

والحسينيين سنوياً لزيارة الخليفة في القاهرة، وينالون منه رسومهم ومخصصاتهم من سهم الإمام، وعندما أتوا سنة ٤١٥ للهجرة أيام الخليفة الظاهر، يخبرنا المقرئ أنهم نالوا من أم الخليفة الظاهر على قدر ما نالوه من حصّتهم من سهم الإمام. مما يدل على مقاسمة المرأة المصرية الرجل في كلّ شيء؛ في المال وفي السلطة.

وكان جعفر أخو مسلم الحسني الرسي نقيب الأشراف الطالبين، من الأشراف الذين أيدوا دخول جوهر إلى مصر. أما أخوه عبدالله فكان من الخارجين على سلطة جوهر، وقد هرب من مصر ثم قتل، وكانت زوجته صفية بنت محمد بن الحسين المكي الحسني الطالببي وهي بنفس الوقت شقيقة جعفر الحسني أمير مكة، قد استترت واختفت عن الأنظار بعد هروب زوجها ثم مقتله، ولم يكن لهما أولاد مما دفع بالدولة الفاطمية إلى مصادرة أملاكهما.

وبعد دخول جعفر بن محمد الحسني في الدعوة الفاطمية أرسل رسالة إلى الخليفة العزيز يطالبه فيها بالعفو عنها وبردّ ضياعها، فأمر يعقوب بن كلّس بتنفيذ الأمر فردّها لها ضياعها وربيعها، وسلّمه كلّها إليها.

المرأة المصرية تشارك في العمل السياسي:

كان أول ظهور سياسي نافذ للمرأة المصرية في مصر في ظل الخلافة الفاطمية لسلطانة ابنة الخليفة العزيز بالله. فمن هي هذه المرأة الخارقة؟

ولدت سلطانة ابنة الخليفة العزيز لدين الله سنة ٣٥٩هـ في

القاهرة، أي أنها تكبر أخاها الحاكم بست عشر سنة.

وقد ورد اسمها بعدة نعوت والقاب وأشكال فهي سلطنة وست الملك والسيدة العزيزية، و «ست الكل»^(١) وتبقى ست الملك هي أهم وأبرز شخصية نسائية في العصر الفاطمي كله، وهي دون غيرها من أميرات وملكات العصر الفاطمي، التي انشغلت بأمور السياسة والحكم. لذلك توقّف المؤرخون عندها مطّولاً، وعن دورها في لعبة السياسة والحكم.

وتذكر المراجع التاريخية أن أمها كانت سيدة مسيحية رومية، تزوّجها العزيز بالله فولدت له ست الملك سنة ٣٥٩هـ أما الحاكم فولد سنة ٣٧٥هـ. وعندما توفي والدها الخليفة العزيز، كان لها من العمر ست وعشرون سنة وكان لأخيها الحاكم إحدى عشرة سنة^(٢).

يقول المؤرخون أنه حين توفي الخليفة العزيز في بلبس تركت جثة والدها مسرعة إلى القاهرة على رأس طائفة من الجنود المغاربة، فوصلتها في منتصف الليل، ووضعت يدها على مقاليد الحكم والعسكر، خوفاً من أي انقلاب بانتظار تفصيل وصية والدها، بنقل الإمامة والخلافة إلى أخيها الصغير، الحاكم بأمر الله، الذي لم يبلغ الحادية عشرة من عمره.

ويخبرنا المقرئ أن لواء القيصرية الفاطمي كان يأتّمر بأوامر

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١١٥ و ٤٧١.

(٢) حكايات الجوّاري في قصور الخلافة، سعيد أبو العينين، كتاب اليوم، مصر، القاهرة، يونيو ١٩٨٨، ص ٨٧.

السيدة العزيزية حيث يقول: «ورحلت سيدة الملك ابنة العزيز في الليل، وسار بمسيرها القيصرية، لأنهم كانوا برسمها، ومعهم القاضي محمد بن النعمان وريدان صاحب المظلة، فوافوا القاهرة. وأقيم المأتم والصياح بالقصر، وضبط الناس أحسن ضبط، فلم يتحرك أحد، ولم يبق شارع ولا زقاق في القاهرة ومصر، إلا وفيه صراخ ونحيب»^(١).

وكان الحاكم من صغره ذكي فطن، كان وهو ابن الحادية عشرة سنة، إذا أنشده شاعر بيتاً نادراً أو حسن المعنى، ينبّه برجوان عليه ويستعيده مراراً، ثم يصرف له بقدر استحقاقه ولكنه كان منذ صغره يطمح للخروج من سجن برجوان وابن عمار وأخته سلطنة.

حاولت ست الملك منذ اليوم الأول لحكم أخيها الحاكم السيطرة عليه، فحاولت أن تغريه بالهدايا، «وهو مالك الدنيا وما فيها». فأرسلت له هدية قوامها ثلاثون فرساً مسرجة، أحدها مرصع وآخر بلور، وبقيتها ذهب، وعشرون بغلة مسرجة ملجمة وخمسون خادماً منها عشرة صقالبة، ومائة تخت ثياب (شنطة) وتاج مرصع وشاشية مرصعة (حطة)، وأسفاط طيب وبستان من الفضة مزروع بجميع أنواع الشجر.

ولكن هذه الهدية لا تشكّل نقطة في بحر ما يملكه الحاكم في قصوره وخزائنه.

ويخبرنا المقرئ عن الإقطاعات والقرى والنواحي التي كانت

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، ص ٢٩١.

تملكها السيدة العزيزية، منها: ما يدر عليها في السنة مائة ألف دينار في الصعيد وأسفل الأرض (دنقلة) وبلدة أبو تيج من أعمال أسيوط وصهرجت بميت غمر ودمنهوور ودور وبساتين ورسوم^(١).

السيدة العزيزية تغتال أخاها الحاكم:

عندما أكثرت السيدة العزيزية من تدخلاتها في شؤون الإمامة والخلافة والملك، «انفلق» منها الحاكم وقرّر التخلّص منها، ومهدّ لذلك بإشاعة مصاحبته أحد القوادر. فأحست «ست الكل» بذلك فتغدّت به قبل أن يتعشّى بها.

فدبّرت عملية مقتله. وبعد مقتله «استدعت السيدة ست الملك سيف الدولة الحسين بن علي بن دواس الكتامي وطلبت منه إحضار ابن أخيها، علي ابن الحاكم، ومبايعته بالإمامة والخلافة، فنقذ ابن دواس، وأطلقت عليه لقب «الظاهر لإعزاز دين الله»، وكان له من العمر ست عشر سنة وكان لها من العمر حينها أربع وخمسون سنة.

وأول خطوة اتخذتها ست الملك بعد أخذ البيعة من سائر القواد والأشراف والأمراء وسكان القاهرة ومصر للخليفة الظاهر، «أرسلت الكتب إلى بلاد الشام والمغرب واليمن ومكة بوفاة الحاكم وقيام الظاهر»، وطلبت من الولاة والدعاة أخذ البيعة للظاهر. وأقيم الحداد ثلاثة أيام في القاهرة ومصر حزناً على الخليفة الحاكم. «ودعت أهل مصر والقاهرة إلى القصر وخاطبتهم بالجميل والملاطفة، ووعدتهم

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٣٢.

حسن السيرة والمعاملة وأمرتهم بذكر حوائجهم ومصالحهم في كل وقت، والمطالعة، إنَّ لحقهم حيف من عامل أو ناظر. وأطلقت للنساء الخروج من منازلهن والتصرف بأمرهن^(١).

وخطت الخطوة الثانية فقتلت ابن دواس لكي تدفن سرّاً قتلها لأخيها الحاكم معه، كذلك قتلت خطير الملك عمّار بن محمّد.

وخرج أبو شجاع عزيز الدولة والي حلب على الخلافة فلاتفته ست الملك وأنسته ودسّت له غلاماً له يعرف ببدر فقتله، بناء لطلبها.

واستمرت سلطنة بنت الخليفة العزيز، ست الكلّ وسيدة الملك والملوك في فترة حكم الظاهر، الحاكم الفعلي لمصر وللخلافة الإسلامية الفاطمية حتى وقت وفاتها سنة ٤١٦هـ وقد توفّت بعلة الذرب وهو داء يصيب الكبد.

وعندما تحدث المقرئ عن عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله قال: وكانت أيامه كلّها سكوناً وليناً، وهو مشغول بملاذه ونزّهه وسماع المغنى، وأمور الدولة بيد عمّته السيدة العزيزية، ست الملك، وهي التي عدلت بالخلافة إليه بعد إنّ كانت لأبي هاشم العباس بن داود بن عبيد الله المهدي.

المرأة المصرية الخارقة الثانية: رصد أم المستنصر:

يخبرنا المقرئ أنّ «رصد» كانت جارية اشتراها أبو سعيد سهل بن هارون التستري اليهودي، وكان الخليفة الظاهر قد

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، م.س. ص ١٢٦.

استخدمه متعهداً لتأمين الجواري لزوم الخدمة في قصر الخلافة «فابتاع له من جملة ما ابتاع جارية سوداء تحفظها الظاهر فولدت له المستنصر، فرعت حق الخدمة لمعلمها وسيدها السابق أبي سعيد التستري، وقدمته عند ولدها المستنصر لما صارت الخلافة إليه، ورثته فيما يخصها، فعظم شأنه إلى أن صار ناظراً في جميع أمور الدولة»^(١).

وقام صدقة بن يوسف الفلاحي بتحريض الأتراك على التستري فقتلوه، مما جعل السيدة رصد تحقد عليه وعلى الأتراك فلم تزل تدبر له «حتى صرفته عن الوزارة واعتقلته بخزانة البنود ثم قتلتها».

ثم عملت على تقديم علي بن عبد الرحمن اليازوري إليها وجعلته وزيراً لولدها المستنصر، وكان من أهم وزراء الدولة الفاطمية، يكفي أنه قضى على الخلافة العباسية ودعى لأهل البيت على منابر بغداد لسنة كاملة.

مركز تحقيق تكملة تاريخ الدولة الفاطمية

والنقاش الذي دار بين اليازوري وبين السيدة رصد، يدل على تدخل أم الخليفة في كل شؤون الحكم والخلافة والدواوين^(٢).

وعند بدء الشدة المستنصرية سنة ٤٥٥ هجرية أو المجاعة العامة، كان من أحد أسبابها خلاف الأجنحة العسكرية المصرية وتقاتلها فيما بينها: ألوية الأتراك والديلم والوية العبيد السودان، وقد اتهم قادة الأتراك السيدة رصد بتحريض العبيد عليهم.

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٦٠، ٢٠٦.

(٢) راجع: م.س. نفسه، ص ٢٦٧.

يقول المقرئزي عن موقف السيدة رصد من هذه الحرب التي قامت بين الأجنحة العسكرية الفاطمية: «وكان السبب في كثرة السودان بالقصر أن أم المستنصر كانت جارية سوداء فأخذت في شراء العبيد السود، وجعلتهم طائفة لها، واستكثرت منهم وخصّتهم بالنظر، وبسطت لهم في الرزق، ووسّعت عليهم حتى أمطرتهم بالنعيم. وصار العبد بمصر يحكم حكم الولاة، وشرعت تفضّ من الأتراك وتظهر كرامتهم وانتقاصهم. ثم تقدّمت إلى الوزير الجرجرائي وطلبت منه أن يوقع بين الأتراك والعبيد، فرفض خوفاً من سوء العاقبة، فعملت على صرفه منها وأوكلتها إلى أبي محمد علي بن عبد الرحمن اليازوري، فرفض أيضاً، وكان نصيبه العزل ثم القتل، فأوكلت الوزارة إلى البابلي، فشرع في تنفيذ أوامرها ويقول المقرئزي: «ولم يزل كذلك حتى خرب الإقليم كلّ هلك أهله»^(١).

ويقول المقرئزي: إنّ نفقة الحرب بين العبيد والأتراك كلفت السيدة رصد مبلغ ألف ألف دينار (مليون).

رسالة من الملكة أم المستعلي إلى ملكة اليمن الحرّة أروى بنت أحمد الصليحي:

عندما أقدم الوزير الأفضل على تنصيب المستعلي ابن الخليفة المستنصر خليفة بدل أخيه البكر نزار، انشقّ الشعب المصري طائفتين: النزارية تنادي بإمامة وخلافة نزار والمستعلية، تنادي

(١) اتعاظ الحنفاء الجزء الثاني، م.س. ص ٢٦٧.

بإمامة وخلافة المستعلي. وترجم هذا الانشقاق، اغتياالات وحروب
عسكرية بين أنصار الطائفتين، وخشي على الدولة والدعوة الإمامية
الإسماعيلية منه، وكان للمرأة المصرية دور كبير في توجيه السياسة
المصرية داخل مصر وخارجها. كما أشرنا، ومن أجل تثبيت زعامة
وخلافة المستعلي، أرسلت والدته رسالة إلى ملكة اليمن الحرّة أروى
بنت أحمد الصليحي تشير فيها إلى صحّة إمامة وخلافة ولدها،
وتطلب منها العون والمساعدة. وقد جاء في هذه الرسالة^(١):

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله على نعمه: من السيدة، الملكة،
الكريمة، الرؤوف، الرحيمة، والدّة الإمام المستعلي بالله، أمير
المؤمنين بن الإمام المستنصر بالله، صلوات الله عليه، وعلى آبائه
الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، إلى الحرّة، الملكة، السيدة، السديدة،
المخلصة، المكيّة ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستجيبين.
وليّة أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، أدام الله تمكينها
ونعمتها، وأحسن توفيقها ومعونها.

سلام عليك: ...

أما بعد: ... يقول الله في محكم كتابه: «قل اللهم مالك الملك تؤتي
الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّز من تشاء وتذلّ من
تشاء». وإن الله جلّ ذكره أجراها على نظام من الدلالة والتعريف،
وبيان من النصّ الجليّ والتوقيف... وقد اشتهر بين كافة المؤمنين
وأولياء الدين ورعايا الدولة أجمعين، أنّ الإمام المستنصر بالله أمير

(١) السجلات المستنصرية، م.س. السجل رقم ٣٥، ص ١٠٩.

المؤمنين، كان يشير بها إلى ولده الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين، ثم أفصح... ثم صرح. وأنه تولى بنفسه الشريفة الكريمة توقيفه وتفهمه، وغذاه مواده الإلهية وعلمه. واختصه دون الأولاد بمزية إله وإنسه، وأحلّه من بينهم بمركز نوره، وموطن قدسه، وحجبه عن الأبصار وجلببه رداء العظمة والوقار، ثم انتقل إلى دار الكرامة ومحل الإقامة، بعد أن أظهر النصّ عليه، وأعلن بنقل الأمر إليه، واستوى على سرير مملكته، آخذاً بهديه وسكينته وانتصب بمنصب خلافته، لابساً بجلاله وبهجته».

ثم تشرح لها ظروف أخذ البيعة له، وكيف أنها تمت من دون مشاكل ولا قلق. وتحثّها على المبايعة وأخذ البيعة لولدها المستعلي من الأمراء والقواد والدعاة والتنظيم الحزبي الخاص بالدعوة الإمامية الإسماعيلية بعد أن تشرح لها ما حاول عمله بعض الخارجين عن الدعوة (النزاريون)، وما قام به كافل الدعوة والخلافة والإمامة، الوزير الأفضل، وتنتهي كتابها بقولها للملكة الحرّة:

ولما كانت الحرّة عندنا بالمكان المشهور تأثله وسناؤه، ومن الإيمان والإخلاص بالموضع المشيد بناؤه، وكان التفاتنا شديداً إلى ما نظم الله به أحوالها وأعمالها، وأصلح ومكّن أواصرها وأواخيها، وسدّد مقاصدها ومراسيها. رأينا من الواجب اطلاعها على هذه الجملة من جهتنا، ليتوفّر لها الفخر والجمال، ويتأكّد عندها مزاد العزّ والجلال، وينتهج لها السبيل بمطالعتنا بمتجدّات الأحوال^(١).

(١) م.س. نفسه. ص ١١٧.

ونلاحظ ما طلبته الملكة أم المستعلي من الملكة الحرة:
«مطالعنا بمتجددات الأحوال»: أي إرسال التقارير التي تشرح
الوضع الأمني في اليمن. لأن اليمن الرثة التي تتنفس منها مصر.
وكأن تدخل الرئيس عبد الناصر، في حرب اليمن، استمرار للعلاقة
التاريخية العاطفية بين اليمن ومصر.

الملكة الحرة: مسؤولية عن الدعوة والدولة في اليمن والهند وباكستان:

في أحد السجلات التي أرسلها الخليفة المستنصر إلى ملكة
اليمن، الحرة، نستنتج منه أن الملكة الحرة، كانت ليست فقط ملكة
على اليمن بل كانت مسؤولة عن التنظيم الحزبي للدعوة الإسماعيلية
في اليمن والهند وباكستان، حيث جاء في هذا السجل:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين.
من عبد الله ووليه، معدّ أبي تميم، الإمام المستنصر بالله، أمير
المؤمنين، إلى الحرّة الملكة...
سلام عليك...

معلوم لك أيتها الحرّة اصطناعنا لك، وإخراجنا إياك من زمرة
ربّات الحجال إلى سياسة الدولة وتقديم الرجال، لما لمع لنا نور
إيمانها ونيتها وإيقانها، وأنها بالزهد معروفة، وبالتقى موصوفة،
فاستحقّت ما خولناها. وقامت بشكر ما أنلناها، ورعت أحوال
المؤمنين رعاية وفت على رعاية الدعاة، وسلكت في تربيتهم مسلكاً
قارب الهداة، وكان المقدّم لديها من تحلى بحلية الدين، وجانب أمور
الضالين». وقد شكر السجل أم الملك الصليحي وحثّ الملكة أروى أن
تخطو خطاها.

كما ورد في السجلات المستنصرية أكثر من رسالة من والدته الإمام المستنصر للحرة، وكذلك من ابنة الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله وهي السجلات ذات الأرقام: ٥٠ - ٥١ - ٥٢.

منهوبات خزائن السيدة رصد:

عندما نستعرض منهوبات خزائن السيدة رصد أم الخليفة المستنصر، نستطيع تقدير الثروات الطائلة المتجاوزة لأي وصف، التي كانت تملكها المرأة المصرية، وكأنها تعيش النظام الأميركي المعاصر، فكل ما تملكه المرأة والرجل هما لهما بالتساوي وكذلك في كل الحقوق والواجبات، فإذا كانت رصد هي الأميرة الناهية في خلافة ولدها المستنصر، تعزل من تريد وتوكل منصب الوزارة لمن تريد. فلن نتفاجيء إذا علمنا مقدار ثروتها.

يقول القاضي الرشيد ابن الزبير في وصف موجودات قصور وخزائن السيدة رصد:

«ووجد في خزائن السروج خمسة آلاف سرج، كان أبو سعيد إبراهيم بن سهل التستري أدخره لها. كل سرج منها يساوي سبعة آلاف دينار» = ٣٥ مليون دينار ذهباً.

وكانت السيدة رصد، دولة بحالها، فهي تقود لواء العبيد وتملك خزائن للسلاح وللسروج ومخصصات ورواتب ونفقات. مثلها مثل ولدها الخليفة المستنصر. فسلطانة بنت العزيز أو «ست الكل» و «رصد» أم المستنصر، كانتا من أقوى الشخصيات في تاريخ مصر الفاطمية، وإذا كان حكم الفاطميين لمصر امتد مئتين وعشر

سنتين، فحكم هاتين السيدتين امتد نصف هذه المدة على الأغلب.

ولا نستطيع أن ننسى المرأة الخارقة الثالثة: حرة اليمن الملكة والداعية أروى بنت أحمد الصليحي.

وليست حالتا السيدة العزيزية والسيدة رصد هما الحالتان الشاذتان في الحياة السياسية المصرية، فعندما أکثرت النزارية من عمليات الاغتيال وهذدت الخليفة الأمر قام الوزير المأمون ابن البطايحي بالاستعانة بأخت الإمام نزار وعمة الإمام الأمر وطلب منها مبايعة الخليفة الأمر وإنكار بيعه أخيها نزار، وقد وصف ابن ميسر هذا المجلس بقوله: وقد وقفت أخت نزار في قاعة بجانب الإيوان من القصر، وعلى الباب ستر، وعلى الستر إخوتها وبنو عمها وكبار الاستاذين، فقام الوزير المأمون من وراء الستر وعرف بها أخوتها وبنو عمها، وأنه ليس غيرها وراء الستر، فلما تحقق الحاضرون ذلك قالت: اشهدوا علي يا جماعة الحاضرين، وبلغوا جماعة المسلمين، بأن أخي شقيقي نزاراً لم يكن له إمامة، وأنني بريئة من إمامته، جاحدة لها، لاعنة لمن يعتقدها، لما علمته من والدي، وسمعته من والدتي، لما أمر المستنصر بمضيها هي والجهة المعظمة والددة عبدالله أخي، حين جرت المشاجرة بينهما، فأحضرهما المستنصر بين يديه وأنكر عليهما وقال: ما يصل أحد من وليكما إلى الأمر. وصاحبه معروف في وقته. وشاهدت والدي المستنصر في مرضه الذي توفي فيه، وقد أحضر المستعلي وأخذه معه في فراشه، وقبله بين عينيه، وأسر إليه طويلاً وقد دمعت عيناه. وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليلته، استدعى عمتي بنت الظاهر فأسر إليها من بيننا، ومد يده إليها

فقبلها وعاهدها، وأشهدَ الله تعالى معلناً ومظهراً... وتقول أخت نزار:
ولما انتقل، حضر صبيحتها الأفضل ومعه الداعي والأمراء والأجناد
ثم قال: يا مولاتنا؟ من ارتضاه والدك للخلافة؟ فقالت: هي أمانة قد
عاهدني عليها، وأوصاني بها الخليفة من بعده وهو ولده أبو القاسم
أحمد^(١).

وكلنا يعلم أن المستعلي هو ابن أخت الوزير الأفضل، وأن
العملية لم تتم كما روتها شقيقته الكبرى بل أخذ الأفضل البيعة لابن
أخته المستعلي غصباً. وقد حاول المأمون بن البطايحي في عقد هذا
المجلس دعم موقف ومركز الأمر، ولكن ذهبت كل محاولاته هباء،
فقد استطاع النزاریون أن يفتالوا الأمر.

وعندما أقدم الوزير عباس الصنهاجي على قتل الظافر، أقدمت
الشريفة بنت الحافظ على قص شعرها وشعور الشريفات الهاشميات
وإرسالها في طيات رسائل وكتب من قبلهن يستنجدن بفارس
المسلمين أبي الغارات طلائع بن رزيك والي الإسكندرية، لتخليصهن
وتخليص الإمامة والخلافة والدولة من شرّ عباس. وقد لبّى أبو
الغارات النداء، وخلصهن كما خلّص الدولة والإمامة والخلافة من هذا
المأزق.

وعندما أقدم ضرغام وأخوته على اغتيال الملك الصالح
طلائع بن رزيك، أقدم ولده المنصور على خنق عمه العاضد بعمامته،
حيث اعتبرها المدبرة لمؤامرة الاغتيال والقتل.

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، م.س. ص ٨٧.

دور المرأة المصرية في جهاز المخابرات الفاطمي:

كانت المرأة المصرية في ظل الخلافة الفاطمية تشارك في كل الأمور السياسية والاجتماعية والعسكرية، ومن هذه الأمور المشاركة في العمل الأمني الاستخباري، وكان أول من وظف النساء في العمل الأمني والاستخباري الخليفة الحاكم بأمر الله.

ويروى لنا المقرئ أن أم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، كانت تتخفى وتنزل إلى الأسواق تمدّ الأحاديث السياسية مع الباعة وأصحاب الحوانيت والتجار، ثم تنقل المعلومات لولدها الأفضل بعد أن تحدّد له الخصم والعدو، من الصديق والمحب.

وكذلك يخبرنا المقرئ عن إقدام الوزير المأمون بن البطاحي على تشغيل واستخدام عدد كبير من النساء في جهاز المخابرات الذي أنشأه لحماية الخليفة الأمر من الفدائيين النزارية حيث يقول: «ثم تقدّم المأمون إلى والي مصر ووالي القاهرة بأن يصقعا البلدين (يقيمان مسحاً شاملاً)، شارعاً شارعاً وحارة حارة وزقاقاً زقاقاً وخطاً خطاً، ويكتبوا أسماء سكانها ولا يمكناً أحداً من الانتقال من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره.

وانتدب المأمون لذلك نساءً من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن والإطلاع على أحوال ساكنيها، ومطالعتهم بجميع ما شاهدته فيها، فكانت أحوال كافة الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة تعرض عليه، ولا يكاد يخفى عنه منها شيء البتّة»^(١).

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٠٨.

والقاهرة ومصر في تلك الايام كانت أكثر كثافة سكانية من اليوم، ترى كيف استطاع المأمون بن البطايحي إجراء المسح الأمني الشامل لها ولأزقتها وحاراتها، وكم امرأة وظف لهذه المهمة؟؟.

اتساع هامش الحرية للمرأة المصرية في ظل الدولة الفاطمية:

بالرغم من أن الدولة الفاطمية، كانت دولة دينية تقوم على فرض الشريعة الإسلامية المحمدية وتطبيقها على كافة أبناء المجتمع في مصر وخارج مصر، لكن التعددية الدينية التي كانت سائدة من حيث وجود أكثرية مسيحية قبطية وأقلية يهودية، جعل الخلفاء الفاطميون يتغاضون عن كثير من المخالفات في والتكليف الشرعي الديني. وإن ساد التشدد فترة حكم الخليفة الحاكم بأمر الله، لكنه لا يؤخذ به كسمة دائمة للحكم الشيعي الإمامي في مصر بل كان، غمامة مؤقتة ذهبت بذهاب الحاكم.

وكانت أول قفزة في العلاقات الاجتماعية، قرار السيدة العزيزية بالسماح لسيدات المجتمع المصري بالعودة إلى ممارسة الحرية المعطاة لهن من قبل التشريع الإسلامي وإبطال قرارات الخليفة الحاكم التي كانت تقضي بمنعهن من الخروج من بيوتهن تحت طائلة العقوبة.

وكذلك ألحق هذا القرار بقرار السماح للأساكفة من صنع الأحذية النسائية، بعد أن منع الخليفة الحاكم هذه الصناعة. وأصبحت المرأة المصرية تتمتع بكامل الحرية بعد موت الخليفة الحاكم وخاصة في ظل الحماية التي أمنتها السيدة العزيزية - سلطنة -

والسيدة رصد أم الخليفة المستنصر. وقد أخبرنا المقرئزي أنه «في الثامن عشر من شهر ربيع الأول لسنة ٤١٥هـ، نزلت طائفة من جوارى القصر في طائفة من الخدم إلى دار الجواهر ودار الصرف ودار الأمشاط، فابتاعوا ما أحبوا وعادوا»^(١).

كما أشار المقرئزي وغيره من المؤرخين المعاصرين إلى مشاركة المرأة المصرية في حضور المحاضرات التي كان يلقيها الدعاة الشيعة في دار العلم وفي بيت الحكمة وفي المسجد الأزهر رغم أن هذه المحاضرات كان يغلب عليها الطابع الفلسفي والعقائدي.

ويخبرنا المقرئزي أن أحدا لأسباب التي دعت الحاكم إلى حبس النساء المصريات في بيوتهن، كثرة خروجهن في الليل حيث يصف لنا أوضاع القاهرة ولياليها سنة ٣٩١هـ: «وأمر الحاكم بالوقيد، فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة، وزينت الأسواق والقياسر بأنواع الزينة، وباعوا واشتروا، وأوقدوا الشموع الكبيرة طول الليل، وأنفقوا الأموال الكثيرة في المأكول والمشرب والغناء واللهو، وخرج سائر الناس بالليل للتفرج، وغلب النساء الرجال على الخروج في الليل، وتزايد الزحام في الشوارع والطرق، وتجاهروا بكثير من المسكرات، وأفرطوا، فلما خرجت النساء عن الحد، أمر الحاكم ألا تخرج امرأة بعد العشاء، فإذا ظهرت نُكِّلَ بها»^(٢).

أما في عهد ولده الظاهر، فقد استغلَّت المرأة المصرية وجود ست

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ١٤٤.

(٢) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، م.س. ص ٢٨.

الملك على رأس الحكم وأخذت حريتها كاملة ويصف لنا المقرئزي احتفالات عيد فصح النصارى لسنة ٤١٥ هـ، فيقول إنه «لخمس بقين من شهر المحرم، كان ثالث فصح النصارى، فاجتمع بقنطرة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير طول نهارهم في لهو وتهتك قبيح واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمرة، حتى حُمِلت النساء في قفاف الحمّالين من شدة السكر»^(١).

وكانت النساء المصريات يتنزهن بالمراكب مع الرجال في النيل بكلّ حرية، باستثناء أيام الخليفة الحاكم.

وكذلك كنّ يحضرن كلّ الاحتفالات والاستعراضات العسكرية وليالي النصف من شعبان، وليلة النصف من رجب، حيث يقول أحمد بن علي المقرئزي عن ليلة النصف من رجب لسنة ٤١٥ هـ، «وكانت ليلة النصف من رجب ليلة مشهودة، حضر الخليفة الظاهر والسيدات، وخدم الخاصة والمصطنعة وغيرهم، وسائر العوام والرعية، وكانت مجمعا لم يشهد مثله من أيام جدّه العزيز بالله، وأوقدت المساجد كلّها أحسن وقيد»^(٢).

أما أخبار الفتاة البدوية التي عشقها الخليفة الأمر وأبعدها عن ابن عمها ابن مياح وأشعارها، فقد تداولتها كلّ كتب التاريخ الفاطمي، كذلك خبر الجارية مكنون التي لم تسمح لدخول سيدها الخليفة الأمر إلى مقصورتها إلا بعد أن وهبها ما وهب مملوكين من مماليكه ويقال

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ١٢٧.

(٢) م.س. ص ١٥١.

إنَّ المبلغ الذي وهبه لها يبلغ مائتي ألف دينار رغم أنَّها جارية مملوكة له، يستطيع أن يبيعها ويشتريها كأي سلعة.

وقد وصف لنا المقرئزي مشهد الفتيات والنساء المصريات يسبحن في نهر النيل. وأورد قول الشاعر الفاطمي الأسعد بن مماتي في وصفهن^(١):

خليج كالبحسار له صقال ولكن فيه لثرائي مسره
رأيت به الملاح تجيد عوماً كأنهم نجوم في مجره
وكانت المرأة أقوى من الرجل في مصر بكل شيء فقد استطاعت
إحدى النساء تربية أحد السباع وأصبح يلحقها كالكلب الحارس،
ودخلت به على الخليفة العزيز وأهدته إياه «وكانت ترضعه ولا
يصرعها، وهو في قدر الكبش الكبير»^(٢).

وكانت النساء المصريات يلحقن كل صرعة أزياء جديدة بل
يخلقن صرعات جديدة في الأناقة والثياب والزي فكنَّ يلبسن لباس
الرجال، فتظهر مفاتنهن أجمل والطف وأنعم^(٣).

ويخبرنا المقرئزي أنه عندما وقعت الضائقة المالية بالخليفة
الظاهر، استشار وزيره الجرجرائي عن مصادر تمويل القصر،
فنصحه قائلاً: إنَّ أردتم المال فمن أم الحاكم بأمر الله، ومن عمته
(السيدة العزيزية)^(٤).

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٧٢.

(٢) الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٢٦٤.

(٣) م. س. نفسه.

(٤) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٥٤.

ولا يسعنا أن ننسى دور «زين الخزان»، المسؤولة عن أناقة الخليفة وما كان يتبعها من موظفات وموظفين لا همّ لهم إلا اختيار البدلة الأنسب والأكثر أناقة لكل مناسبة، من مناسبات الخليفة. تلك هي المرأة المصرية في ظل الحضارة الفاطمية، متأقّة بارزة، لها حضور وظهور في كل مناسبة، وبصماتها ظاهرة على كلّ المجتمع المصري الفاطمي.



صناعة الثياب

مرفق مُهم من مرافق الحياة الاقتصادية والاجتماعية

من الطبيعي أن يهتم الخلفاء الفاطميون بالثياب وبصناعتها، بسبب اهتمامهم الزائد بالاناقة وبالمظهر الخارجي للإنسان المصري، رجلاً كان أم امرأة، اميراً أو وزيراً أو إنساناً عادياً.

من هنا كانت الدولة الفاطمية تهتم بمصانع ومعامل الغزل والنسيج، إن كانت للقطاع الخاص أم للدولة. وقد اتبعتها الخلفاء بمؤسسات تأخذ ما تنتجه من أقمشة وتصنع منه الثياب الرجالية والنسائية ولوازم الفرش والخيم والستائر والرايات والأعلام والبنود ومن هذه المؤسسات، خزانة الكسوة وخزانة الخيم وخزانة البنود ودار الطراز ودار الديباج. وكل مؤسسة من هذه المؤسسات لها موظفوها وعمالها وخدمها.

وأخذت بشائر العصر الفاطمي تظهر في صناعة المنسوجات، في أواخر القرن الرابع الهجري، فأخذ الميل يزداد إلى الرقعة في الزخارف والإبداع في تنسيقها، ووصل الفنانون الفاطميون إلى حد

الإتقان في جمال الزخرفة، وكذلك صارت الألوان تزداد تدريجياً، حتى أصبح فيها كثير من الرشاقة^(١).

ويخبرنا المقرئ عن الحارة المعروفة باسم دار الديباج أنها كانت أيام الوزير يعقوب بن كلّس «داراً ينسج فيها الديباج والحريز برسم الخلفاء الفاطميين، فصارت تعرف بدار الديباج».

ودار الديباج كان يطلق عليها الفاطميون، أيضاً اسم خزانة الكسوة، وكان يصلها من إنتاج معامل النسيج في تنيس ودمياط من الديباج الملون على اختلاف أنواعه، والمناديل الدبيقية الآتية من مدينة دبيق، والسقلاطون وهي من أنواع الملابس الحريرية الملونة بالألوان القرمزية وغيرها. كذلك كان يرد إليها من أنواع القماش الفاخرة ما يدل على عظمة الدولة الفاطمية. وكان يحمل إليها إنتاج دار الطراز أو معامل النسيج في الإسكندرية أيضاً. وكان مصمم أزياء الخليفة يداوم في دار الطراز ويشرف على تصميم الثياب بنفسه وكان يطلق عليه اسم «صاحب المقص».

وكانت كلّ الخلع والتشريفات التي يهبها الخليفة ويخلعها على كبار الأمراء والوزراء والموظفين والرسل كلّها تُصنّع وتعدّ في دار الطراز وترسل إلى خزانة الكسوة.

خزانة الكسوات:

وكان الفاطميون يخرجون من خزانة الكسوة، بكلّ مناسبة، إلى

(١) كنوز الفاطميين. م.س. ص ١٢١.

الخدم والحاشية والموظفين، ومن يلوذ بهم كسوات الصيف والشتاء والأعياد السنّة، من العمامة إلى السراويل، وما دونها وما فوقها، وبلغت كلفة كسوة الشتاء في إحدى السنين ستمائة ألف دينار. وكانت كلفة تطريز العمامة الواحدة بخيط الذهب خمسمائة دينار أي ما يقارب مائة وخمسين راتباً للحد الأدنى للأجور^(١).

وقال المقرئزي عن خزانة الكسوات: إنها من عمل الخليفة المعزّ لدين الله وكان يفصل فيها من جميع أنواع الثياب والبرّ ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف، وكانت لأولاد الناس ونسائهم، وجعل الخليفة المعزّ ذلك رسماً يتوارثونه في الأعقاب^(٢).

وعندما مرّ ناصر خسرو بتأسيس وصف معامل النسيج الموجودة فيها بدقّة، وكانت أشهر معامل الدولة الفاطمية على الإطلاق بجودة أقمشتها وجمال ألوانها وتطريزها.

مركز بحوث وتطوير علوم سودي

خزائن الفرش والأمتعة:

يصف لنا المقرئزي خزانة الفرش والأمتعة في القصر فقال: إنها كانت معروفة باسم خزانة الرفوف لكثرة رفوفها وكان لكلّ رفٍّ منها سلّم مفرد. وكان بها من أعدال (أكياس) الثياب ألفا عدل من سائر أنواع الثياب التي لم تستعمل بعد، «وجميع ما فيها معمول بسائر الأشكال والصور».

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٥٤.

(٢) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٠٩.

خزائن الخيم والبنود:

أما خزائن الخيم، فكانت تحتوي على الخيم مع أعمدتها وطراريحها وستائرهما ومساندتها وفرشها الكامل، وكانت تتراوح بين الخيمة العادية، والمضرب، والفسطاط الكبير. وكلّها كانت تخاط من الثياب المعمولة من الدبيقي إنتاج مدينة دبيق، وكذلك أنواع المخمل والخسرواني والديباج، إنتاج بهنسا. وثياب الحرير والديباج المريش وسائر أنواع الحرير من سائر الألوان وأنواعها. ويكفي أن نشير إلى أنّ خيمة القاتول احتاجت إلى مليون وأربعمائة ألف ذراع من القماش المطرز بالخیوط والمخرّم بالذهب.

أما خزانة البنود، فقد كانت تحوّل إليها من دار الطراز ودار الديباج جميع أنواع البنود والرايات المختلفة النقوش والألوان المطرزة بخيوط الذهب، ولكنها تحوّلت فيما بعد إلى مخزن لجميع أنواع الأسلحة وقوارير النفط والسروج.

تفصيل الكسوات التي تؤزّع على الناس بالمجان:

كانت كسوة الثياب في الدولة الفاطمية جزءاً من الراتب، وكانت تؤزّع في السنة مرتين من حساب الدولة، وست مرات من حساب سهم الإمام أو من أموال قصور الخلافة، وللرجال والنساء على السواء. فكسوة الشتاء والصيف هي راتب أما كسوة الأعياد الستة وخاصة عيد الغدير فهي هدية من الإمام أو الخليفة.

تفصيل كسوة الشتاء:

عندما فصل لنا المقريري كسوة أبي البركات بن أبي الليث،
جاءت كالتالي:

- عمامة حرير.
- قطعة قماش دبيقي حرير.
- قطعة قماش ديباج.
- رداء أطلس.
- قطعة ثياب داري.
- قطعة ثياب سقلاطون إسكندرانية.
- قطعة ثياب سقلاطون عتّابي.
- قطعة ثياب خز مغربي.
- قطعتا ثياب إسكندراني سانجة (سادة).
- قطعتا ثياب دميّاطي سانجة.
- قطعة ثياب ملوّنة.
- فوطة (منديل) يد.
- عمامة عدد ٢.
- نصف رداء / جاكيت / عدد ٢ من معامل دبيقي.
- قطعة سقلاطون سانجة.
- قطعة ثياب عتّابي سانجة.
- قطعة ثياب سوسي سانجة.
- قطعة ثياب دميّاطي.
- قطعة ثياب إسكندراني ملوّنة.

- كسوة الصيف - مثلها.

- كسوة عيد الفطر - مثلها ويزاد عليها: بدلة مذهبة مكملة.
ولولده بدلة حرير، وبرسم ما عنده بدلة مذهبة.

- كسوة عيد النحر: مثل كسوة عيد الفطر.

- كسوة فتح الخليج: مثلها.

- كسوة عيد النوروز: مثلها، يضاف إليها قطعة ثياب حرير
دبقي، وقطعة لاذ، ومعجر حرير، وفوطة حرير.

- كسوة عيد الغدير: وهي أهم الكسوات تشمل الموظف والأولاد
ومن يعرفهم من الأياامي واليتامي والثكالي والعوانس والأرامل^(١).

وقال لنا المقرئزي: إنَّ الخليفة الأمر وزَّع على الناس بمناسبة
عيد الغدير لسنة ٥١٦هـ، أربعة عشر ألف وثلاثمائة وخمس رزم
كسوة، كل رزمة فيها من الثياب ما يكفي عائلة بأكملها^(٢).

محلات الثياب الجاهزة: Prêt à Porter -

كان منطق الحضارة المتقدم الذي توصلت إليه مصر في ظل
الدولة الفاطمية، يؤدي بها إلى استعمال كل ما هو سريع: وجبات
سريعة، ثياب جاهزة، فرش بيت كامل... لذلك ظهر في أسواق
القاهرة ومصر، الأسواق المتخصصة. ومن هذه الأسواق سوق
محلات الثياب الجاهزة وسوق محلات فرش البيت كاملاً.

وكان هذا السوق أو السويقة سويقة أمير الجيوش وقد كان

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٠٠.

(٢) م.س. ص ٤٠٠.

يتواجد فيها كما قال المقرئزي: الرفاؤون - الحباكون والخياطون - البرازون - ويقول: «ويباع في هذا السوق سائر الثياب المخيطة والامتعة من الفرش ونحوها» حتى كان هناك من يعمل في كوي الثياب وتنظيفها بالأجرة^(١).

بعض أسماء الثياب التي كانت سائدة أيام الدولة الفاطمية:

اللفافة:

القميمص.	اللباس.	الملوطة.	البغلطاق.
القباء.	الكلوة.	الشاش.	المنديل.
الفوطة.	السروال.	العصبة.	البخنق.
الكوفية.	التاج.	الخمار.	المعجر.



تعريف ببعض أنواع الأقمشة والثياب المصرية الفاطمية:

ورد في كتب التاريخ الحضاري لمصر الفاطمية عدة مصطلحات وأسماء لثياب وأنواع من الألبسة والأقمشة وأدوات الزينة، استطاعت الكاتبة ناريمان عبد الكريم أحمد، في دراسة أعدتها عن المرأة في العصر الفاطمي أن تحدّد مواصفات هذه الثياب والألبسة والأقمشة منها^(٢):

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ١٠١.

(٢) راجع: المرأة في العصر الفاطمي، ناريمان عبد الكريم أحمد، ط ١، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٩٢، ص ١٤٦ - ١٤٧.

الديباج: نوع من القماش «اللميع» الملون الناعم ويعتبر تقليداً للحريير الصيني.

السقلاطون: نوع من الأقمشة الحريرية الموشحة بخيوط الذهب. **الخر:** نوع من الحرير الناعم.

الشرب: نوع من القماش الناعم الذي تتداخل فيه الخيوط الحريرية بخيوط الذهب والخيوط المقصبة البيضاء والملونة. وقد تخصصت بإنتاجه مدينتا دمياط وتنيس.

البوقلمون: نوع من القماش الذي يتغير لونه بانعكاس ضوء الشمس عليه، وقد أشار إليه ناصر خسرو في كتابه - سفرنامه. **الدبيقي:** نوع من القماش الكثير الزركشة، تخصص في صناعته مدينة دبيق.

ومن أسماء قطع الثياب نجد: **العصبة أو العصابة:** وهي عبارة عن شال أو قطعة من القماش على شكل مثلث، تلف حول الرأس ويكون طرفاها للوراء.

العمامة النسائية: كانت العمامة تستعمل لدى الرجال والنساء، وهي عبارة عن قطعة من القماش تلف حول جزء من العصبة التي كانت تغطي شعر المرأة. وكان يظهر منها أشكال متعددة، فمنها ما كان يربط على الرأس فقط، ومنها ما يتدلّى جزء منها على الظهر، ومنها ما يتدلّى خلف الرأس فقط، ولا يصل إلى الظهر وكانت العمامة ترصع بالجواهر والدر.

الطاقية: وهي غطاء لرأس المرأة وكانوا يطلقون عليها أيضاً اسم «الكؤنة» وهي كبيرة الحجم.

البخنق: الاستعمال المعاصر لمصطلح البخنق يعني عقد من الجواهر يوضع حول العنق.

أما في العصر الفاطمي فكان يعني طاقيّة صغيرة الحجم.
الكوفية: وهو عبارة عن شال مربع طوله يساوي عرضه كانت توضع على الرأس بطريقة يتدلّى طرفاها على الظهر والكتفين.

التاج: وهو غير تاج الملك، بل كان يطلق على نوع من الطواقي المرتفعة فوق الرأس. وكانت تلبسه العروس فوق رأسها يوم زفافها. وكانت تيجان النساء تكلّل بالورد والجوهر. ويبدو أنّ هذه التيجان كانت مخصّصة بنساء الطبقة الحاكمة المصرية، ويقلّدنهنّ في لبسه الفتيات في أعراسهنّ.

الخمّار: وهو عبارة عن غطاء تغطي به المرأة المصرية رأسها وتلف ما يتدلّى منه حول عنقها، وقد وصل منه بعض الصور التي رسمها الرسامون المصريون على بعض الأقمشة.

المفديل: كان منه نوعان: شال أو عمامة للرأس وشال لوسط وخصر المرأة.

المعجر: وهو عبارة عن قطعة واحدة (ملاية لف) تمتد من الرأس حتى تصل القدمين. وكانت ترتديه الفاطمية البالغة الراشدة، والفتاة الصغيرة.

السروال: وهو عبارة عن ما يسميه العامة اليوم: «البنطلون» وكان يستعمله الرجال والنساء على السواء، وقد اختلفت أشكاله، فكان حيناً تظهر صرعة الضيق منه وأحياناً تنتشر صرعة الواسع

منه، وقد أشرنا إلى تدخل الدولة وصنع لبس السراويل الواسعة.

القميص: وهو قطعة تلبس فوق القسم الأعلى من جسم المرأة، فوق السروال، وكانت أكمامه واسعة.

وقال أحد الباحثين عن لباس المرأة في العصر الفاطمي «إنّ الأناقة والبذخ يشهدان لما كان عليه المجتمع الفاطمي من الرقي، وهنا أيضاً تختلف الملابس في قيمتها، على حسب درجة التي تلبسها، وأنّه كان يطلق على الزي النسائي، بصفة عامة - كلمة «حَلّة»، بمعنى ملابس كاملة مطرّزة إما بالذهب أو بالحرير»^(١).

أما الجوخ فلم يكن يلبسه الفاطميّون بل كانت مصانعهم ومعاملهم تنسجه ليلبسوه للبالغ ولصناعة الأجلّة منه. ولكنّه أصبح أيام الناصر فرج المملوكي لباس الأمراء ولباسه هو شخصياً لشدة فقر مصر والمصريين أيام المماليك^(٢).

أما أيام الفاطميّين فكانوا يُلبسون الوحوش والخيول والفيلة البسة الديباج المقصّب المطرّز بخيوط الذهب، حتى الحرس، كان يمشي على حرير ليصل إلى الخليفة.

ولكي نعرف أهمية الثياب في الدولة الفاطمية، يكفي أن نطلع على ما أخرج من قصر الخليفة المستنصر أيام الشدة المستنصرية ومن خزائن أمراء الدولة. فعلى سبيل المثال، عرفنا أنّه أخرج من خزائن

(١) نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، عبد المنعم ماجد، الجزء الثاني، ط ١، القاهرة، مكتبة الانجلو مصرية، سنة ١٩٥٥، ص ٥٦.

(٢) راجع: الخطط المقرزية، الجزء الثاني، ص ٩٨.

المستنصر: خمسون ألف قطعة حرير مذهبة وألف ستارة حرير مذهبة مختلفة الألوان، طول الواحدة منها لا يقل عن ٢٠٠ ذراع، كما أخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة فرش كل رزمة فيها فرش بيت كامل ببسطه وتعاليقه وستائره وسائر لوازمه من طراريح ومخدات ومساند، كلها جديدة لم تمس. وأخرج كذلك عشرون ألف قطعة ثياب خسرواني ملونة بمختلف الألوان، ومئات الأعدال المملوءة «عقالات» ومئات الأعدال المملوءة خياماً ومضارب.

وأخرج كذلك ثمانني مائة بدلة بجميع توابعها من عمامة وحطة وشال وسط.

أما ما أخرج من خزائن الأفضل فهي:

٩٠٠ ثوب ديباج مذهب.

٥٠٠ صندوق مليئة بالثياب.

— تسعون ألف قطعة ثياب مختلفة الألوان والأنواع.

— ثلاثة خزائن كبار مملوءة بصناديق الثياب صناعة معامل دبيق وتنيس ودمياط.

— أربع غرف مملوءة بألاف الستائر (البرادي) والفرش والطراريح والمخدات والمساند وكلها مصنعة من الديباج والحرير، والموشاة بخيوط الذهب.

وأخرج من مخازنه أيضاً أربعة آلاف سجادة.

وستون حمل جمل طنافس وألف عدل ثياب وعقالات وحطات.

وعندما دهم منزل المؤتمن أخى الوزير المأمون بن البطايحي،

أخرج من مخازنه ٣٠٠ صندوق فيها كسوة بدنه، إضافة إلى آلاف الملابس النسائية مما لا يُحدّ وصفه.

وكانَّ المصريّين أيام الدولة الفاطمية، كان عندهم عشق بالثياب والملبوسات والأناقة المفرطة حتى أصبحت شغلهم الشاغل.



أهمية مصمم الأزياء في مصر الفاطمية

من الطبيعي أن يكون لكل مجموعة من مجموعات المجتمع المصري الفاطمي، رجالاً كانوا أم نساء، إحساس وخبرة ذو قيمة عالية في فن ارتداء الملابس تبعاً للمستويات الحضارية الراقية التي بلغتها مصر في ظل الفاطميين. من هنا كان ظهور مصمم الأزياء أو «صاحب المقص» كما يسميه المقرئزي. أمراً طبيعياً فنجد مثلاً البدلة التي تسمى «البدنة». وقد خصصت هذه البدلة لتلبس في يوم واحد في السنة أو مناسبة واحدة، وهي مناسبة عيد فتح الخليج يصف المقرئزي هذه البدلة فيقول: «ويخرج الخليفة للركوب ويركب فيخرج من باب القصر، وعليه ثوب يقال له البدنة وهو كله ذهب وحرير مرقوم، والمظلة من شكله، ولا يلبس هذا الثوب في غير هذا اليوم، ويسير بالموكب الهائل شاقاً القاهرة»^(١).

لباس خاص لكل مناسبة:

وإذا كانت «البدنة» لباس عيد فتح الخليج، فقد كانوا يعدّون لكل احتفال ولكل عيد ولكل صلاة ولكل خطبة لباساً خاصاً. فحين يصف

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٧٧.

لنا لباس صلاة الجمع في شعبان ورمضان يقول المقرئ: «إن الخليفة في هذه الأيام يلبس الثياب المذهبة البياض والملونة والمنديل، وهو مشدود شدة مفردة عن شدات الناس ويكون ذلك في أوقات مخصوصة».

وقال ابن المأمون عن الخليفة الأمر: «أنه غير ثيابه بما يقتضيه للموكب، وهو بدلة حرير بشدة الوقار وعلم الجوهر». وهل يعني أن الخليفة يغير ثيابه أكثر من مرة في الاحتفال الواحد، وهذا منتهى الأناقة إذا صح^(١).

وصف أناقة الخلفاء الفاطميين وأناقة رعيتهم:

يصف المقرئ الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله يوم احتفالات فتح الخليج فيقول: وركب الظاهر في العساكر ورجال الدولة بأحسن زي، وشق شارع مصر إلى صناعة الجسر، وعليه ثوب طميم وعمامة مذهب طميم، وعلى رأسه مظلة حمراء مثقلة مذهب. فغير ولبس ثوباً دبيقياً أبيض مذهباً وعمامة شرب بيضاء مذهباً، وركب فرساً كميتياً. فلما وصل الظاهر إلى السد، وقف بجانبه الشرقي، وعبرت العشاريات مزيّنة كالعادة، ولعبت ثم عاد إلى قصره. فكان من الأيام المشهودة.

وقد جاء في هامش كتاب «الإشارة إلى محاسن التجارة» إلى أن الثوب الطميم هو نوع من الديباج أي من الحرير الناعم المشرق

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٧٨.

اللون مخرم ومطرز بخيوط الذهب أما الدبيقي فهو المنسوب إلى مدينة دبيق وهي قرب بحيرة المنزلة وكانت مشهورة بمعامل النسيج والغزل. والشرب هو نوع من «الكتان الرقيق جداً والثمين جداً»^(١).

وعندما يصف لنا المقرئ أنيقة نقيب الطالبين فيقول: إنه يلبس «ثوب دبيقي مذهب مصفف بأطواق، ومن تحته ثوب مصمت مذهب وغلالة مذهب، وعلى رأسه عمامة شرب مذهب».

ويصف لنا أنيقة القائد معضاد، الخادم الأسود، فيقول إنه يلبس «ثوب طميم حسن وعلى رأسه عمامة شرب، طائفة كثيراً، بالذهب المحرق اللون». ووصف أنيقة ابن أبي الرداد فقال: ثوب دبيقي مذهب ورداء محشو مذهب وعمامة شرب مذهب»^(٢).

وكان الخلفاء المصريون يصدرون مراسيم وأوامر التأنق في الملابس مع كل كسوة يوزعونها على المصريين، وخاصة في عيد الغدير. وكانوا يهدفون من وراء تزويد الناس بالثياب الجميلة إلى هدفين أشار إليهما ابن الصيرفي في التعميم الصادر عن قصر الخلافة أيام الخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٣٥هـ. يقول فيه: إن الهدف من توزيع هذه الكسوات «الجمع بين الشرف والجمال».

ولا يسعنا إلا أن نذكر بموجودات خزائن ابن عبدالكريم وهو من

(١) الإشارة إلى محاسن التجارة، أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي، ط ١، بيروت دار ألف باء للطباعة والنشر والتوزيع، سنة ١٩٩٠، ص ٦٥.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ١٢٣ - ١٢٩ - ١٥٠.

رجال الصف الثاني في الدولة الفاطمية، ولكن الأناقة والزيّ الجميل كانا يسيطران على عقله، حيث وجد في خزانته ٣٦٠ بدلة معلقة مع ٣٦٠ عمامة مع ٣٦٠ عصبة (شال)، معلقة على ٣٦٠ مسمار ذهب، كلّ بدلة لها عمامتها وعصبتها من لون واحد على عدد أيام السنة^(١).

وعندما صادر الخليفة الحاكم ثروة برجوان وجد فيها مائة عمامة ملوّنة على مائة حطة، وألف سروال من صناعة دبيق مع ألف تكة حرير أرمني.

مصمم الأزياء في قصور الخلافة: صاحب المقصّ

قال المقرئ يصف مصمّم الأزياء في خزائن الكسوات نقلاً عن ابن الطوير: «والخدمة في خزائن الكسوات لها رتبة عظيمة في المباشرات وهما خزانتان، خزانة ظاهرة يتولّاها أستاذ من حاشية الخليفة. وتضم هذه الخزانة من «الحوامل» ما يدل على إسباغ الله تعالى نعمه على من شاء من خلقه، من الملابس الشرب (الحرير الناعم) والملابس الدبقي الملوّنة، رجالية ونسائية، وقطع الثياب الملونة من الديباج والسقلاطون^(٢). وإليها يحمل إنتاج دور الطراز بتنّيس ودمياط والإسكندرية من الخاص جداً. وبها «صاحب المقصّ»، وهو مقدّم الخياطين. ولأصحابه مكان لخياطتهم. والتفصيل يعمل على مقدار الأوامر وما تدعو الحاجة إليه»^(٣).

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، م.س. ص ١٤٨.

(٢) السقلاطون: الحرير المزركش بالذهب.

(٣) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤١٣.

رئيسة دائرة الأناقة في قصر الخلافة: زين الخُزان

أما الخزانة الثانية فهي الخزانة الداخلية الخاصة بلبس الخليفة وقد وصفها المقرئزي ووصف زين الخُزان أو المسئولة عن أناقة الخليفة وطريقة عملها وما يتبعها من موظفين وبساتين زهور وورود لزوم التألق الكامل فقال:

ثم يُنقل من إنتاج دور الطراز إلى خزانة الكسوة الباطنة ما هو خاص بلباس الخليفة، ويتولاها امرأة تنعت «بزين الخُزان». وبين يدي زين الخزان ثلاثون جارية، فلا يُغَيَّر الخليفة أبداً ثيابه إلا عندها، ولا يلبس إلا من هذه الخزانة. ويلحق هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة يُعنى فيه أبداً بالنسرين والياسمين، فيحمل في كل يوم منه في الصيف والشتاء إلى القصر، ولا ينقطع البتة بإشراف زين الخزان^(١).

الأناقة من دولة إلى دولة: مركزية تكوير طوبى رسدى

عندما تحدث المقرئزي عن سوق الجوخيين قال: إنَّ الجوخ أيام الفاطميين «إنما يلبسه من يأتي من بلاد المغرب والإفرنج، أما الرؤساء والأكابر والأعيان، فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه إلا في وقت المطر» وقال إنَّه كان يخصَّص لأجل أجلة البغال. ويقول المقرئزي: إنَّ لبس الجوخ لكثرة فقر المصريين أيام الملك الناصر فرج أصح لبس الملوك^(٢).

(١) م.س. نفسه. ص ٤١٣.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الثاني، ص ٩٨.

وبينما كان المصريون الفاطميون يصعدون منشوراً يلزمون فيه الشعب المصري بالتأق وحسن المظهر مع توزيع ربط الكسوات في كل موسم وعيد، كان الممالك يعمّمون البيانات التي تمنع المصريين من لبس الثياب الأنيقة والجميلة، ومنع الناس من بيع «الشربوش» إلا للسلطان، ومن خالف الأوامر واشترى من الممنوع شراؤه شيئاً، «قله من العقاب ما قدر عليه»^(١).

والمحيّر هو اهتمام المؤرخين بكل ما صدر عن الأيوبيين والممالك والعثمانيين، والقفز عن الحقبة الفاطمية في كل المجالات: السياسية والفكرية والشعرية والاجتماعية والحضارية، وكأنّ اللعنة الأيوبية أصبحت أمراً مقدساً منزلاً لدى كل من عالج التاريخ والحضارة الإسلامية.

رأي ول ديورانت بأناقة المصريين تحت ظل الخلفاء الفاطميين:

يقول ول ديورانت واصفاً أهمية الملابس والأناقة التي توصل إليها المصريون في العصور الفاطمية:

«كان التجار الأوروبيون يقدرون منسوجات الدولة الفاطمية تقديراً يفوق سائر المنسوجات، ويتحدثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية، التي تبلغ من الدقة درجة يستطاع معها أن تمر في خاتم الإصبع. ويحدثنا المؤرخون عن طنافس من عهد الفاطميين، وعن خيام منسوجة من المخمل والساتان والدمقس

(١) م.س. نفسه. ص ٩٩.

والحرير، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب، مزينة كلها بالرسوم»^(١).

وقد مرّ الرحالة الصيني - شو جوكيا - في القاهرة، فوصف أسواقها بقوله: إنها ملأى باللغظ والضجيج والحركة وتغص بالديباج والدمقس المنسوج بخيوط الذهب والفضة، أما الصناعات ففِيهم الروح الفنية الحقّة»^(٢).

شدة الوقار تخفق لها الأعلام:

وعندما يصف المقرئ شدة الوقار التي يلبسها الخليفة يقول: وخرج الخليفة بزي الخلافة ووقارها وناموسها بالثياب الطميم التي تذهل الأبصار، والمنديل (العمامة) بالشدة العربية التي يتفرد بلباسها في الأعياد والمواسم الخاصة، لا على الدوام، وكانت تسمّى عندهم شدة الوقار، مرصعة بغالي الباقوت والزمرد والجواهر، وعند لباسها تخفق لها الأعلام ويُتجنب الكلام ويهاب، ولا يكون سلام قريب منه».

وإذا كان هؤلاء الخلفاء يصنعون القماش والحصر والبسط لتفرش تحت أرجل خيولهم ودوابهم «خيفة من انزلاقها على الرخام»^(٣)، فلا يعقل أن يتركوا شعبهم عرياناً بدون كسوات.

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ط ٢ القاهرة، جامعة الدولة العربية، سنة ١٩٦٤، ص ٢٧٢.

(٢) كنوز الفاطميين، زكي محمد حسن، ط ١، القاهرة، سنة ١٩٣٧، ص ٣٩.

(٣) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٤٩.

أهمية صاحب المظلة ووظيفته

كان لحامل المظلة وللمظلة نفسها في مصر أيام الدولة الفاطمية وظيفة محدّدة: دفع الشمس أو المطر عن الخليفة وإضفاء الأبهة والفخامة على موكبه.

وكان حامل المظلة من أقرب المقربين للخليفة ويعتبر من فريق عمله الخصوصي.

ويقول ابن الطوير: إنّه كان يظهر مع الخليفة وخاصة «في المواسم العظام كركوب رأس العام ونحوه وهي من الوظائف العظام، وصاحبها يُسمّى «حامل المظلة» وهو أمير جليل، وله عندهم التقدّم والرفعة، لحمل ما يعلو رأس الخليفة»^(١).

ويصف ابن الطوير المظلة وطريقة حملها في احتفالات عرض الخيل فيقول: «ثم يؤمر بشدّ المظلة التي تشاكل تلك البدلة المحضرة بين يديه معها، وهي مناسبة للثياب. ولها عندهم جلالة لكونها تعلو

(١) نزعة المقلتين في أخبار الدولتين، ص ١٢٢.

رأس الخليفة، وهي اثنا عشر شورك»، عرض أسفل كل شورك شبر وطوله ثلاثة أذرع وثلاث (٣، ٢ × ٦٧ م = ٢١، ٢ م) وآخر الشورك من فوق دقيق جداً، فيجتمع ما بين الشوارك في رأس عمود، بدائرة، وهو قنطارية (عمود رمح) من خشب الزان، ملبسة بأنابيب الذهب، وفي آخر المظلة أنبوبة تلي الرأس من جسمه فلكة بارزة مقدار عرض إبهام، تشد طرف الشوارك في حلقة من ذهب وتنزل شنقاً في رأس الرمح وتمنع المظلة من الانحدار في العمود المذكور، ولها أضلاع من الخشب الخلنج. وفيها خطاطيف لطاف وحلق يمسك بعضها بعضاً وهي تُقفل وتفتح على طريقة شوكات الكيزان. ولها رأس شبه الرمانة، تعلوه رمانة صغيرة كلّها من ذهب مرصع بالجواهر.^(١)

وقد عرف من حاملي المظلة شفيح الخادم الصقلي حامل مظلة الخليفة المعز لدين الله، وريدان الصقلي حامل مظلة الخليفة العزيز بالله، ومظفر الصقلي حامل مظلة الخليفة الحاكم بأمر الله.

ويصف المقرئزي وظيفة صاحب المظلة في احتفالات يوم استعراض الخيل، فيقول:^(٢) إنَّ حامل المظلة «يؤمر بشدها، وهي تشابه بدلة الخليفة، وهي مناسبة للثياب، ولها عندهم جلالة لكونها تعلو رأس الخليفة، وصاحبها يمشي على يسار الخليفة وهو يبالغ أن لا يزول عنه ظلّها».

(١) راجع: نزهة المقلتين، ص ١٥٧.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٤٩.

ويختص بالمظلة الأمراء الأشراف أبناء بيت الخلافة فقط، ويمنع على الوزراء والقواد اقتناؤها، وقد أخبرنا المقرئ في إحدى احتفالات عيد النحر أيام الخليفة الأمر لأحكام الله، أن حامل المظلة «تقدم وعرض ما جرت عادته من المظال الخمسة التي جميعها مذهب وسلمها للأمراء حسب طبقاتهم»^(١).

أما ناصر خسرو فيصف المظلة وحاملها بقوله: ويسير مع السلطان حامل المظلة، راكباً حصاناً، وعلى رأسه عمامة مذهب مرصعة، وعليه حلية قيمتها عشرة آلاف دينار ذهبي مغربي. والمظلة التي بيده ثمينة جداً، وهي مرصعة ومكّلة بالجواهر»^(٢).



(١) م.س. نفسه. ص ٤٣٦.

(٢) سفرنامه، م.س. ص ٩٦.

حامل المذبة

أما المذبة فهي مروحة أشبه بنخلة يحملها خادم عادي، لا يداني صاحب المظلة بالرتبة، فحامل المظلة أمير محفك، أما حامل المذبة فهو من الفرسان العاديين، وظيفته، تأمين الهواء النقي للخليفة ونش الذباب والبعوض من حوله. ويصف المقرئ حاملي المذبتين في أحد الاحتفالات فيقول: «وبالقرب من الخليفة الصقليان الحاملان للمذبتين وهما مرفوعتان كالنخلتين، إما يسقط من طائر وغيره، والخليفة سائر على تودة ورفق».

ويصفها في احتفال آخر فيقول: «ويكون حول الخليفة المذاب التي كل منها عمودها من ذهب، وينفرد بحملها الصقالبة»^(١).

وقد فهمنا من هذا الوصف أن الصقالبة، ذوي العيون الزرقاء والشعر الأحمر، فقط هم المخصصون لحمل المذبة.

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٧٣.

صناعة العطور وأهميتها في مصر الفاطمية

يجد المتتبع لقضايا الحضارة والرقى عند الشعوب، أن الاهتمام بالمظهر الأنيق في الملبس يتبعه الاهتمام بالزهور والورود والمجوهرات والعطور، ويجد أن صناعة العطور تتطور بخط متواز مع صناعة الثياب والمجوهرات، حيث أن كل واحد من هذه الأمور الثلاثة مؤشر مهم من مؤشرات الحضارة المتقدمة، ودليل ناصع على المستوى العالي من التحسّس والذوق والرفاهية التي وصل إليه المهتمون بها.

وصناعة العطور في مصر الفاطمية وصلت إلى مستوى لم تصل إليه مصانع العطور في فرنسا وأوروبا وأمريكا، ونحن قد تجاوزنا عتبة الألفية الثالثة للميلاد. فلم نسمع حتى اليوم أن شخصاً ما في العالم، والعالم أصبح اليوم، بفضل التطور الهائل في مجال الاتصالات والبث الفضائي، قرية كونية صغيرة، فلم نسمع أن شخصاً أقدم على تصنيع تمثال من العنبر على مقاس جسمه لتعليق البدلة المقرر لبسها عليه، كما عمل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي.

تعريف بأنواع العطورات:

كانت صناعة العطور تتداخل مع صناعة التوابل لأن بعض التوابل كانت تستعمل تارة في تطيبب الأطعمة وطوراً في إشاعة الرائحة الطيبة كالبخور. لذلك كانت المؤسسة التي تهتم بخزن التوابل هي نفسها تهتم بخزن العطور على أنواعها، كما بعضها يدخل في تصنيع الشرابات والأدوية.

الدارصيني: وهو أحد أنواع القرفة له طعم ورائحة ذكية، ومنه ما يستعمل في صناعة الأدوية وبعضه يستعمل في تطيبب الطعام.

اللاذ: وهو نوع من الدبق المأخوذ من الشجر.

المسك: يحفظ في قوارير ونوافج (مفرد نافجة وهي وعاء المسك). والصنف الجيد منه، يعرف من رائحته القوية الجاذبة واللون الأشقر والطعم المر.

العنبر: أجوده ما يجلب من عمان، وخير أوصافه الخفة والبياض والدهنية، ومنه ما يميل لونه إلى الخضرة والصفرة.

الكافور: أجوده ما حلا طعمه وعذب ريحه.

عود الهند: وهو حين يحرق يصدر عنه بخور برائحة الرياحين والورود. وإذا عبق بالثياب يطول وقته لكي يختفي عبقه.

القرنفل: وهو عبارة عن أكباش القرنفل، تعرض للشمس فتبيس وتذق وتغربل من العفونة والنداوة.

الصندل: وهو نوع من قشر الخشب الذي يؤخذ من شجر الصندل الشبيه بشجر الحور.

الزعفران: وكلّ ما كان الزعفران جديد التصنيع يستخرج من
عشبة الزعفران وأفضله الأصفر الخالي من البياض.

ميزانية قصر الخلافة من خزانة التوابل:

كانت ميزانية قصر الخلافة، أيام الوزير الأفضل بن بدر
الجمالي، من العطور والطيب والبخور كالتالي:

- ثلاثون مثقالاً عود ند.

- مائة وخمسون درهماً كافور.

- خمسة عشر درهماً عنبر خام.

- عشرة مثاقيل زعفران.

- ثلاثون رطلاً بخور.

- خمسون درهماً زعفران.

- خمسة عشر مثقالاً مسك.

ويذكر المقرئ حصة الأخوة والأخوات والسيدة الملكة
والسيدات والأمير أبي علي وأخوته والموالي والمستخدمات، وحصة
من استجد أيضاً^(١) بالاسم والوزن والعدد.

ويعلمنا المقرئ أن المعز بن المنصور بن بُلْكِين بن زيري بن
مناد، الوالي الفاطمي على المغرب، كانت بعض هديته ثلاثة آلاف من
زعفراناً أي ما يصل وزنه إلى $3000 \times$ رطلان = 6000 رطل ÷
 $2,500 = 1500$ طن زعفران.

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٢٠.

وقد وجد في خزائن الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي بعد وفاته سنة ٤٣٦هـ، «مائة ألف مثقال من العنبر» أي ما يقارب من الطن ونصف من العنبر ولو لم يكن العنبر من أساسيات الحياة الاجتماعية الراغبة والمرفهة في الدولة المصرية، لما كان الجرجرائي قد خزن هذا القدر من العنبر.

ويخبرنا المقرئزي كيف قام الخليفة الظاهر في الجمعة الثانية للصلاة في جامع الأزهر فسبقه المبخرون «يبخرون بين يديه في المباخر الذهب والفضة والذهب المليئة بالعنبر».

وعندما ردّ الخليفة المستنصر على هدية ملك الروم بهدية مماثلة لها في القدر والقيمة، نعلم أنّ هذه الهدية هي من «المسك والعود، عمل تنيس ودمياط، ما هو أكثر قيمة مما بعته»^(١).

مما يشير إلى أنّ صناعة العطور والطيب والبخور ما كان يجلب إلى مصر مواداً أولية ثم يصنع في مصانع تنيس ودمياط.

وكان الفاطميون يرشون عمود المقياس بالعطور متى استوفى النيل زيادته ثم (يخلقون) وجوه الصبيان أيضاً بالعطور وكذلك السفن الصغيرة المعدة لهذا الاحتفال (العشاريات).

وعندما مات المؤتمن بن البطايحي وجد في خزائنه مائة برنية مملوءة كافوراً ومائة صندوق مملوءة بأعواد ند البخور.

ويقول المقرئزي: إنّ من موجودات قصر المستنصر مئات الأزيار (الخابي) الكبار المملوءة كافوراً وعدة كثيرة من جماجم

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ١٩٤.

العنبر ومن مسك التبت ومن تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف
تمثال كل تمثال وزنه ١٢ مناً (١٢ × ٥ كلغ = ٦٠ كلغ) أي وجد
في قصره ٢٢٠٠٠ × ٦٠ = ١٣٢٠,٠٠٠ / ألف وثلاثمائة وعشرون
طناً من العنبر / باعتبار المنّ رطلين /.

وأخرج منه أيضاً ٨٠٠ بطيخة كافور وبطيخة كافور في شبك
ذهب مرصعة بالجواهر تسع سبعين مناً.

فلا يعقل أن لا تكون العطور وصناعتها أمراً مهماً في الحياة
الصناعية والتجارية والاجتماعية اليومية داخل نسيج المجتمع
المصري الفاطمي. فضخامة هذه الأرقام، تدل على ضخامة الاهتمام
بالعطور ومشتقاتها.

الوزير الأفضل يعلق ثيابه على تماثيل من العنبر:

عندما أخبرنا المقرئ عن المشجب أو التمثال الذي كان
الأفضل يعلق الثوب المقرر لبسه في اليوم التالي، يقوله عنه: «لعبة
من عنبر على قدر جسده يرسم ما يعمل عليها من ثيابه لتكتسب
الرائحة». كما يشير إلى الكثير من أنواع البخور والطيب والمسك
والكافور المخزن في براني الذهب والفضة والصيني.

أهمية المزين:

وكان للمزين أو الحلاق في مصر الفاطمية أهمية وتخصص
وشهرة، فقد روى لنا المقرئ أنه في ليلة التاسع من شهر صفر
لسنة ٣٩٥هـ «ولد للخليفة الحاكم ولد فجلس في صبيحتها للهناء،

وكان سابع المولود، فأخرج على يد خادم إلى قائد القوادر، فتسلّمه حتى أعدّ المزيّن شعره ودُفع إلى المزيّن مائتا دينار وفرس»^(١).
فإذا كانت قصّة شعر الطفل بمائتي دينار وفرس من أفراس الخليفة، فهي مؤشرٌ ودليل على أهمية تصفيف الشعر في مصر الفاطمية.



(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٥٥.

الموسيقى

لم تكن الموسيقى من الفنون المهمة أو العادية، منذ أن عرف الشرق العربي، التجمّعات السكانية، فالنقوش السومرية والآشورية والكلدانية والفرعونية ما زالت ماثلة أمامنا بزخارفها ورسومها وتصاويرها، التي تظهر لنا الإنسان الشرقي، عازفاً وموسيقياً بارعاً.

وكتاب الاغاني لابي الفرج الأصبهاني، يُعدُّ من أقدم وأبكر الكتب التي أرخت للغناء والمغنين في تاريخ الإسلام والعروبة.

أما مصر، وبالأخصّ في عصور الخلافة الفاطمية، عصور الدعة والرفاهية والترف الذي لا مثيل له، فقد حملت لنا أخبارها، قصص الكثير من المغنين والمغنيات، كما صوّرت لنا مدوّناتها النثرية والشعرية، جميع أنواع الآلات الموسيقية، إلى جانب صور الحفلات الغنائية والموسيقية الرائعة الرائقة الشائقة.

وكانت الموسيقى في أول الامر شبه محرّمة في الإسلام وتعدّ من الآثام، شأنها في ذلك شأن النحت، لكن لم ينص على

تحريمها في القرآن، ولكن حديثاً مشكوكاً في صحته يعزو إلى النبي خوفه من عاقبة أغاني النساء الخليعات ورقصهن. قال ما معناه إن الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان، يستفز من استطاع إلى عبادته. وكان علماء الدين واتباع المذاهب الأربعة ينفرون من الموسيقى لأنها تثير الشهوات. ولكن منهم من قال متسامحاً إنها ليست محرمة بذاتها. وقد رافقت الموسيقى كل مرحلة من مراحل الحياة الإسلامية، وملأت آلاف الليالي العربية بأغاني الحب والحرب والموت، فكانت قصور الأمراء، وكثير من بيوت العظماء تستخدم المغنين ليطربوا أهلها بقصائد الشعراء أو بقصائدهم أنفسهم^(١).

وكيف إذا كان هؤلاء العظماء من الخلفاء الذين يملكون الدنيا وما فيها، فالبطبع، كانت الموسيقى والآلات الموسيقية إحدى أهم مستلزمات الأبهة والعظمة والفخامة في حياتهم اليومية. استعملوها في قراءة وترتيل القرآن، كم استعملوها في الاستعراضات العسكرية والاحتفالات الدينية والوطنية، وكانت وسيلة طرب وفرح وسرور في مجالس طربهم وغنائهم، ولن أقول لهوهم، لأنه لم يعرف عنهم أنه كان لهم مجالس لهو وطرب غير طرب الآيات القرآنية. وكانت مجالس اللهو والطرب تختص بالعامّة وكبار الموظفين والأمراء المصريين، لأنه لا يجوز للخليفة أن يكون إماماً معصوماً وينظر إلى اللهو والطرب.

(١) راجع: قصة الحضارة، ول ديورانت. م.س. ص ٢٥٦.

أهم الآلات الموسيقية المعروفة في مصر الفاطمية:

تقسم الآلات الموسيقية التي كان يستعملها المصريون أيام الدولة الفاطمية إلى قسمين:

القسم الأول: وهي الآلات التي تختص بفن الإيقاع ومنها: الطبل والدف والنقارات والصنوج.

والقسم الثاني: وهي الآلات التي تختص بالآلحان وهي نوعان أيضاً.

ذات الأوتار: العود والربابة والطنبور والقانون.

ذوات النفخ: ومنها: الناي، والمزمار، والبوق والصفارة، والشبابة.

أوصاف الآلات الموسيقية التي كانت معروفة في مصر الفاطمية:

يصف المقرئ بعض الآلات الموسيقية وطريقة حملها وصوتها في احتفالات رأس السنة الميلادية فيقول: «ثم يخرج من النقارات حمل عشرين بغلاً على كل بغل ثلاث نقارات مثل الكوسات يقال لها طبول، فيتسلّمها صنّاعها ويسيرون في الموكب اثنين اثنين ولها حسّ مستحسن. وكان لها ميزة عظيمة عندهم، في التشريف».

ويؤكد المقرئ أنه فور جلوس الخليفة في المكان المعدّ له، يبدأ قراء القرآن بالتطريب «بآيات لائقة بذلك الحال، مقدار نصف ساعة»^(١).

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٤٤٧.

أما ابن تغري بردي فوصف الآلات الموسيقية والموسيقيين
في إحدى الاحتفالات الفاطمية، أيام الخليفة المعز لدين الله فقال:

ثم يأتي الوزير وفي ركابه قوم من أصحابه، وقوم يقال لهم
صبيان الزرد، من أقوياء الأجناد، يختارهم لنفسه، نحو خمسمائة
رجل من جانبيه، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير، بحيث تُدَوِّي
منهم الدنيا في عدد كثير^(١).

ووصفهم ناصر خسرو وأيام الخليفة المستنصر في إحدى
احتفالات عيد فتح الخليج فقال^(٢):

وفي اليوم الذي ذهب السلطان في صباحه لفتح الخليج،
استأجروا عشرة آلاف رجل أمسك كل واحد منهم إحدى الجناث
(الفرس) التي ذكرتها، وساروا مائة مائة، وأمامهم الموسيقيون
ينفخون البوق ويضربون الطبل والمزمار وسار خلفهم فوج من
الجيش.

ويبدو أن حب المصريين للموسيقى وللجوقات الموسيقية، التي
ما زلنا نراها في الأفلام المصورة قبل السبعينات من القرن
العشرين، كجوقة «حسب الله» وغيرها، ما هي إلا امتداد للعادات
المصرية الفاطمية، التي تذكر المصريين بأنهم كانوا أصحاب أقوى
وأعظم وأغنى دولة في العالم.

(١) راجع: النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، ص ٩٤.

(٢) سفرنامه، م.س. ص ٩٦.

الموسيقى في خدمة الدين والدولة:

كأي دولة تحترم نفسها وتخطط للسيطرة على عقول وأذهان وحواس شعوبها، كانت الدولة الفاطمية تستفيد من كل الأمور التي تجعلها عظمة الشأن عالية القدر في نظر شعبها، ونظر الشعوب المجاورة.

لذلك كانت الموسيقى والآلات الموسيقية والجوقات الموسيقية وسيلة مهمة من وسائل إظهار سمو الدولة ورفعتها.

كان الموسيقيون في مصر الفاطمية موظفون لهم رواتبهم الشهرية، إلى جانب العلاوات والهدايا والكسوات في كل المناسبات وهي كثيرة، ولكنهم كانوا يأتون في المرتبة الثانية بعد قراء القرآن والمؤذنين. والفريقان، وظيفتهما واحدة: تطريب الأذن وتشنيف السمع. ولكن المقرئين والمؤذنين، يطربون الأذن والقلب بالصوت الجميل والآيات الأجمل، والموسيقيون يطربون النفس والقلب والعقل بالنغم الجميل والكلمة الحلوة.

وصف لنا المقرئ احتفالات عيد الفطر لسنة ٥١٦هـ أيام الخليفة الأمر فقال:

ولما عرضت الدواب، «أبطلت الرهجية». والرهجية هم الموسيقيون الذين يسبقون الخليفة في كل احتفال.

«ثم عاد استفتاح المقرئين وكانوا محسنين فيما ينتزعونه من القرآن الكريم مما يوافق الحال مثل الآية من آل عمران: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ إلى آخرها، ثم بعدها، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ إلى آخرها».

وبعد بدء الاحتفال يقول: ثم خدمت الرهجية ومن جملتهم الغربية،
أبواق لطاف عجيبه الشكل، تضرب كل وقت يركب فيه الخليفة، ولا
تضرب قدام الوزير إلا في المواسم خاصة، وفي أيام الخلع عليه^(١).
كما أشار المقرئزي عند حديثه عن ميزانية سنة ٥١٧هـ، قد
تضمنت رواتب أصحاب الجوق الموسيقية.

ولما كان المسلمون الشيعة، يكون على الحسين خلال الأيام
العشرة الأولى من شهر المحرم في كل سنة، فقد كانوا يوظفون،
قصاصين، يرون مقتل الحسين بصوت شجي حزين جميل، يجعل
المستمع والمتلقي متأثراً بالصورة الكربلائية وبصوت النائح، وكانوا
يطلقون عليهم اسم الناحية، وكان لهم رواتبهم في ميزانية الدولة
المصرية الفاطمية أيضاً^(٢).

ويعلمنا المقرئزي أيضاً أن هناك أبواقاً خاصة مهمتها تقديم التحية
للخليفة، يطلق عليها اسم «أبواق السلام»، وهناك أيضاً آلة موسيقية
وأظنها نوعاً من الطبول الكبيرة اسمها الغربية، تضرب لجمع كل أفراد
الجوقة الموسيقية. كما يخبرنا أن الصبيان الحجرية يمشون أمام
الخليفة ينشدون الأناشيد ويتربون أذان الخليفة أيضاً^(٣).

ابن أبي الرداد تضرب له البوقات «تعظيم سلام»:

ابن أبي الرداد، هو المسؤول عن مقياس ارتفاع النيل، وهو الذي

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٥٢.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٦٥.

(٣) م.س. نفسه. ص ٤٧٣.

يشرف على السدود المؤدية إليه، وعن كنسها وتنظيفها سنوياً، وبيانه يؤدي إما إلى الغلاء والاحتكار إذا نقص النيل، أو إلى الرخاء ورخص الأسعار إذا ارتفع النيل وبلغ المعدل المطلوب. وهو ستة عشر ذراعاً وبعض الأصابع.

وكان الخليفة المعز قد منعه من إذاعة النتائج إلا بعد عرضها على قصر الحضرة. وصفه المقرئ في إحدى الاحتفالات بوفاء النيل فقال: ويتبعه الموكب إلى القاهرة، ويكون في البحر (النيل) في ذلك اليوم ألف قرقورة مشحونة بالعالم، فرحاً بوفاء النيل، ثم يسير في اليوم الثاني إلى القصر في الإيوان الكبير، فيجد خلعة معبأة هناك، فيؤمر بلبسها، ويخرج من باب العيد، شاقاً بالخلعة بين القصرين، قصد إشاعة ذلك بين الناس، لأن ذلك الأمر، من علامة وفاء النيل على أهل البلد. ويندب له الطبل والبوق، ويشرف بجملين من النقارات أمامه، فيسير شاقاً القاهرة ومصر، والأبواق تضرب أمامه. والطبل وراءه مثل الأمراء^(١).

ولا يبدأ الفعالة هدم السدود قبل أن تضرب الطبول والبوقات «من البرين» أي من طرفي نهر النيل، لجهة مصر القديمة ولجهة القاهرة. وعندما ينتهي قرأ القرآن قراءتهم وتطريبهم، يبدأ البواقون وأصحاب الطبول، ثم يبدأ ضرب المعاول.

وهكذا، نجد أن الموسيقى التي كانت تشجعها الدولة وهي الموسيقى المنشطة للإيمان وللكرامة الإنسانية وللعز والمنعة

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٧٧.

والفخار، أما الموسيقى المهيّجة للعواطف والمشاعر الجنسية، فقد كانت لا تلقى تشجيعاً رسمياً من قصور الخلافة والوزراء، ولكن هذا، لا يعني أنها لم تكن موجودة، بل كانت موجودة وبقوة في قصور الأمراء والوزراء وكبار الدولة والتجار والعامّة على السواء.

الموسيقى خبز الشعب المصري الفاطمي:

مجتمع مصر الفاطمية، مثله مثل كلّ المجتمعات الإنسانية، غير أنّه يمتاز عن غيره بنكهة خاصة تجعله طليعي في كلّ المجالات واللقطات المميّزة والصور الإنسانية التي لا تجدها إلا في مجتمع كالمجتمع المصري.

فمثلاً أوّل من أقدم على تدريب القُرود على صفع المشهّر به من الخونة والصوص، هم المصريون في ظل الدولة الفاطمية، وكان المشهّر به أو المطوّف، يُطوّف على حمار أعرج. خلفه قرد يصفعه على رقبتّه، ويصب على رأسه اللبن، ويجر الحمار الأعرج رجل بيده جرس، «يجرّسه» ويحكي خيانتّه أو جنائته بصوت عال، كقوله عند «تجريس» منير الخادم، الخارج على الخليفة العزيز بالله: «هذا، منير، لعنه الله، أصبحت دياره خالية، وكلابه عاوية، ونساؤه صائحة. طاعنته الرماة، ونازلته الحماة. هذا جزاء من نافق على الله، عزّ وجلّ وعلى مولانا العزيز بالله»^(١).

وفي احتفالات عيد النوروز وعيد الغطاس، كان المصريون يتجمّعون على شواطئ النيل في القاهرة ومصر، ويقضون أيام

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٧٠.

الاحتفالات في رقص وشرب وغناء وموسيقى، وكان يحضر هذه الاحتفالات رجال مصر من أكبرها كالخليفة، إلى الوزير إلى الصغير.

ويخبرنا المسبّحي عن المخنث البغدادي الذي وجد مقتولاً في داره «وكان يزمر مليحاً، وله جوار في منزله يغنون، وكان موسراً كثيراً المال، وكان يحب المردان، وينفق عليهم الدنانير الكثيرة»^(١).

وهذا الخبر، يعتبر من الأخبار العادية، ففي كل مجتمع متحضّر ومتطور، حالة أو أكثر، مشابهة لحالة المخنث البغدادي. ونحن استفدنا من إيرادها من قبل المسبّحي حيث استنتجنا أن بيوت «العوالم»، ومن يحيي حفلات الطرب والغناء موجودة منذ أيام مصر الفاطمية.

الخلفاء المصريون يتغاضون عن المغنين:

كان الوزراء وكبار أمراء وقادة الدولة الفاطمية يعشقون الطرب والغناء والموسيقى، وكانوا يشجعونها، فالوزير برجوان، وزير الخليفة العزيز، «كان كثير الطرب شديد الشغف به، فكان يجمع المغنين من الرجال والنساء في داره، ويكون معهم كأحدهم، ولا يخرج من داره، حتى يمضي صدر من النهار، ويتكامل الناس على بابه»^(٢).

وقد أدى تفرّغه للغناء والطرب والموسيقى إلى مقتله من قبل الخليفة الحاكم.

أما يعقوب بن نسطاس القبطي النصراني، طبيب الخليفة الحاكم

(١) أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ٢٢٦.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٦.

بأمر الله، كان يعشق الغناء والموسيقى وقيل عنه: «إنه لا يُغنى له صوت قط، إلا ويحفظه من المرة الأولى، ولو غنى مائة مَغْنٍ مائة صوت في مجلس واحد، لحفظ سائر ما غنَّوه به، وتكلم على الحانها وأشعارها. وكانت له يد في الموسيقى»^(١).

كما يخبرنا المقرئ أن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أرسل أبا القاسم بن رزق البغدادي سنة ٤١٥هـ، بهدية إلى حاكم صقلية وعلمنا أن فيها مغنيات من قصر الحضرة.

والموسيقى الدينية والرقص الصوفي، كانت من اهتمامات الخلفاء الفاطميين. فقد أخبرنا المقرئ، أن الخليفة الأمر، «جدد سنة ٥٢٠هـ، قصر القرافة، وعمل تحته مصطبة (خشبة مسرح) للصوفية، وكان يجلس في الطائفة بأعلى القصر، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية، بالمجامر والأدوية موضوعة بين أيديهم».

وقد كان لجده الخليفة الحاكم بأمر الله كذلك «صوفية يرقصون بين يديه ويتربون ولهم عليه جار مستمر»^(٢).

وقد وصف المقرئ عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بأنها «أيام سكون وطمأنينة، وكان الظاهر مشتغلاً بالأكل والشرب والنزهة وسماع الأغاني. وفي زمانه تأنق أهل مصر والقاهرة في اتخاذ المغنيات والراقصات، وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة»^(٣).

(١) م.س. ص ٧٠.

(٢) م.س. نفسه، ص ١٢١.

(٣) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٢٣.

وصف بعض الآلات الموسيقية وألحانها شعراً:

أكثر الشعراء المصريين الفاطميون من وصف الآلات الموسيقية التي كانت مستعملة في أيامهم، كما أكثروا من وصف ألحانها وأثرها في النفوس والقلوب.

ففي وصف شبابه يقول القاضي الجليس^(١):

وشبابة شبت لظل الشوق في قلبي تذكّرني عهد الصبابة والحب
أما الأمير تميم فيقول في وصفها^(٢):

الست ترى سحاب اللهويهمي على اللذات أمطار السرور
ورجع الزمريشكوما الأقي إلى الأوتار من ألم الزفير
وصوت الطبل بينهما ينادي ألا هبوا إلى شرب الكبير
وقول أبي الرقعمق في الليالي الماجنة التي كان يقضيها على شواطئ النيل:

ليالي النيل لا أنساك ما هتفت وُرُق الحمام على دوح وأغصان
كم بالجزيرة من يوم نجمت به على تصاخب نايات وعيدان
وأجمل وصف للمغنية وللغناء وللآلة الموسيقية قول أبي الحسن علي بن يونس المنجم^(٣):

غنّت فأخفت صوتها في عودها فكأنما الصوتان صوت العود
غيداء تأمر عودها فيطيعها أبداً ويتبعها اتبّاع ودود
اندى من النوار صباحاً صوتها وأرق من نشر الثنا المعهود
فكأنما الصوتان حين تمازجا ماء الغمامة وابنة العنقود

(١) بدائع البدائع، علي بن ظافر الأزدي، م.س. ص ١٨٦.

(٢) ديوان الأمير تميم بن المعز. م.س. ص ١٤٧.

(٣) يتيمة الدهر، للثعالبي، الجزء الأول، ص ٤٥٠.

النحت والتصوير والتطريز، وسيلة إبداعية للتعبير عن الذوق الجمالي المصري

ما من نهضة حضارية ازدهرت في أمة من الأمم خلال حقبة من الحقب إلا وكان ازدهارها نتيجة لتزاوجها بثقافة حضارة خارجية وفدت عليها^(١). هذا هو المفهوم العام المتفق عليه عند مؤرخي الحضارات. ولكن المتتبع لتطور الحضارة المصرية الفاطمية، يجد أنها أقرب للقول: أنها كوَّنت نفسها بنفسها، فحضارة مصر الفرعونية، مع الحضارة الإغريقية والرومانية والإسلامية، كلها كانت موجودة وامتازجة ومتزاوجة على أرض الكنانة، وجاء الفكر الإسلامي الشيعي الإمامي فبصمها ببصماته ذات الخصوصية المختلفة عن بقية الاتجاهات الإسلامية الأخرى.

فالتنظيم المالي الشيعي الإمامي الذي يجعل من لإنسان المسلم رقيب نفسه ضريبياً إذا صح التعبير، يجعل من كل إنسان مراقباً

(١) راجع: العرب والحضارة الأوروبية، محمد مفيد الشوباشي، ط ١، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سنة ١٩٦١، ص ٣.

مالياً وضريبياً على دخله، يأخذ منه الخمس والفطرة والنجوى
ويقدمها للإمام الخليفة ويترك الزكاة للدولة.

وهذا النظام حوّل مصر إلى خزانة من المال مملوءة بجميع أنواع
العملات النادرة، مما حوّل الإنسان المصري من إنسان تاجر إلى
إنسان شاعر، فنان، نحّات، رسّام، ومصمّم أزياء، لا يفكر بشعب بطنه
لأنّه متخّم، بل يسعى لتحقيق ذاته وتفردّه وإبداعه في المجالات
الذوقية المتمثلة في النحت والتصوير والتطريز. عدا الشعر والفلسفة
والهندسة والكيمياء والطبّ والعلوم الفلكية.

النحت وصناعة التماثيل:

لم يهتم المسلمون بفن النحت وصناعة التماثيل لأنّه يذكرهم
بأصنام الجاهلية التي حاربها وكسرها الإسلام، فالتماثيل وتصنيفها
مكروه في الإسلام. من هنا لم يقدم أي فنان مسلم أو مسيحي
مصري على إقامة أو نحت تمثال أدمي. بل اتجهت كلّ المنحوتات
نحو الحيوانات والأشجار على أنواعها.

يخبرنا الرشيد بن الزبير أنّه أخرج من قصر المستنصر اثنتان
وعشرون ألف تمثال من تماثيل العنبر، ولكن كيف كانت أشكال هذه
التماثيل، فلا نعلم.

ومن التماثيل أيضاً تمثال الطاووس الذهب المرصّع بجميع أنواع
المجوهرات وحبّات الماس والياقوت الأحمر، إضافة إلى تمثال الديك
المعمول من الذهب الخالص ذي العرف المرصّع بسائر ألوان الدرّ
والياقوت والمجوهرات.

وكذلك تمثال الغزال الذي يظنّه الناظر (مثل لون الغزال وهيئته)،

لون بطنه أبيض دون سائر جسده على لون بطون الغزلان، وهو عبارة عن منظوم در (لؤلؤ أبيض) رائع^(١).

وكنا قد أشرنا إلى النخلة المكلّلة بجميع أنواع الجواهر، على شكل عناقيد البلح والرطب والبسر.

ويخبرنا المقرئ عن ما كان يورّعه الخلفاء الفاطميّون على أرباب الدولة والأمراء والقواد وعامة الناس بمناسبة احتفالات فتح الخليج، فيقول إنّ هذه التماثيل تعمل في بيت المال وهي على «شكل الوحوش من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات، منها ما هو ملبس بالعنبر ومنها ما هو ملبس بالصندل، ومنها ما هو على شكل الأشجار التي تحمل التفاح والأترج (الليمون البوملي) اللطيف. وتماثيل الوحوش مفسّرة الأعين والأعضاء بالذهب»^(٢).

وكنا قد أشرنا إلى إقدام السيدة العزيزية على إهداء أخيها الإمام الحاكم بأمر الله من جملة ما أهدته، بستاناً من فضة مزروعاً بجميع أنواع الشجر.

وكذلك الشمسة التي صنعها الخليفة المعزّ لدين الله من أجل تعليقها في الكعبة كلّ سنة تكريماً لها، وكانت من الذهب الخالص. وجُعِلَ فيها إثنا عشر هلالاً ذهباً، داخل كلّ هلال أترجة كبيرة الحجم، وفي كلّ أترجة (ليمونة)، خمسون حبة لؤلؤ، كلّ حبة بحجم بيضة الحمام.

(١) راجع: كتاب الذخائر والتحف، ص ٢٦٠.

(٢) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٧٧.

وقد ذكر لنا أحد الباحثين وجود بعض المنحوتات الفاطمية في المتاحف العربية، منها، كتلة من الرخام عليها رسم سبع، نقش نقشاً كبير البروز، ويخيّل للرائي أن هذا السبع يزحف ببطء، وتدل دقة الرسم، وبيان العضلات، وصلابة المظهر، على أنه من صناعة العصر الفاطمي، فهي الفترة التي بلغ فيها الفنانون المصريون أقصى ما وصلوا إليه في دقة رسم الإنسان والحيوان والطيور.

ويوجد أيضاً متكأ خابية (زير) من رخام على شكل سلحفاة، منقوش على جانبيها رسم سبعين لهما جناحان، كلّ منهما يولّي ظهره للآخر، ودقة رسم هذين السبعين، يدلّان على أن هذه التحفة الأثرية، ترجع إلى العصر الفاطمي^(١).



(١) راجع: كنوز الفاطميين، م.س. ص ٩٧.

فن التصوير أو الرسم

أدى التطور اللافت في نظم العيش تحت ظل الحضارة الفاطمية إلى تجاوز الأحاديث النبوية الشريفة التي تحرض الإنسان على عدم الاهتمام بالصور والتماثيل، كما كان للحرية اللامتناهية التي سمح بها الخلفاء الفاطميون إلى تطور فن التصوير ووصوله إلى مستويات عالية راقية تدلّ على شدة تدريبهم وتمرسهم في هذا الفن.

يطالعنا المقرئ في كتب التاريخ بذكر صورة المرأة التي رسمها المصريون ووضعوها في طريق العزيز ليعبروا من خلالها عن سخطهم على نائبيه: منشأ بن إبراهيم القرّاز في دمشق الشام، وعيسى بن نسطورس في القاهرة.

ويقول المقرئ: إنهم وضعوا الصورة في طريق العزيز ووضعوا في يدها عريضة الاحتجاج التي جاء فيها:

«بالذي أعزّ اليهود بمنشأ، والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذلّ المسلمين بك، ألا كشفت ظلامتي».

ويقول المقرئ: وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز

والرقعة بيدها، فلما رآها أمر بأخذها، فإذا الصورة من «قراطيس».

والخبر بمجمله يدل على قدرة الفنان المصري على تصوير ورسم المرأة بطريقة تدل على قربها من الشكل الإنساني الذي لم يستطع الخليفة العزيز أن يميّز بينه وبين الصورة.

صورة الشعراء المصريين في منظر بركة الحبش:

وكذلك أورد المقرئ في كتابيه، الخطط واتعاظ الحنفاء، خبر إقدام الخليفة الأمر لأحكام الله على رسم صورة لكل شاعر من شعراء بلاطه في منظر بركة الحبش. وكل صورة كتب في أسفلها معلومات عنه وعن بلده وطلب «من كل واحد منهم قطعة من الشعر في مدحه. وكتابة القطعة فوق رأس صاحبها، ووضع بجانب صورة كل منهم، رف لطيف مذهب. فلما دخل الخليفة الأمر لقراءة قطعة مدح كل منهم، أمر أن يُحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً، ثم طلب من كل شاعر أن يدخل ويأخذ صرته بيده، ففعلوا»^(١).

أما الألف ستارة التي أخرجها الأتراك من خزائن المستنصر، يقول المقرئ عنها إنها كانت تضم «صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، مكتوب تحت صورة كل واحد منهم اسمه ومدة أيامه ونبذة عن حياته»^(٢).

(١) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤٨٦.

(٢) م.س. نفسه، ص ٤١٧.

وكذلك حدثنا عن خريطة العالم الخاصة بالخليفة المعزّ فيها
«صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها،
وفيهما صورة مكة والمدينة ظاهرة للنظر مكتوب فيها اسم كلّ مدينة
وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق بالذهب والفضة».

سوق المصوّرين:

يخبرنا المقرئ عن وجود أكثر من عشرين دكاناً للمصوّرين
والرسامين، يقصدهم الناس لرسم أشكالهم ولرسم أشكال تطرّز
على الثياب بخيوط الذهب والفضة والحرير.

الوزير اليازوري يجري المسابقات بين المصوّرين المصريين:

كتب زكي محمد حسن عن فن التصوير في العصر الفاطمي
فقال: «أما في العصر الفاطمي، فلا شك في أن صناعة التصوير
أينعت وكانت لها ثمرات طيبة، إذ أننا إذا استثنينا الحاكم بأمر الله،
فقد كان الخلفاء الفواطم شديدي التسامح الديني. ويدلّ ما يرويه
المؤرخون، ولا سيما المقرئ، على أنهم كانوا يشجعون المصوّرين
ويشملونهم برعايتهم. وكان الوزراء وكبار رجال الدولة يحذون حذو
الخلفاء. وطبيعي أيضاً أن يقفوا أثرهم الأغنياء وأعيان التجار»^(١).

وقد أورد أحمد بن علي المقرئ خبراً يشير إلى أهمية فن
التصوير والرسم في حياة مصر الفاطمية وإلى المسابقة التي أجراها
الوزير علي بن عبد الرحمن اليازوري بين المصوّرين والرسامين

(١) كنوز الفاطميين، م.س. ص ٩٠.

المصريين فقال: وكان القصير وابن عزيز (رسامان مصريان)، في أيام اليازوري سيد الوزراء الحسن بن علي بن عبد الرحمن، وكان كثيراً ما يحرّض بينهما ويغري بعضهما على بعض، لأنه كان أحبّ ما إليه، كتاب مصوّر أو النظر في صورة أو تزويق. ولما استدعى ابن عزيز من العراق فأفسده. وكان قد أتى به لمحاربة القصير، لأن القصير كان يشتطّ في أجرته، ويتباهي في صنعته، وهو يستحقّ ذلك لأنه كان في عمل الصورة، كابن مقلّة في الخطّ، وابن عزيز كابن البوّاب. وكان اليازوري قد أحضر بمجلسه القصير وابن عزيز، وطلب منهما إظهار مقدرتهما، فقال ابن عزيز أنا أصوّر صورة إذا رآها الناظر، ظنّ أنها خارجة من الحائط، فقال القصير: لكن أنا أصوّرهما، فإذا نظرهما الناظر ظنّ أنها داخلّة في الحائط، فقالوا هذا أعجب، فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به من صور، فصوّرَا صورة راقصتين في صورة حنّيتين مدهونتين متقابلتين. هذه ترى كأنّها داخلّة في الحائط وتلك ترى كأنّها خارجة من الحائط، فرد عليه القصير بتصوير راقصة بثياب بيض في صورة حنّية دهنها أسود كأنّها داخلّة في صورة الحنية، فرد على ابن عزيز برسم صورة راقصة بثياب حمر في صورة حنية صفراء كأنّها بارزة في الحنية، فاستحسن اليازوري ذلك، وخلع عليهما وهبهما كثيراً من الذهب»^(١).

(١) راجع: الخطط المقرّية، الجزء الثاني، ص ٢١٨، وقد ورد اسم الوزير اليازوري بالباء وربما كان الأصح بالباء نسبة لبلدة اليازورية في جبل عامل، حيث كان جبل عامل ولا يزال على مذهب الشيعة الإمامية.

ومن سياق هذا الخبر نستنتج أنه كان هناك كتب تهتم بفنّ الرسم والرسامين وإبداعاتهم وصورهم. وقد ذكر المقرئ شغف الوزير اليازوري بمطالعة هذه الكتب وإمعان النظر في صورها ورسومها ومتابعة أخبار الرسامين وذكر اسم كتاب: «طبقات المصورين» المنعوت بـ: «ضوء الفبراس وأنس الجلّاس في أخبار المزوّقين من الناس».

ومنهم من نسب هذا الكتاب إلى المقرئ نفسه، ومنهم من نسبه لغيره. وهو مفقود.

فن الرسم على الثياب أو التطريز:

عندما يصف لنا المقرئ مهرجان فتح الخليج، ويشير إلى الخيم المنصوبة أمام نهر النيل في الساحة التي يجلس فيها الخليفة والحاوية للتفرّج على عملية فتح السدود. فيقول عن منظرة السكرة، مبتدئاً بوصف الطريق نحو مكان نصب الخيم: «وقد زُين لهم جميع ما يكون أمامهم من الطرق، جميعها: حوانيتها ودورها وجميع مساكنها وأبواب حاراتها بأنواع من الستائر الديباج والديبقي على اختلاف أجناسها ونصبت الخيام التي جمعت جميع الصور الآدمية والوحشية».

ومن هذه الخيم خيمة القاتول التي طرّزت بجميع أنواع الصور الآدمية والوحشية.

وعندما يتحدث أيضاً عن ما أخرج من خزانة الخيم أيام الخليفة المستنصر، يصف تطاريزها وتخاريمها وتساويرها فيقول عنها: «منها

المفيل والمسبّع والمخيل والمطووس والمطير، وغير ذلك من سائر
الوحوش والطيور والآدميين، من سائر أشكال الصور البديعة الرائعة.
منها الساذج (سادة) والمنقوش في ظاهره بغرائب النقوش»^(١).

والثياب المفيلة هي المخرمة بصور الفيلة والمسبّعة المطرزة
بصور السباع والمخيلة، بصور الخيل، والمطووسة بصور الطواويس
والمطيرة، مخرمة بصور الطيور، والساذج أي أن الصورة من لون
واحد، والمنقوش، من عدة ألوان.

وكذلك حدثنا المقرئ عن إخراج ألفي عدل ثياب والعدل في لغة
جبل عامل كيس كبير يسع أكثر من مئتي كلغ قمحاً وقال إنها: «شققاً
طميماً لم تستعمل، وكلها مذهب معمول بسائر الأشكال والصور».

ويصف لنا الحصر التي أخرجت من القصر أي السجّاد، فيقول
إنها «مجوم ومطيرة ومفيلة، ومصورة بسائر الصور». وأظن يقصد
بالمجوم، أي القماش الذي خرّم وطرز بصور الجامات، مفرد جام
وهو كأس الخمرة أو الشراب أو الصحن الكبير.

(١) الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٢١٨.

سوق الصاغة وصناعة المجوهرات

لم تعرف الفنون التشكيلية كالنحت والتصوير وأعمال الزخرفة على المنسوجات والعمارة وصقل الجواهر، طريقها إلى الإبداع عند العرب، إلا بعد العصر العباسي الأول، فهذه الفنون كانت عرفت في الحضارة الفارسية والحضارة اليونانية دون أن تعرفها الحضارة العربية بالمستوى المطلوب.

ولكن عندما دخل العرب والإسلام بلاد هذه الأمم ودخل أهلها في الإسلام، تطورت هذه الفنون بشكل ظاهر، حتى ذابت في روحية العروبة والإسلام، ثم أنتجت فناً عربياً إسلامياً خالصاً، وبالأخص في مصر في ظل الإسلام الشيعي الفاطمي.

ربما لم يعرف النحت طريقه، لكره العرب والإسلام الأصنام، ولكن الزخرفة وإبداع التحف الجميلة، دخله المصريون من الباب الواسع.

وقد صبغت النزعة الواقعية الحضارة المصرية الفاطمية بطابعها، دون إنكار الغيبيات، فلاحظنا، وبالرغم من عدم إقدام المصريين الفاطميين على نحت التماثيل، ولكنهم أبقوا على ما تركه الفراعنة من

أصنام وتمائيل وحافظوا عليها، ولم يقدموا على هدمها كما فعل الأيوبيون.

ولكنهم بالمقابل أفرغوا كل فنهم وخيالهم وعبقريتهم في المصاغ والحقى والمجوهرات التي صاغوها على شكل تماثيل وتحف جميلة وفاخرة. لذلك اتجهوا لكل ما يستعملونه في حياتهم اليومية والاجتماعية فصاغوا منه صوغاً عجباً يدل على علو الذوق الجمالي في فن صياغة المجوهرات.

أجمل المجوهرات:

عندما كتب القاضي الرشيد بن الزبير وهو أحد أهم رجالات الخلافة الفاطمية، كتابه: الذخائر والتحف، رغم أنه أضاف عليه بعض تحف العباسيين، ولكن أكثره جاء سرداً لما أخرج من تحف ومجوهرات من قصر الخليفة المستنصر ومن هذه التحف: الشمسة: وكنا قد عرفنا بها وأشارنا إلى سبب صنعها وما تحوى من غالي المجوهرات وعظيم القيمة.

وقد أخبرنا المقرئ أني أنها احتاجت إلى ثلاثين ألف مثقال ذهباً لتصنيعها $4,687 \times 30,000 = 140$ كلغ وإلى عشرين ألف مثقال فضة $4,687 \times 20,000 = 94$ كلغ، ورصعها بثلاثة آلاف وستمئة جوهرة نفيسة^(١).

وعندما وصفها آدم متز، انبهر بها أشد الانبهار^(٢).

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٢٩٤.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، م.س. ص ٢٢٩.

أما العسجة:

فهي درقة (ترس) مصقولة، صقلاً جيداً كبيرة الحجم، إذا انعكست أشعة الشمس عليها، تعود منكسرة تبهر الانظار وقد وضعها الخليفة الحاكم بأمر الله في صحن الإيوان لإبهار رسول ملك الروم، وكان له من العمر حينها ست عشرة سنة. ويقول المقرئ في وصفها: «عُلِّقَت العسجة بصدر الإيوان، وهي درقة مطعّمة بفاخر الجواهر النفيسة من كلّ أصنافها، وأضاء لها ما حولها ووقعت عليها الشمس، فلم تطق الأبصار تأملها كلالاً، فدخل الرسول وقبل الأرض»^(١).

الكلّوة:

أما الكلّوة. وقد حاولت أن أعرف ما هي الكلّوة واشتقاقها اللغوي، فلم أجد لها معنى في معاجم اللغة القديمة والحديثة فالمعاني التي وردت لا تعني الشيء النادر أو التحفة، فهي إما إناء أو حجر مستطيل الشكل، ولكن وصف القاضي الرشيد ابن الزبير لها، يدل على أنها من فاخر المجوهرات وفاخم التحف، وقد قال في وصفها: «الكلّوة المرصّعة بالجواهر وكانت من غريب ما في القصر ونفيسه، وكان وزن ما فيها من الجواهر سبعة عشر رطلاً»^(٢). وإذا كان وزن الجواهر التي رُصّعت بها سبعة عشر رطلاً، (١٧×٢,٥٠٠ = ٤٥ كيلو غرام جواهر)، فما وزنها هي إذاً؟.

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٤٠.

(٢) الذخائر والتحف، م.س. ص ٢٥٨.

الجوهرة اليتيمة:

عندما يصف لنا المقرئزي احتفالات عيد رأس السنة ويطلقون عليه «يوم افتتاح العام» يقول: يكون لباس الخليفة البياض غير الموشح بمنديل خاص وبدلة. فأما المنديل فيسلم لشاذ التاج الشريف فيشده شدة يقال لها شدة الوقار، وهي شدة غريبة لا يعرفها سواه. ثم يحضر إليه اليتيمة. وهي جوهرة عظيمة لا يعرف لها قيمة، فتتظم هي وما حوالها وما دونها من الجواهر، وهي موضوعة في الحافر وهو بشكل الهلال، من ياقوت أحمر ليس له مثال في الدنيا. وتنتظم على خرقة حرير أحسن نظم. ويخطها الخليفة ويقال إن وزن الجوهرة اليتيمة سبعة دراهم $(7 \times 125,3 \text{ غ})$ ٢٢ غرام). ووزن الحافر (الإطار) أحد عشر مثقالاً $(11 \times 4,687 \text{ غ})$ ٥٢ غ). وبدائر اليتيمة قسبة زمرد لون ذبابي (أزرق) لها قدر عظيم^(١).

مركز تحقيق التراث
مكتبة الملك سعود

كرسي الملك:

وصفه المقرئزي في خطه ووصفه الرشيد بن الزبير في كتابه «الذخائر والتحف» فقال إن الذي صنعه هو الوزير اليازوري للخليفة المستنصر وقد احتاج إلى مئة وعشرة آلاف مثقال ذهب ١١٠,٠٠٠ $\times 4,687 \text{ غ} = 825,000 \text{ غ}$ أي ٥١٥ كلغ ذهب، ورصعه بألف وخمسمائة وخمس وستين جوهرة، / ١٥٦٥ حبة /، فلم يسمع بكرسي ملك أو خليفة أضخم ولا أغلى ولا أثمن من هذا الكرسي.

(١) الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٤٨.

وإذا كانت الجواهر التي رُيِّتْ به ثمنها بثمن الذهب المعدّ للتصنيع فيكون ثمن الكرسي في أيامنا هذه $515 + 515 = 1030$ كلغ ذهب وإذا كان ثمن كيلو الذهب عشرة آلاف دولار أميركي، يصبح ثمن كرسي الخلافة بسعر صرف دولار اليوم: $1030 \times 10,000 =$ عشرة ملايين وثلاثمائة ألف دولار أميركي.

صداري نسائية من الذهب والفضة:

كانت الهدايا بين الخلفاء الفاطميين وولاتهم في الدول التابعة لهم، عادة متبّعة، الوالي يظهر من خلال عظمة وأبهة وضخامة وفخامة وطرافة هديته، ولاءه ومحَبّته للخليفة المصري، كما أن الخليفة المصري، يظهر أبهة الخلافة وعظمتها ورضاها عن واليها في البلد المرسل إليه الهدية.

ويخبرنا المقرئ أن المعز بن المنصور الصنهاجي أرسل سنة ٤٢٠هـ للخليفة الظاهر لإعزاز دين الله من ضمن هديته، عشرين جارية لم يُر لحسنهنّ، وعلى نهودهنّ حقائق الفضة،^(١).

هدية ملك الروم: سبعة طنّ من الذهب:

عندما يخبرنا المقرئ عن إقدام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله على نقض الهدنة بينه وبين الدولة البيزنطية، وعن سعي الرسل عبر القنوات الدبلوماسية لدى ولده المستنصر سنة ٤٣٧هـ، على إعادة هذه الهدنة وهذه العلاقات، ولما نجحت المساعي بين الدولتين،

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، م.س. ص ١٧٨.

أرسل إمبراطور الروم هدية للخليفة المصري، وصلت إلى القاهرة في الثامن من ذي الحجة لسنة ٤٣٧هـ. وكان من جملتها «ثلاثون قنطاراً من الذهب» أو ما عدده ٢١٦٠٠٠ دينار مائتان وستة عشر ألف دينار ذهباً تقدير القنطار الواحد ٧٢٠٠ دينار. واشتملت الهدية أيضاً على مئة صندوق مصفحة بالفضة، مليئة بأواني الذهب الخالص، فأرسل له الخليفة هدية بمثلها من جواهر ومسك وطران، إنتاج نفيس ودمياط. وقد أدرج المقرئ ملاحظته عن هدية مصر «أنها أكثر قيمة مما بعته»^(١).

ويخبرنا المقرئ عن هدية ملكة اليمن أروى بنت أحمد الصليحي، وهي عبارة عن «سبع وبيات من نفيس الدر الرفيع». والويبة تساوي ٨٠ كلغ فتكون هدية ملكة اليمن $٨٠ \times ٧ = ٥٦٠$ كلغ من «نفيس الجواهر».

سروج الخيل من الذهب الخالص:

كنا قد أشرنا إلى هدية ست الملك لأخيها الحاكم ومنها ثلاثون فرساً مسرجة بسروج، منها من الذهب الخالص، ومنها من البللور. وكذلك ضمت هدية المعز بن المنصور بن بلكين الصنهاجي ثلاثة أفراس منها فرس كميت (عليه سرج وزنه قنطار ذهب (٢٥٠ كلغ)، وفرس أشقر بسرج مخرم بآلاف حببات اللؤلؤ، وفرس أدهم (أسود) بسرج من الفضة الخالصة.

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ١٩٤.

البرادات والصحون كلها من ذهب:

لا نتفاجأ إذا قلنا أن الحضارة الإسلامية المصرية توصلت لاستعمال البرادات من أجل حفظ الأطعمة وتبريد الأشربة والفواكه قبل ألف سنة. وهذه البرادات كانت تعباً بالتلج وتقفل إقفالاً محكماً. وكانوا يرصعون هذه البرادات بأفخر الجواهر وأثمن الأحجار الكريمة^(١).

السيف والرمح والمذبة والمظلة ذهب بذهب:

عندما يصف لنا المقرئزي احتفالات فتح الخليج لسنة ٥١٦ هـ، ويصف موكب الخليفة الأمر، فنعلم أن السيوف والرماح والمذبات الخاصة بالخليفة، وأمراء العائلة المالكة، كلها ذهب بذهب.

وعندما يحدثنا المقرئزي عن قاضي الإسكندرية مكين الدولة أحمد بن عبد المجيد، عندما احتاج إليها سلطان الملوك حيدرة بن البطايحي بعضاً من دهن الشمع، فأمر القاضي مكين الدولة «أحد غلمان به بالمضي إلى داره لإحضار دهن الشمع، فما كان أكثر من مسافة الطريق إلا أن أحضر حُقاً مختوماً، فكُ عنه فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بللور فيه ثلاث طبقات، كل طبقة عليها قبة ذهب مُشبكة مرصعة بالياقوت والجواهر، طبقة دهن شمع مخلوط بالمسك، وطبقة دهن مخلوط بالكافور وطبقة دهن مخلوط بالعنبر، وأهداها للمؤتمن بن البطايحي».

وعلق المقرئزي على هذا الأمر بقوله: انظر - رحمك الله - إلى

(١) راجع: اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، ص ١٤٢.

من يكون دهن الشمع عنده في هكذا إناء، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه البتة. وهذه حال قاضي الإسكندرية، ومن هو قاضي الإسكندرية بالنسبة لأعيان الدولة بالحضرة؟.

نخلة من ذهب قيمتها مليون دينار ذهباً:

عندما اشتدت مطالبة ناصر الدولة بن حمدان للخليفة المستنصر برواتب جيوشه الوهمية، أخرج له المستنصر من قصره «نخلة من ذهب مكلّلة بجواهر بديعة ودُرر رائعة في إجانة من ذهب (صدر)، تجمع الطلع والبلح وسائر ألوان البسر والرطب بشكله ولونه، وصفته وهيئته، مصنوعة من ألوان الجواهر، لا قيمة لها». ولكن ناصر الدولة بن حمدان قدرها «بألف دينار ذهباً» مليون دينار. وإذا اعتبرنا أن القيمة حقيقية، فسعرها يغطي رواتب ٣٣٥ ألف موظف بمقدار مئتي دولار للموظف الواحد مما يعني أن قيمتها بسعر اليوم سبع وستون مليون دولار $200 \times 335,000 = 67,000,000$ دينار.

صالون الوزير الأفضل: بين الكرسي والكرسي صينية مملوءة بالمجوهرات:

كنا قد أشرنا إلى مجلس الوزير الأفضل الأدبي، الذي صنع على مدخله تماثيل لثمانى جوارى من العنبر يقدمن التشريقات للداخل بشكل آلي، ويعدن إلى مكانهنّ بعد دخول الزائر.

وصف المقرئ مجلسه بقوله: «وكان الأفضل في أوقات الشرب يصف في مجلسه صواني الذهب وبينها البراني المملوءة

بالجواهر، فإذا أحب، أفرغ البرنية في الصينية فتكون مثلها».

وقد قدرت ثروة الأفضل بميزانية الدولة المصرية المعاصرة^(١).

هدية الخليفة الظافر: ألف حبة لؤلؤ:

يخبرنا المقرئ أن الخليفة الظافر أهدى ناصر الدولة نصر بن عباس سنة ٥٤٩هـ، «صينية من ذهب فيها ألف حبة ما بين لؤلؤ وياقوت أحمر وأصفر وزمرد أخضر» وكانت هذه الهدية سبباً في اغتيال الخليفة الظافر.

أهم الجواهر التي عرفت في مصر الفاطمية:

وصف أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي أنواع المجوهرات التي كانت مرغوبة وموجودة بكثرة بين أيدي المصريين فذكر منها: الدرّ: وهو اللؤلؤ وأفضله «التار» المستدير الشكل، سعر المثقال الواحد منها: ثلاثمائة دينار وكلما صغر حجمها كلّ ما قلّ ثمنها وكذلك كلما كبر حجمها غلا ثمنها، ومنها ما يصل إلى 700 دينار ذهباً.

الياقوت: أفضل أجناسه الأحمر القاني اللون ويسمى «البهرماني» ويليه الأزرق الغميق اللون ثم الأصفر الفاقع اللون ثم الذهبي.

«وإذا كان الفص منه سالماً من الثقوب والتشعير وزنه مثقال (٤,٦٨٧ غ) ساوى أربعمئة دينار»^(٢).

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٧٠.

(٢) الإشارة إلى محاسن التجارة. م.س. ص ٤٤.

الزمرّد: يقول جعفر بن علي الدمشقي المصري الفاطمي: اعلم إنّ الزمرّد أجله الذبابي وأخسّه قيمة الذي يضرب إلى البياض.

الماس: حصى تختلف مقاديرها في الصغر والكبر، من وزن حبة إلى مثقال، جميعها مقرّن ذو زوايا خمس أو ثلاث. ولونه أبيض يشبه البلّور، يصعب كسره.

الفيروزج: أفضله ما صلب وحسنت مائيّته وغمقت زرقته.

المرجان: أفضله ما عظم منه وغلظ، وما اشتدّت حمرة، وأقلّه ما دقّ منه وهو بالأصل حيوان بحري.

العقيق: يقول أبو الفضل جعفر: إعلم يا أخي أن العقيق من أحسن الجواهر المليحة لولا كثرتّه. وأفضله العقيق الأحمر القاني اللون الحسن المائيّة والإشراق، وبعده الأصفر الذهبي اللون وأقلّه ما مال منه إلى البياض أو إلى السواد.

اللازورد: يجري عند الملوك مجرى العقيق، ولا يتخذّ منه إلا ما كان حسناً جوهره.

الجزع: أو الخرز اليماني وهو نوع من الحجار الصلبة.

البللور الصخري: يعرف بالمرو، وقد استخدمه القدماء في كثير من أعمال الزينة. وهو من أنواع الكوارتز الصخري أو البللور الصخري.

ومنه أيضاً العقيق اليماني وكذلك حجر اليشب المصري ذو اللون الأصفر أو الأسمر.

والعقيق اليماني، يطلق عليه تجار اليوم: أونكيس Onyx.

الزبرجد: قيل إنَّ الزبرجد هو أحد أنواع حجارة الزمرد كما قال
الفارابي^(١).

البلخش: وهو من الحجارة التي تشبه الياقوت وقد سُمِّي بلخشاً
للإشارة إلى موطنه: بلخشان. والإيرانيون يطلقون عليه اسم
«بذخشان».

سوق الصاغة في القاهرة المعزية. عشرون ألف محل:

عندما تحدث ول ديورانت عن القاهرة المعزية نقلاً عن ناصر
خسرو قال إنَّ بها عشرين ألف متجر مملوءة بالذهب والجواهر والأقمشة
المطرزة، إلى درجة لا يجد الإنسان فيها مكاناً يجلس فيه^(٢).

تلك هي مصر وحضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي، تختزن
الذهب والفضة والمجوهرات كما تختزن التراب. نهبها الأكراد
الإيوبيون وأكمل عليها المماليك والعثمانيون والإنكليز.

مركز تحقيق مكتبة برهان سودي

(١) راجع: الأحجار الكريمة في الفن والتاريخ. عبد الرحمن زكي، ط ١، القاهرة وزارة
الثقافة والإرشاد القومي، سنة ١٩٦٤، ص ١١٦.

(٢) راجع: قصة الحضارة، ول ديورانت، الجزء الثاني، من المجلد الرابع، ط ٢، القاهرة،
جامعة الدول العربية، سنة ١٩٦٤، ص ٢٦٧.

صناعة التحف والعاجيات وحب اقتنائها

كان حب التفرد بامتلاك النادر من الأشياء ولا يزال، من طبيعة الإنسان منذ عرفت الإنسانية شيئاً اسمه حضارة أو علاقات اجتماعية. وقد اقتضت ملكية الأشياء النادرة أو التحف على الطبقة الغنية والميسورة في كل مجتمع. فلا يعقل أن يستطيع العامل والفلاح أن يهتم بامتلاك التحف والنادر من الأشياء بسبب انشغاله بلقمة عيشه. وإذا كان تأمين لقمة العيش من الأمور الصعبة، فيقضي عمره في البحث عنها ولا يلتفت بتاتاً لما نسميه تحفة أو نادرة. بينما الغني والميسور بالطبع، سيكون إما ملكاً أو خليفة أو أميراً أو من كبار الموظفين أو التجار، سيكون البحث عن التحفة والنادرة أمراً مهماً بالنسبة له، من أجل إشباع غريزة الأنانية المتمثلة بالتفرد بامتلاكه شيئاً نادراً أو تحفة لا مثيل لها في محيطه الاجتماعي.

ولما حققت مصر في ظل النظم الإسلامية الشيعية التي تتمايز عن غيرها عن نظم المذاهب الإسلامية، وخاصة في المجالات المالية والاقتصادية كالخمس والفطرة ومال النجوى والإرث، استطاعت أن تحقق قفزة رهيبة في المجالات التنظيمية والإدارية والاقتصادية، جعلت منها ومن المجتمع المصري الفاطمي أغنى دولة في العالم،

وأكثر الشعوب رفاهية وثراء. وأصبح الفقر معدوماً، والغنى ليس طفرة، بل ظاهره اجتماعية. من هنا اتجه أغلب الشعب المصري لاقتناء التحف وفاخر الرياش وجليل المجوهرات وجميل المصاغ.

الفنان الفاطمي يوقع على ما يصنع من تحف:

يخبرنا زكي محمد حسن أنه وجد في إحدى الحفائر في منطقة بلنسية الإسبانية على علبة من العاج صنعت للخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٢هـ، وهي محفوظة الآن في المتحف الأهلي للأثار بمدريد وعلى غطاؤها كتابة مُطعَمة بالأحمر والأخضر وهذا نصّها: «بسم الله الرحمن الرحيم، نصر من الله وفتح قريب. لعبد الله ووليّه معد أبو تميم الإمام المعز لدين الله، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطيبين وذريّته الطاهرين صَنَعَهُ الخراساني»^(١).

الخيمة عند الفاطميين من أهم التحف:

عندما يخبرنا المقرئزي - عن خروج الخليفة العزيز لحرب الروم يقول إنه أخرج «الفازة الكبيرة» وهي من الخيم الكبار، عمودها الأساسي ارتفاعه ٤٤ ذراعاً (٣٠ متراً) تعلوها طاسة نحاس وزنها «سبعة عشر ألف درهم فضة» أي ما يساوي ١٧٠٠٠ × ٥,٢ غ = أي ما يقارب التسعين كلغ من الفضة. ويقول المقرئزي إنها كانت تُحمل أجزاؤها على سبعين جملًا.

والفازة الكبيرة لا تعد كبيرة أمام خيمة القاتول التي صنعها

(١) كنوز الفاطميين، زكي محمد حسن، م.س. ص ٢٣١.

الأفضل بن بدر الجمالي، ولا المدوّرة التي صنعها علي بن عبد الرحمن اليازوري. حيث أن كلّ خيمة منهما تفرش على مساحة فدانين أو عشرة آلاف متر مربع.

أهم التحف المنسوبة لأشخاص تاريخيين:

والتحفة لا تسمى تحفة بسبب جودة وندرة تصنيعها بل يمكن أن تكون تحفة، إذا كانت شيئاً عادياً منسوباً لشخص له اسمه وأثره في التاريخ.

ومن التحف المنسوبة لأشخاص تاريخيين وكانت بحوزة الخلفاء الفاطميين:

– سيف الإمام علي (ع)، ذو الفقار، وهو بالأساس كان ملكاً للعاص بن منبه، قتله – عليه السلام – في معركة بدر فصار إلى النبي (ص)، فأعطاه للإمام علي.

– صمصامة عمرو بن معدى كرب الزبيدي.

– سيف عبد الله بن وهب الراسي.

– سيف كافور الإخشيدي.

– سيف الخليفة المعز لدين الله.

– سيف الإمام الحسين بن علي (ع) وكان وزنه ٣٦٠ مثقالاً:

$$٣٦٠ \times ٦٨٧ = ١٧٠٠ \text{ غ.}$$

– سيف الأشر النخعي والد مالك بن الأشر.

– درقة حمزة بن عبد المطلب.

– سيف الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع).

ومن أهم التحف والرياش التي كانت في خزائن الخلفاء والأمراء
الفاطميين:

١ - حصيرة بوران بنت الحسن بن سهل، أهداها الخليفة
المأمون لها وزنها أربعون كلف من الذهب.

٢ - علب الشطرنج والنرد المصنوعة من أفخم أنواع الجواهر
والحجارة الكريمة، ومن الذهب والفضة والعاج والأبنوس.

٣ - أربعمئة قفص مملوءة بالمصاغ والمجوهرات أخرجت من
خزانة رصد أم المستنصر.

٤ - المنديل (العمامة) المنسوج من زغب الريش المدعو:
السمندل والعجيب فيه أنه غير قابل للاحتراق.

٥ - الطائر المصنوع من الذهب والمرصع بنفيس المجوهرات.
عيناه من ياقوت أحمر، وريشه من الذهب المُحَرَّق بالسواد كهيئة
ريش الطاووس.

٦ - ديك من ذهب له عرف كأكبر أعراف الديكة من الياقوت
الأحمر، مرصع كله بسائر الدر والجواهر وعيناه أيضاً من ياقوت
أحمر. وقال عنه المقرئ: إنه: «كان يحير ناظره كيفية تركيبه لالتئام
الصنعة فيه وملاحظتها».

٧ - غزال مرصع بنفيس الماس والجواهر والدر بطنه أبيض
صيف من در رائع، يخاله الناظر حيواناً طبيعياً.

٨ - خريطة العالم: وكنا قد أشرنا إليها، نسجت وخرمت بخيوط
الذهب الخالص.

٩ - نخلة الذهب المكلفة بجميع أنواع الدر والجواهر والماس.

١٠ - كرسي الخلافة أو سرير الملك.

١١ - ستارة الخليفة التي كلف صنعها ثلاثون ألف مثقال ذهب ورُصِّعت بآلاف الجواهر والدر والماس والياقوت.

١٢ - الشمس.

١٣ - بستان أرضه فضة مُحَرَّقة مذهبة، وطينه من الند المعجون، وأشجاره من الفضة، وثماره من العنبر والند وزنه ٣٠٦ أرطال:

$٣٠٦ \times ٢٥٠٠ = ٧٦٥$ كلغ. وبالتأكيد أن هذه التحفة تركب تركيباً لأنه لا مجال لحملها من قبل الأشخاص، إن لم تكن مؤلفة من عدة قطع. وعلى صعيد الكتب كانوا يقتنون الكتب بخط مؤلفيها والأقلام بخط وبراية أصحابها، كعلي بن مقلة، وعلي بن البواب وعلي بن هلال.

أما كاتب الدواوين «ابن عبد الكريم»، فهو أصدق مثال ونموذج رائق للإنسان المصري الفاطمي، ولإنسان الحضارة المصرية في ظل التشيع، ويكفي أن نعلم أنه إضافة إلى ٣٦٠ بدلة المفصلة على ٣٦٠ عمامة ومعلقة على ٣٦٠ مشجب ذهب، أخرج أيضاً من بيته متناً صندوق تحف وجواهر وثياب على اختلاف ألوانها وأنواعها.

وذكر القاضي الرشيد بن الزبير أن موائد الطعام محفورة حفرأ من حجارة الجزع واليشب، وكلها قطعة واحدة لا تجمع فيها ولا تركيب، سطحها وقوائمها منها وفيها.

كما أنه يكفي أن نشير أنه وجد للأفضل ثماني مائة جارية منها
خمس وستون محظية لها جناحها الخاص في قصره، مملؤ
بالكسوات والمجوهرات والمصاغ وآلات الذهب والفضة من كل
صنف، غير ما أشرنا إليه من أموال وطروش وعقارات وكتب وبراني
الدر والمجوهرات على أنواعها، والأموال النقدية ملايين الدنانير
الذهب: ١٢,٢٠٠,٠٠٠ دينار ÷ ٣ = ٤,١٠٠,٠٠٠ أربعة ملايين ومئة
ألف راتب الحد الأدنى للأجور = ٨٢٠ مليون دولار أميركي.

هذا فقط من موجوداته النقدية من ذهب وفضة. وتكرار هذه
المعلومات ليس على سبيل الحشو والاستطراد، بل على سبيل
الإنبهار بهذه الحضارة وغناها الفاحش.

ويوجد في كاتدرائية مدينة باييو (Bayeux) بفرنسا، علبة من العاج
على أربعة أرجل، مليئة بالزخارف وصور الطيور والطواويس كتب
عليها: «بسم الله الرحمن الرحيم، بركة كاملة ونعمة شاملة» وهي من
عاجيات مصر الفاطمية، كما أكد خبراء العاجيات والتحف^(١).

من جميل التحف التي أخرجها صلاح الدين الأيوبي من قصر
العاضد، إبريق ماء منحوت من حجر بللوري يسع مائة رطل ماء أي
٢٥٠ لتر ماء، وبالتأكيد هو نعارة أو زير أو جرة كبيرة على شكل
إبريق، لأن الإبريق هو ما يمكن حمله باليد، في لغة أيامنا هذه.

وقد علق تقي الدين أحمد بن علي المقرئ علي ما أخرج من قصر
العاضد من تحف ورياش فاخرة وعاجيات بقوله: «فإن قراقوش لم يجد

(١) كنوز الفاطميين، م.س. ص ٢٤٩.

في القصر كثير مال، لكنّه وجد فيه من الذخائر والتحف ما يخرج عن الإحصاء، ووجد منه من الأعلّاق النفيسة والأشياء الغريبة، ما تملو الدنيا من مثله، ومن المجوهرات، ما لا يوجد عند غيرهم مثله»^(١).

وعلق المستشرق ول ديورانت على ما أخرج من تحف ورياش من قصر الخليفة العاضد بقوله أيضاً: لقد كان الفاطميون أغنى حكام زمانهم، وقد عمّ الرخاء مصر، واضمحلت ثروة بغداد وضعفت قوتها، بينما زاد سلطان القاهرة وثراؤها، حتى وصل الأمر بأحد التجار المسيحيين في أحد المجاعات التي أصابت مصر، أن يطعم السكان، كلّهم من ماله الخاص، مدة خمس سنين^(٢).

كما وصف المقرئزي هذه التحف بقوله: «وأخرج من الذخائر ما لا شوهده فيما بعد من الدولة مثله نفاسة وغرابة، وجلالة وكثرة، وحسناً وملاحة، وجودة وسناء قيمة وعلو ثمن. ونقل منه التجار إلى الأمصار شيئاً كثيراً بعد أن امتلأت أسواق مصر منها».

مركز تحقيق التراث
مكتبة جامعة القاهرة

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٢٢٠.

(٢) قصة الحضارة ول ديورانت، ص ٢٦٨، والمسيحي المصري الذي أشار إليه ديورانت هو لؤلؤ الحاجب.

صناعة النحاسيات والفضيات الزجاج والخزف

من الطبيعي أن تصل هذه الصناعة في مصر ضمن الأجواء الاقتصادية المفتوحة على كل أنحاء العالم إلى مستوى من الرقي والتطور والذوق الفني، ما لم تصله صناعة أي دولة أخرى معاصرة، إن في بغداد أو في الأندلس أو في القسطنطينية، حيث كانت هذه العواصم الثلاث مع القاهرة، هي عواصم الدنيا، وكانت القاهرة محور هذه العواصم ونقطة انطلاق فنية، صناعية، ذوقية. ومن خلال الإشارات الكثيرة التي تركها المؤرخون عن صناعة النحاسيات والفضيات في مصر الفاطمية، نستنتج أن هذه الصناعة بلغت من مستوى الذوق الفني ما لم تبلغه الصناعات المعاصرة.

أهمية الفضيات والنحاسيات في خزائن الوزراء وكبار الموظفين:

عندما توفي الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي وجد له «سبعمائة صينية فضة» وغير ذلك ذكر في مكانه، ويتساءل القارئ: ما حاجة الوزير ومخازنه وخزائنه بهذا العدد الكبير من صواني الفضة والذهب؟ ولا جواب لهذا السؤال إلا في: «حب اقتناء التحف».

أما ما وجد في خزائن الأفضل من النحاسيات والفضيات، سبعمائة طبق فضة وذهب «ومن الأسطال والصحاف والأباريق والقذور والذبادي الفضة المختلفة الأجناس، ما لا يحصى كثرة، ومن براني الصيني (النحاس) الكبار المملوءة بالجواهر، الشيء الكثير»^(١).

ومما أخرج من قصر المستنصر إبان الشدة العظمى، قال المقرئزي: «صناديق سروج محلاة بالفضة، وجد فيها صندوق مكتوب عليه: الثامن والتسعون والثلاثمائة، وعدة ما فيها أربعة آلاف سرج» وتسعة عشر ألف غلاف (قاعدة) من النحاس والفضة لأوان بلورية، وآلاف السكاكين الفضة، وآلاف الصناديق الفضة المملوءة دوى (جمع دواة) وأقلام وسكاكين بري الأقلام».

ويقول المقرئزي أيضاً: «ووجدت عدة خزائن مملوءة من سائر أنواع الصيني (النحاسيات)، منها أجاجين كبار (طنجرة لغسل الثياب) محمولة، كل إجانة منها، على ثلاثة أرجل على صور الوحوش والسباع والناس والبهائم، معمولة لغسل الثياب»^(٢).

طقم صواني وطقم طناجر:

ويخبرنا المقرئزي، أن المتمردين أخرجوا من خزائن قصر المستنصر آلاف أطقمة الصواني والطناجر «من سائر أنواع الأطباق الخلع، سعة كل واحدة منها من العشرة أشبار، إلى ما دونها، شيء

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٧٠.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٨٦.

في جوف شيء، حتى تكون أصغرها سعة الدرهم. ومن الموائد، والجفان (خلقينة) الواسعة، بمقابض الفضة، التي لا يقدر الجمل القوي على حمل جفنتين منها لعظمتها»^(١).

وكذلك أخرجوا من خزائن الخليفة المستنصر آلاف الصناديق الحاوية لأطباق الطعام وكلها مصنوعة من الفضة ومحلاة بالذهب.

وكان الفاطميون ينصبون الخيم الكبيرة أمثال القاتول والمدورة للاحتفالات الكبرى وهي كثيرة، وكلّ خيمة لا تقل مساحتها عن عشرة آلاف متر مربع. ويخبرنا المقرئ أن «في بعض أسابيع المولد، أخرج ألفان وخمسمائة إناء من فضة برسم الخيم، وأخرج مرة عند ورود بعض رسل ملوك الروم فيما أخرج، آلاف الصواني الذهب والفضة الغربية الصنعة، ملئت كلها جوهراً فاخراً، وأربعة آلاف نرجسية (فازا) فضة، عمل فيها النرجس، وألفا بنفسجية (فازا) كذلك»^(٢).

وأخرج ناصر الدولة بن حمدان مئات خزانات المياه المعمولة من النحاس الصيني، كلّ خزان يسع «مائتي رطل وما فوقها (٢٠٠ × ٢٥٠ = ألف ليتر)، يقوم كلّ مئرد (خزان) منها على ثلاثة أرجل على صورة السباع وغيرها.

وأخرج من أزيار النحاس البللوري اللامع الآلاف. كلّ زير يسع ما لا يقل عن عشرة أرتال ماء، وكلّ زير له غطاء مكلّل بحبّ اللؤلؤ

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٢٨٦.

(٢) م.س. ص ٢٩٠.

النفيس. كما أخرج آلاف الطيافير النحاس^(١)، والطيفور عبارة عن صدر نحاس كبير، يسع خروف محشي، أو صدر كثافة كبير.

وكان المصريون الفاطميون، يستوردون النحاس الخام وخاصة النحاس الأصفر، من بلاد الأندلس «لاقتدار الصنائع على عمل التوتيا التي يعمل بها ورخصها، وأفضله المائل إلى الخضرة وأرداه ما كانت صفرتة مُبرّصة تميل إلى الحمرة»^(٢).

ومن الآثار التي ما زالت ماثلة أمامنا للعيان من المصنوعات النحاسية المصرية الفاطمية، تنور من النحاس، ما زال محفوظاً في جامع القيروان، كتب في أسفله بالخط الكوفي البسيط ما يلي: «عمل محمد ابن علي القيسي الصفار للمُعزّ أبي تميم»^(٣).

وهذه الأواني النحاسية والفضية من أطباق وصواني وصدور ومباخر وصناديق وطناجر، وأزيار، استعملها المصريون في بيوتهم وقصورهم، لحاجتهم إليها في حياتهم اليومية، كما أن التأنق في تزيينها وتطعيمها بجميع أنواع الصور والأشكال، يدل على مدى الرفاهية وبلغة العيش التي بلغت مصر في ظل الإسلام الشيعي الفاطمي.

(١) م.س. نفسه. ص ٢٩١.

(٢) الإشارة إلى محاسن التجارة، م.س. ص ٧٠.

(٣) كنوز الفاطميين، زكي محمد حسن، م.س. ص ٢٥٠.

الصناعات الزجاجية

يكتنف صناعة الزجاج والأواني الزجاجية في مصر الفاطمية مسحة من الرقة والجمال، لم تعرفها أي صناعة ثانية، وهذه الصناعة في مصر قديمة قدم مصر نفسها. توارثها المصريون أباً عن جد وجيلاً عن جيل، منذ العصور الفرعونية الأولى. فالصور والنقوش واللقى الزجاجية التي تركها الفراعنة تدل على عمق رسوخ قدم مصر في مجال الصناعات الزجاجية.

وفي الأمثلة التي استبقيناها من الكتب التي أرخت لحضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي، نستنتج منه عمق هذا الرسوخ.

وعندما توفيت العبددة بنت الخليفة المعز لدين الله، سنة ٤٤٢هـ، أيام الخليفة المستنصر، وجد في تركتها «تسعون طستاً وتسعون إبريقاً من صافي البلور». وقيل إن الوزير عبد الرحمن اليازوري، لفرط استحسانه منها طستاً وإبريقاً، طلبهما من الخليفة المستنصر، فوهبه إياهما.

ومما وجد أيضاً في تركة العبددة «سته وثلاثون ألف قطعة من محكم البلور. وجام (جاط) قطره ثلاثة أشبار ونصف وعمقه شبر،

مليح الصنعة وقاطرميز بلّور فيه صور ثابتة، سعته سبعة عشر رطلاً، ودكوجة (خزان) بلّور يسع عشرين رطلاً.

ويقول المقرئزي أنّ المتمردين على المستنصر، استخرجوا من خزائن قصره «عدة صناديق فيها كيزان الفقاع من صافي البلّور المنقوش، والمجروود». وكيزان الفقاع جمع كوز، تعني أباريق «البيرة»، لأن الفقاع يصنع من ماء الشعير، وكذلك شراب البيرة في أيامنا، أو الجعة.

ويقول المقرئزي: إنّ عماد الدولة بن الفضل، كان من المستفيدين مما أخرج من قصور المستنصر، وعندما قتل بيعت موجوداته، ومنها خردادي بلّور بقيمة ٣٦٠ ديناراً، وكوز بلّور بمئتين وعشرة دنانير. ويقول إنّ الأتراك أخرجوا من القصر خردادي وباطية من البلّور «في غاية النقاء وحسن الصنعة»، مكتوب عليهما اسم العزيز بالله، تسع الباطية سبعة أرطال ماء ويسع الخردادي تسعة أرطال. وقد وصلت هاتن القطعتان إلى طرابلس فدفع بهما ابن عمار، لصاحبها ثمان مائة دينار «فامتنع»^(١).

ونقل المقرئزي عن المعتمد أبي سعيد النهاوندي وهو أحد أمناء خزائن القصر، أنّ «مما أخرج من القصر وبيع بأبخس الأثمان ثمان مائة عشرة ألف قصعة بلّور، منها ما يساوي ألف دينار، ومنها ما يساوي عشرة دنانير» ويتساءل المرء، عن شكل ودقة صنع هذه القطعة، أو القصعة من البلّور التي يبلغ ثمنها ألف دينار ذهباً أي ما

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٨٢.

يساوي رواتب ٣٣٥ موظفاً بمستوى ٢٠٠ دولار للموظف الواحد
 $٣٣٥ \times ٢٠٠ = ٦٧٠٠٠$ دولار أميركي.

ويخبرنا المقرئ أيضاً عن إخراج تسعة عشر ألف غلاف
(سبية)، «كان في كل غلاف قطعة من البللور».

ومما أخرج أيضاً «عدة صناديق مملوءة مرايا وغيره من الزجاج
المينا، ما لا يحصى كثرة». «وعدة من الحمامات المعمولة من البللور
والطالقاني ومن الادم المذهبة بأحواضها ودككها، مساطبها وقصورها
وزجاجها، وسائر عُدِّها»^(١).

أما ما أخرج من خزانة السيدة رصد أم الخليفة المستنصر فقد بلغ
ستاً وثلاثين ألف قطعة بللور، «وقطرميز بللور فيه صور ناتئة عن
ضبطه يسع سبعة عشر رطلاً، ودكوجة بللور تسع عشرين رطلاً».

ومما أخرج أيضاً مجمع سكارج (جمع سكرجة وهي الصحن
الكبير) مخروط الشكل، من بللور، وفيه عدة سكارج يدخل الصغير
داخل الكبير، «يخرج منه ويعود إليه» فتحتة أربعة أشبار محكم
الصناعة، في غلاف خيزران مذهب، وأخرج أيضاً عدة قطر ميزات
بللور، فيها صور مجسمة بارزة، يسع كل منها عشرين رطلاً^(٢).

ومما صار إلى فخر العرب قطرميز بللور مخصص لحفظ النبيذ،
دفع فيه ألف دينار فرفض فخر العرب بيعه.

ووصل إلى بغداد على يد التجار من منهوبات القصور الفاطمية،

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٨٨.

(٢) م.س. نفسه، ص ٢٩٢.

«ثمانون ألف قطعة بللور، وبيع منه طشت وإبريق باثني عشر ألف دينار»^(١).

وبالتأكيد أنَّ سبب ارتفاع ثمن الطشت والإبريق هي حسن الصنعة وندرة الصياغة والفرّ، والشكل الجميل الجاذب للأنظار، وإلا فلا يعقل أن يصل ثمن قطعتي بللور إلى هذا المستوى من الثمن المرتفع.

والمحير ذكر المقريري قيام السيدة العزيزية بإهداء أخيها الخليفة الحاكم بأمر الله، سرجاً من بللور، وكيف يكون هذا السرج؟ وهل هو قابل للكسر أم صلب، وخاصة أنه معرض للضغط من قبل الفارس، وللهزّ عند ركض الفرس.

١٨ ألف قنديل زجاج في جامع ابن طولون:

عندما تحدّث ول ديورانت عن مساجد مصر الفاطمية، شبّهها بالقلاع، حيث يقول: «وقد كانت هذه المساجد، التي تبدو الآن أشبه بالقلاع، وما من شكّ في أنها قد صُمّمت لتكون قلاعاً، تزداد بكثير من روائع النحت والكتابات، والقناديل التي أضحت الآن تحفاً نادرة في المتاحف، وكان بمسجد ابن طولون وحده / ١٨٠٠٠ / ثمانية عشر ألف قنديل من الزجاج المطلي بالميّنا المختلف الألوان»^(٢).

وقد أشار الرحالة الفارسي ناصر خسرو في رحلته التي أطلق عليها اسم «سفرنامه» إلى سوق القناديل، كما أشار إلى أن التجار

(١) م.س. نفسه، ص ٢٩٦.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، م.س. ص ٢٧١.

المصريين والبقالين كانوا يبيعون بضائعهم، وخاصة المأكّل وكلّ ما يحتاج إلى أكياس وأوعية، يبيعونها بأكياس وأوعية «من زجاج أو خزف أو ورق، حتى لا يحتاج المشتري أن يحمل معه وعاء».

ونقل زكي محمّد حسن عن وجود «غضارات (قطعة) زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الإمام المعزّ لدين الله، وعلى بعضه اسم الإمام العزيز بالله نزار، ومنها ما عليه اسم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، ومنها ما عليه اسم المستنصر وهو أكثرها»^(١).

وكان الفاطميّون يضعون العبارات المخصّصة للوزن والكيل «وكان يطبع عليها بيان وزنها، وأحجامها. كما يطبع عليها أسماء الولاة والخلفاء. وقد أهدى الملك فؤاد الأول دار الآثار المصرية، مجموعة كبيرة من هذه الأقراص الزجاجية»^(٢).

أما البللور الصخري، فهو نوع من حجر البللور الزجاجي، ولكنه أصلب منه، وقد استخدمه الفاطميّون في عمل الكؤوس والأباريق بطريقة النحت وليس بطريقة النفخ في الأفران، وكانوا يبدعون فيه صنعتهم. وقد أشار زكي محمّد حسن إلى وجود إبريق على شكل كمثري، محفوظ في كنوز كاتدرائية سان ماركو بمدينة البندقية، مزخرف، كتب عليه: «بركة من الله للإمام العزيز بالله».

وحلقة من البللور موجودة في المتحف الألماني بمدينة نورنبرج كتب عليها: «لله الدين كلّ الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين»^(٣).

(١) كنوز الفاطميين، م.س. ص ١٨٠.

(٢) راجع: م.س. ص ١٧٩.

(٣) م.س. نفسه، ص ١٩٠.

الصناعات الخزفية

لم يكن للخزف أهمية فنية كبيرة كالبللور والعاج والنحاس الصيني، بل كانت الأطباق والكيزان والجرار الخزفية بمتناول كل أفراد الشعب المصري، لثمنها البخس. حتى أن المقريزي وناصر خسرو قد أشارا إلى أن أصحاب الدكاكين والحوانيت يبيعون سلعهم بالأطباق الخزفية والخشبية والكرتون، (القراطيس) دون ضرورة لإعادتها.

مركز بحوث وتطوير علوم مصر

وقال المقريزي أيضاً: إن ما يرمى من أطباق الخشب والورق والخزف الفارغ على المزابل والكيمانات يومياً، ثمنه آلاف الآلاف من الدنانير.

وصف ناصر خسرو صناعة الفخار بمصر فقال: «ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع، وهو لطيف وشفاف، بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج، ظهرت من الداخل وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها. وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون، فتظهر بلون مختلف في كل جهة تكون فيها. ويصنعون أيضاً

القوارير، كالزبرجد في الصفاء والرقعة، ويبيعونها بالوزن»^(١).

ورأي ناصر خسرو في الخزف المصري مبالغ فيه فلا يعقل أن يكون خزفاً ويكون شفافاً. أما أنه كالزبرجد في الصفاء والرقعة، ويباع بالوزن لا بالحجم، فهذا يدل على طول باع المصريين في هذه الصناعة.

وكان صنّاع الخزف في مصر الفاطمية، إذا، أبدع أحدهم طبقاً معيناً أو قدرة أو برنية يوقع اسمه عليه، «وقد وصلت إلينا إمضاءات على قطع من الخزف الفاطمي يظهر منها أسماء بعض اعلام هذه الصناعة في ذلك الوقت، مثل، مسلم، وسعد، وإبراهيم المصري، وأبو الفرج، وابن نظيف، والدهان، ويوسف، ولطفي، والحسين»^(٢).

وقد ترك هؤلاء الصناع العديد من الجرار والسلطانيات والبراني التي ما زالت سالمة كما صنعوها، ورسموا عليها التصاوير والزخارف المدهشة والناطقة.



مركز بحوث المخطوطات الإسلامية

(١) سفرنامه، م.س. ص ١٠٣.

(٢) كنوز الفاطميين، م.س. ص ١٥١.

الصناعات الخشبية

كانت الصناعات الخشبية في مصر الفاطمية، قد بلغت من حسن الصنعة والفن، حداً جعل من مصر قبلة لكل تجار العالم، يقصدونها إما للتبضع من صناعاتها الخشبية، أو لاكتساب المهارة والصنعة وتعلم فن النقش والحفر على الخشب، الذي برزت فيه مصر كل الأقطار المجاورة لها.

كان الصنّاع المصريون يصنعون مائدة بأكملها من وجه وقوائم من جذع شجرة جوز واحدة، على سبيل المثال. ويقول المقرئزي: «لا يقدر الجمل القوي على حمل مائتين منها لعظمتها»^(١).

وكانت خزانة البنود، أشبه بمدينة صناعية، فيها من جميع أنواع الخشب المعد للتصنيع.

كما أشار المقرئزي أنه وجد للأفضل بعد موته مخزناً كبيراً للأخشاب على جميع أنواعها، من خشب الزان والشوح والجوز وخشب الزيتون.

(١) راجع: اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٢٨٦.

وكان الفاطميون يصنعون من الأخشاب السفن الحربية على أنواعها: المسطحات والعشاريات والشلنديات، منها للأسطول البحري العسكري ومنها للأساطيل التجارية، ومنها للنزهة والتنقل في نهر النيل.

كما كانوا يصنعون منها الدبابات وأبراج القتال. وقد قال المقرئزي: إنَّ كلَّ برج يسع ألف مقاتل في طبقاته، كما أنَّ ارتفاعه سبعون ذراعاً.

وكذلك كانوا يصنعون من الخشب، القسي والرماح وهياكل سروج الخيل، وأعمدة الخيم، وهياكل الأعلام والبنود والرايات والرفوف في المخازن والخزائن والصناديق.

سوق الصناديقين:

من يسمع بهذا الاسم، يظنُّ أنَّه يختص ببيع الصناديق، ولكن المقرئزي، قال إنَّه كان «يُباع فيه الصناديق والخزائن والأسرة مما يعمل من الخشب». وكذلك كان سوق الخراطين يحتوي على خمسين دكاناً تباع فيها مهود الأطفال. وأخبرنا المقرئزي أنَّ الخارجين على المستنصر أخرجوا من قصره ثلاثة آلاف قطعة من فرش البيوت الكاملة بجميع آلاتها ومقاطعها، «وكلُّ بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومراتبه وبسطه ومقاطعته وستوره وكلُّ ما يحتاج إليه».

وقال لنا أيضاً إنهم أخرجوا «عشرات الألوف من رزم رماح خشب الزان».

ويقول إنهم أخرجوا أيضاً من خزائن الخيم آلاف المضارب

والفازات (خيمة) والمسطحات (سفن) والخركاوات (خيمة) والحصون والقصور والشراعات والفساطيط. وبالتأكيد أن هذه المصنوعات التي من الواجب تكملتها بالأقشمة، إن أساساتها وأعمدتها من الخشب.

ويخبرنا المقرئ، أن الخليفة المستنصر كان يتاجر بالغلات التي تفيض عن الاستعمال ويبيعها بسعر السوق، فنصح الوزير اليازوري بعدم خزنها واستبدالها من التجار بالخشب أو الصابون لأن الخشب والصابون لا يتلفان ولا ينقص سعرهما كالحبوب والغلال.

النقش في الخشب:

لقد بلغ الفنانون المصريون في ظل الخلافة الفاطمية درجة عالية وراقية في تزاويقهم وزخرفاتهم على الخشب. وكانت بدائع صناعاتهم مخصصة للخلفاء والأمراء وأصحاب المراكز العليا في الدولة. فقد كان اقتناء التحف النادرة والمصنوعات البديعة ظاهرة مهيمنة على المجتمع المصري الفاطمي. وكان ناحته الخشب يدخلون البهجة على النفوس بنقوشهم البديعة، وما تزال أبواب المساجد والمنابر والمحاريب والنوافذ، تشهد لهم بعلو شأنهم وشأنهم في هذا المجال^(١).

وكان الفنانون المصريون لا يكتفون بتزيين مصنوعاتهم

(١) راجع: قصة الحضارة، ول ديورانت، ص ٢٧١.

الخشبية بالصور البديعة، بل كانوا يحفرون عليها أيضاً، اسم صانعها أو اسم الذي أمر بصنعها. منها محراب جامع الأزهر، وقد نقش في أعلاه بالخط الكوفي المشجر العبارة التالية^(١):

«بسم الله الرحمن الرحيم. حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين. إِنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً. مما أمر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الأزهر الشريف بالمعزية القاهرة، مولانا وسيدنا المنصور أبي علي الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ابن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى آبائه الأئمة الطاهرين بني الهداة الراشدين، وسلم تسليماً إلى يوم الدين. في شهور سنة تسع عشرة وخمسمائة. الحمد لله وحده».

والمحراب محفوظ بدار الآثار العربية.

وقد كان فن النقش بالخشب أكثر الفنون الفاطمية حظاً في وفرة النماذج التي ما زالت موجودة في متاحف مصر والشام واستامبول وأكثر متاحف العالم. وقد أفرد لها زكي محمد حسن، فصلاً بأكمله، بلغ أكثر من ثلاثين صفحة، ذكر فيه كل تحفة وصانعها وتاريخ صنعها ومكان وجودها.

(١) راجع: كنوز الفاطميين، م.س. ص ٢١٩.

صناعة الجلود

لما كانت صناعة الجلود، من الصناعات البسيطة في أول أمرها، حيث استعملها الإنسان لباساً له وفرشاً، ولما كان الجلد من المصنوعات التي لا تستطيع مقاومة عوامل الزمان والمكان، ويصيبها الاهتراء والتلف، لذلك لا نستطيع أن نحكم عليها من خلال بعض اللقى، كالمنحوتات والصناعات الخشبية والخزفية والبللورية. ولكنها مثلها مثل صناعة النسيج، نحكم عليها من خلال الأوصاف التي تركها المؤرخون لها.

والحضارة المصرية في ظل الإسلام الشيعي الفاطمي، كانت أشبه بالمصباح الذي يضيء كل مكان ينتقل إليه، دون أن يصيبه هو نفسه أي تبدل، هكذا كانت حضارة مصر الفاطمية ترسل شعاعها إلى كل البلاد المحيطة بها، فاستفاد بنورها كل بلد هيأته ظروفه لرؤية نورها. وقد اكتسبت حضارة مصر في هذه الحقبة، أينما حلت، قوة وحيوية، وخصائص جعلتها تتفوق على كل الحضارات السابقة لها أو المحيطة بها.

عندما يتحدث ابن المأمون عن خزانة الأدم. والأدم هي الجلود، يقول إنَّ المسؤول عن هذه الخزانة أو المخزن، ابن بركات الأدمي والأدمي نسبة إلى الأدم وليس إلى النبي آدم عليه السلام، يقول ابن المأمون ونقل عنه المقرئزي أيضاً، أنَّ ابن بركات الأدمي، كان يرسل إلى قصور الخلافة والوزارة في الشهر ثمانين زوجاً، مقسمة كالتالي: برسم خاصة قصور الخلافة ثلاثون زوجاً، وبرسم الجهات (الأمراء والأقارب)، أربعون زوجاً، وبرسم الوزارة عشرة أزواج. وقد أشار في آخر الخبر أنَّها تكون مذهبة. مما يعني أنَّ المصريين كانوا، حتى الأحذية يطلونها بماء الذهب^(١).

ومن ملاحظات ناصر خسرو، عن القاهرة، أيام الخليفة المستنصر أنَّه «أحضر جلد بقر، يشبه جلد النمر، ويعملون منه النعال»^(٢).

وقد أشار المقرئزي إلى وجود معامل الدباغة من خلال حديثه عن الضريبة التي كانت مفروضة على كلِّ دار وهي «تسعة عشر ديناراً» في السنة.

المصنوعات الجلدية:

عندما وصف لنا المقرئزي خزائن كتب قصور «الحضرة المطهرة»، فذكر أنَّ خزائن القصر الكبير وحدها، كانت أربعون خزانة وقد نقل المؤرخون عن خزائن الكتب في «دار العلم» (الجامعة

(١) راجع: ابن المأمون، ص ٩٤، والخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤٢٢.

(٢) سفرنامه، م.س. ص ١٠٩.

المصرية)، وفي خزائن قصور الخلافة بلغت ثلاثة ملايين مجلدة.
ونقل المقرئ عن المسيحي عدد الجمال المحملة كتباً وكلها
«من الكتب الجليلة المقدار، المعدومة المثل في سائر الأمصار، صحة
وحسن خط وتجليد وغبابة». فقد أكد المسيحي على غرابة وحسن
تجليدها.

وكانت عناية الفاطميين بصناعة الجلود والتجليد عظيمة، ولكن
للأسف لم يصل ليد الباحثين المعاصرين أي شيء منها، بسبب ما
أشرنا إليه في مقدمة الفصل من حرق هذه الكتب. ولكن المستشرق
جروهمان أشار إلى تقدّمهم في هذا المجال، معتمدين على رعاياهم
الأقباط الذين كان لهم اليد الطولى في تطوير هذا الفن وهذه
الصناعة^(١).

ونقل آدم متز عن يحيى بن سعيد اهتمام الوزير ابن كلّس
بالكتب وبحفظها وتجليدها. وقد قال إنّ ابن كلّس أقام موظفين
خصوصيين لتجليد الكتب تجليداً جيداً برواتب شهرية.

وذكر آدم متز ميزانية هذا العمل، وأشار إلى أنّه خصّص ١٢
ديناراً ذهباً مغربياً فقط لإعادة تأهيل الكتب الممزقة «لمرمة
الكتب»^(٢).

أما ول ديورانت فقال إنّ الأتراك ثاروا على المستنصر «ونهبوا
من قصره كنوزاً فنية لا تقدّر بثمن، وحمل خمسة وعشرين بعيراً

(١) كنوز الفاطميين، م.س. ص ١٠٧.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، م.س. ص ٢٩٤.

من المخطوطات، اتخذ الضباط الأتراك ورقها وقوداً لتدفئة بيوتهم، كما اتخذوا جلودها المصنوعة من الجلد الرقيق البديع لإصلاح نعال جواربهم»^(١).

سوق لبيع السرموجة:

ويصف لنا المقرئ سوق الأخفافيين، فيقول إنه سوق تباع فيه «أخفاف النسوان ونعالهن»، يقال لحذاء المرأة: سرموزة. وهي حسب قوله، كلمة فارسية الأصل معناها: رأس الخف. أما العامة فهي تطلق عليها الآن لفظة «سرموجة» بالجيم^(٢).

وعندما يتحدث عن موجودات خزائن السلاح، يشير المقرئ إلى «الخود الجلدية»، مفرد «خودة» والخودة هي غطاء الرأس لدى الجندي، وكانت هذه الخود تُصنع مع «جاكيتات» جلد، ويستعملها الفارس المصري بمثابة ترس أو درع للرأس وللقسم الأعلى من جسمه، حيث ينقع الجلد طويلاً في الزيت مما يجعلها مقاومة للسهم، يصيبها السهم ولا يخرقها. وهي في نفس الوقت خفيفة على الرأس والجسم، ولا تعيق أو تقلل من قوة تحركه أو كرهه وفره^(٣).

وكنا قد أشرنا إلى إقدام المصريين على تصنيع بعض الأحواض والحمامات من «الأدم»، كما يصنع في أيامنا برك الماء من الكاوتشوك والمطاط.

(١) قصة الحضارة. م.س. ص ٢٦٨.

(٢) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الثاني، ص ١٠٥.

(٣) راجع: الخطط المقرئية، الجزء الأول، ص ٤١٨.

قطع زينة السيارات

السيارة لغةً، مشتقة من فعل سَارَ، وسَيَّرَ والسيارة حالياً، هي «الأوتوموبيل» أو وسيلة النقل، نقل الأشخاص أو نقل البضائع والامتعة.

وفي السابق كانت السيارة، وهي وسيلة نقل الأشخاص أو البضائع والامتعة، عبارة عن دابة، إما حمار أو أتان أو بغل أو بغلة أو حصان أو بعير أو جمل أو ناقة أو فيل. وكما يتسابق الناس الآن على امتلاك مرسيدس النملة أو مرسيدس الشبح أو ب.م أو أي سيارة أخرى، كان المصريون في عهد الخلفاء الفاطميين يتسابقون ويتباهون بملكية الخيل والبغال ويفتخرون بطريقة تزيينها.

أما الفيلة، فقد كانت من السيارات الفخمة المخصصة فقط للخلفاء، أما الوزراء والأمراء والقواد والعامة، فلم يرو أي مؤرخ أنهم كانوا يمتلكون الفيلة.

السروج المذهبة:

عندما أخبرنا المقرئزي عن هدية ست الملك لأخيها الحاكم سنة

٢٨٧هـ، يذكر من ضمنها ثلاثين فرساً مسرجة أحد هذه السروج
مرصع بالمجوهرات الثمينة وآخر مصنوع من البلّور، والثمانى
والعشرون الباقون كلّها من الذهب الخالص.

ولم تكن السروج وحدها التي تشير إلى غنى راكب وسيلة النقل،
بل كانت العربّة التي تجرها الدابة، وسيلة من وسائل التمايز
والتباهي بالوجاهة، فقد أقدم الخليفة على إهداء أبي سعيد فرساً
«بمركب ذهب ثقیل».

وأهدى الخليفة الحاكم القائد حسين بن جوهر الصقلي ثلاثة
أفراس بمراكبها وبسروجها وأجمتها المصنوعة من الذهب الخالص.
وعندما قتل برجوان، أحصيت تركته فوجد فيها مائة وخمسون
سرجاً منها عشرون سرجاً من الذهب الخالص^(١).

وقال الرشيد ابن الزبير أنّه: «وجد في خزائن السروج في قصر
الخليفة المستنصر خمسة آلاف سرج، كان أبو سعيد إبراهيم بن
سهل التستري تولّى شراءها وصياغتها وترصيعها. كلّ سرج منها
يساوي من سبعة آلاف دينار إلى ألف وما بين الجملتين، على أن
الدون منها قليل. والأكثر الغالي القيمة، وأنّه سُبِك جميعها وفُرِّقَت في
الأتراك، وأنّه أخذ من خزائن السيدة والدته أربعة آلاف سرج
مثلها»^(٢).

وإذا أخذنا السعر الوسطي للسروج التي أخرجت من قصر

(١) راجع: اتعاط الحنفاء، الجزء الثاني، م.س. ص ٣٠.

(٢) الذخائر والتحف، القاضي الرشيد ابن الزبير، م.س. ص ٢٥٧.

المستنصر وقصر والدته السيدة رصد والتي بلغت تسعة آلاف سرج: 9000×400 دينار = $36,000,000$ فيبلغ ثمنها ستة وثلاثين مليون دينار ذهباً أو ما وزن $36,000,000 \times 4$ غرامات = $144,000,000$ غرام = 14400 كلف = $14,400$ طناً من الذهب.

الأجلة:

الأجلة جمع جلال والجلال، لفظ ما زال حتى يومنا مستعمل في الصقع العاملي، ويعني الطراحة التي توضع فوق الدابة لركوبها، وتكون من القش المضغوط المغطى بالقماش الناعم.

وقد تناهى المصريون في العهد الفاطمي في تنويع صناعاتها، واهتموا بها، وكانت جودتها وتفرد أشكالها مظهراً من مظاهر الوجاهة والغنى عندهم.

وقد عُرف الجلال بأنه «كالثوب للدابة، كساء يقيها البرد والحر، والجمع جلال وأجلال، وجمع الجلال أجلة».

وعندما خلع الحاكم على الرئيس فهد بن إبراهيم النصراني وقلّده الوزارة، وهدية تليق بمركزه، ردّ الرئيس فهد بهدية إلى الخليفة الحاكم منها «ثلاثون بغلة بألوان من الأجلة، وعشرون فرساً منها عشرة مسرجة ملجمة وعشرة بجلال ملونة».

وعندما ذكر المقرئ من هوبات قصر المستنصر قال: إنّ الذي أخرج من «الأجلة والسروج الذهب والفضة المرصعة بالجواهر شيء لا يمكن وصفه مما عمل في دول الإسلام وغيرها»^(١).

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، م.س. ص ٢٨٠.

ووصف المقرئزي أجلة الفيلة فقال: «فأنزلوا منها ألفي عدل شقق طميم بهديها من سائر أنواع الخسرواني وغيره، لم تستعمل بعد، وجميع ما فيها مذهب معمول بسائر الأشكال والصور، وأنهم فتحوا عدلاً منها فوجدوا فيه أجلة معمولة للفيلة من خسرواني أحمر مذهب، كأحسن ما يكون من العمل. وموضع نزول أفخاذ الفيل ورجليه ساذجة (سادة)، بغير ذهب»^(١).

وقد أكثر المقرئزي في وصف المهاميز. والمهماز هو الحلقة المسننة التي يضعها الفارس في ظهر حذائه، ينهر بواسطتها الحصان، وكان أغلبها يصنع من الذهب أو الفضة. أما اللجام فقد ورد في أوصاف المقرئزي بأنها «مطعمة بالذهب».

أما المخالي ومفردها مخلاة وهي كيس، يوضع فيه العلف ويعلق في عنق الدابة، فقد أشار المقرئزي أن الخليفة الأمر «عمل عدة مخال للخيول من الديباج»^(٢).

ومن خلال وصف ابن الطوير لخزائن السروج نستنتج أهمية قطع زينة وسائل النقل عند المصريين في ظل الدولة الفاطمية. حيث أشار إلى جميع ما تزيّن به الدابة حيث يقول:

وهي قاعة كبيرة بالقصر، بدورها مصطبة علوها ذراعان، ومجالسها كذلك، وعلى تلك المصطبة متكآت مخلصات الجانبين، على

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤١٧.

(٢) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤١٨.

كلّ متكاً ثلاثة سروج متطابقة. وفوق المتكاً وتد مضروب في الحائط قبل تببيضه، تعلّق عليه المركبات الحلى، وعليها لُجُم تلك السروج الثلاثة من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة. وقلائدها وأطواقها لأعناق الخيل. وهي لخاص الخليفة وأرباب الرتب.

ويخبرنا عن الموظفين الدائمين في هذه الخزائن فيقول: أما الصاغة فإنّ فيها منهم ومن المركّبين والخرازين عدداً جمّاً دائمين لا يفترون عن العمل. والمجلس مضبوط بعدد متكّاته وما عليه من السروج والأوتاد واللجم، لا يختلّ عليهم منه شيء. والشّدّادون مطالبون بالنقائص منها أيّام المواسم^(١).

وعندما يصف ابن الطوير السروج التي تخرج من الخزانة أيام الاستعراضات العسكرية والأعياد يقول: «فيخرج منها ما هو برسم الخليفة من المركبات الحلى، ما هو برسم ركوبه، وما يجنب في موكبه، مائة سرج، منها ما هو مرصّع بالجواهر الفاتقة، وفي أعناقها الأطواق الذهب وقلائد العنبر، وربما يكون في أيدي وأرجل أكثرها خلاخيل مسطوحة دائرة عليها. ومكان الجلد من السروج، الديباج الأحمر والأصفر وغيرهما من الألوان والسقلاطون المنقوش بألوان الحرير، قيمة كلّ دابة وما عليها من العدة ألف دينار.

أما موظفو الإصطبلات فهم ثلاث رتب:

١ - السائس: وهو المسؤول عن علفها ونظافتها.

٢ - الشّدّاد: وهو المسؤول عن آلاتها وسروجها ولجمها.

(١) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، ص ١٣٢.

٣ - الرافض: وهو المسؤول عن الإصطبل وموظفيه وآلاته وكل ما فيه.

الدابة تروث وتبول بنظام:

وكان من المهمات الجسام الملقاة على عاتق السائس، هو أن يحدّد متى تروث البغلة وتبول، لكي لا يزعج خاطر الخليفة، «ويقال أنّه ما راثت قط دابة ولا بالت والخليفة راكبها، ولا بغلة صاحب المظلة أيضاً إلى حين نزولهما عنهما»^(١).

وإن يدلّ هذا الخبر الطريف، فهو يدل على المستوى العالي والرفيع من الإحساس المرهف والشفافيّة التي وصل إليها المصريون وحكّامهم من المسلمين الشيعة في مصر.



مركز بحوث التاريخ الإسلامي

(١) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، م.س. ص ١٣٧.

صناعة الأسلحة

كان اهتمام الفاطميين بالصناعات العسكرية لفرض سلطتهم وفكرهم وعقيدتهم ومذهبهم الشيعي الإمامي موازياً لاهتمامهم العقيدي والفكري والفلسفي، ولكن الأساليب الفكرية والعقيدية والفلسفية، كانت أقوى وأنجع وأنجح، وكانت القوة العسكرية تحمي المؤسسات السياسية والفكرية والعقيدية.

مركز بحوث وتطوير علوم

أنواع الأسلحة:

كانت خزائن الأسلحة في مصر الفاطمية تتبع مباشرة قصور الخلافة، وكان المشرف عليها يتحمل مسؤولية أي نقص. ولا يُخرج شيئاً منها أو يعيده إليها إلا بعد توقيعه على المعاملة. ويروي المقرئ عن الخليفة الحافظ لدين الله، أنه جاء ليخرج بعض الأسلحة والسروج من مخزن السلاح، فلم يجد المشرف أو أمين المخزن، ووجده غائباً لسبب اضطراري مفاجيء، فرفض إخراج مطلوبه، وقال: نعود مرة ثانية ولا نخرج شيئاً إلا بوجود المشرف.

وكانت خزائن الخيم والسروج والبنود، ودار الصناعة تتبع قيادة

الجیوس الفاطمية أيضاً. فدار الصناعة، كانت بتصرف الألوية العسكرية البحرية وخزانة السروج، تتبع لواء الفرسان. وخزانة البنود، يخرج منها الأعلام والرايات الخاصة بكل فرقة من فرق الجيش، وخزائن الخيم كانت مسؤولة عن تموين الجيش فيما يحتاجه من خيم في كل حملة عسكرية. وكذلك كانت إهراءات التبني والأعلاف، فقد كانت ترافق الجيوش بإرسال السفن الكبيرة المحملة بالعلوفات بمقاربة شواطئ المنطقة المحددة للمعركة العسكرية.

ومن الأسلحة التي كانت معروفة أيام الفاطميين والتي كانوا يكثر من تصنيعها واقتنائها:

السيوف:

عندما وقعت الحرب بين الأتراك بقيادة ناصر الدولة بن حمدان وبين الخليفة المستنصر بالله، سقطت شرارة على خزانة البنود فأحرقتها، وقال المقرئزي: «إن مما أحرقت فيها عشرات الألوف من السيوف، وقد سلمت خزانة واحدة منها، فأخرج منها خمسة عشر ألف سيف مجوهر»^(١).

وهذا يدل على قوة هذه الدولة وقدرتها العسكرية وشدة اهتمامها بإظهار سلطانها وقوتها أمام العالم، وقد ذكر المقرئزي أن عدد السيوف التي نهبت من قصور الخلافة في مصر وبيعت في بغداد بلغت عشرين ألف سيف محلي. وكان الفاطميون يملكون سيفاً

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٨٠.

صنع من صاعقة وقعت، محلى بالذهب والجواهر، لا يخرج إلا في الاحتفالات.

الرماح:

والرمح هو عبارة عن قضيب خشب طويل، يركب في رأسه نصل حاد أو حديدة مسننة. وقد وجد الخارجون على المستنصر، في إحدى المخابىء السرية ٥ آلاف رمح، بمقابض فضة، أخذوها وكسروها ونزعوا مقابضها الفضة. وقال المقرئى أيضاً أنه «بيع من الرماح الخطية السمر الجياد شيء كثير مما كسره الغلمان للمغازلين، وصنّاع مواد الغزل»^(١). وكانوا يخرجون في الاحتفالات رمحين في رأس كل واحد منهما هلال من ذهب يحمل صورة أسد من الديباج الأحمر، ورمحاً آخر له بيت من لؤلؤ وسان من ذهب.

الدروع:

الدروع مفرد درع، وهو سترة واقية للسيوف والرماح، كانوا يطلقون عليها اسم درع أو دراعة يلبسها المقاتل في النصف الأعلى من جسمه، وكانت تصنع إما من الجلد المشبع بالزيت، أو من زرد الحديد.

الدبوس:

وهو بشكل الرمح ولكنه أصغر ورأسه أكثر تسنيماً، يحمل لحماية الخليفة أثناء المواكب والنزهات، ولا يستعمل في المعارك العسكرية.

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، م.س. ص ٢٨٢.

الخوذة:

وهي غطاء الرأس، وإما أن تكون من الجلد المشبع بالزيت، أو من الحديد.

الدركة:

والدركة نوع من التروس الصغار، يحملها الفارس بيده الشمال ليرد فيها ضربات الخصم.

وقد أشار المقرئزي إلى إخراج ألفين وتسعمائة درقة من خزانة البنود، أثناء احتراقها وأشهر أنواع الدرق هي الدرق اللطية، وهي منسوبة إلى اللط، وهي أرض لقبيلة من البربر في أقصى المغرب، تنسب إليها الدرق، لأنهم ينقعون جلدها في الحليب سنة كاملة، وعندما يلمسها السيف، ينبو عنها ولا يجرحها.

مركز تحقيق تكملة برعوى

السروج:

كانت السروج من أهم الوسائل العسكرية والحربية التي اهتم بها المصريون الفاطميون وتفننوا في تصنيعها، وقد كان لها خزانة خاصة، منها ما كان يصنع من الجلد ومنها ما يصنع من البللور أو الذهب أو الفضة.

وقد أشار المقرئزي إلى أنَّ الخارجين على سلطة المستنصر أخرجوا أحد صناديق السروج فوجدوا أنه مرقم بالرقم ٣٩١، وأخرجوا من المخزن أربعة آلاف سرج.

كما يخبرنا أنَّ الأمر صادر من تركة الأفضل تسعة آلاف سرج.

كما أخرج من خزائن السيدة رصد أم المستنصر ومن القصر وفي يوم واحد تسعة آلاف سرج، لا يقل ثمن السرج الواحد عن أربعة آلاف دينار لما فيه من الذهب والفضة والمجوهرات. ولا يسعنا إلا أن نشير إلى السرج الخزان، الذي صنعه الخليفة الأمر ويسع أكثر من ٢٠ ليتراً ماءً.

المنجوقات:

المنجوقات مفردتها منجوقة، والمنجوقة تعني نوعاً من الأعلام والرايات أو البنود المميّزة، التي لا يحملها إلا طليعة العسكر، أثناء الحروب.

قوارير النفط:

كان النفاطون، يحملون قوارير النفط معهم في الحروب العسكرية، ليستعملها رماة السهام، حيث يضعون خرقة برأس السهم ويبلّونها بالنفط ثم يشعلونها ويرمون بها بوابات حصون الأعداء وخيمهم لإشعال النار فيها.

وقد أخبرنا المقرئ أن سبب احتراق خزانة البنود أيام الخليفة المستنصر، كان بسبب احتراق آلاف قوارير النفط فيها.

وعندما وصف المقرئ خزانة السلاح قال إنَّ فيها: «من الخود والدروع والتخافيف والسيوف المحلّاة بالذهب والفضة والسيوف الحديدية، وصناديق النصول وجعاب السهام الخلنج (الجديدة)، وصناديق القسي، ورزم الرماح من خشب الزان الخطية، وشدّات

الأقواس الطوال، والزرذ والبيض، مئات الألوف. وكان كل صنف منها مفرداً عشرات الألوف»^(١).

أما ابن الطوير فقد وصف الكزاغندات (التروس)، والجواشن (الدروع) والزرديات والقنطاريات (الرماح القصيرة)، والأسنة، والقسي، والنشاب. ثم عرفنا من ابن الطوير أن هناك نوعاً من القوس والنشاب، لا يشد إلا بالرجل، ومنها ما يدعى «قوس اللولب»، يستعمله رماة المنجنيق، حيث يضعون في جيبه، كلة من خمسة أرطال بالمصري (١٢,٥٠ كلغ).

الدبابات:

وهي نوع من البيوت الخشبية المسقوفة بخشب ومدهونة بأصباغ تؤخر احتراقها. يدخلها الفرسان أثناء الحصار ويختبئون داخلها ويعملون من تحتها على نقب حائط أو فتح بوابة حصن.

مركز بحوث وتطوير علوم

الأبراج:

وهي نوع من المدرجات الخشبية المعمولة بعدة طوابق، يستعملها الفرسان لمهاجمة الحصون العالية.

المنجنيق:

وهو عبارة عن مقلاع كبير يطلق الكلل الثقيلة الوزن القادرة على إحداث فجوة في حائط الحصن.

(١) الخطط المقرية، الجزء الأول، ص ٤١٧.

ولا يسعنا إلا أن نذكر بصناعة السفن الحربية، من مسطحات وعشاريات وشلنديات ودماميس. المفصلة قطع غيار، تجمع في ساحة المعركة وتطرح في الماء.

صناعة السلاح قطاع خاص:

بالرغم من أن خزائن السلاح، كان بها من الصنّاع والصاغة، ما يقوم بتلبية حاجات قصور الخلافة والوية جيوشها، إلا أن الخلفاء الفاطميين، كانوا يضطرون لشراء السلاح من تجار السلاح بأثمانها في بعض الحالات الطارئة. فقد أخبرنا المقرئ أن الخليفة العزيز بالله، لما علم أن أمبراطور الروم سار إلى بلاد الشام، أخرج لحربه خمسة آلاف جمل وألف وثمان مائة بختي وبختية (جمل كبير) على كل منها صندوقان كبيران مملؤان مالاً، لتمويل الحملة المصرية دفاعاً عن الشام. وقد اشترى آلاف الأفراس والسروج والسيوف من أجل هذه الحملة، ويقول المقرئ: «بسعر السوق». ثم تُودي في الأسواق وعلى منابر الجوامع في مصر والقاهرة: «من كان من أهل السلاح فليخرج ليأخذ الرزق الكثير، فاجتمع من الرعية وطوائف الناس بالسلاح للسفر مع العزيز ألف كثيرة»^(١). وما أشبه هذه الحالة بحالة ملايين المصريين الذين تظاهروا يطالبون بالذهاب إلى العراق للقتال والجهاد دفاعاً عن شرف الأمة العربية ولكن...

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، ص ٢٨٨.

صناعات مختلفة كانت لها أهميتها في حياة الإنسان المصري الفاطمي

كانت الدورة الاقتصادية الكاملة التي تحكم المجتمع المصري الفاطمي، تحتم وجود كل الصناعات الأساسية التي تؤمن الحياة المرفهة وحياة الترف للإنسان المصري. ومن هذه الصناعات والمصانع: مطابخ أو معاصر السكر، ومعاصر السمسم التي تؤمن زيت السيرج (الطحينية)، وصناعة الشمع، ومعامل الأجبان، ومعاصر الخل، ومرايح العسل، ومحاليج القطن، ومطاحن الملح، ومعامل الصابون، ومعاصر الزيت ومطاحن الدقيق.

وقد ذكر ابن الطوير أن هناك منطقة تدعى المناخ السعيد بالعطوفية، وهي أشبه بمدينة صناعية، كنا قد أشرنا إليها في فصل سابق. إلا أن ابن الطوير أشار إلى كل صناعي الدولة، وأصلهم من صبيان الفرنجة، يعملون فيها برواتب جارية، ويعود كل إنتاجهم لمؤسسات الدولة ولقصور الخلافة، وهي تشمل مخازن المواد الخام المعدة للتصنيع، كالأخشاب والحديد والقنب والكتان والزفت، وكان

«الصناعية» فيها يتوزعون بين «الجزارين والنَّجارين والدهَّانين والفرَّانين، والخيَّاطين والفِعلَة والعجَّانين، والطَّحَّانين»^(١).

كان المصريون أيام الدولة الفاطمية يقيمون المعامل الكثيرة لتذويب دهن الشمع بعد استخراجِه من أقراص العسل وغيره، ولم يحدثنا المقرئزي أو ابن الطوير، أو ابن مُيسَّر، أو ابن المأمون، وكلُّهم من معاصري الدولة الفاطمية، عن مصانع الشمع وعن طريقة تصنيعه، ولكنهم أشاروا إلى وجوده وإلى مخازنه وإلى استعماله بكثرة للإضاءة، ووصفوا حجم كلِّ شمعة. فمثلاً، كانت خزائن دار افتكَيْن هي مخزن الشمع الرئيسي العائد لقصور الخلافة والدولة. ويقول المقرئزي إنَّها: «تحتوي على أصناف عديدة من الشمع المحمول من الإسكندرية وغيرها» مما يجعلنا نستنتج أنَّ الشمع أصناف عديدة، وأنَّ مصانعه موجودة في الإسكندرية، على الأخص وفي غيرها من المدن المصرية.

ولما كان الشمع من المواد الضرورية للحياة اليومية، كان خزنه من الأمور المهمة عند أرباب الدولة والسلطان، فقد وُجد للوزير الأفضل بن بدر الجمالي بعد وفاته مخزنٌ كبير للشمع، صادره الخليفة الأمر ونقله إلى قصور الخلافة.

وعندما أرسل حاكم تونس من قبل الخليفة الظاهر، المُعزَّ بن المنصور بن بلُكين بن زيري، هديته للخليفة الظاهر، تضمَّنت هذه الهدية ألف قنطار شمعاً (١٠٠٠ × ٢٥٠ كلغ = ٢٥٠ طناً شمعاً). ولو

(١) راجع: نزمة المقلتين في أخبار الدولتين، م.س، ص ١٤١.

لم يكن الشمع من السلع المهمة في الحياة المصرية، لما كان المعزّ الصنهاجي، ضمن هديته هذا المقدار من الشمع.

وكانت القاهرة وبغداد تتسابقان على تكريم الكعبة، وترسل كل عاصمة منهما وفد الحجّ محمّلاً بالتحف والهدايا، ومن هذه الهدايا، تلك التي أرسلها الخليفة المصري ما ثمنه عشرة آلاف دينار ذهباً من الشمع وغيره من العطور والطيب، عدا دفع كلفة بعثة الحج المصرية كاملة، وهي مئتا ألف دينار سنوياً.

وعندما حدّثنا المقرئزي عن مرافعة متولي ديوان المجلس أبي البركات بن أبي الليث الذي طالب فيها بزيادة راتبه، ذكر ضخامة راتبه ونثرياته ومخصّصاته، وكنا قد أشرنا إليها في فصل الرواتب والأجور، وقال إنّ من أساس رواتبه ومخصّصاته «شمعة من الموكبيات توصله إلى داره وزنها سبعة عشر رطلاً (١٧×٢٥٠٠ غراماً = ٤٢,٥ كلغ) ولا تعود» أي أنّها من أساس الراتب.

وكان هناك في مصر سوق خاص ببيع الشمع كذلك كانوا يستعملونه في ضبط المُلَفّات والأعدال التي يمنع فتحها إلا بوجود المسؤول عنها، أي ما نطلق عليه اليوم مصطلح: «ختمه بالشمع الأحمر»^(١).

(١) راجع: الخطط المقرئزية، الجزء الأول، ص ٤١٨.

النقابات العمالية

من المعروف والمعلوم عند مؤرخي الحضارات والمجتمعات الإنسانية، أنَّ التنظيمات النقابية، هي من نتاج المجتمعات المتحضرة والتي بلغت شأواً عالياً من العلاقات الإنسانية والحضارية، فالنقابات العمالية بمفهومها المعاصر، لم تعرف إلا في بدايات القرن الثامن عشر إثر النهضة الصناعية التي عرفتتها الإنسانية في أوروبا وأميركا واليابان. ولكننا، لا نتفاجأ إذا عرفنا أنَّ النقابات العمالية بمفهومها المعاصر، كانت معروفة في مصر الفاطمية، وذلك نتيجة للمستوى الحضاري الرفيع الذي بلغه المجتمع الإنساني المصري الفاطمي.

وكانت تطلق عدة مصطلحات على النقيب والنقابة، منها العريف، والزمّام والنقيب، أما النقابة، فكانت كما هي اليوم بنفس اللفظة والمفهوم: النقابة.

ونقباء أو عرفاء الأسواق كانوا مسؤولين عن عمالهم والصنائعيين التابعين لكلّ منهم، أمام المحتسب والوالي. وكلّ صناعي أو عامل أو صاحب حرفة أو صاحب دكان يخالف القرارات والأنظمة المعمول بها، يُستدعى نقيب أو عريفه قبل استدعائه.

عندما وقع الخلاف بين الأتراك بقيادة برجوان والمغاربة الكتامييين بقيادة ابن عمار، أقدمت جماعة الباطلية وهي فرقة من الفرق العسكرية المصرية، تسكن الحارة المعروفة باسمهم: الباطلية أو الباطنية اليوم، على نهب بيوت الكتامييين المغاربة، فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله بالقبض على «عريف الباطلية»، فإنهم كانوا قد نهبوا شيئاً كثيراً لابن عمار وألزمه بإحضار ما نهب أصحابه».

ويدل هذا النص أن كلمة عريف، هو رتبة عسكرية، ولكنها لم تكن تدل على التراتبية العسكرية فقط، بل كان لها مدلولاً طبقيّاً اجتماعياً مدنياً أيضاً.

النقابة بنص صريح:

يخبرنا المقرئ من النقابات ونقيب كل قطاع حرفي أو مهني معين بنص صريح لا لبس فيه، حين يشرح لنا حادثة وقعت بين نقيب أحد القطاعات، وأحد أفراد هذا القطاع حيث يقول: وكان في كل سوق من أسواق مصر، على أبواب كل صناعة من الصنائع عريف يتولى أمورهم. وكانت عادة أخباز مصر في أزمئة المساغبة (الجوع)، متى بردت، لا يباع منها شيء لكثرة ما تُغشّ به. وكان لعريف الخبّازين دكان، وكان يبيع الخبز، وبجانبه دكان لصعلوك يبيع الخبز أيضاً. وكان سعره يومئذ أربعة أرطال بدرهم وتمن. فرأى الصعلوك أن خبزه كاد يبرد، فخاف من كساده، فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ليرغب الناس فيه. فمال إليه الزبون، واشتروا خبزه لأجل تسمّحه بثمن درهم (١/٨) وبار خبز العريف. فغضب العريف وأوكل به عونين من

الحسبة (الشرطة)، أغرماء عدة دراهم. ووافق ذلك مرور قاضي
القضاة إلى الجامع، فاستغاث به. فأمر القاضي بإحضار المحتسب،
وأنكر عليه فعله وفعل معاونيه. فأعذر المحتسب وقال: إنَّ هذا العمل
هو من العريف (النقيب) وأنَّه لم يتحقَّق من باطن الحال. فأمر القاضي
بعزل ذلك النقيب عن نقابته، وأن يعيد ما أخذ من الخباز^(١).

نقيب لكل طائفة:

وعندما أكثر الحاكم من قتل الموظفين والمسؤولين المدلسين
والمرتشين والذين سرقوا أموال الدولة وأموال اليتامى، دبَّ الرعب
في المجتمع المصري، فهبَّت كل طائفة تطالب بكتاب أمانها، فكان
الحاكم يكتب كتاب الأمان لكل طائفة ويسلِّمه إلى نقيبها أو عريفها.

وقد عرفنا من هذه الكتب، كتاب أمان لطائفة البيازرة، ولطائفة
الفهادين، ولطائفة الحجالين وأمان لمؤذني قصور الخلافة «وكتب ما
ينيف عن المائة أمان لأهل الأسواق، قرئت كلها في القصر ووقَّعت
لأربابها»^(٢).

عرفاء الحارات:

وعندما عمَّ الخليفة الظاهر على ألوته بضرورة عدم المشاركة
في صلاة عيد النحر في جامع الخطبة لضيق المكان، طلب من أزمّة
العساكر أن يلزم كل لواء معسكره أو حارته ويصلي في المعسكر

(١) راجع: الخطط المقرية، الجزء الثاني، ص ٢٢٤.

(٢) اتعاظ الحنفاء، الجزء الثاني، ص ٥٧.

الخاص به مع عسكره. بينما حمل التعميم نفسه لقب عرفاء الحارات، لأن يلزموا حاراتهم ويقيموا صلاة العيد مع أهل كل حارة في الحارة نفسها. فسمي عريف الحارة عريفاً وزمام العسكر زمماً للتفريق بين النقابة المدنية والنقابة العسكرية^(١).

نقباء السقائين مسؤولون عن أي حريق:

بعد أن كثرت الحرائق في أسواق مصر والقاهرة، أصدر الوزير المأمون بن البطايحي أمراً إلى والي مصر والقاهرة، بإحضار عرفاء السقائين، وإلزام المتعيشين منهم بالقاهرة ومصر بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم ليلاً نهاراً. ويقول المقرئ: إن والي مصر والقاهرة ألزما نقيب السقائين في البلدين وألزموا كل السقائين في المبيت على باب سجن المعونة، وأن يكونوا جاهزين لإطفاء أي حريق يشب فجأة، ووظفوا لهم القعلة بالمعدات المطلوبة. على أن تقوم الدولة بتأمين العشاء والغطاء لهم بمساهمة النقيبين^(٢).

النقابات العمالية تهنيء بالعيد:

عندما يصف لنا المقرئ احتفالات عيد الفطر لسنة ٣٩٩ هجرية، يقول: «إن سائر عرفاء الأسواق والحارات والحرف والصناعات وأكثر أهل البلد، ركبوا إلى قصر الخليفة الحاكم، وظن الجميع أن قراراً معيناً سوف يصدر، وإذا القرار، هو تكليف صالح بن علي الروذباري بالوساطة والنظر».

(١) م.س. ص ١٦٧.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٠٠.

نصائح مهنية وتجارية:

أعطى أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي المصري الفاطمي، عدة نصائح، منها ما هو موجه إلى أصحاب الحرف والصناعات ومنها ما هو موجه إلى التجار.

نصائح لأصحاب الصنائع والحرف:

قال أبو الفضل جعفر: الصناعة في الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى. وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن إقامة ما لا بدّ له منه، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة أو عقد نعمة^(١).

اصناف الصنائع:

يقول أبو الفضل جعفر: أما الصنائع التي كرهتها الحكماء الأخيار، فمنها الصنائع المضرة بالعقول، وهي التي يخالط أصحابها النساء والصبيان كثيراً؛ ومنها الصنائع المضرة بالادمغة والأجسام كصناعة الكيال والمغربل والذي يدق الكتان.

نصائح للتجار:

ينصح أبو الفضل جعفر التجار فيقول: كلّ ما يباع أو يشتري فهو إمّا مكيل أو موزون أو مذروع، أو مقدّر بالزمان أو مقدّر بالعدد. فيحتاج التاجر لمعرفة غشوش الكياليين والوزانين والمُسّاح والعدّادين، وإلى العلم باستخراج الساعات الزمانية.

(١) الإشارة إلى محاسن التجارة، م.س. ص ٩٤.

ويجب أن لا يُصدّق لأحد من السماسرة قولاً، ولا يقبل لهم نصحاً. فإنّ صناعة السمسرة مبنّية على الكذب، ولو كان تقدّم بينك وبينه أعظم صداقة وأكد جوار، فإنّ الدلال تارة يصف البضاعة وجودتها ويباهت أهل الخبرة فيها، وتارة يذكر قلّتها وأنّه لم يبق في البلد شيء منها، يباع غير الذي تحت يده. وتارة يذكر أن الراغبين إليه فيها أكثر. وربما واطأ قوماً يأتون إليه. بحضور الزبون، يطلبونها ويدفعون إليه العربون. ألا ترى أنّ الوكلاء يرتبون في حلقات البيع، من يزيد في سعر البضائع ويوهم الناس والتجار أنّه مشتري، وكلّ ذلك حيلة على الراغبين^(١).



(١) الإشارة إلى محاسن التجارة، م.س. ص ٩٤ - ٩٥.

الفهرست

٧.....	الفاطميون وحرية المعتقد
٨.....	موقف الفاطميين من مذاهب الإسلام السني:
١٢.....	الحرية والأمن لكل المذاهب والأديان:
١٦.....	هامش الحرية عند النصاري واليهود:
٢١.....	٦ و٦ مكرر في تعيين مستشاري قصر الخلافة:
٢٣.....	شروط دخول المتظلّم لمقابلة الخليفة الفاطمي، الإعراف بولاية الإمام علي(ع):
٢٥.....	أهم الوزراء الأقباط والمسيحيين واليهود في الدولة الفاطمية:
٢٧.....	أهل الذمة قبل الفاطميين:
٢٨.....	الخليفة المأمون يذلّ الأقباط:
٢٨.....	الراهب القبطي أبو نجاح يسيطر على المجتمع المصري:
٣٠.....	سبب سيطرة نساء الأقباط على رجالهم:
٣١.....	أسباب هدم كنيسة القيامة:
٣٣.....	صيفة أمان الحاكم للأقباط:
٣٣.....	هامش الحرية والأمن أيام المعز:
٣٤.....	القاب قساوسة النصاري في الدولة الفاطمية:
	الكنيسة القبطية رسول سلام ومحبة بين الفاطميين وبين الدول المسيحية
٣٥.....	المجاورة:
٣٦.....	موقع الأقباط في الاحتفالات الرسمية أيام الفاطميين:
٣٧.....	وضع الشيعة في العصر الفاطمي خارج الدولة الفاطمية:
٤٠.....	كربلاء المغرب:
	الفقيه الشيعي الإمامي أبو الفتوح السهروردي، يقنع عليّ صلاح الدين الأيوبي
٤٣.....	بعصمة الأئمة من أهل البيت وبأفضليتهم:
٤٤.....	صلاح الدين الأيوبي «المحبّ للعدل» يرمي السهروردي بالزندقة ويحرقه:

- ٤٥..... الممالك ينبشون عظام الخلفاء الفاطميين ويرمونها على المزابل:
- ٤٦..... نهاية جهاركس الخليلي بلعنة الخلفاء الفاطميين:
- ٤٧..... الأقباط أيام الدولة الكردية والمملوكية: إما الدخول في الإسلام أو القتل:
- ٥١..... ظاهرة العفو عند الفاطميين
- الإمام المستنصر بالله، يأبى إراقة دماء أبناء فاطمة رغم خروجهم عن طاعته بمكة: ٥٦.....
- ٥٧..... الأدب والتجارة لا يتفقان:
- ٥٨..... الظلم العباسي والكردى مقابل العفو الفاطمي:
- صلاح الدين الأيوبي يعتقل الأجنّة في بطون أمهاتهم ويسجنهم - بعد الولادة - لاكثر من مئة سنة: ٦٢.....
- صلاح الدين الأيوبي يلتزم بوصية العاضد له: فيحسن معاملة أبناء العاضد بسجنهم مئة سنة: ٦٨.....
- وصف التكريم الزائد على يد قراقوش: سجن وسرقة ونهب مدة عشر سنوات: ٦٩.....
- العماد الأصفهاني يشمت بالفاطميين: ٧٠.....
- الخلفاء الفاطميون يعملون لغذاء الروح وغذاء الجسد ٧٢.....
- أهمية صلاة العيد عند الفاطميين: ٧٣.....
- وصف آخر ليلة من رمضان: ٧٦.....
- يقرأون لكل حالة سورتها: ٧٧.....
- «البرماء مثل الجبل الشاهق ولكل الناس: ٧٧.....
- حارات القاهرة تتحوّل إلى مصليات في عيد الاضحى: ٧٨.....
- في كلّ صلاة، فرش للجامع وبدلة للخليفة: ٧٩.....
- وصف ليلة سحور رمضان في قصر الخلافة: ٧٩.....
- عيد النحر عند الفاطميين: اسمه مطابق لفعله: ٨٠.....
- كلّ مناسبة تفتتح بقراءة القرآن وتختتم به: ٨٢.....
- توزيع المال والهبات ذهاباً وإياباً، عند قصدهم الجوامع: ٨٢.....
- ميزانية الجامع العتيق: ٨٤.....
- القراء والمؤذّنون أهم عناصر أي حملة عسكرية: ٨٥.....

- الناس تغربل التراب بحثاً عن الذهب لكثرة نثره عليهم من قبل الخلفاء الفاطميين: ٨٦
- رواتب أبي البركات بن أبي الليث متولي ديوان المجلس: ٨٧
- كل اثنين وخميس: ٨٨
- كل أحد وأربعاء: ٨٨
- كل سبت وثلاثاء: ٨٨
- مخصصات ولده: ٨٨
- موظفون اسمياً ولا وجود لهم، يقبض أبو البركات رواتبهم ومخصصاتهم: ٨٨
- وسنوياً برسم غرة رمضان: ٩٠
- ويأتيه في يوم غرة رمضان من سماط القصر (مائة): ٩٠
- مخصص ليالي الوقود الأربعة: ٩٠
- ومن مخصصات عيد الفطر: ٩٠
- مخصصات فتح الخليج أو الاحتفال ببلوغ النيل الارتفاع المطلوب: ٩١
- مخصصات عيد النوروز: ٩١
- مخصصات عيد الميلاد: ٩١
- مخصصات عيد الفطاس: ٩٢
- مخصصات عيد الغدير: ٩٢
- الفاطميون يعملون لتأمين جميع ملذات الحواس الخمس: ٩٣
- القرآن: المصدر الوحيد للتعبئة الروحية عند الفاطميين: ٩٣
- رأي عباس محمود العقاد بالدولة الفاطمية وبسبقتها الحضاري: ٩٣
- تخلق الفاطميين بالأخلاق المميزة: ٩٨
- ال خليفة المعز ينصح بالزوجة الواحدة: ٩٩
- دار الفطرة توزع الحلوى على الناس طيلة شهور رجب وشعبان ورمضان: ١٠٠
- كرم الأخلاق في كل المجالات: ١٠٢
- الفاطميون يفرحون بتحريك عجلة الاقتصاد لا بالمال: ١٠٣
- طهور أبناء الخلافة الفاطمية على حساب الدولة: ١٠٣
- ال خليفة يشتري حاجة القصر من الفواكه بسعر السوق سراً: ١٠٥
- أخلاق خصوم الفاطميين: ١٠٧

- ١١١..... أخلاق الشعب المصري في ظل الإسلام الشيعي
- ١١٥..... مضافة لؤلؤ الحاجب النصراني: كرم لا حد له:
- ١١٦..... كرم الأقباط:
- ١٢١..... أعياد الدولة الفاطمية ٢٧٠ يوماً من أصل ٣٥٤
- ١٢٢..... عدد أيام الأعياد والاحتفالات في الدولة الفاطمية:
- ١٢٣..... الأعياد الخاصة بالفاطميين:
- ١٢٤..... الأعياد الإسلامية الرسمية:
- ١٢٥..... التائق والتطيب بالطيب والعطور بمرسوم صادر عن قصر الحضرة:
- ١٢٧..... مراسيم احتفالات الخلفاء الفاطميين بالأعياد المسيحية القبطية:
- ١٢٨..... بروتوكولات احتفال عيد الميلاد:
- ١٢٩..... بروتوكولات احتفال عيد الغطاس:
- ١٣٢..... بروتوكولات احتفال رأس السنة:
- ١٣٢..... مراسم احتفال ليالي الوقود الأربع:
- ١٣٦..... أعياد موالد الخلفاء الفاطميين وأجدادهم:
- ١٣٩..... مراسم الاحتفال بعيد الغدير:
- ١٤١..... بمناسبة عيد الغدير يتم تزويج الأيامي على حساب الدولة:
- ١٤٣..... مرسوم احتفالات عيد الغدير الصادر عن الحضرة المطهرة في القاهرة:
- ١٤٤..... موقف بعض المؤرخين من عيد الغدير:
- ١٤٤..... السنة في بغداد يقيمون عيد دخول أبي بكر الصديق غار حراء مقابل عيد الغدير:
- ١٤٥..... يوم مقتل مصعب مقابل يوم مقتل الحسين أو عاشوراء:
- ١٤٦..... مراسم وبروتوكولات عيد الفطر:
- مائدة رمضان في شوارع القاهرة طولها ٣٠٠ ذراع بعرض عشرة أذرع
- ١٤٨..... على مدار الشهر:
- ١٤٩..... إذاعة بيان تحديد يوم عيد الفطر:
- ١٥١..... وصف ركوب عيد الفطر لصلاة العيد:
- ١٥٢..... بروتوكولات احتفالات عيد الأضحى:
- ١٥٣..... أول ناقة منحورة ترسل إلى اليمن:

- كل الطوائف تهنّي بالعيد: ١٥٥
- الفاطميّون: أيامهم كلّها أعياد وأفراح: ١٥٦
- يوم عاشوراء يوم فرح وسرور في الدولة الأيوبية: ١٥٨
- الممالك يستغلون كلّ المناسبات لنهب أموال المصريين: ١٥٩
- من المظاهر الحضارية عند الفاطميّين التأنق في الملبس ١٦١
- العمامة عليها الجوهرة اليتيمة: ١٦٢
- المظلة المشنّشلة بالذهب من لون البدلة: ١٦٢
- وصف سيف الخليفة: ١٦٣
- وصف رمح الخليفة ودرقة حمزة بن عبد المطلب: ١٦٣
- وصف قضيب الملك: ١٦٣
- وصف لباس الوزراء: ١٦٤
- الخليفة يلبس للمناسبة الواحدة: بدلة ذهباً وبدلة إياباً: ١٦٤
- التأنق بمرسوم صادر عن الخليفة: ١٦٦
- ٣٦٠ بدلة لـ ٣٦٠ يوماً: ١٦٧
- لقب المسؤولية عن أمانة الخليفة: ١٦٧
- لزوم التأنق: بستان نسرين وياسمين: ١٦٨
- الخليفة يبهر الأبصار بأناقته ولبسه: ١٦٩
- تمثال من العنبر لتعليق الثياب: ١٦٩
- ثمانية تماثيل من العنبر والكافور يرسم الاستقبالات: ١٧٠
- رأي المقرّيزي بأناقة الممالك: أسمع ما راه ١٧١
- البغلة المجلّلة بالذهب أو المرسيّدس النملة: ١٧٢
- الجوخ لبس البغال أيام الفاطميّين ولبس السلاطين أيام الممالك: ١٧٢
- ثياب للفيّلة: ألفا عدل ثياب مرقّمة بالتدريج: ١٧٣
- قيمة الدابة وسرجها ألف دينار ذهباً: ١٧٣
- الدابة تمشي على السجاد: ١٧٤
- سوق لقطع الزينة: ١٧٤
- ركب الحمار معيب: ١٧٥

- المراسيم والسجلات ترسل إلى أصحابها مضمخةً بالعطر: ١٧٥.....
- مظاهر الترف والدعة والغنى الفاحش في كل نواحي الحياة اليومية ١٧٦.....
- الذهب والفضة كالخيز: ١٧٦.....
- أماكن النزهة ورش الدنانير ذهاباً وإياباً: ١٧٧.....
- رش الدنانير ذهاب وإياباً: ١٧٩.....
- صدقات زيارة قبور أهل البيت والخلفاء: ١٨٠.....
- منظرة وسط جزيرة ومحمية فيها سبعة عشر مليون شجرة: ١٨١.....
- ميزانية سنوية للطرش والدهان: ١٨٢.....
- ال خليفة يعايد أهل الحكم بألفي باقة نرجس: ١٨٢.....
- مسيح للنساء: ١٨٣.....
- كل الشوارع مضاعة وحنفية أمام كل محل: ١٨٣.....
- بدايات السينما والمسرح أو خيال الظل: ١٨٤.....
- تماثيل من العنبر والكافور لثمانى جوار يستقبلن ويودعن الضيوف
- بشكل أوتوماتيكي (آلي): ١٨٥.....
- صحون وصواني وأكياس شنطة لا تعاد: ١٨٦.....
- خمسون ألف دابة للإيجار: ١٨٧.....
- لا متسع لجلوس الناس في الأسواق من كثرة الذهب والجواهر: ١٨٧.....
- الطمع والظلم مفقودان في مصر الفاطمية: ١٨٧.....
- راى الباحث محمد أبو الفضل إبراهيم في الدولة الفاطمية وفي سبقتها
- الحضاري: ١٨٨.....
- زخات دنانير الذهب كزخات المطرك ١٨٩.....
- يسرق السارق دون أن يشعر به أحد لكثرة الأعمال والزحام: ١٩١.....
- الذهب مثل التراب لكثرتة: ١٩٢.....
- جوذر يشتري بركة الخليفة بعشرين ديناراً: ١٩٢.....
- العمال والذهب عند المصريين كالتراب في عهد الدولة الفاطمية: ١٩٦.....
- مقارنة بين كرم الأيوبيين والمماليك وبخل الفاطميين: ١٩٦.....
- القاهرة بعد الفاطميين: مزبلة يأويها اليوم: ١٩٧.....

- ١٩٧..... كرم بهادر مملوك الأمير يلبغا:
- ١٩٨..... كرم الملك الظاهر بيبرس:
- ١٩٨..... الوالد يبيع ولده على أنه مملوك من شدة الفقر:
- ١٩٩..... طريقة استخراج الزكاة بعد زوال الدولة الفاطمية: بالنبوت
- غنى القصور وغنى الحاشية نتيجة حتمية للثراء الذي كان يعيشه
- ٢٠١..... المصريون في ظلّ الخلفاء الفاطميين
- ال خليفة المعزّ يحوّل من حسابه الخاص إلى حساب بيت المال ٢٤ مليون
- ٢٠٢..... دينار ذهباً:
- ٢٠٣..... عقد القران بألف دينار:
- ٢٠٤..... غنى أميرات القصر الفاطمي:
- المطلوب منه كلّ شمع لتصفية تركة العبد بنيت المعز وختمها بالشمع الأحمر: ٢٠٥
- ست الملك تملك ثمانية آلاف جارية. وجارية تموت عن أربعمئة ألف دينار ذهباً: ٢٠٦
- الله وحده قادر على إحصاء موجودات قصر الخليفة العاضد: ٢٠٧
- قصور الوزراء تماثل قصور الخلفاء في الغنى والثراء الفاحش: ٢٠٨
- الوزير بدر الجمالي يملك سبعمئة غلام وكلّ غلام يملك مائة ألف دينار: ما عدا
- تركته الخاصة: ٢٠٨
- وزن ثروة بدر الجمالي خمسمئة طن ذهباً: ٢٠٩
- ناصر خسرو يقول: غنى أهل مصر لا يصدق: ٢١١
- تأنق الفاطميين في المأكّل مظهر حضاري متقدّم ٢١٢
- الموائد في الأعياد والمناسبات، الأسطة: ٢١٢
- عادة مدّ الموائد والأسطة في كلّ مناسبة ولكلّ الناس: ٢١٢
- كلّ موظّف يقيم سماط في داره ولكلّ الناس: ٢١٤
- كلّفة مائدة الخليفة الأمر: خمسة آلاف رأس غنم شهرياً: ٢١٥
- كيفية ترتيب سماط عيد الفطر، تغطية صواني الأكل بالزهور: ٢١٥
- قالب الحلوى بحاجة إلى عتالين لنقله: ٢١٦
- سماط لكلّ جامع ثلاثة أشهر متواصلة في السنة: ٢١٧
- نثریات عيد الغدير: ٢٥٦١ رأساً ٢١٧

٢١٨.....	ميزانية ٢٩ مائدة رمضانية:
٢١٩.....	وظيفة دار التعبئة:
٢٢٠.....	دار الشراب بإشراف الأطباء:
٢٢٠.....	ميزانية مخزن التوابل:
٢٢١.....	ميزانية خزانة التفرقة:
٢٢٣.....	يعرف غنى الحي من رائحة مطابخه:
٢٢٣.....	التأنق في صناعة الحلويات:
٢٢٤.....	حلويات على شكل الخيار والموز:
٢٢٥.....	شراء الفروج أيام الممالك:
٢٢٥.....	سماط السلطان برقوق وسماط المكتفي العباسي:
٢٢٦.....	صحون كرتون وصحون خشب:
٢٢٨.....	الأغنياء لا يشربون من نهر النيل:
٢٢٩.....	الدجاج يباع: «أفخاذ وصدوره»:
٢٢٩.....	الخوخ يصل من الشام إلى مصر بيوم واحد:
٢٣٠.....	استيراد التفاح والثلج من جبال لبنان:
٢٣٢.....	مؤسسات الدولة الفاطمية في القطاعين العام والخاص
٢٣٣.....	المؤسسات الإدارية:
٢٣٣.....	مؤسسات قصر الخلافة:
٢٣٦.....	التفتيش المركزي أو ديوان التحقيق:
٢٣٨.....	ديوان الجيش:
٢٤٠.....	ديوان الصعيد الأعلى:
٢٤٠.....	ديوان أسفل الأرض:
٢٤٠.....	ديوان الخراج والديوان الهلالي:
٢٤٠.....	ديوان الكراع:
٢٤١.....	ديوان الجهاد:
٢٤٢.....	الموظفون المهمون في الدولة الفاطمية:
٢٤٣.....	طريقة تسلسل المعاملة في الدوائر الرسمية:

٢٤٥	طريقة تعيين كبار الموظفين:
٢٤٦	أمناء وموظفو مخازن الدولة ومحطات الوقود:
٢٤٨	قطاع الصناعة في مصر الفاطمية
٢٤٨	صناعة الأساطيل البحرية العسكرية والتجارية:
٢٥٠	أنواع السفن:
٢٥٠	العشارى:
٢٥١	البطسة:
٢٥١	الشيئي:
٢٥١	الجلبة:
٢٥١	الديماس:
٢٥٢	الشلندي:
٢٥٢	الطراد:
٢٥٣	صناعة الدبابات والمنجنقات:
٢٥٣	معامل النسيج أو دار الطراز:
٢٥٥	دار الديباج:
٢٥٦	مصانع الحياكة ومعامل الثياب الجاهزة:
٢٥٧	وظيفة صاحب المقص أو المقص دار: مصمم الأزياء:
٢٥٨	معامل لفرش البيت بالكامل:
٢٥٩	معامل الدباغة:
٢٥٩	مخازن الثياب لكل الشعب المصري مجاناً:
٢٦٠	معامل ومصانع الموبيليا:
٢٦٠	خيمة القاتول مساحتها عشرة آلاف متر مربع:
٢٦١	ما هي خيمة القاتول؟
٢٦٣	خيمة المدورة تحمل على مائة جمل:
٢٦٤	معامل الاواني الزجاجية والخرفية والنحاسيات:
٢٦٥	معمل حجارة باطون:
٢٦٦	اقلام حبر بخزان:

٢٦٦	خزانة البنود أشبه بمعامل سيارات فورد لكثرة العمال:
٢٦٦	برادات لحفظ الماء والطعام:
٢٦٨	الساحات والفنادق
٢٦٨	الساحة وأثرها في حياة الإنسان الشرقي:
٢٦٩	ساحة بين القصرين:
٢٦٩	ساحة درب السلسلة وصاحب التقفية:
٢٧٠	فندق خمس نجوم معدّ لرجال الأعمال:
٢٧٢	محطات الوقود أو أهراءات القبن
٢٧٣	محطات وقود اصطبيلات قصر الخلافة:
٢٧٦	المناخات أو المدينة الصناعية:
٢٧٨	اهتمام الخلفاء الفاطميين بالبريد والمراسلات السريعة
٢٧٨	الفاطميون أول من استعمل الحمام الزاجل لنقل الرسائل:
٢٧٩	ثمن الحمامة المدربة على نقل الرسائل ألف دينار ذهباً:
٢٨٠	تعريف البريد عند القلقشندي:
٢٨٠	بيضة الحمام الزاجل بعشرين ديناراً:
٢٨١	زوجة الخليفة العزيز بالله تتوخم على الخوخ اللبناني:
٢٨٢	مطارات الحمام الزاجل في كل أطراف الخلافة بإشراف رئيس ديوان البريد:
٢٨٣	تزيين الحمامة التي تحمل خبراً جميلاً:
٢٨٤	رئيس ديوان الرسائل:
٢٨٥	مديرية التنظيم المدني أو دائرة المساحة:
٢٨٦	دائرة المساحة أو ديوان المساحة:
	الاعتراف بولاية الإمام علي (ع) الطريق الوحيد لإزالة الظلم عن
٢٨٧	المواطن المصري:
٢٨٨	تحديد ومسح كل الأراضي الزراعية وأراضي الرعي ومصايد السمك:
٢٨٩	تأجير أراضي البور مجاناً:
٢٨٩	استحداث الجسور وشق الخلجان والقنوات في كل أنحاء الخلافة:
٢٩٠	المهندسون يبنون جسوراً تسمح بمرور ست ناقلات:

- ٢٩١..... ممنوع مرور الشاحنات بين القصرين ومقتل امرأة بحادث سير:
- التنظيم المدني يخطط الحارات والأزقة، ويسمح بالبناء حتى الطابق
- ٢٩٢..... الرابع عشر:
- ٢٩٣..... يستأن على سطح الطابق السابع ومضخة ماء تسقيه:
- ٢٩٣..... مضخة ترفع الماء إلى الطابق الرابع عشر:
- ٢٩٥..... لا بناء بدون رخصة. وبيع الشقق السكنية بالتقسيط المريح:
- ٢٩٨..... مؤسسة مقياس النيل أو فتح الخليج
- ٢٩٩..... النسبة المطلوبة لارتفاع الماء سنوياً:
- ٣٠٠..... سر نهر النيل:
- ٣٠٠..... قصيدة الفرعون أخناتون في وصف نهر النيل:
- ٣٠٤..... وصف حالة المصريين في حالة الفيضان:
- ٣٠٥..... مؤسسة أخذ المقياس بإدارة آل أبي الرّداد:
- ٣٠٧..... أهمية أخذ مقياس النيل وأثره على الاقتصاد المصري:
- ٣٠٧..... عمرو بن العاص يربط قيمة الجزية بنسبة ارتفاع مياه النهر:
- ٣٠٨..... الخليفة المعز لدين الله يمنع إذاعة نتائج ارتفاع منسوب النيل:
- ٣٠٨..... ميزانية سنوية لتنظيف مجاري المقياس:
- طريقة الاحتفال بأخذ المقياس: هبات وخلع وثياب، وذهب وأكل وشرب
- ٣١٠..... وقراءة قرارات:
- ٣١٢..... ثياب تذهل الأبصار:
- ٣١٢..... الخليفة يمشي على بسط من حرير:
- ٣١٤..... رش الذهب على الجانبين:
- ٣١٤..... قراءة القرآن، وضربات الفعلة يترافقان أمام الخليفة أثناء فتح السدود والترع:
- توزيع أجمل الثياب مصحوبة بالذهب والفضة وصواني الطعام على كلّ المشتركين
- ٣١٦..... في احتفال فتح الخليج:
- ٣١٧..... وصف سماط فتح الخليج:
- ٣١٨..... سماط منظرة السكر أو الفندق خمس نجوم:
- انتهاء الاحتفال: توزيع الصواني الجامعة للثروة من كلّ جهة والغربة

٣١٩.....	من كل صنف:
٣٢٠.....	ناصر خسرو يصف احتفالات كسر الخليج أيام الخليفة المستنصر:
٣٢٢.....	صيغة البيان الرسمي عن نسبة ارتفاع النيل:
٣٢٤.....	المطبخ الفاطمي
٣٢٥.....	مطبخ القصر:
٣٢٦.....	الدجاج: أفخاذ وصدور:
	الرحالة الفارسي ناصر خسرو يصف مطبخ الخليفة المستنصر: حاجة المطبخ
٣٢٨.....	كل يوم، خمسون ألف من سكر:
٣٣١.....	أهمية الثلج في المطبخ الفاطمي:
٣٣٢.....	رواتب الطباخين:
٣٣٥.....	أهم الأطعمة المتداولة في مصر الفاطمية:
٣٣٦.....	مواصفات الطباخ الماهر (الشف):
٣٣٧.....	ملوك العالم يرسلون الطباخين إلى مصر لتعلم فن الطبخ:
٣٣٩.....	كيف كان الفاطميون يعالجون مشاكل البيئة والتلوث
٣٤٠.....	معالجة النفايات عن طريق المحرقة:
	الممالك يحولون دهاليز وسراذيب قصور الفاطميين إلى مجاري صحية
٣٤١.....	تصب في النيل:
٣٤١.....	صحنون كرتون وخشب وفخار تباع مع الأكل دون أن تعاد:
٣٤٢.....	الفاطميون يخصصون ميزانية وموظفين لكس الشوارع ورشها بالماء:
٣٤٣.....	صالة للمتفرجين بالآجرة:
٣٤٤.....	يزرعون الأشجار بالملايين لتلطيف المناخ:
٣٤٥.....	الخليفة الحافظ يرفض قطع شجرة واحدة من هذا البستان:
٣٤٥.....	الفاطميون يفرضون تغطية أحمال الجمال وروايا الماء:
٣٤٥.....	طفايات للحريق في كل محل:
٣٤٦.....	والي القاهرة يستخدم العمال لكس الطرقات ورشها بالماء بشكل متواصل:
٣٤٦.....	من مهمات صاحب العسس: إطفاء الحرائق:
٣٤٧.....	صواني الأكل تغطى بالشراشف والزهور:

٣٤٧.....	الأطعمة والمشروبات يوظفون لها ذواقة وتعدّ بإشراف الأطباء:
٣٤٨.....	المصريون أيام الفاطميين لا يشربون إلا من الآبار النقية:
٣٤٩.....	قضايا البيئة أو حالة القاهرة ومصر أيام المماليك:
٣٥١.....	مصادر تمويل الدولة
٣٥١.....	مصادر تمويل قصر الخلافة:
٣٥٥.....	ال خليفة المعز يرفض التبرع الكبير:
٣٥٦.....	مال النجوى من أصول مذهب الإمامية ولا يجوز تركه أو إغفاله:
٣٥٧.....	مال الفطرة وأموال الخمس:
٣٥٩.....	ال خليفة يمنع القضاة من قبض مال النجوى والفطرة والخمس:
٣٦١.....	مصادر تمويل بيت مال الدولة
٣٦٢.....	الزكاة:
٣٦٢.....	الفيء:
٣٦٢.....	الغنيمة:
٣٦٢.....	الجزية:
٣٦٢.....	الخراج:
٣٦٣.....	العشور:
٣٦٤.....	شروط تجديد عقود الضمان وفسخها:
	مسامحة الناس بكل أنواع الإيجارات والضرائب بمناسبة شهر رمضان
٣٦٥.....	من كل سنة:
٣٦٧.....	من يموت بلا وريث ترثه الدولة:
٣٧٠.....	ال خليفة يستقرض من الناس بالمعروف:
	الخمر والحشيش وبيوت الزواني مصدر مهم من مصادر تمويل
٣٧١.....	الدولة الأيوبية:
٣٧٢.....	البنك المركزي أو دار الضرب
٣٧٣.....	أهمية أمان جواهر الصقلي في بناء الثقة بالدولة الفاطمية:
٣٧٤.....	البنك المركزي من المودع إلى دار الضرب:
٣٧٥.....	قاضي القضاة هو حاكم البنك المركزي:

٢٧٨	 الخليفة المعز لدين الله يستعمل الدنانير المزورة للقضاء على القرامطة:
٢٧٩	 تسليفات البنك المركزي بدون فائدة أو كفيل:
٢٨١	 طريقة كشف النقود المزورة بماكينة العد:
٢٨١	 فروع البنك المركزي:
	استبدال النقود المزيفة بالصحيحة في نفس الوقت في جميع فروع البنك المركزي
٢٨٢	 الفاطمي المصري:
٢٨٣	 البنك المركزي يتوقف عن الدفع:
٢٨٣	 البنك المركزي يصدر عملات سياحية:
٢٨٤	 إضراب شارع المصارف:
٢٨٥	 لص يثقب سقف البنك ويسرقه:
٢٨٦	 بنك الأيتام:
٢٨٨	 الميزان هو ماكينة العدّ والدفع لكل عشرة موظفين:
٢٨٩	 بنوك مصر تتعامل بالشيكات:
٢٨٩	 مودع الموارد أو بنك الموارد:
٢٩١	 حالة البنوك والمصارف بعد زوال الدولة الفاطمية:
٢٩٣	 الرواتب والأجور في مصر الفاطمية
٢٩٤	 قيمة صرف الدينار والدرهم محكومة بتسعر الذهب والفضة:
٢٩٦	 الرواتب والأجور، أدناها وأعلىها:
٢٩٧	 الرواتب الرسمية الشهرية:
٢٩٧	 راتب الوزير الأول:
٤٠٠	 الثياب توزع ستّ مرات رسمياً في السنة:
٤٠٢	 الرواتب التقاعدية:
٤٠٤	 ديوان الرواتب:
٤٠٥	 طريقة محاربة الغلاء:
٤٠٦	 الخليفة الأمر يسامح الناس بدخول الدولة سنة بكاملها:
٤٠٦	 قيمة المسامحة أكبر من ميزانية الدولة المصرية اليوم:
٤٠٧	 طريقة إعداد الموازنة العامة سلفاً:

- ٤٠٨ متى يبدأ إعداد الموازنة العامة:
- ٤١٠ الدولة قررت خفض الرواتب، دعاية كاذبة:
- ٤١١ ربط ميزانية رئاسة مجلس الوزراء بمؤشر الغلاء:
- ٤١٢ بعض الأوزان والمصطلحات:
- ٤١٣ الأهرامات: بين الحماية والهدم
- ٤١٤ من الذي بنى الأهرامات:
- ٤١٥ شكل الأهرامات وطول أبعادها:
- ٤١٦ طريقة اقتلاع الحجر:
- ٤١٧ عجائب مصر:
- ٤١٨ تمثال أبي الهول:
- ٤١٩ تناسب عناصر وجهه مع حجمه:
- ٤١٩ طريقة هندسة ملعب الإسكندرية الروماني: مليون متفرج
- ٤٢٠ موقف الفاطميين من الأهرامات وعجائب مصر الهندسية:
- ٤٢٠ مسلسل النهب والتدمير الكردي المنظم لكنوز مصر ودفائناتها:
- ٤٢١ الملك العزيز عثمان يتابع تدمير الأهرامات:
- ٤٢١ الملك العزيز عثمان قرّر هدم كل الأهرامات:
- ٤٢٣ الأمير بلاط المملوكي يدمر صنم زوجة أبي الهول:
- ٤٢٣ الشيخ محمد صائم الدهر الصوفي يشوه وجه أبي الهول:
- ٤٢٣ أسباب خلود الأهرامات:
- ٤٢٥ القاهرة: يبنيتها أهلها ويدمرها الغرباء
- ٤٢٥ القاهرة اليوم:
- ٤٢٥ القاهرة في التاريخ:
- ٤٢٥ مكان الفسطاط قبل الإسلام:
- ٤٢٦ أسباب عدم اتخاذ الإسكندرية مقراً للحكم:
- ٤٢٦ الفسطاط يتحوّل إلى اسم العسكر:
- ٤٢٧ العاصمة تنسى اسم العسكر ويصبح اسمها الجديد: القطائع:
- الاسم بعد مجيء جوهر الصقلي: القاهرة أو الفسطاط والقاهرة، أو

- ٤٢٨ مصر القديمة والقاهرة:
- ٤٢٩ القاهرة تصبح دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة:
- ٤٢٩ الفاطميون يكتثرون من بناء المساجد في القاهرة:
- ٤٣٠ الجامع الأزهر:
- ٤٣٢ رواتب موظفي جامع الأزهر:
- ٤٣٣ بناء جامع الحاكم: أو الجامع الأنور:
- ٤٣٣ الحاكم يبني جامع راشدة:
- ٤٣٤ الحاكم يبني جامع المقس:
- ٤٣٥ الخليفة الأمر يبني جامع الأقمر:
- ٤٣٥ الخليفة الظافر يبني جامع الظافر:
- ٤٣٦ جوامع وزراء الدولة الفاطمية وقوادهم:
- ٤٣٧ جامع غين:
- ٤٣٧ جامع الفيلة:
- ٤٣٨ الخليفة الأمر يبني مائتي مسجد:
- ٤٣٩ جامع الصالح: طلائع بن رزك:
- ٤٣٩ والي القاهرة جعفر ذخيرة الملك يبني مسجد «لا بالله»:
- ٤٤٠ ماهي المنظرة:
- ٤٤٠ أسماء مناظر الفاطميين:
- ٤٤٢ هل للمنظرة هدف أمني؟
- ٤٤٢ فن العمارة:
- ٤٤٤ دوائر أو مخازن القصر الكبير:
- ٤٤٦ أسواق القاهرة أيام الفاطميين السوق الواحد الثمنا عشرة ألف دكان
- ٤٤٦ وعن سوق باب الفتوح يقول:
- ٤٤٧ وعن سوق المرحلين يقول:
- ٤٤٧ سوق خان الرواسين (سوق راس النيفة):
- ٤٥٠ دكان واحدة تضم أربعة وثلاثين ألف طير:
- ٤٥٠ القاهرة الفاطمية خلية نحل بحاجة إلى قبّان عمومي:

- ٤٥١..... كيف أصبح سوق برجوان: بعد الفاطميين:
- ٤٥١..... زفة العروس أو جهازها:
- ٤٥٢..... كيف أصبحت القاهرة بعد الفاطميين:
- ٤٥٤..... شاور يحرق مصر القديمة (الفسطاط) بثلاثين ألف قارورة نפט:
- ٤٥٥..... أسد الدين شيركوه يحرق قصر اللؤلؤة:
- ٤٥٥..... صلاح الدين يحرق حارة السودان وأحياء الأرمن:
- ٤٥٦..... جامع ابن طولون أصبح زربية للماعز:
- ٤٥٦..... الملك الصالح نجم الدين أيوب يهدم ٣٣ مسجداً:
- التباهي بين بشتاك وقوصون، يؤدي إلى هدم إحدى عشر مسجداً من
- مساجد القاهرة: ٤٥٦.....
- دائرة ترميم المساجد أيام الدولة الفاطمية: ٤٥٧.....
- قضاة المعاليك يحكمون بهدم الجامع لسرقة أرضه: ٤٥٨.....
- القاهرة بعد الفاطميين: مزبلة ٤٥٨.....
- مصر خارقة في كل شيء ٤٦٠.....
- استيلاء أكثر من ألف وخمسين نعجة من نعجة واحدة: ٤٦٠.....
- حمار بسنام: ٤٦٢.....
- حديقة حيوانات خمارويه بن أحمد بن طولون: ٤٦٣.....
- شبل يتيم ترضعه امرأة: ٤٦٣.....
- خوارق مصر في الحيوانات البحرية والنهرية: ٤٦٤.....
- الحوت الذي يدخل الرجل إلى جوفه: ٤٦٤.....
- مشاهدات في عجائب الطيور: ببيغاء يقرأ المعوذتين ٤٦٦.....
- مشاهدات المقرئزي عن عجائب خلق الله في الإنسان: ٤٦٧.....
- الصالح رزيك يستقبل رجلاً طوله أربعة أشبار: ٤٦٨.....
- امرأة بدون يدين تكتب وترسم برجليها: ٤٦٨.....
- وضع المرأة في مصر الفاطمية: ٤٦٩.....
- فاطمة الزهراء (ع) ترثي أباهاً شعراً: ٤٧٠.....
- من هي الست نفيسة: ٤٧٢.....

٤٧٣.....	المصريون يشكون أحمد ابن طولون للسبت نفيسة:
٤٧٤.....	غنى المرأة المصرية:
٤٧٤.....	ثروة رشيدة ابنة الخليفة المعز لدين الله:
٤٧٦.....	المرأة المصرية تشارك في العمل السياسي:
٤٧٩.....	السيدة العزيزية تغتال أخاها الحاكم:
٤٨٠.....	المرأة المصرية الخارقة الثانية: رصد أم المستنصر:
٤٨٢.....	رسالة من الملكة أم المستعلي إلى ملكة اليمن الحرّة أروى بنت أحمد الصليحي:
٤٨٥.....	الملكة الحرّة: مسؤولية عن الدعوة والدولة في اليمن والهند وباكستان:
٤٨٦.....	منهوبات خزائن السيدة رصد:
٤٨٩.....	دور المرأة المصرية في جهاز المخابرات الفاطمي:
٤٩٠.....	اتساع هامش الحرية للمرأة المصرية في ظل الدولة الفاطمية:
٤٩٥.....	صناعة الثياب مرفق مُهم من مرافق الحياة الاقتصادية والاجتماعية
٤٩٦.....	خزانة الكسوات:
٤٩٧.....	خزائن الفرش والامتعة:
٤٩٨.....	خزائن الخيم والبنود:
٤٩٨.....	تفصيل الكسوات التي توزع على الناس بالمجان:
٤٩٩.....	تفصيل كسوة الشتاء:
٥٠٠.....	محلات الثياب الجاهزة: Prêt à Porter -
٥٠١.....	بعض أسماء الثياب التي كانت سائدة أيام الدولة الفاطمية:
٥٠١.....	تعريف ببعض أنواع الأقمشة والثياب المصرية الفاطمية:
٥٠٧.....	اهمية مصمم الأزياء في مصر الفاطمية
٥٠٧.....	لباس خاص لكل مناسبة:
٥٠٨.....	وصف أناقة الخلفاء الفاطميين وأناقة رعيتهم:
٥١٠.....	مصمم الأزياء في قصور الخلافة: صاحب المقصّ
٥١١.....	رئيسة دائرة الأناقة في قصر الخلافة: زين الخُرّان
٥١١.....	الأناقة من دولة إلى دولة:
٥١٢.....	رأي ول ديورانت بأناقة المصريين تحت ظل الخلفاء الفاطميين:

٥١٣	شدة الوقار تخفق لها الأعلام:
٥١٤	أهمية صاحب المظلة ووظيفته
٥١٧	حامل المذبة
٥١٨	صناعة العطور وأهميتها في مصر الفاطمية
٥١٩	تعريف بأنواع العطورات:
٥٢٠	ميزانية قصر الخلافة من خزانة التوابل:
٥٢٢	الوزير الأفضل يعلق ثيابه على تمثال من العنبر:
٥٢٢	أهمية المزين:
٥٢٤	الموسيقى
٥٢٦	أهم الآلات الموسيقية المعروفة في مصر الفاطمية:
٥٢٦	أوصاف الآلات الموسيقية التي كانت معروفة في مصر الفاطمية:
٥٢٨	الموسيقى في خدمة الدين والدولة:
٥٢٩	ابن أبي الرداد تضرب له البوقات «تعظيم سلام»:
٥٣١	الموسيقى خبز الشعب المصري الفاطمي:
٥٣٢	الخلفاء المصريون يتغاضون عن المغنيين:
٥٣٤	وصف بعض الآلات الموسيقية والحنانها شعراً:
	النحت والتصوير والتطريز، وسيلة إبداعية للتعبير عن الذوق
٥٣٥	الجمالي المصري
٥٣٦	النحت وصناعة التماثيل:
٥٣٩	فن التصوير أو الرسم
٥٤٠	صورة الشعراء المصريين في منظرية بركة الحبش:
٥٤١	سوق المصورين:
٥٤١	الوزير اليازوري يجري المسابقات بين المصورين المصريين:
٥٤٣	فن الرسم على الثياب أو التطريز:
٥٤٥	سوق الصاغة وصناعة المجوهرات
٥٤٦	أجمل المجوهرات:
٥٤٧	أما العسجدة:

٥٤٧	الكلوتة:
٥٤٨	الجوهرة اليتيمة:
٥٤٨	كرسي الملك:
٥٤٩	صداري نسائية من الذهب والفضة:
٥٤٩	هدية ملك الروم: سبعة طن من الذهب:
٥٥٠	سروج الخيل من الذهب الخالص:
٥٥١	البرادات والصحون كلها من ذهب:
٥٥١	السيف والرمح والمذبة والمظلة ذهب بذهب:
٥٥٢	نخلة من ذهب قيمتها سبع وستون مليون دينار ذهباً:
٥٥٢	صالون الوزير الافضل: بين الكرسي والكرسي صينية مملوءة بالمجوهرات:
٥٥٣	هدية الخليفة الظافر: ألف حبة لأولئ:
٥٥٣	أهم الجواهر التي عرفتھا مصر الفاطمية:
٥٥٥	سوق الصاغة في القاهرة المعزية. عشرون ألف محل:
٥٥٦	صناعة التحف والعاجيات وحب اقتنائها
٥٥٧	الفنان الفاطمي يوقع على ما يصنع من تحف:
٥٥٧	الخيمة عند الفاطميين من أهم التحف:
٥٥٨	أهم التحف المنسوبة لأشخاص تاريخيين:
٥٦٣	صناعة النحاسيات والفضيات الزجاج والخزف
٥٦٣	أهمية الفضيات والنحاسيات في خزائن الوزراء وكبار الموظفين:
٥٦٤	طقم صواني وطقم طناجر:
٥٦٧	الصناعات الزجاجية
٥٧٠	١٨ ألف قنديل زجاج في جامع ابن طولون:
٥٧٢	الصناعات الخزفية
٥٧٤	الصناعات الخشبية
٥٧٥	سوق الصناديقيين:
٥٧٦	النقش في الخشب:
٥٧٨	صناعة الجلود

٥٧٩	المصنوعات الجلدية:
٥٨١	سوق لبيع السرموجة:
٥٨٢	قطع زينة السيارات
٥٨٢	السروج المذهبة:
٥٨٤	الاجلّة:
٥٨٧	الدابة ثروث وتبول بنظام:
٥٨٨	صناعة الأسلحة
٥٨٨	أنواع الأسلحة:
٥٨٩	السيوف:
٥٩٠	الرماح:
٥٩٠	الدروع:
٥٩٠	الدبوس:
٥٩١	الخوذة:
٥٩١	الدرقة:
٥٩١	السروج:
٥٩٢	المنجوقات:
٥٩٢	قوارير النفط:
٥٩٢	الدبابات:
٥٩٢	الأبراج:
٥٩٢	المنجنيق:
٥٩٤	صناعة السلاح قطاع خاص:
٥٩٥	صناعات مختلفة كانت لها أهميتها في حياة الإنسان المصري الفاطمي
٥٩٨	النقابات العمالية
٥٩٩	النقابة بنص صريح:
٦٠٠	نقيب لكل طائفة:
٦٠٠	عرفاء الحارات:
٦٠١	نقباء السقّائين مسؤولون عن أي حريق:

- ٦٠١..... النقابات العمالية تهنيء بالعيد:
- ٦٠٢..... نصائح مهنية وتجارية:
- ٦٠٢..... نصائح لأصحاب الصنائع والحرف:
- ٦٠٢..... أصناف الصنائع:
- ٦٠٢..... نصائح للتجار:

